مفتاح السعادة ومصباح السيادة

في موضوعات العلوم

تأليف

أحمد بن مصطفى

الشهير

بطاش كبرى زاده

المجلد الثالث

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

الطرف الثاني من الرسالة

في العلوم المتعلقة بالتصفية التي هي ثمرة العمل بالعلم

بسم الله الرحمن الرحيم
الطرف الثاني من الرسالة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». ولهذا العلم أيضاً ثمرة تسمى علوم المكاشفة، لا يكشف عنها العبارة غير الاشارة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «ان من العلم كهيئة المكنون لا يعرفها الا العلماء بالله، فاذا نطقوا ينكره أهل الغرة». لا جرم رتبنا هذا الطرف من الرسالة على **مقدمة ودوحة لها شعب وثمرة لها طيبة.**

المقدمة

اعلم أن الانسان مركب من عالمين، لأن بدنه الكثيف من عالم الأجسام، وروحه اللطيف من عالم الملكوت؛ لما وجب في التركيب من المناسبة بين الأجزاء خلق الله سبحانه وتعالى في البدن الكثيف جسماً صنوبرياً مسمى بالقلب، وأودع فيها بخاراً لطيفاً، وصاد بذلك الروح اللطيف وحبسه في سجن هذا البدن الكثيف، لأن ذلك البخار ــ للطافته ــ ناسب الروح العلوي؛ ولنوع جسميتها ناسب البدن الكثيف، فصار ذلك البخار طوعاً لنزاهته عنه أيضاً، ربطه الحق به قهراً، ولهذا قدر مفارقته عنه بهذا العسر الشديد، الذي تراه عند مفارقة الروح البدن، جزاء لما عصى ربه في النفرة عما خلقه لأجله. ثم ان الروح بعدما تعلق بالبدن أفاض قوى جزئية من محله الأصلي الذي هو القلب الى أطراف البدن، حيث أفاض الدماغ قوة مدركة، والكبد قوة نفسانية، الى غير ذلك من القوى الجزئية الحالة في البدن.

ثم ان طريق العلم بالروح ــ ويسمى النفس الناطقة ــ أما من طريق القوة المدركة المستمدة من الحواس، ويسمى العلم الحصولي؛ أو بلا واسطة

تلك القوى، و يسمى علماً حضورياً. وأسباب العلم الحضوري الفكر أو النظر في المحسوسات، وأسباب العلم الحضوري تصفية النفس عن الشواغل الدنيوية، إذ النفس كالمرآة وقد كدرها الشواغل الحسية، فاذا صقلها الانسان عن تلك الشواغل ينتقش فيها المعلومات دفعة، بلا حاجة الى التقاطها من طرق الحواس كمرآة مصيقلة حوذى بها شطر النور. وأما النظر فلا يصقل منها الا قدر ما ينتقش فيها النتائج، فلذلك يكون العلم الحضوري أكمل وأتم من العلم الحصولي.

هذا ثم أنه كما أن طريق العلم الحصولي النظر، كذلك طريق العلم الحضوري التصفية، والأول قد مر بما لا مزيد عليه؛ وأما طريق التصفية فأمران: أما بقطع النفس عن المألوفات بالرياضات والمجاهدات، و يسمى هذا علم الباطن؛ وأما بانجذاب النفس الى عالم القدس بعد التصفية بواسطة عشقها الى العالم الروحاني، فيفيض لها العلوم الحاصلة في الروحانيات بالمشاهدة والتحقق، و يسمى علم المكاشفة. والفرق بين العلمين لا يفهم الا بمثال: ومثال العلم الحاصل بالتصفية كمرآة صقلت ووصلت اليها النور من كوة تقابلها؛ ومثال الثاني ـــ وهو علم المشاهدة ـــ كمرآة مصيقلة، حوذى بها قرص الشمس، ووصل الى ينبوع النور.

ولما كان العلم الثاني ثمـرة للعلم الأول ونتيجة له ذكرنا الأول في دوحة لها عدة شعب والثاني في ثمرة لها.

الدوحة السابعة من الرسالة

في علوم الباطن

ولها أربع شعب

العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات

الشعبة الأولى

في العبادات

وتتفرع هذه من عشرة أصول

الأصل الأول

العلم

وفيه مطالب

المطلب الأول

في معرفة فضل العلم والتعلم والتعليم

وقد مر شواهد هذه في صدر الرسالة بما لا مزيد عليه

المطلب الثاني

في معرفة ما يجب على المسلم من العلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»؛ وقال: «اطلبوا العلم ولو بالصين». واختلفوا في العلم الذي هو فرض عين، وادعى كل طائفة أن ما عنده هو ذلك؛ فقال الكلامي: الكلام الذي يعرف به ذات الله وصفاته والنبوة والمعاد؛ وقال الفقيه: الفقه الذي يعرف به الحلال والحرام؛ وقال المفسر والمحدث: علم الكتاب والسنة التي يتوصل بهما الى كل العلوم؛ وقالت المتصوفة: علم الحال ــ من تحصيل الإخلاص وترك الآفات، إذ بها يتقرب العبد الى مولاه؛ وقال بعضهم: هو علم الباطن، وخصوا الوجوب على أقوام مخصوصين، وليس كذلك.

والصحيح أن المراد به علوم المعاملة دون المكاشفة، وهو العلم بالمباني الخمسة الاسلام، كما نطق به الحديث، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «بني الاسلام على خمس». فأول الواجب على العاقل البالغ تعلم كلمتي الشهادة، ثم وثم، وهذا يختلف باختلاف الأزمان والأشخاص، إذ يجب على من لا يقدر على التفصيل العلم الاجمالي بمضمون هاتين الكلمتين، وإذا قدر على التفصيل يجب عليه مقدار فهمه وإلا فلا؛ وأيضاً يجب على البالغ تعلم أركان الصلاة ما يصح و يفسد، دون الصبي؛ وكذا يجب على الغني تعلم أحوال الزكاة والحج دون الفقير. هذا حال الاعتقاد والعمل.

وأما الترك: فلا يجب على الأبكم تعلم حرمة الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم به النظر، وعلى هذا القياس. **وبالجملة: الواجب على العبد من العلم، هو قدر ما يتجدد عليه من الوقائع من عباداته ومعاملاته، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان.**

المطلب الثالث
في المحمود من العلوم والمذموم منها

واعلم أن العلوم: أما شرعية تستفاد من الأنبياء فقط، وأما غير شرعية يستبد بادراكها العقلاء. وغير الشرعية أن توقف عليه قوام أمور الدنيا، كالطب لبقاء الأبدان، وكالحساب لقسمة الوصايا والمعاملات، فهي محمودة بمنزلة الصناعات الجزئية: من الفلاحة والحياكة والحجامة والسياسة، فهذه من فروض الكفايات، فكذا العلوم المذكورة. وإن لم يتوقف عليه قوام الدنيا، لكن يحسن للانسان تعاطيها، فهي فضيلة، كالتعمق في دقائق الحساب والطب. وأما ان لم يتوقف عليه شيء من أمور الدنيا؛ فان أخل ببعض الأمور فهي العلوم المذمومة، كالسحر والطلسمات والشعوذة وأمثال ذلك من التلبيسات؛ وإن لم يخل بذلك فهي العلوم المباحة، كالأشعار والتواريخ وما يجري مجرى ذلك.

وأما العلوم الشرعية فهي محمودة كلها، لكن قد يلتبس بها ما يظن أنها

شرعية وليست كذلك، فتقسم الى المحمودة والمذمومة.

أما المحمودة: فأما أصول، كالكتاب والسنة والاجماع والقياس: وأما فروع: أما دنيوي كأكثر مسائل الفقه؛ أو أخرى كبعض مسائله؛ ومعرفة أحوال القلب من أخلاقها المحمودة والمذمومة؛ وأما مقدمات تجرى مجرى الآلات، كاللغة والنحو والمعاني وعلم كتابة الخط، لأنه صار ضرورياً في الغالب لتوقف حفظ العلوم الشرعية عليها؛ وأما متممات كعلم القراءات والمخارج في اللفظ، وكعلم التفسير في المعنى، وكمعرفة الناسخ والمنسوخ، وغير ذلك من العلوم القرآنية التي سبق تفصيلها. وكذا الحال في الحديث، كعلم أسامي الرجال وأحوالهم وغير ذلك.

وأما العلوم المذمومة، فاعلم أولاً: أن العلم لا يذم من حيث أنه علم، وانما يذم لأمور: أما أنه لا يقدر الخائض فيه على ادراكه فيكون مذموماً في حقه، كأكثر من اشتغل بالعلوم الفلسفية ولم يقدر على تميز الحق عن خلافه؛ وأما لاضراره بغيره، كعلم السحر والطلسمات، فانها وسيلة الى أضرار الخلق والوسيلة الى الشرشر؛ واما لاضراره بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فانه من حيث أنه حساب للشمس والقمر غير مذموم، بل قد ورد في القرآن: ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾ (١) وقوله: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾(٢)، بل ذمه من حيث بيان الأحكام وهو مذموم؛ قال صلى الله عليه وسلم: «إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فامسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا». وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا. وإنما ذم لأحد ثلاثة أمور: أما أنه ربما يوهم الخلق أن الكواكب هي المؤثرة في الحوادث؛ وأما لأنه ظن وتخمين فالحكم به جهل لا علم، وقد كان ذلك معجزة لادريس عليه السلام ثم انمحى وانمحق، وما يتفق من الاصابة على الندور فاتفاقي، كظن الانسان أن المطر ينزل اليوم فيقع؛ وأما لأنه علم لا ينفع وجهل لا يضر، لأنه تضييع العمر بلا فائدة.

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٥.

(٢) سورة يس، آية: ٣٩.

إذا عرفت أن من العلم المحمود والمذموم، فاعلم: أن مَن العلوم الشرعية ما هو المحمود صورة والمذموم معنى.

منها الفقه وقد كان يطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة آفات النفوس ومفاسد الأعمال، والاحاطة بحقارة الدنيا وشرف نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب؛ والآن خص بمعرفة الفروع الغريبة والفتاوى العجيبة، والاطلاع على عللها، وتتبع المقالات المتعلقة بها، والاستكثار من المسائل الفرعية حتى تفريعات الطلاق واللعان والسلم والاجارة، سواء تجرد للأمور الأخروية أو لا. وقد كان في العصر الأول: الأصل معرفة أمور الآخرة وأمور الدنيا بالتبع لها؛ والآن انعكس الحال، فتداخل الذم إلى الفقه من هذه الجهة، وإن كان محموداً في الأصل.

ومنها العلم وقد كان يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته وأفعاله في عباده وخلقه، وخصصوه اليوم بمن يشتغل بالمناظرة في المسائل الفقهية وغيرها. ويقال له هو الفحل في العلم والعالم على الحقيقة، ومن لم يكن كذلك يعدونه من الضعفة، وإن كان عارفاً بالله وصفاته والمبدأ والمعاد والتفسير والأخبار.

ومنها التوحيد وقد كان يطلق على أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر الا منه جل جلاله؛ والآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والاحاطة بالمناقضات، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسولة واثارة الشبهات وتأليف الالزامات، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد، مع أن أبواب الجدل والمماراة كان مما يشتد النكير عليه في العصر الأول.

ومنها الذكر والتذكير وقد كان في العصر الأول يطلق على التكلم في علم الآخرة والتذكير بالموت، والتنبيه على عيوب النفس وآفات النفس، والأعمال، وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، ويذكر بآلاء الله سبحانه ونعمائه، وتقصير العبد في شكره، ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها وقلة عهدها، وخطر

الآخرة وأهوالها، فهذا هو التذكير المحمود شرعاً، الذي قد ورد الحث عليه. فنقل ذلك الآن الى ما ترى من حال الوعاظ، وما يواظبون عليه من القصص والأشعار والشطح والطامات. أما القصص فهو بدعة، وقد ورد نهي السلف عن الجلوس الى القصاص، لأنهم ان اقتصروا على القصص الواردة في القرآن لأصابوا، لكنهم غيروا وزادوا ونقصوا، حتى أنهم من سمح نفسه وضع الحكايات المرغبة في الطاعات، و يزعم أن قصده فيه دعوة الخلق الى الحق، وهذه من نزغات الشيطان، فان في الصدق مندوحة عن الكذب.

وأما الأشعار فأكثرها في الوعظ مذموم، والمستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولي على قلبه، ومجالس الوعاظ لا تحوي إلا أجلاف العوام، و بواطنهم مشحونة بالشهوات، فتحرك الأشعار المشتملة على تواصف العشق ومدح الوصال و بث آلام الهجر، ما هي مستكنة في قلوبهم من نيران الشهوات، فيزعقون و يتواجدون على تصور الفساد، اللهم الا إذا كانت الأشعار مشتملة على المواعظ والحكم، أو كانت الحضار الخواص خاصة، فأولئك ينزلون الشعر الوارد في المخلوق على ما استولى على قلوبهم من حب الخالق.

وأما الشطح فأما دعاوى طويلة عريضة في العشق مع الله، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم الى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا؛ وأما كلمات غير منهومة، لها ظواهر رائقة، فيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل، وهذا أما أن لا يفهمه القائل أيضاً، وأما لخبط في عقله وتشويش في خياله؛ أو تكون مفهومة للقائل، ولا يقدر على التعبير، لقلة ممارسته التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ــ قال صلى الله عليه وسلم: «كلموا الناس بما يعرفونه ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله». وهذا فيما يفهمه صاحبه، فكيف فيما لا يفهمه قائله، فان كان يفهم القائل دون السامع فلا يحل ذكره.

وأما الطامات فنها ما ذكرناه من الشطح، وأمر آخر، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهر المفهوم الى أمور باطنة، لا يسبق منها الى الافهام حقيقة يعتمد

عليها، كدأب الباطنية في التأويلات؛ وهذا أيضاً حرام فان الألفاظ إذا صرفت عن ظواهرها، بلا نقل من الشرع، أو دليل من العقل، لبطل التعويل على النصوص، وبهذا توصل الباطنية الى هدم الشرائع؛ إذ النفوس مائلة الى المستغرب ومستلذة له.

ومنها الحكمة وقد كانت الحكمة تعد خيراً كثيراً؛ كما نطق به التنزيل بقوله: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ (١) وقوله صلى الله عليه وسلم: «كلمة من حكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها».

والآن نقل الى الطبيب والشاعر والمنجم، حتى الذين يدحرجون القرعة على أكف السواد في شوارع الطرق، فانظر هذا النقل من أين الى أين.

إذا عرفت مثار الالتباس في العلوم، فعليك أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، ولا تتدل بحبل الغرور حتى تتشبه بالخلف. فاعلم أن من العلم ما هو المذموم قليله وكثيره، ولا فائدة فيه ديناً ودنيا، أو ضرره يغلب نفعه، كعلم السحر والطلسمات والنجوم؛ ومنه ما هو المحمود كله: كالعلم بالله سبحانه وتعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه، فانه بحر لا ساحل له، وما خاض فيه الا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم، فمفتاحه أولاً التعلم والجد ومشاهدة أحوال العلماء، وآخره المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه بأنبياء الله وأوليائه.

وأما العلوم التي لا يحمد منها الا قدر مخصوص فهي العلوم التي هي فروض الكفايات فان لكل علم اقتصاراً واقتصاداً واستقصاء فان كنت أصلحت نفسك فلا عليك الاستقصاء فيها لاصلاح غيرك؛ ويكفيك الاقتصاد، بل هو الخير، إذ لا يفي الأعمار بالاستقصاء في كل العلوم، فاستقصاء البعض دون الآخر ليس بخير، بل الأحسن الاقتصاد في الكل. وإن لم تكن أصلحت نفسك أولاً، فاياك أن تقصد اصلاح غيرك وتترك نفسك، إذ لا أعظم منه خسراناً؛ فعليك أن تشتغل أولاً بتطهير نفسك من ظاهر الاثم وباطنه بحيث تجعله ديدناً

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.

وعادة منتشرة فيك؛ ثم اشتغل بفروض الكفايات على التدريج الذي سنذكر لك ذلك، فابتدىء بكتاب الله، ثم بسنة رسوله، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن: من الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك في السنة؛ ثم اشتغل بالفروع من علم الفقه دون الخلاف، ثم بأصول الفقه، وهكذا الى بقية العلوم، بقدر ما يتسع له وقتك، ولا تستغرق عمرك في واحد منها طالباً للاستقصاء، فان العلم كثير والعمر قصير، وإن طلبت الزيادة عليها واتسع لك الوقت، فاقتصر من شائع علم اللغة قدر ما تفهم به كلام العرب وتنطق به، ومن غريبها على غريب القرآن والحديث وتعد العمق فيه، واقتصر من النحو على قدر ما يتوقف عليه معرفة الكتاب والسنة؛ وتعمق في التفسير قدر ما يعده العلماء وسيطاً، ثم اصرف ذهنك على لطائفه واشاراته؛ وفي الحديث قدر تحصيل ما في الصحيحين، والصحاح الستة قدر ما يحتاج اليه في الأعمال، وحصل نسخة صحيحة منهما أو منها على رجل خبير بمتون الحديث، ودع حفظ أسامي الرجال ومعرفة عللهم، لأن السلف من جامعي الصحاح قد كفينا مؤنتها؛ فأما الفقه فيكفي فيه حفظ البداية والوقاية والمنظومة للنسفي؛ وأما الكلام فيكفي فيه قدر محافظة عقائد واردة في الكتاب والسنة، وان قدرت مع ذلك على دفع المبتدعة فأحسن وأحسن؛ وأما الخلافيات فلا حاجة لك بها على كل حال، إذ الغرض منها اقبال الناس ووفور الحرمة والحشمة عند الولاة، وهذا من أخس الأغراض وأرذلها، سيما إذا أدى الى بذل العلم في باب هؤلاء، سيما مع طلب رضاهم في الأحكام ـــ اللهم عفوا عفوا؛ وأما المنطق فهو داخل في علم الكلام؛ وأما الفلسفة: فما كان منها مخالفاً للشرع، فأكثره مباحث علم الالهي وبعض من الطبيعي، فذلك في حكم السحر بل أضر منه، لأنه يؤدي الى الكفر أسرع من السحر؛ وما لم يكن مخالفاً للشرع، كبعض مسائل الالهي وأكثر مسائل الطبيعي وكل مباحث الرياضي، فلا منع عنها فهو في حكم على الحساب، إلا أن يخاف أن يستدرج مشتغله الى العبور الى البواقي، فيمنع منها البعض دون ذلك.

فالذي يجب عليك: الاقبال بعلوم الآخرة. وهي قسمان: علوم معاملة وعلوم مكاشفة، والأول طريق للثاني.

أما علوم المعاملة فهي معرفة أحوال القلب؛ أما ما يحمد منها: كالصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والرضا والقناعة والتقوى والاحسان والسخاء وحسن الظن والخلق والمعاشرة والصدق والاخلاص؛ وأما ما يذم منها: فخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحقد والحسد والغش وطلب العلو وحب الثناء وحب البقاء في الدنيا والكبر والرئاء والغضب والفخر والخيلاء والتنافس وطول الأمل والفرح بالدنيا والأنس بأهلها، الى غير ذلك.

وأما علوم المكاشفة: فمعرفة ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله وحكمته، ومعرفة معنى النبوة والنبي، ومعنى الوحي والملائكة والشياطين، ومعرفة الجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعنى لقاء الله والنظر الى وجهه الكريم، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، الى غير ذلك من الأحوال، بأن يرتفع الغطاء و يتضح جلية الحق اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، وهذا ممكن في جوهر الانسان، وانما يشغل عنه كدر قاذورات الدنيا، فاذا صقل القلب عنها يتجلى له تلك العلوم بلا شك، و يتلألأ فيه أنوار تلك الحقائق لا محالة. وهذه العلوم لا تسطر في الكتب، ولا يتحدث بها الا من يعرفها، فلا تحقروا عالماً آتاه الله علماً، فان الله عز وجل آتاه إياه.

قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم ــ يعني علم المكاشفة ــ أخاف عليه سوء الخاتمة؛ وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم، وهما: البدعة والكبر. وقيل: من كان محباً للدنيا ومصراً على هوى لم يتحقق به، وقد يتحقق بسائر العلوم. وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه شيئاً، وهو علم الصديقين والمقربين.

المطلب الرابع

في آداب المعلم والمتعلم ووظائفهما

وقد استوفينا هذا الباب في أول الكتاب، فلا نشتغل باملال الأصحاب بسلوك طريق الاسهاب.

المطلب الخامس

في آفات العلم و بيان علامات علماء الدنيا وعلماء الآخرة

اعلم أنه قد ورد في شأن العلماء نصوص وأخبار، تدل على أنهم أشد عذاباً يوم القيامة إذا لم يعملوا بعلمهم، والذين يقصدون بعلمهم التنعم في الدنيا والتوصل الى الجاه والمنزلة عند أهلها، ولا حاجة الى ذكر تلك الأخبار والآثار عند العلماء.

وحاصل الجميع أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخس حالاً وأشد عذاباً من الجاهل. **ثم إن الفائزين المقربين من العلماء لهم علامات بها تمتاز عن علماء الدنيا، فلنذكر منها ــ مع كثرتها ــ اثنتي عشرة علامة:**

منها: أن لا يطلب الدنيا بعلمه، فان أقل درجات العالم، أن يدرك حقارة الدنيا وانصرامها، وعظم الآخرة ودوامها، وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، و يعلم أنهما كالضرتين متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وككفتي ميزان في رجحان إحداهما خفة الأخرى، وكالمشرق والمغرب يستلزم قرب أحدهما البعد من الآخر؛ فان من لم يعلم كدورة الدنيا وامتزاج لذتها بألمها، بل يقال أن أمور الدنيا أما عين ألم أو مقدمة للألم، فهو فاسد العقل، غافل عن المشاهدة والتجربة، فكيف يكون من العلماء من لا عقل له؛ وأيضاً من لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها، فهو كافر بالنصوص، ومن لا إيمان له لا يكون عالماً؛ وأيضاً من غفل عن مضادة الدنيا والآخرة، وإن الجمع بينهما نفخ بلا ضرم فهو

جاهل بالشرائع كلها، بل هو كافر بما بين دفتي المصاحف كلها، فكيف يعد من زمرة العلماء ــ ومن علم هذا كله، ثم لم يؤثر الدنيا على الآخرة، فهو أسير الشيطان، وقد أهلكته شهوته، وغلبت عليه شقوته، فكيف يعد من حزب العلماء من هذه الدرجة. وقيل:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

ومنها: أن لا يخالف قوله فعله، بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به، ولا ينهي إلا عن شيء ينتهي هو عنه أولاً. قيل:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها

وقيل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

والآيات والأخبار والآثار في هذا الباب أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن تذكر.

ومنها: أن تكون عنايته لتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعة، متجنباً في العلوم التي يقل نفعها و يكثر فيها الجدال والقيل والقال.

ومنها: أن يكون غير مائل الى الترفه في المطعم، والتنعم في الملبس، والتجمل في الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك، و يتشبه فيه بالسلف، ويميل الى الاكتفاء بالأقل. وكلما ازداد الى طرف القلة ميله، ازداد من الله سبحانه قربه، وارتفع في علماء الآخرة حزبه. والتحقيق أن التزين بالمباح ليس بحرام، لكن الخوض فيه يوجب الأنس به، حتى يشق تركه. واستدامة الزينة لا تمكن الا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها المداهنة ومراعاة الخلق ومراياتهم، وأمور أخر محظورة، فالحزم اجتناب ذلك.

ومنها: أن يكون منقبضاً عن السلاطين، لا يدخل اليهم البتة، ما دام يجد عن الفرار عنهم سبيلا، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم إن جاؤا اليه، فان الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لهم لا ينفك عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم، مع أنهم ظلمة، ويجب على كل متدين،

الانكار عليهم وتضييق صدورهم باظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم، فالداخل عليهم: أما أن يلتفت الى تجملهم فيزدري نعمة الله تعالى؛ أو يسكت عن الانكار عليهم فيكون مداهناً؛ أو يتكلف في كلامه بمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح؛ أو يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت. وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح لعدة شرور، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط.

ومنها: أن لا يكون مسارعاً للفتوى، بل يكون متوقفاً متحرزاً ما وجد الى الخلاص سبيلا، فان وجد عما يعلمه تحقيقاً أفتى، وان سئل عما يشك فيه قال: لا أدري، وان سئل عما يظنه باجتهاد أو تخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره، وان كان في غيره غنية. هذا هو الحزم، لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم.

ومنها: أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة، فان المجاهدة تثمر المراقبة في دقائق علم القلوب، والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكر، والانقطاع اليه عما سواه، فذلك مفتاح الالهام ومنبع الكشف. وكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعة بكلمة، وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفرة على العمل ومراقبة القلب، فتح الله له من لطائف الحكم ما يحار فيه عقول ذوي الألباب.

ومنها: أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين الذي هو رأس مال الدين.

واعلم أن اليقين عند المتكلمين، هو رجحان أحد طرفي الحكم رجحاناً لا يقبل التشكيك، وهو الذي لا يتصور الايمان بدون بلوغه هذه الرتبة؛ وعند الفقهاء والصوفية وأكثر العقلاء: أن يستولي ذلك الادراك على النفس، و يغلب على القلب، وهذا انفعال للقلب عن هذا الادراك، ونفوذه في القلب مثل تأثير الحناء في اليد وانفعال اليد منه؛ مثلاً: يقال هذا الرجل لا يوقن بالموت، لما أنه يغفل عنه و يسهو عن العمل بمقتضاه؛ و يقال: هذا الرجل له قوة اليقين بالموت، يعني أنه مستغرق الهم في استعداده، مع أن كليهما متساو يان في القطع بموته؛ وربما يعبر عن هذا المعنى بالاذعان وعن الأول بالادراك.

والتحقيق فيه إنك قد عرفت فيما ذكرناه من التحقيق، أن في الانسان قوة جزئية محلها الدماغ، من شأنها الادراك بالنظر، وفيه قوة كلية محلها القلب الأول فاليقين بالمعنى الثاني حاصل فيه، وهما مشتركان في معنى التصديق الجازم الثابت المطابق للواقع؛ إلا أن الحاصل في القوة الجزئية ــ لتوقفه على التفات النفس الى ذلك ــ ربما يسهى عنه و يغفل فلا يعمل بمقتضاه، بخلاف الثاني فانه الحاصل في النفس لا في الآية، فلا يحتاج الى التفات النفس الى ذلك مثل احتياجه في الأول، لأنه علم حضوري لا يغيب عن النفس، فلا يغفل عنه أصلاً لولا ملابسة الكدورات. فالادراكان المذكوران متحدان، والتغاير بحسب المحل. ومن نظر الى اتحادهما حقيقة يقول: الايمان لا يزيد ولا ينقص؛ وما نظر الى مغايرتها بحسب المحل يقول بزيادته ونقصه؛ إذ لا يخفى أن الإيمان الحاصل بطريق العلم الحضوري أقوى من الحاصل بطريق العلم الحصولي، فاحفظ هذه الغاية لأنك قلما تجدها فيما عهدت من الكتب. ولذلك ترى أكثر المؤمنين ــ لاقتصارهم بالايمان على الطريق الأول ــ يغفلون عن كثير من أحكامه؛ وأما الذين يكملونه على الطريق الثاني ترى فيهم الحياء والخوف والذل والاستكانة والخضوع، وغير ذلك من الأوصاف المتشعبة من الايمان.

ومنها: أن يكون العالم حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً، يظهر أثر الخشية على أحواله، و يكون نظره مذكراً لله تعالى والآخرة، وتكون صورته دليلا على علمه، فهم الذين سيماهم على وجوههم من أثر السجود.

ومنها: أن يكون أكثر بحثه فيما يفسد من الأعمال، وفيما يشوش القلوب و يشوش الوساوس و يثير الشره، ولا يكون ممن يتبعون غرائب التعريفات في الحكومات والأقضية، و يتعنون في وضع صور ينقضي الدهر ولا تقع أو تقع لغيره، لأنه إذا وقعت وفي العالمين بها كثرة يكفون مؤونته؛ وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر، ايثاراً للقبول أو التقرب من الخلق على القرب من الله تعالى، وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلاً محققاً عالماً بالدقائق، وجزاؤه من الله تعالى أن لا ينتفع من الدنيا بقبول

الخلق، بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان، ثم يرد القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العالمين وفوز المقربين، وذلك هو الخسران المبين.

ومنها: أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وادراكه بصفاء قلبه، لا على الصحف، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره؛ وانما الذي يقلد عليه هو صاحب الشرع ـــ صلوات الله عليه وسلامه ـــ فيما أمر به وقاله؛ وانما يقلد الصحابة من حيث أن فعلهم يدل على سماع منه صلى الله عليه وسلم. ثم إذا قلد صاحب الشرع ـــ صلوات الله عليه وسلامه فينبغي أن يحرص على فهم أسراره، ولا يكون وعاء للعلم لا عالماً، ومن كشف عن قلبه الغطاء صار متبوعاً لمن يجيء بعده، فلا ينبغي أن يقلد المجتهد الآخر، فاذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليداً غير مرضي، فالاعتماد على التصانيف أبعد، لأنها محدثة بعد الصحابة وصدور التابعين، وانما حدثت بعد مائة وعشرين سنة من الهجرة.

وأما السلف فقد امتنعوا عن تصنيف الكتب بل كتب الأحاديث، حتى أن أبا بكر كره كتب المصاحف في مصحف واحد كما عرفت تفصيله، وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك تصنيفه الموطأ، وقال: ابتدع ما لم يفعله الصحابة؛ وقيل: أول كتاب صنف في الاسلام كتاب ابن جريج في الآثار؛ وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة؛ ثم كتاب معمر ابن راشد الصنعاني باليمن، جمع فيه سنن شتى منثورة مبوبة؛ ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس؛ ثم جامع سفيان الثوري. ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام، وكثر الخوض في الجدال والخوض في أبطال المقالات. ثم مال الناس اليه وإلى القصص والوعظ، فأخذ علم اليقين في الاندراس ذلك الزمان، حتى صار يستغرب علم القلوب، والتفتيش عن صفات النفس ومكائد الشيطان، وأعرض عن ذلك الا الأقلون، فصار يسمى المجادل المتكلم عالماً، والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً، وأصبح علم الآخرة مطوياً.

ومنها: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور وان اتفق عليه الجمهور،

ولينظر: هل كان أحوال الصحابة وأعمالهم التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولي الأوقاف وأموال الأيتام ومخالطة السلاطين، أم الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الاثم وجليله، الى غير ذلك.

وأكثر معروفات هذه الأعصار منكرات عصر الصحابة: كتزيين المساجد وتنجيدها، وانفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها، والفرش الرفيعة فيها، وقد كان فرش البواري في المسجد من بدع الحجاج، وكانوا لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً؛ ومن ذلك التلحين في الآذان والقرآن، ومن ذلك التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة، مع التساهل في حل الأطعمة وتحريمها الى غير ذلك. فاذا سمعت هذه الأوصاف، فكن من أهل الانصاف، بأن تتصف بها أو تقر بتقصيرك فيها، واياك واياك أن تكون الثالث الشقي، فتصير من البطالين حتى تلحق بزمرة الهالكين. فنعوذ بالله من خدع الشيطان وبها هلك الجمهور، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا يغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور.

المطلب السادس

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

اعلم أن شرف العقل معلوم بالضرورة، ولا سيما قد ذكرنا شرف العلم، والعقل منبعه ومطلعه وأساسه، ويجري منه مجرى الشجر من الثمر، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فما يدل على شرف العلم دليل على شرف العقل بالضرورة، وكيف لا يشرف وهو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، أو كيف يستراب فيه وأعظم البهائم بدنا وأشدهم ضراوة وأقواهم سطوة، إذا رأى الانسان احتشم وهابه، لشعوره بما يختص به من العقل الذي تسهل به الحيل، وكذلك ترى كثيراً من الأتراك وأجلاف العوام من الأتراك ــ مع قرب رتبتهم من البهائم ــ يوقرون مشايخهم بالطبع.

ثم اعلم أن العقل يطلق على معان:

أحدها: الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم، وبه استعد لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية. وهذا ما قيل في حده أنه غريزة يتهيأ بها درك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لادراك الأشياء.

وثانيها: أنه بعض العلوم الضرورية لجواز الجائزات واستحالة المستحيلات؛ وهي العلوم التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميز وهو أيضاً صحيح، لأن هذه العلوم موجودة، وتسميتها عقلاً ظاهرة؛ إذ يقال: صار الصبي عاقلاً، وهو بهذا المعنى. وأما من أثبت هذا ونفى المعنى الأول ـــ أعني الغريزة المذكورة ـــ فقد أخطأ.

وثالثها: علوم تستفاد من التجارب لهذه الأحوال، فان من هذبته التجارب، يقال له في العرف: عاقل؛ ويقابله: غبي غمر جاهل.

ورابعها: أن تنتهي قوة تلك الغريزة، الى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة ويقهرها، وهي الغاية القصوى للقوة الغريزية المذكورة. والمعنيان الأولان بالطبع للانسان، والأخيران بالاكتساب.

ثم اعلم أن التفاوت يتطرق الى هذه الأقسام، سوى الثاني منها، لأن الضروري لا تفاوت فيه؛ وأما الرابع فلا يخفى تفاوت الناس فيه: وذلك بالتفاوت في الشهوة، إذ يغلب بعض الشهوة في البعض فلا يقدر على تركه، ويضعف في الآخر فيتركه، وقد يتفاوت في شخص واحد، فان الشاب لا يقدر على ترك الزنا بخلاف الشيخ غالباً؛ وأما بالتفاوت في العلم بغائلة الشهوة، كالعامي والعالم في معرفة ضرر المعصية؛ وأما الثالث فان الناس متفاوتون في علوم التجارب: إذ قد يتفاوت الانسان في الغريزة والتجارب ثمرتها، وقد يتفاوت في الممارسة فيتفاوت التجارب؛ وأما الأول ـــ أعني تفاوت الغرائز ـــ فلا سبيل الى جحدها، لأن من جوز أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم مثل عقل السوادية واجلاف البوادي، فقد خلع ربقة الانسانية عن

عنقه. ولولا هذا التفاوت لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما اقتسموا: الى بليد لا يفهم الا بعد تعب طويل؛ والى ذكي يفهم بأدنى رمز واشارة؛ وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق العلوم يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار؛ وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام، إذ يتضح لهم في باطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع، ويعبر عن ذلك بالالهام، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ان روح القدس نفث في روعي».

وأما ما تسمع من المتصوفة من ذم العقل والمعقول، فذلك اطلاق خامس، وهو معنى المجادلة والمناظرة بالمناقضة والالزامات، كما هو مدار صنعة الكلام، لا انهم يذمون نور البصيرة التي هي أساس العلوم الشرعية، وان ذمت هي فما الذي يحمد. الا أنهم لم يقولوا أنكم أطلقتم العقل على معنى مذموم، لشيوعه عند الناس في هذا المعنى، لا جرم ذموا العقل والمعقول، لكن بهذا المعنى المذموم لا بمعنى كل الاطلاقات والله أعلم.

الأصل الثاني

في قواعد العقائد

وهي أصل الأصول ومبنى الاسلام ومقدمة جميع الأحكام. ومبناها تصحيح كلمتي الشهادة وتفصيلهما، ويرجع الى معرفة المبدأ والمعاد.

ولما كان تفصيلها خارجاً عن طوق هذا الكتاب، وصارت كتب السلف مشحونة بها، ضربنا عن ذلك صفحاً والله الموفق.

واجمال هذا الكلام أن هذا الركن من الاسلام على أربعة أركان، كل ركن عشرة أصول.

الركن الأول: معرفة الله عز وجل. ومداره على عشرة أصول؛ وهي العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه، وإنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، وانه ليس مختصاً بجهة.

الركن الثاني: في صفاته. وهي أيضاً عشرة أصول؛ وهي: العلم بكونه حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً، متنزهاً عن حلول الحوادث، وانه قديم الكلام والعلم والارادة.

الركن الثالث: في أفعال الله تعالى ومداره أيضاً على عشرة أصول؛ وهي: أن أفعاله مخلوقة له تعالى، وإنها مكتسبة للعباد، وأنها مرادة لله تعالى، وأنه متفضل بالخلق، وأنه له تعالى تكليف ما لا يطاق، وله ايهام البري، ولا يجب عليه رعاية الأصلح، وأنه لا واجب الا بالشرع، وان بعثة الأنبياء جائزة، وأن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة لا مؤيدة بالمعجزات.

الركن الرابع: في السمعيات: ومداره أيضاً على عشرة أصول؛ وهي: إثبات الحشر وعذاب القبر وسؤال منكر ونكير والميزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة.

وإذا عرفت هذا الاجمال فاطلب تفاصيلها من كتب القوم. والغرض بيان عقيدة أهل السنة، وانهم بأي عقيدة يمتازون عما عداهم من أهل البدع والاهواء. نسأل كمال اليقين والثبات في الدين، لنا ولكافة المسلمين، والله تعالى يسددنا بتوفيقه، ويهدينا الى الحق وتحقيقه، بمنه وسعة جوده.

الأصل الثالث

علم أسرار الطهارة

قال الله تعالى: ﴿والله يحب المتطهرين﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الطهور نصف الايمان».

واعلم أن الطهارة لها أربع مراتب: الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث والفضلات؛ والثانية: تطهير الجوارح عن الآثام؛ والثالثة: تطهير القلب عن ذمائم الأخلاق؛ والرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء والصديقين. والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها، اذ

المقصود في السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته، ولن يحل ذلك فيه الا بأن يرتحل عنه ما سوى الله تعالى، وكذا المقصود في القلب التحلي بالأخلاق المحمودة ولن يتيسر ذلك الا بالتخلي عن الأخلاق الذميمة وكذا المقصود من الجوارح تزيينها بالطاعات ولا يتيسر ذلك الا بتطهيرها عن الآثام؛ وكذا الحال في الظاهر.

فكل من هذه المراتب لا يمكن الا بتطهير ما قبلها؛ فأصل الكل طهارة السر، ولكن تتوقف على طهارة مقدماتها، الى أن ينتهي الى طهارة الظاهر، ولا تظنن أن هذا ينال بالمنى أو ينال بالهوينا.

والذي يهمنا الآن معرفة أحوال طهارة الظاهر. وهي أقسام:

طهارة عن الخبث وقد استقصى الكلام في ذلك في كتب الفروع.

طهارة عن الحدث من الوضوء والغسل والتيمم.

أما الوضوء: فقد استوفى الفقهاء فرائضه وسننه وآدابه، ولنذكر ههنا بعضاً من آدابه: وهو أنه إذا خرج من الغائط، اشتغل بالوضوء، فلم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجاً من الغائط الا توضأ، و يبتدىء بالسواك و ينوي تطهير فمه لقراءة الفاتحة وذكر الله في الصلاة؛ وكان صلى الله عليه وسلم يستاك في الليلة مراراً، وكان يقول: «عليكم بالسواك فانه مطهرة للفم ومرضاة للرب». وعن علي رضي الله عنه: السواك يزيد في الحفظ و يذهب البلغم.

ثم يجلس للوضوء و يقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ و يقول: أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون؛ ثم يقول عند غسل يديه: اللهم إني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة. ثم ينوي رفع الحدث أو استباحة الصلاة، و يقول عند المضمضة: اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك. و يقول عند الاستنشاق: اللهم أوجدني رائحة الجنة وأنت عني راض؛ وعند الاستنثار: اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار. و يقول عند غسل الوجه: اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك، ولا تسود وجهي يوم تسود وجوه أعدائك. و يقول عند غسل اليد اليمنى اللهم

اعطني كتابي بيميني وحاسبني حساباً يسيراً. و يقول عند غسل الشمال: اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري. و يقول عند مسح الرأس: اللهم غشني برحمتك، وانزل علي من بركاتك، واظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل الا ظلك. و يقول عند مسح الأذنين: اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم اسمعني منادي الجنة مع الأ برار. و يقول عند مسح الرقبة: اللهم فك رقبتي من النار، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال. و يقول عند غسل الرجل اليمنى: اللهم ثبت قدمي على الصراط يوم تزل الأقدام في النار. و يقول عند غسل اليسرى: إني أعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل أقدام المنافقين.

فإذا فرغ عن الوضوء، رفع رأسه الى السماء، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سبحانك اللهم وبحمدك، لا اله إلا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي، أستغفرك وأتوب اليك، فاغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين، واجعلني صبوراً شكوراً، واجعلني أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلا.

يقال: من قال هذا بعد الوضوء، ختم على وضوئه بخاتم، ورفع له تحت العرش، فلم يزل يسبح الله و يقدسه، و يكتب له ثواب ذلك يوم القيامة.

ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة، ينبغي أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو مطمح نظر الخلق، فينبغي أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موقع نظر الرب سبحانه؛ وليس تطهيره الا بالتوبة والخلو على الأخلاق الذميمة. ألا ترى أن من قصد مناجاة ملك، وزين ثيابه مهما أمكن، وطهره عن الألوان، ومع ذلك نجس وجهه الذي محل نظر الملك، هل يكون جديراً للتعرض بالبوار عند السلطان، ومتصفاً بسخافة العقل عند الأخوان.

فأما كيفية الغسل والتيمم فمذكورة في كتب الفروع. ولنذكر هاهنا آداب التنظيف عن الأوساخ والفضلات بالظاهرة التي أهملها الفقهاء في

كتب الفروع. وهي نوعان: عارضي وطبيعي.

أما الأول فثمانية:

الأول: يستحب غسل الرأس وترجيله وتدهينه ازالة للشعث.

والثاني: يزيل ما في معاطف الأذن والصماخ من الدرن والأوساخ، لكن ينظفه برفق عند الخروج من الحمام، فان كثرة الدلك ربما يضر بالسمع.

والثالث والرابع: وكذا ما في الأنف وما يجتمع على الأسنان وأطراف اللسان، ويزيله بالسواك.

والخامس: ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل، ويزيله بالغسل والتسريح بالمشط، ولكن ينبغي أن يكون قصده أن لا يزدريه العوام ولا تستصغره أعينهم، لا التزين الذي هو المكروه للرجال، وانك ترى رجالاً من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة، ويزعمون أن قصدهم ارغام المبتدعة واذلال المخالفين لا التزين، وهذا أمر باطن سوف ينكشف يوم تبلى السرائر، فنعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر.

والسادس: وسخ البراجم، وهي معاطف ظهور الأنامل.

والسابع: تنظيف الرواجب، وهي رؤوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ؛ كل هذه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيفها، فوقت للناس قلم الأظفار ونتف الابط وحلق العانة أربعين يوماً.

والثامن: الدرن في جميع البدن، ويزيله بالحمام. وقد دخلت الصحابة حمامات الشام، حتى قال بعضهم: نعم البيت بيت الحمام، يطهر البدن ويذكر النار؛ روى ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري. وقال بعضهم: بئس البيت بيت الحمام، يبدي العورة ويذهب بالحياء. فهذا تعرض لآفته ولذلك لخصلته.

فلا بأس بطلب فائدته عند الأمن من آفته، ولكن يجب عليه وظائف من الواجبات والسنن.

أما الواجبات: أن يصون فرجه عن نظر الغير وعن مسه لازالة الوسخ وغيره، خصوصاً ما بين السرة والعانة وما فوق الركبة، إذ العوام لا يتحاشون عن كشفها بناء على أنها ليست بعورة غليظة، بل التحريم لكونه من حماها فلا يتساهل في أمرها.

ومنها أن يغض بصره عن عورة غيره ويمنعهم عن كشفها، لأن النهي عن المنكرات واجب. ولمثل هذه الآفات صار الحزم ترك الحمام في هذه الأوقات، ولهذا يستحب تخلية الحمام لمن قدر عليها، وان لم يقدر وأوجبت الضرورة الدخول، فليستر عورته بازار، وليستر عينيه بازار آخر، ليحفظ عينيه عن عورة غيره.

وأما النساء فالأفضل منعهن عن الحمام إذا وجد في البيت مستحم وكذا إذا لم يوجد ولم تقع ضرورة وإذا وقعت ضرورة ككونهن مريضة أو نفساء فليتزرن بمئزر سابغ وليتحفظن مهما أمكن لهن.

فأما السنن: فتحسين النية؛ بأن لا يدخلها للتزين والهوى، بل للتنظف لأجل الصلاة، ويعطى الحمامي الأجرة قبل الدخول وهو الأفضل، لرفع الجهالة من أحد العوضين وتطبيب لنفسه. وأما العوض الآخر: فيستعمل من الماء قدر الحاجة، ومقدار الحاجة ما يعينها العرف؛ ويقدم رجله اليسرى عند الدخول، ويقول: بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم، ويدخل وقت الخلوة، ويجوز أن يتكلف التخلية للضرورة، وان لم يمكن فليدخل مع الاحتياط التام إذا وقعت ضرورة، والا فالاحتياط في الترك.

ومنها أن لا يسلم عند الدخول ولا يجيب السلام، بل يقول: عافاك الله، وان أجاب غيره يسكت، ولا بأس بأن يصافح في الداخل، ويقول: عافاك الله، لابتداء الكلام، ثم لا يكثر الكلام في الحمام، ولا يقرأ القرآن إلا سراً، ولا بأس بالاستعاذة من الشيطان جهراً. ويكره الدخول بين العشاء وقريباً من الغروب فان ذلك وقت انتشار الشياطين. ولا بأس بأن يدلكه غيره.

و ينبغي أن يتذكر في الحمام حر جهنم وظلمته و يتعظ بذلك. ومهما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة ومن منافعه الطيبة، وما قيل أن الحمام بعد النورة أمان من الجذام، وقيل: النورة في كل شهر مرة تطفىء الحرارة وتنقي اللون وتزيد في الجماع؛ وقيل: بولة في الحمام قائماً في الشتاء أنفع من شربة دواء؛ وقيل: نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء، وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس؛ و يكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذلك شربه.

وأما التنظيف عن الفضلات فثمانية أيضاً:

والأول: حلق الرأس ولا بأس به للتنظف، ولا بأس بتركه لمن يدهن و يرجل؛ وأما القزعة في المفرق فممنوع، لأنها من دأب أهل الشطارة؛ وكذلك يمنع ارسال الذوائب لغير الاشراف لأنه من شعارهم فيكون تلبيساً.

والثاني: قص الشوارب. والأحاديث فيه كثيرة؛ وأما حلقها فلم يرد، وقيل أنه مكروه و بدعة، ولا بأس بترك سبالة لبعده عن الفم.

والثالث: نتف الابط في كل أربعين يوماً. وذلك سهل على من تعود ذلك ابتداء، وأما من لم يتعود وتألم بذلك فيكفيه الحلق، إذ المقصود النظافة وذلك يحصل به.

والرابع: حلق العانة باستعمال النورة ولا يتأخر عن أربعين يوماً.

والخامس: قلم الأظفار. و يستحب ذلك لبشاعة صورتها وازالة ما يجتمع فيها من الأوساخ؛ وقد أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكر ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ.

والسادس والسابع: قطع السرة في أول الولادة. وقته أن يثغر الولد مخالفة لليهود، فانهم يختتنون في اليوم السابع من الولادة، ولأنه أبعد عن الخطر، وقد ورد في الحديث: «ختان النساء مكرمة».

والثامن: ما طال من اللحية. قال الفقهاء يأخذ ما زاد على القبضة لا

بأس به، قد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين، واستحسنه الشعبي وابن سيرين والنخعي. قال بعضهم: تركها واعفاؤها أحب، واختاره الحسن وقتادة، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: «اعفوا اللحى». والمختار: التوسط؛ بأن لا ينتهي الى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب، وهذا افراط في القص، وأن لا يطول طولاً مفرطاً يشوه الخلقة، ويطلق ألسنة المغتابين بالنبذ اليه ولذلك قيل: كلما طالت اللحية تشمر العقل؛ وقال الشاعر:

هلّوفة يحملها مائق   مقلوب هرون بها لائق

والهلوفة ــ بكسر الهاء وتشديد اللام المفتوحة وواو ساكنة ثم فاء مفتوحة ــ اللحية الطويلة؛ وما اشتهر بين الطلاب من القاف بدل الفاء فغلط؛ والمائق: هو الأحمق ومقلوب هرون: نوره.

وأعلم أن اللحية فيها عشر خصال مكروهة، بعضها أشد من بعض:

(إحداها) خضابها بالسواد فهو منهي عنه. وأول من خضب بالسواد فرعون. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «الخضاب بالسواد خضاب الكفار»، وفي رواية: خضاب أهل النار، وغير ذلك من الأحاديث تزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه، وأطلقوا على أنه كان خضب لحيته، فرد عمر نكاحه وأوجعه ضرباً، وقال: غررت القوم بالشباب ولبست عليهم شيبتك ــ الا أن يخضب لأجل الغزو، فحينئذ يجوز ان صحت النية ولم يكن فيه هوى ولا شهوة، وقد فعله بعض العلماء للغزو.

(ثانيتها) تبيضها بالكبريت استعجالاً لإظهار علو السن، توصلاً إلى التوفير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ، واظهاراً لكثرة العلم، وترفعاً عن الشباب؛ وكل هذا منهي عنه: للكذب والزور، مع اظهار الحمق في اظهار العلم، لأن كثرة العلم لا تحصل بطول السن ولا تنقص بالشباب، بل العلم غريزة تقوى بالشباب؛ وكان عمر يقدم ابن عباس على مشيخة الصحابة ويسأله دونهم، وكان ابن عباس يقول: ما آتى الله سبحانه عبداً علماً إلا شاباً، والخير كله في الشباب، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم

يقال له ابراهيم ﴾[١] وقوله عز وجل: ﴿انهم فتية آمنوا بربهم﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وآتيناه الحكم صبياً ﴾[٣] وكان أنس يقول: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء؛ فقيل له: يا أبا حمزة، وقد أسن، فقال: لم يشنه الله عز وجل بالشيب، وقيل أو يشين هو، فقال: كلكم يكرهه. و يقال إن يحيى بن أكثم ولى القضاء وهو ابن احدى وعشرين سنة. فقال له رجل في مجلسه: كم سن القاضي أيده الله ــ وأراد أن يرميه بصغر السن ــ فقال: سن عتاب بن أسيد حين ولى امارة مكة وقضاءها، فأفحمه. قال مالك: قرأت في بعض الكتب: لا يغرنكم اللحى فان التيس له لحية. وقال علي بن الحسين: من سبق اليه العلم قبلك فهو أمامك فيه وان كان أصغر سناً منك.

(الثالثة) الخضاب بالحمرة والصفرة جائز للغزو والجهاد، وأيضاً ورد في الحديث: «الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين». وكان السلف يخضبون بالحناء للحمرة، و بالخلوق والكتم للصفرة، فمن لبس نفسه بالتشبه بالصالحين فهو مذموم، كما أنه مذموم للتزين و بعض الشيب.

(الرابعة) نتف بياضها استنكافاً من الشيب وهو نور المؤمن، وهذا منهي عنه كالخضاب بالسواد في العلة.

(الخامسة) نتفها في أول الشباب تشبهاً بالمرد فهو من المنكرات، الكبار، ونتف بعضها بحكم العبث والهوس مكروه ومشوه للخلقة. وكان ... ينتف فكيه فرد عمر شهادته ــ وكذا رد ابن أبي ليلى قاضي المدينة ــ سيما واللحية زينة الرجال. يقال أن لله تعالى ملائكة يقسمون، والذي زين بني آدم باللحى، وفيها تعظيم الرجل، والنظر اليه بعين العلم والوقار، والرفع في المجالس، والاحتشام عن التعرض لعرضه. قال أصحاب الأحنف: وددنا أن

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٦٠.

(٢) سورة الكهف، آية: ١٣.

(٣) سورة مريم، آية: ١٢.

نشتري للأحنف لحية بعشرين ألفاً. وقال شريح القاضي: وددنا أن نشتري للأحنف لحية بعشرين ألفاً. وقال شريح القاضي: وددت أن لي لحية بعشرة آلاف درهم. وكان الأحنف وشريح من السادات الطلس، وهو جمع الأطلس: وهو من لا شعر في وجهه؛ وهم أربعة، والباقيان هما: عبدالله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عباده.

(السادسة) تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة، للتزين للنساء والتصنع، وهذا مكروه.

(السابعة) الزيادة في اللحية. وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغ — وهو شعر الرأس — حتى يجاور عظم اللحى، أو ينتهي الى نصف الخط، وذلك يباين هيئة أهل الصلاح.

(الثامنة) تسريحها لأجل الناس. قال بشر: في اللحية شركان: تسريحها لأجل الناس، وتركها متفتلة لاظهار الزهد.

(التاسعة والعاشرة) النظر الى سوادها وبياضها بعين التعجب، وذلك مذموم في جميع أجزاء البدن، بل في جميع الأخلاق والأفعال، وسيأتي تفصيل ذلك بعون الله تعالى.

الأصل الرابع

في علم أسرار الصلاة

وفيها مطالب.

المطلب الأول

وأعلم أن للصلاة مراتب وأطواراً، ولا تنكشف تفاصيلها الا بمثال، وهو أن الانسان لا يكون انساناً موجوداً كاملاً الا بمعنى باطن وهو الحياة والروح، وبأعضاء ظاهرة يتوقف عليها الحياة: كالقلب والكبد والدماغ، وبأعضاء لا

يتوقف عليها الحياة، ولا يفوت بدونها مقاصد الحياة: كالعين واليد والرجل واللسان، وبأعضاء لا يتوقف عليها الحياة ولا يفوت بدونها مقاصدها، ولكن يفوت بها الحسن: كالجبين واللحية والأهداب وحسن اللون، وبأعضاء لا يتوقف عليها ما ذكر كلها، ولكن يفوت بها كمال الحسن: كاستقواس الحاجبين، وسواد شعر اللحية والأهداب، وتناسب خلقة الأعضاء، وامتزاج الحمرة بالبياض في اللون. فهذه درجات خمس يمكن اعتبارها في العبادات.

(فروحها وحياتها): الخشوع والنية وحضور القلب والاخلاص. وسنبينها.

(والدرجة الثانية) كالركوع والسجود والقيام والقراءة والقعدة والأخيرة، إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها.

(والدرجة الثالثة) كالسنن: من التكبيرة ورفع اليدين والتشهد الأول وقراءة الفاتحة، وغيرها مما لا تفوت الصلاة بفواتها، لكن تكون خداجاً ناقصاً.

(والدرجة الرابعة) هي الآداب المعتبرة في الصلاة.

(والدرجة الخامسة) هي لطائف تلك الآداب.

واعلم أن الصلاة تحفة وقربة لك تتقرب بها الى حضرة ملك الملوك، كوصيفة يهديها طالب القربة من السلطان اليه، فاذا أحسنت الوصيفة: في خلقتها وجمالها وآدابها الظاهرة وأخلاقها الباطنة، يتقبلها السلطان عند عرض حاجة صاحبها، فيعوضه بما يليق بشأن السلطان من الكرامات السنية والعز والجاه؛ وكذلك الصلاة، إذا تقرب الى الله تعالى تامة في معناها وصورتها وفرائضها وسننها، يتقبلها الحق سبحانه وتعالى يوم العرض الأكبر، فيجازيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والا ترد عليك وتصير هي خصماً عليك، وتقول: ضيعتني ضيعك الله.

فنتهى نظر الفقيه من الصلاة نظر الطبيب في الانسان؛ فان الطبيب في صدد حفظ صحته وابقاء حياته ــ وان كان مشوه الخلقة مسموم الخلق؛ كذلك

الفقيه: ينظر في أحوال الصلاة مقدار ما لا تكون الصلاة صلاة إذا لم يراع شرائط الفقه.

وانما الذي ينظر اليه أصحاب القلوب، نظر من يهدي العبيد الى السلطان، حيث ينظر الى درجات يكمل بها رتبة الانسانية صورة ومعنى؛ كذلك العارف: ينظر الى الصلاة مقدار ما يكون مقبولاً عند الملك الديان وسبباً للفوز من الرضوان.

ولما عرفت في الكتب الفقهية مرتبة نظر الفقيه، فلنبين ها هنا الأحوال المعتبرة في الصلاة عند العارف بالله تعالى وصفاته.

المطلب الثاني

الشروط الباطنة من أعمال القلب

منها علم الخشوع وحضور القلب؛ قال الله تعالى: ﴿أقم الصلاة لذكري﴾[1] والغفلة ضد الذكرى؛ وقوله تعالى: ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾[2] وسكر الغفلة يشاركه في هذا المعنى؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: «انما الصلاة تمسكن وتواضع» ويفهم منه الحصر؛ وقوله: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله الا بعداً» وصلاة الغافل لا تمنع منهما؛ وقوله: «كم من قائم حظه من الصلاة التعب والنصب»؛ وقوله: «ليس للعبد من صلاته الا ما عقل». وأيضاً: الشرع دل على أن المصلى مناج ربه، ومن المعلوم أن الغفلة تنافي المناجاة.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن طريق دفع الغفلة، هو أن الصلاة ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود.

---

(١) سورة طه، آية: ١٤.

(٢) سورة النساء، آية: ٤٣.

وأما الذكر والقراءة فالمقصود منها الحمد والثناء والتضرع والدعاء، ولا بد أن تخاطب به الحق تعالى، والا لم يكن ذكر أو قراءة؛ وخطابه تعالى لا يمكن بالمشافهة، فهو بالقلب. فالغفلة تنافي المقصود من الذكر والقراءة. وأيضاً: الصلاة شرعت لتصقيل القلب، وتجديد ذكر الله عز وجل، ورسوخ عقد الايمان فيه، ولا نفع لمجرد حركة اللسان فيما ذكر — وذلك ظاهر — فلا بد من حضور القلب.

وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم ولو جاز التعظيم بمجرد حركة البدن، لم يبق فرق بين تعظيم الخلق والخالق، ولم تكن الصلاة من الأمور التي يمتحن بها المسلمون، وتجعل عماد الدين، والفاصل بين الكفر والاسلام. ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها، وأن حضور القلب روح الصلاة، فان أقل ما يبقى به رمق الصلاة الحضور عند التكبيرة، فالنقصان منه هلاك، وبقدر الزيادة عليه ينبسط الروح في أجزاء الصلاة.

وأما أمر الفتوى: فلما كان لعامة الناس، بحيث لا يخص البعض دون البعض؛ كما قال صلى الله عليه وسلم في حق الفتوى: «حكمي على الجماعة حكمي على الواحد»، ولما عجز الكل عن حضور القلب في جميع أجزاء الصلاة، واشترطوا الحضور ولو في لحظة، ولما صار الأولى بذلك التكبيرة الافتتاح، لأن أحكام الأساس أحكام للبناء من غير عكس — اشترطوا الحضور عندها.

وأما القيام والقعود. فان القيام تنبيه على إقامة القلب على نعت من الحضور، فالغفلة رد القلب عن الاقامة؛ فكما أن الالتفات بالجسد يورث الكراهة، كذلك الالتفات بالقلب، بل ذلك أشد كراهة، بل لا تكون صلاة عند التحقيق، وان لم يعده الفقهاء من المفسدات؛ وذلك لبحثهم عن أفعال البدن دون أفعال القلب، والا فلو سئلوا عن ذلك لأجابوا بما ذكرناه — اللهم إلا من لا يعرف من الفقه الا ظاهره ورسمه.

وكذا القعود؛ فكما ينبغي أن يكون البدن على وجه الأدب في قعود الناس

عند السلاطين؛ كذلك يكون قلبك عنده، عن أن تشكر الله تعالى على توفيقه لهذا العمل الصالح واتمام هذه الطاعة؛ وأن يخاف منه تعالى أنه فرغ من فعل: هل وقع له محل في حضرته، أو رد وضرب به وجه صاحبه؛ وأن يتذكر في قلبه أنه مودع لصلاته وربما لا يعيش لمثلها.

إذا عرفت هذا فلنذكر سبب حضور القلب وثمراته.

واعلم أن حضور القلب هو خلو القلب عن غير من يناجيه؛ وسببه الهمة، فان القلب تابع للهم شاء صاحبه أم أبى، ولا حيلة في صرفه عن الدنيا، وحصر همه في الصلاة الا ملاحظة أن الغرض الأصلي من الحياة: الايمان بالمبدأ والمعاد، ومعرفة أن الدنيا أحقر من أن يتلهى بها، وأن الآخرة خير وأبقى. وهذا الغرض لا يحصل الا بالصلاة. فالملاحظة المذكورة وسيلة الى جعل الصلاة أكبر هم المصلي، وهذا الهم يثمر حضور القلب.

وأما ثمرات حضور القلب:

فمنها التفهم: وهو اشتمال القلب على ملاحظة المعنى من اللفظ، فكم من رجل يحضر قلبه مع اللفظ دون المعنى؛ فكم من معنى لطيف يفهمه المصلي في أثناء الصلاة، ولم يكن يفهمه قبل ذلك وهذه هي الصلاة التي تنهي عن الفحشاء والمنكر، لا من يقرأ وهو غافل عن معنى ما قرأه. وسببه بعد حضور القلب: الاقبال على الفكر، والتشمر لدفع الخواطر الشاغلة بالنزوع عن أسباب تجذب الخواطر الى الشواغل الدنيوية، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره، ولذلك من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

ومنها التعظيم وهذا أمر وراء ما ذكرناه، إذ كم من رجل حاضر القلب إذا خاطب عبده لا يكون معظماً له، فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين: أحدهما معرفة جلال الله تعالى وعظمته؛ وثانيها معرفة حقارة النفس، وكونها مسخراً لربها ــ فيتولد منها الاستكانة والانكسار والخشوع المعبر عنه بالتعظيم.

ومنها الهيبة وهي أمر زائد على التعظيم، منشؤها خوف يصدر عن الاجلال

لا مطلق الخوف، فان من خاف من السبع لا يجله ولا يهابه وهذه تتولد من معرفة كونه تعالى غنياً عن العالمين، بحيث لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة، مع نفوذ قدرته وغلبة سطوته. ومن طالع ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب والبلاء ــ مع قدرته على معافاتهم ــ يعرف جلال الله تعالى وقهره، فيحصل من هذه المعرفة الهيبة.

ومنها علم الرجاء وهذا زائد على الهيبة، إذ كم من واحد يهاب ملكاً ولا يرجوه. والعبد ينبغي له أن يرجو ثواب الله تعالى بصلاته كما أنه يخاف بتقصيره عقاب الله. فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم أنعامه ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة للمصلي. فمن اليقين بلطفه وصدق وعده يتولد الرجاء، ويحمي إيمانه بين الخوف والرجاء الذي لا مهرب عن التوسط بينهما.

ومنها علم الحياء فهو زائد على الكل؛ إذ يمكن قصور التعظيم والخوف والرجاء لمن لا يتوهم التقصير والذنب وسببه استشعاره التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظم حق الله عز وجل، سيما إذا عرف عيوب نفسه وآفاتها، وقلة اخلاصها، وخبث دخيلتها، وميلها الى الحظ العاجل، مع العلم بعظيم جلال الله، وبأنه مطلع على السريرة وخطرات القلب وان دقت وخفيت. وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً، انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء.

وإذا عرفت أن هذه الثمرات أصلها حضور القلب، وأن سببه دفع الخواطر، وكان ذلك من صعاب الأمور للسالكين، فلا علينا أن نذكر ههنا بعضاً من علاج دفع الخواطر.

واعلم أن الخواطر أما حسي أو خيالي. فالأول ما يشغله من طرق الحواس الظاهرة، وأكثرها منعاً السمع والبصر؛ أما السمع: فكأن يشغل المصلي أصوات الطيور إذا صلى في حائط، أو سمع من ينشد شعراً أو يقص شيئاً؛ وأما البصر: فكأن يشغله مَالَهُ وَقْعٌ في قلبه وهو بمرأى في صلاته؛ أو يشغله شيء له

بريق ولمعان أو علم، كما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وقال: اذهبوا بها الى أبي جهم فانها الهتني آنفاً عن صلاتي وإئتوني بانبجانية أبي جهم.

ونظائر هذه الأسباب أن يغض بصره الا عن موضع سجدته، أو لا يترك في البيت ما يشغله، أو يصلي في بيت مظلم. وكان بعض العلماء يقرب من حائط عند صلاته حتى لا يتسع مسافة بصره. ولهذا يحترز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصنوعة، وعلى الفرش المصبوغة. والأولى للمبتدىء اختيار البيت المظلم لحفظ بصره، أو الصغير لجمع همه. وأما الأقوياء فيحضرون المساجد، ويقدرون على غض البصر حتى لا يعرفون من على يمينهم وشمالهم.

وأما الأسباب الخيالية فأصعبها علاجاً وأشدها على القلب؛ فان من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد، بل لا يزال يطير من أمر الى آخر، وغض البصر لا يغنيه، فعلاجه صرف النفس الى فهم ما يقرأه في الصلاة، ويشغلها به عن غيره، ويستعين على ذلك بأن يذكر قبل التحريمة أمر الآخرة وموقف المناجاة، وخطر المقام بين يدي الله عز وجل وهول المطلع، وأن يتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «صلوا صلاة مودع» بأن يفرض في نفسه أنه آخر صلاة يصليها، وأنه آخر عمل يختم به على أعماله.

ودفع الخواطر من أصعب الأمور، وشبهوها بالذباب، لأنه كلما ذب آب، ولهذا سمي ذباباً، كذلك الخواطر كلما أردت دفعها تهجم عليك من كل جانب، يعرفها من يزاول علاجها، إلا أن أصل ذلك كله حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، وأساس كل نقصان، ومنبع كل فساد؛ ومن انطوى باطنه على حب الدنيا فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة، ومن فرح بالدنيا فلا يفرح بالله عز وجل وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرة عينه، وهذا هو الدواء المر؛ ولهذا استبشعه الطباع، وبقيت العلة مزمنة والداء عضالاً، حتى يئس بعض من القاصرين عن دفعها، حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلي

ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا، وإذا كان حالهم كذلك، فلا مطمع فيه لأمثالنا. وليته سلم من الصلاة شطرها أو ثلثها ليكون ممن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولكن علو الهمة من الايمان، فعليك أن لا تترك المجاهدة وتدخل نفسك في زمرة الرجال، وللحروب رجال وللثريد رجال.

المطلب الثالث

في بيان كيفية أحضار القلب عند كل ركن ركن وكل شرط شرط

أما الشرائط:

فمنها الآذان فاذا سمعت النداء، فاحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمّر بظاهرك وباطنك للاجابة والمسارعة، فان المسارعين اليه هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر. فاذا وجدت في قلبك عند النداء الفرح والاستبشار فلك البشرى بالنور يوم الفصل.

ومنها الطهارة فانك إذا أمرت بتطهير ظرفك الأبعد وهو المكان، وظرفك الأقرب وهو الثياب، وقشرك وهو بدنك، فما ظنك بلبك وهو موضع نظر معبودك. فبادر بالتطهير، بالتوبة والندم على ما فرط، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فهذا تطهير باطنك.

ومنها ستر العورة فاذا وجب ستر مقابح بدنك عن الخلق، فكيف ستر مقابح قلبك عن الخالق وهو موضع نظره، فاذا لم يستر ذلك عن الله تعالى ساتر، فعليك بمحوها عن قلبك بالندم والحياة والخوف، فتذل به نفسك، وتستكن تحت الخجلة، فتقوم بين يديه قيام العبد المسيء الآبق عند مولاه.

ومنها الاستقبال فهو في الظاهر صرف وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله، فاذا كان هذا مطلوباً منك فترى أن صرف القلب من سائر الأمور الى أمر الله عز وجل ليس مأموراً؟ هيهات هيهات، فلا مطلوب منك الا مطابقة

وجه قلبك وجه قالبك .. فكما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت الا بصرفه عن سائر الجهات، كذلك لا ينصرف القلب الى الله عز وجل الا بالتفريغ عما سواه.

ومنها الاعتدال وهو مثول بين يدي الله عز وجل بالقلب والبدن، فليكن رأسك مطرقاً مطأطئاً مستكيناً، ذاكراً خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلع عند العرض والسؤال، بل انك قائم بين يديه في الحال، وان كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، فقدر أن رجلاً صالحاً من أهلك، أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح، فعند ذلك كيف تخشع جوارحك خيفة أن ينسبك ذلك العبد العاجز الى قلة الخشوع، فاذا أنصفت نفسك بهذا واعترفت، فقل لها إنك تدعي معرفة الله وحبه، أفلا تستحي منه أن تخشى عبداً من عباده والله أحق أن تخشاه.

ومنها النية فاعزم على إجابة الله عز وجل في امتثال أمره، رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقرب منه، متقلداً للمنة بإذنه لك في المناجاة مع إنك في أين من جنابه، وعظم في نفسك قدر مناجاته، وانظر من تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي، بحيث يليق أن يعرق جبينك من الخجل، وترتعد فرائصك من الوجل، و يصفر وجهك من خوف الزلل.

ومنها التكبير فاذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك، كما إذا كنت أطوع لهواك منك لله عز وجل، فيوشك أن يكون التكبير كلاماً مجرداً، وما أعظم هذا الخطر لولا التوبة والاستغفار، وحسن الظن بكبرياء الله عز وجل وعفوه.

ومنها دعاء الاستفتاح فاذا قلت: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾ [1] فان أردت وجهك الظاهر فقد أثبت لله جهة، وإن أردت وجه قلبك وأنت عن الله ساه وغافل يكون كذباً؛ فأي شيء تطمع في

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٧٩.

صلاة أولها كذلك واختلاق، وإياك عن ذلك، فاجتهد في أن تصرف وجه القلب فيما سواه اليه، وان كان في حال ذلك كلام.

ومنها القراءة فالناس فيها: أما رجل يتحرك لسانه وقلبه عن لسانه ذاهل؛ وأما رجل يتبع لسانه قلبه و يكون لسانه ترجمان قلبه، فيفهم منه كأنه يسمعه من غيره، وهذه درجة أصحاب اليمين؛ وأما رجل سبق قلبه الى المعاني ويخدم لسانه قلبه و يكون لسانه ترجمان قلبه، وفرق بين أن يكون لسانه ترجمان قلبه و بين أن يكون معلم قلبه، وهذه درجة المقر بين.

ومنها الركوع والسجود فينبغي أن تجتهد عند ذلك في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتقصد تواضعاً بهما، سيما عند السجود فانه أعلى درجة الاستكانة، فتمكن أعز أعضائك — وهو الوجه — من اذلال الأشياء — وهو التراب، وان أمكنك أن لا تجعل حائلاً بينه و بين الأرض فافعل، فانه أدل على الذل وأجلب للخضوع، فعند ذلك يظهر لك: خلقت من التراب ورددت الى أصله، فأكره بالتكرار فان المرة الواحدة ضعيفة الأثر، فعند ذلك فليصدق رجاؤك في رحمة ربك فانها تتسارع الى الضعف والذل لا الى التكبر والبطر.

ومنها التشهد فاجلس فيه متأدباً، وتأمل معنى التشهد بتمامها، واجعل مفهوم ذلك حالا لك كأنك تتحقق له؛ ثم ادع بالدعاء المأثور، مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالاجابة؛ وأقصد عند التسليم السلام على الملائكة الحاضرين وعلى من في يمينك أو يسارك من جماعة المؤمنين.

فإذا أتممت الصلاة فاشكر الله تعالى على التوفيق بمثل هذه النعمة الجزيلة، واخطر ببالك إنك مودع لصلاتك هذه وربما لا تعيش لمثلها؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «صل صلوة مودع». ثم كن بين خصلتين: خصلة الوجل والحياء من التقصير في الصلاة، وأن تكون ممقوتاً بذنب ظاهر و باطن، فترد صلاتك في وجهك؛ وخصلة الرجاء في أن يقبلها بفضله وكرمه.

وأما صلاة الغافلين، فانها على خطر إلا أن يتغمد الله برحمته، فالرحمة واسعة والكرم فائض، فنسأل الله تعالى أن يغمرنا برحمته و يتغمدنا بمغفرته، إذ لا

وسيلة لنا الا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته.

ثم إذا أمكن له الصلاة على ما وصفناه، يكون سبباً لحصول أنوار في القلب ينفتح بها علوم المكاشفة، فالمكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية، إنما يكاشفونها في الصلاة، لا سيما في السجود إذ لا قرب من الرب أكثر منه؛ قال عز وجل: «واسجد واقترب».

وتختلف تلك المكاشفة بالقوة والضعف، والقلة والكثرة، والجلاء والخفاء، على قصد صفاء المصلي عن الكدورات البشرية، حتى ينكشف لبعضهم أعيان الأشياء، ولبعضهم مثالها: كصورة الجيفة للدنيا وصورة الكلب الجاثم عليها؛ وأيضاً تختلف باعتبار صرف الهمة، فمن واحد ينكشف له من صفات الله وجلاله، ومن آخر من أفعاله، ومن آخر من دقائق علوم المعاملة، و يكون ليقين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى.

فلما كانت المكاشفة بقدر صقالة القلب ــ ولم يتحقق ذلك في الأكثر ــ حرموا عنها، ومع ذلك لم يكتفوا بنقيصة الحرمان، بل وقعوا في حب الانكار، لما أن الطباع مجبولة على انكار غير الحاضر، لكن إياك إياك أن تنكر أمثال ذلك، فان منح الله تعالى خارجة عن أطوار الطباع والعقول، والله تعالى هو المسؤول لنيل المأمول.

المطلب الرابع

في علم وظائف الامامة

أولاها أن لا يتقدم على قوم يكرهونه، وان اختلفوا فالأمر إلى الأكثر، إلا أن يكون الأقل أهل الخير؛ وأيضاً التقدم على من هو أفقه وأقرأ منه إلا إذا امتنع هو فاذا حصل له شرائط الامامة يكره له المدافعة؛ وقد قيل: أن قوماً تدافعوا الامامة بعد الإقامة فخسف بهم. وما روى عن مدافعة الصحابة: لإيثار من هو أولى منه، أو خوفهم على أنفسهم الشهرة؛ وخطر أن الأئمة ضمناء، وربما

يشتغل قلب من لم يتعود ذلك حياء من المتقدمين ــ سيما في الجهر بالقراءة ــ فيفوته الاخلاص والخضوع.

وثانيتها اختيار الامامة على الآذان إذا خير بينهما؛ وقيل: بل يختار الآذان، ولكن الجمع مكروه. والاختلاف بالنظر الى تعارض الأخبار في فضائل كل منهما.

وثالثتها أن يراعي الامام الأوقات فيصلي في أوائلها، ففضل أوائلها على أواخرها كفضل الآخرة على الدنيا، حتى رجحوها على الانتظار لكثرة الجماعة، حتى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخر عن صلاة الفجر في سفر لأجل الطهارة، فقدم الصحابة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، حتى فاتته ركعة فقام يقضيها، حتى قال: «أحسنتم هكذا فافعلوا»؛ وقد تأخر في صلاة الظهر، فقدموا أبا بكر رضي الله عنه، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وهم في الصلاة ــ فقام الى جانبه، ولا ينتظر الامام المؤذن ولا غيره وانما ينتظر المؤذن الإمام.

ورابعتها أن يؤم مخلصاً ومؤدياً أمانة الله تعالى في جميع شرائطه وأركانه. ومن الإخلاص أن لا يأخذ عليها أجراً، وكذا المؤذن، لكن هذا إن أخذ الأجر من المقتدين، وإن أخذ رزقاً من المسجد قد وقف على من يقوم في هذا الموضع ــ أما من السلطان أو من غيره ــ فلا يحكم بحرمته، ولكنه يكره؛ ولكن يكون الأجر في مقابلة مداومته على حضور الموضع، ومراقبته مصالح المسجد في إقامة الجماعة، لا على نفس الصلاة. والفتوى اليوم على الجواز والكراهة عند المتورعين والعاملين بالعزيمة.

وخامستها الطهارة باطناً عن الفسوق والكبائر، والاصرار على الصغائر. والقوم كالوفد، وهو شفيعهم، فهو أولى بهذه. فان تذكر حدثاً في أثناء صلاته فلا ينبغي أن يستحي بل يستخلف من يقرب منه، فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنابة، فاستخلف واغتسل، ثم رجع ودخل في الصلاة.

وسادستها أن لا يكبر حتى يسوي الصفوف، فليلتفت يميناً وشمالاً فان رأى خللا أمر بالتسوية. وكان السلف يتحاذون بالمناكب و يتضامون بالكعاب، والمؤذن يؤخر الاقامة عن الآذان ليتفرغ الناس و يستعدوا؛ وفي الخبر: ليتمهل المؤذن بين الأذان والاقامة، بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره، لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين، وأمر بتقديم العشاء على العشاء.

وسابعتها أن يخفف الركوع والسجود، ولا يزيد في التسبيحات على ثلاث. هذا إذا كثر الجمع. وأما إذا لم يحضر الا المتجردون للدين فلا بأس بالتسعة؛ ولا يزيد في دعاء التشهد على المأثور، ولا يخص في الدعاء نفسه بل يأتي بصيغة الجمع، و ينوي بالتسليمتين القوم والملائكة، وإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن، وإذا وثب يقبل بوجهه على الناس، ولا يقوم المأموم قبل انفتال الامام.

وأما باقي الآداب والشرائط فذكورة في كتب الفقه، فليطلب منها، فإنا لم نلتزم الا ذكر ما أهمله الفقهاء.

المطلب الخامس

في فضل الجمعة وآدابها وسننها

والأحاديث والآثار في فضلها كثيرة مشهورة، ومال الكل الى أن هذا اليوم عظم الله وتعالى وسبحانه به الاسلام وخصص به المسلمين، حتى حرم الأشغال بعد النداء بكل صارف عن السعي الى الجمعة؛ وفي الحديث: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه» وفي لفظ آخر: فقد نبذ الاسلام على ظهره.

ثم أنها تشارك سائر الصلوات في الشروط، وتتميز عنها بستة شروط:

(أحدها) الوقت: حتى لو وقعت التسليمة خارج وقت الظهر فاتت الجمعة، فعليه أن يتمها ظهراً، وفي المسبوق خلاف.

(وثانيها) المكان: فلا يصح الا في المصر ـ وقد عرفته في علم الفقه ـ و يشترط اذن السلطان.

(وثالثها) يشترط الجماعة إلا في سائر الصلوات، وعند بعضهم أربعون ذكوراً مكلفين أحراراً مقيمين، فان نقص واحد ولو في الخطبة والصلاة تبطل.

(ورابعها) اتحاد الجماعة: فلو صلى أربعون متفرقين ما تصح.

(وخامسها) أن تصح جمعتان، فان فعلوا فالصحيح هو الأقدم تحريمة، إلا أن تقع ضرورة.

(وسادسها) الخطبتان وقيل: تصح بقوله الحمدلله؛ وقيل: لا بد من خطبتين طويلتين يجلس بينهما؛ وقيل: هما فريضتان، والقيام فيهما فريضة، وكذا الجلسة بينهما.

وفي الخطبة الأولى أربع فرائض: التحميد وأقله الحمدلله، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والوصية بتقوى الله سبحانه، وقراءة آية من القرآن؛ وكذا فرائض الثانية، إلا أنه يجب الدعاء بدل القراءة. واستماع الخطبة واجب على الأربعين.

وأما السنن: فان زالت الشمس وأذن، وجلس الامام على المنبر، انقطعت الصلاة، سوى التحية، والكلام لا ينقطع الا بافتتاح الخطبة، و يسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه يردون عليه السلام. فاذا فرغ المؤذن، قام الإمام مقبلاً بوجهه على الناس لا يلتفت، و يشغل يديه بقائمة السيف أو العنزة كي لا يعبث بها، و يضع احداهما على الأخرى، ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة، ولا يستعمل غريب اللغة، ولا يتمطط ولا يتغنى، وتكون قصيرة بليغة جامعة.

وتستحب قراءة الآية في الثانية أيضاً، ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب، فان سلم لم يستحق جواباً، والاشارة بالجواب أحسن، ولا يشمت العاطس أيضاً. هذه شروط الصحة.

وأما شروط الوجوب فقد علم الفقه.

وأما آدابها فهي عشرة.

(الأول) أن يستعد لها يوم الخميس، عزماً عليها واستقبالا لفضلها، فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر، لأنها ساعة قوبلت بالساعة المبهمة في يوم الجمعة، و يغسل ثيابه ويختار البيض، و يعد الطيب، و يفرغ قلبه من الأشغال المانعة من البكور الى الجمعة، و ينوي في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فان له فضلاً، لا مفرداً فانه مكروه، بل مع ضم الخميس والسبت، وليشتغل باحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن، فلها فضل كثير، و ينسحب عليها فضل يوم الجمعة.

وقيل: ويجامع أهله في هذه الليلة، واستحبوا أخذ من حديث: «من بكر وابتكر وغسل واغتسل».

وقالوا: معناه حمل أهله على الغسل و يروى بالتخفيف: أي غسل ثيابه.

وبهذه الآداب يدخل في زمرة الغانمين، ويخرج من زمرة الغافلين؛ كما قال بعض السلف: أو في الناس نصيباً من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس، وأخسهم نصيباً من أصبح فيقول ايش اليوم. وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في المسجد الجامع لأجلها.

(والثاني) إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر، فإن كان لا يبكر فأقربه إلى الرواح أحب، ليكون أقرب عهداً بالنظافة. وهذا الغسل مستحب استحباباً مؤكداً، وعند البعض سنة، وعند آخرين واجب. ومن اغتسل ثم أحدث لم يبطل غسله والأحب أن يحترز.

(والثالث) الزينة. وهي مستحبة في هذا اليوم؛ وهي بالكسوة والنظافة والطيب.

أما الكسوة: فأحبها البيض من الثياب، ولا يلبس ما فيه شهرة، ولا

السواد، وليس في لبس السواد فضيلة، فضلاً عن كونها سنة، بل قيل انها بدعة محدثة. والعمامة مستحبة في هذا اليوم سيما من وقت السعي إلى الجمعة إلى تمام الصلاة.

وأما النظافة: فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وما يشابه هذه؛ قال ابن مسعود: من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله منه داء وأدخل فيه شفاء. فإن كان قد دخل الحمام في الخميس أو الأربعاء فقد حصل المقصود؛ وليتطيب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده، ليغلب به الروائح الكريهة، ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين في جواره، وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه، روى ذلك في الأثر؛ قال الشافعي: من نظف ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله.

(الرابع) البكور إلى الجامع. وفضله عظيم. ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين وثلاثة، ويكون سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناوياً للاعتكاف فيه، قاصداً للمبادرة الى جواب نداء الله، والمسارعة إلى مغفرته ورضوانه، والفضل لمن راح إلى الجمعة في الساعة الأولى، ثم الثانية، إلى أن خرج الإمام، وحينئذ طويت الصحف ورفعت الأقلام. والأخبار في هذا الباب كثيرة.

(الخامس) في هيئة الدخول. ينبغي أن لا يتخطى الرقاب، ولا يمر بين أيديهم، والبكور يسهل عليه ذلك اللهم الا أن يجلسوا عند باب الجامع وفي قدام الجامع موضع خال فانه لا حرمة لهم. كذا روى عن الحسن؛ وعنه أيضاً: اذا لم يكن في المسجد إلا من يصلي، فينبغي أن لا يسلم، لأنه تكليف جواب في غير محله.

(السادس) أن لا يمر بين يدي الناس، وليجلس هو إلى قرب من أسطوانة أو حائط حتى لا يمر بين يديه، فإن ذلك لا يقطع الصلاة، ولكنه منهى

عنه؛ وان لم يجد حائطاً أو اسطوانة، فلينصب بين يديه شيئاً طوله قدر الذراع، ليكون ذلك علامة لحده.

(السابع) أن يطلب الصف الأول، فإن فضله كثير كما رويناه في الخبر: «من غسل واغتسل، وبكر وابتكر، ودنا من الإمام واستمع، كان له كفارة ما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام» وفي لفظ آخر: غفر الله له إلى الجمعة الأخرى.

إلا أن في طلب الصف الأول شرائط ثلاثة:

أحدها: أن لا يرى هناك من الامام وتوابعه منكراً يعجز عن تغييره، والا فالتأخر له أسلم وأجمع للهم. فعل ذلك جماعة من العلماء طلباً للسلامة منهم بشر ابن الحارث، وقيل له في التأخر، قال: انما يراد قرب القلوب لا قرب الأجساد.

وثانيها: أن لا يكون عند المنبر مقصورة منقطع من المسجد للسلاطين، وأما المقصورة فقد كره بعضهم الصلاة فيها، الا أن الأقرب أن الكراهة لأجل التخصيص والمنع والا فلا كراهة.

وثالثها: أن المنبر يقطع بعض الصفوف، وانما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر، لأنه متصل، ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع. ويكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة من المسجد، وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب.

(الثامن) أن يقطع الصلاة والكلام عند خروج الامام بأن يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة. وان كان بعيداً، قيل: يجوز أن يتكلم في العلم وغيره، لكن الأولى السكوت، اذ الصلاة اذا حرمت في ذلك الوقت فحرمة الكلام فيه أولى.

(التاسع) أن يراعي في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيره.

فإذا فرغ من صلاة الجمعة، قرأ الحمد لله سبع مرات قبل أن يتكلم، وقل

هو الله أحد والمعوذتين سبعاً سبعاً، فقد روى عن بعض السلف، ان من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزاً له من الشيطان.

و يستحب أن يقول بعد صلاة الجمعة: اللهم يا غني يا حميد مبدىء يا معيد يا رحيم يا ودود اغنني بحلالك عن حرامك و بفضلك عمن سواك. يقال: من داوم على هذا الدعاء، أغناه الله سبحانه عن خلقه، ورزقه من حيث لا يحتسب.

ثم يصلي بعد الجمعة ست ركعات، وفي رواية أربعا، وفي رواية ركعتين، والكل صحيح في أحوال مختلفة، والأكمل الأفضل.

(العاشر) أن يلازم المسجد حتى يصلي العصر، فإن وقف إلى المغرب فهو أفضل، وكان للأول ثواب الحج، وللثاني ثواب العمرة. فإن لم يأمن من التصنع، ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه، أو يخاف الخوض فيما لا يعني، فالأفضل أن يرجع إلى بيته، ذاكراً الله عز وجل، مفكراً في آلائه، شاكراً على توفيقه، خائفاً من تقصيره، مراقباً لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس، حتى لا تفوته الساعة الشريفة. ولا ينبغي أن يتكلم في الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا فأنه منهى عنه.

بيان آداب نهار الجمعة

وهي سبعة:

(الأول) حضور مجالس العلم بكرة أو بعد الصلاة و بعد العصر. ولا يخلو المريد في جميع يوم الجمعة عن الخيرات، حتى توافيه الساعة الشريفة وهو في خير. وان وجد عالماً يذكر بأيام الله عز وجل و يفقه في دين الله يجلس إليه، واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من النافلة؛ فقد روى أبو ذر أن حضور مجلس العلم أفضل من ألف ركعة. وكذا يزجر القصاص ويخرجهم من المسجد لأنه لا خير فيهم، وانه بدعة، وقد كثر نكير الصحابة في حق القصاص.

(الثاني) أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة. وفي الخبر المشهور: أن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئاً الا أعطاه؛ وفي خبر آخر: لا يصادفها عبد يصلي. واختلف فيها: فقيل انها عند طلوع الشمس، وقيل: عند الزوال، وقيل: مع الأذان، وقيل: اذا صعد الخطيب المنبر وأخذ في الخطبة، وقيل: اذا قام الناس إلى الصلاة، وقيل: آخر وقت العصر، وقيل: قبل غروب الشمس، و يروي هذا عن فاطمة رضي الله عنها ترويها عن أبيها صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض العلماء: هي مبهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر، حتى تتوفر الدواعي على مراقبتها؛ وقيل أنها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر. قال الغزالي: وهذا هو الأشبه، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره؛ وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم: «ان لربكم في أيام دهركم نفحات ألا تتعرضوا لها». فينبغي أن يكون العبد في جميع نهاره متعرضاً له، بأحضار القلب وملازمة الذكر والنزوع عن وساوس الدنيا، فعساه يحظى بشيء من تلك النفحات.

(الثالث) يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم، و يقول: اللهم صلّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي؛ ولو أتى بالمشهور في التشهد لكان مصلياً أيضاً. و ينبغي أن يضيف اليها الاستغفار فإن ذلك مستحب أيضاً في ذلك اليوم.

(الرابع) أن يكثر من قراءة القرآن خاصة سورة الكهف؛ عن ابن عباس وأبي هريرة: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطي نوراً من حيث يقرأها إلى مكة، وغفر له إلى الجمعة الأخرى، وفضل ثلاثة أيام، وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وعوفي من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال».

و يستحب أن يختم القرآن في يوم الجمعة ان قدر، وليكن ختمه القرآن في ركعتي الفجر (إذا) قرأ بالليل، وفي ركعتي المغرب وبين الآذان والاقامة

للجمعة، فله فضل عظيم. وكان العباد يستحبون أن يقرأوا يوم الجمعة قل هو الله أحد ألف مرة؛ يقال: ان من قرأها عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمه. وكانوا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة، و يقولون: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ألف مرة. وان قرأ المسبحات الست في يوم الجمعة أو ليلتها فحسناً.

وليس يروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سوراً بأعيانها إلا في يوم الجمعة ولياليها. وكان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، وفي العشاء الآخرة سورة الجمعة وسورة المنافقون، وكان يقرأها في ركعتي الجمعة، وكان يقرأ في صبح الجمعة سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان.

(الخامس) الصلاة. يستحب أن يصلي إذا دخل المسجد قبل أن يجلس أربع ركعات، يقرأ فيهن قل هو الله أحد مائتي مرة، في كل ركعة خمسين مرة. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، أو يرى له.

ولا يدع ركعتي التحية وان كان الامام يخطب، ولكن يخفف و يصليها بعد تصلية الامام إلى جانبيه، اذ حينئذ يشرع في مدح السلاطين ولا يجب استماعه.

و يستحب في هذا اليوم أن يصلي أربع ركعات بأربع سور: سورة الأنعام والكهف وطه و يس، فإن لم يحسن قرأ يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك، ولا يدع قراءة هذه الأربع سور من ليلة الجمعة ففيه فضل كثير، ومن لا يحسن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة ختمه، و يكثر من سورة الاخلاص.

و يستحب أن يصلي في هذا اليوم صلاة التسبيح ــ وستعرفها ــ وكان ابن عباس يصليها بعد الزوال، والأحسن في يوم الجمعة أن يشتغل بالصلاة الى الزوال، وبعد الجمعة باستماع العلم إلى العصر، ثم بالتسبيح والاستغفار إلى المغرب.

(**السادس**) الصدقة. وهي تضاعف في هذا اليوم، الا أن يتصدق على من شأن والإمام يخطب لأنه مكروه. وكره بعض العلماء التصدق على السائل اذا تخطى رقاب الناس، الا أن يسأل قائماً أو قاعداً في مكان.

قال كعب الأحبار: من شهد الجمعة، ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة، ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وخشوعهما، ثم يقول: اللهم اني أسألك باسمك: بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الذي لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، لم يسأل الله شيئاً الا أعطاه.

قال بعض السلف: من أطعم مسكيناً يوم الجمعة، ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحداً، ثم قال حين يسلم الامام: بسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم، أسألك أن تغفر لي وترحمني وأن تعافيني من النار، ثم دعا بما بدا له استجيب له.

(**السابع**) أن يجعل هذا اليوم للآخرة، فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا، ويكثر فيه الأوراد، ولا يبتدىء فيه السفر؛ فقد روى أن من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه، والسفر فيه بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت.

وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقاء لشربه أو ليسبله، حتى لا يكون مبتاعاً في المسجد، فإن لم يكن منه بد، قالوا: يعطى الثمن خارج المسجد.

وبالجملة يزيد في هذا اليوم في أوراده وأنواع خيراته، فإن الله سبحانه اذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة بسيء الأعمال، ليكون أوجع في عقابه وأشد لمقته وحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت. ويستحب في يوم الجمعة دعوات مخصوصة وردت بها الآثار. وستعرف في باب الدعوات ان شاء الله تعالى.

المطلب السادس

في علم النوافل من الصلوات

فأعلم: ان ما عدا الفرائض من الصلوات: أما سنن، أو مستحبات، أو تطوع.

والأول ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وواظب عليه.

والثاني ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه.

والثالث ما لم يرد في عينه أثر، ولكنه تطوع به العبد في مناجاة ربه، مع ورود الشرع بفضل الصلاة مطلقاً.

وتسمى هذه الثلاثة نافلة مقابلة للفرض. وقد يعرض لبعض السنن فضيلة الآخر؛ فإن سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد. وأفضل سنن الجماعة العيد، ثم الكسوف، ثم الاستسقاء. وأفضل سنن الانفراد الوتر، ثم ركعتا الفجر، ثم الرواتب الأخر.

وأعلم أن النوافل أربعة أقسام بما يتعلق بأسباب وما يتعلق بأوقات، وهو هذا أما أن يتكرر في اليوم والليلة أو في الأسبوع أو في السنة وهذه أربعة أقسام:

القسم الأول

ثمانية: خمسة منها رواتب الصلوات الخمس، وثلاثة وراءها، وهو صلاة الضحى، وما بين العشاءين، والتهجد. أما رواتب الصلوات الخمس فقد عرفت في علم الفقه.

وأما صلاة الضحى: فأكثر ما نقل فيها ثماني ركعات، هذا رواية أم هانىء؛ وفي رواية عائشة أربعا، ويزيد ما شاء الله لم تحد الزيادة؛ وروى: ست ركعات، وقيل: أقلها ركعتان، وأعلاها اثنتا عشرة ركعة. هكذا ذكر

السهروردي في (العوارف). ووقتها اذا أشرقت الشمس وارتفعت وكانت في ربع السماء من جانب الشرق، وهذا نظير وقت العصر في الربع الغربي.

وأما صلاة ما بين العشاءين: فهي سنة مؤكدة ولها فضل عظيم، ويقال لها: صلاة الأوابين، وعددها ست ركعات.

وأما صلاة التهجد ووقتها الثلث الأخير من الليل الى طلوع الفجر، وينبغي أن لا ينام بينها وبين طلوع الفجر، وتقليل هذه الصلاة بلا نوم بعدها أفضل من تطويلها مع النوم عقيبها. واختلف في عدد ركعاتها، وأقلها ركعتان إلى اثنتي عشرة ركعة واما فضائلها فخارجة عن حد الاحصاء.

القسم الثاني

هي صلاة أيام الأسبوع ولياليه

(يوم الأحد) يصلي فيه أربع ركعات؛ وفي رواية: خص وقتها بما بعد الظهر —يقرأ في كل ركعة— بعد الفاتحة —آمن الرسول مرة؛ وفي رواية يقرأ في الأولى تنزيل السجدة، وفي الثانية تبارك، ثم تشهد وسلم؛ ثم يصلي الآخرين ويقرأ في كل منها سورة الجمعة، وكل هذه السور بعد الفاتحة. وأما فضائلها: أعطاه الله ثواب نبي، وحجة وعمرة، وبكل حرف مدينة في الجنة من مسك اذفر، وكتب له بكل ركعة ألف صلاة، وأعطى له بعدد كل نصراني ونصرانية حسنات، وكان حقاً على الله أن يقضي حاجته.

(يوم الاثنين) يصلي ركعتين عند ارتفاع النهار، يقرأ في كل منها بعد الفاتحة آية الكرسي والاخلاص والمعوذتين مرة مرة، وبعد السلام يستغفر الله عشر مرات، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم عشر مرات، غفر الله له ذنوبه، رواه جابر؛ وفي رواية أنس: اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل منها بعد الفاتحة آية الكرسي مرة، فإذا فرغ، قرأ الاخلاص اثنتي عشرة مرة، واستغفر الله اثنتي عشرة مرة. وفضائلها: دخول الجنة مع كرامات من الحلل والتيجان، وتشييع الملائكة له مع كل منهم هدية له.

(يوم الثلاثاء) يصلي فيه عند انتصاف النهار عشر ركعات، وفي رواية: عند ارتفاع النهار، يقرأ في كل ركعة ــ بعد الفاتحة ــ آية الكرسي مرة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات؛ رواه أنس. وأما فضائلها: لم يكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً، وان مات في هذه المدة مات شهيداً وغفر له ذنوب سبعين سنة.

(يوم الأربعاء) اثنتي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار، يقرأ في كل ركعة ــ بعد الفاتحة ــ آية الكرسي مرة والاخلاص ثلاثا والمعوذتين ثلاثا؛ رواه معاذ. وفضائلها: دفع الله عنه عذاب القبر وضيقه وظلمته وشدائد القيامة، ورفع له من يومه عمل نبي، ونادى به ملك عند العرش: يا عبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك.

(يوم الخميس) ركعتين بين الظهر والعصر، يقرأ في الأولى ــ بعد الفاتحة ــ آية الكرسي مائة مرة، وفي الثانية ــ بعد الفاتحة قل هو الله مائة مرة، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة؛ رواه ابن عباس. وفضائلها: أعطاه الله ثواب صوم رجب وشعبان ورمضان، وثواب الحج، وكتب له بعدد كل من آمن بالله وتوكل عليه حسنة.

(يوم الجمعة) إذا ارتفعت الشمس قدر رمح أو أكثر، يصلي بعد اسباغ الوضوء سبحة الضحى ركعتين، من صلاها ايماناً واحتساباً كتب الله تعالى له مائتي حسنة، ومحا عنه مائتي سيئة؛ ومن صلى أربع ركعات رفع الله عز وجل له في الجنة أربعمائة درجة؛ ومن صلى ثماني ركعات رفع الله له في الجنة ثمانمائة درجة، وغفر له ذنوبه كلها؛ ومن صلى اثنتي عشرة ركعة كتب الله سبحانه له الفاً ومائتي حسنة، ومحا عنه ألفاً ومائتي سيئة، ورفع له في الجنة ألفاً ومائتي درجة؛ رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً؛ وفي رواية ابن عمر مرفوعاً: من صلى يوم الجمعة قبل صلاة الجمعة قرأ في كل ركعة الحمد لله ــ قل هو الله أحد خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له.

(يوم السبت) يصلي أربع ركعات، يقرأ في كل منها فاتحة الكتاب مرة، وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات، وبعد الفراغ آية الكرسي؛ رواه أبو هريرة

مرفوعاً. وفضائلها كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة، ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله بكل حرف ثواب شهيد، وكان تحت ظل عرش الله تعالى مع النبيين والشهداء.

أما الليالي: فليلة الأحد: يصلي عشرين ركعة، في كل ركعة الفاتحة مرة والاخلاص خمسين مرة، والمعوذتين مرة، ثم استغفر الله مائة مرة، واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة، وتبرأ من حوله وقوته والتجأ الى الله، ثم قال: أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن آدم صفوة الله وفطرته، وابراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله، ومحمد حبيب الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — كان له من الثواب بعدد من دعا الله ولداً، و بعثه الله يوم القيامة مع الآمنين، وكان حقاً على الله أن يدخله الجنة مع النبيين. رواه أنس.

ليلة الاثنين: يصلي أربع ركعات، يقرأ في الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات، وفي الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة وفي الثالثة ثلاثين، وفي الرابعة أربعين، كلاهما بعد الحمد لله، ثم سلم وقرأ قل هو الله خمسا وسبعين مرة، واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم خمسا وسبعين مرة، ثم سأل الله حاجته، كان حقاً على الله عز وجل أن يعطيه سؤاله فيما سأل. وتسمى هذه صلاة الحاجة، رواه أنس.

ليلة الثلاثاء: يصلي ركعتين، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس عشرة مرة، و يقرأ بعد التسليم آية الكرسي خمس عشرة مرة، و يستغفر الله سبحانه خمس عشرة مرة.

ليلة الأربعاء: يصلي ركعتين، يقرأ في الأولى — بعد الفاتحة — قل أعوذ برب الفلق عشر مرات، وفي الثانية — بعد الفاتحة — قل أعوذ برب الناس عشر مرات. ومن صلاها نزل له من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة؛ وفي رواية فاطمة رضي الله تعالى عنها: ست ركعات، يقرأ في كل

ركعة ــ بعد الفاتحة ــ قل اللهم مالك الملك، إلى آخر الآية؛ وبعد صلاته يقول سبعين مرة: جزى الله محمداً عنا ما هو أهله ــ غفر الله له ذنوب سبعين سنة، وكتب له براءة من النار؛ وفي رواية عثمان بن مظعون عشر ركعات، وقرأ في كل منها الحمد لله وآمن الرسول إلى آخر السورة مرة، والاخلاص ثلاث مرات؛ من صلاها فكأنما خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وان كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم والأمواج وزبد البحار والخلق والخلائق، وغفر الله له ذنوب السر والعلانية، وأدخله الجنة في أول زمرة من زمرة المتقين والفائزين والمقربين، دون حساب وعذاب ولا عرض وسؤال، وباهى الله به الملائكة، وسماه العتيق من النار. فقال عثمان بن مظعون: يا رسول الله أن هذا ثواب عظيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عثمان والذي بعثني بالحق، أن الله ليعطي لمن صلى هذه الصلاة أجر من صدق اثني عشر نبياً، وأجر من جاهد في الله حق جهاده ألف سنة، وبنى الله له في الجنة دار السلام ألف قصر، مع ماله عند الله من المزيد.

ليلة الخميس: يصلي ركعتين ما بين المغرب والعشاء، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وآية الكرسي خمس مرات، وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس مرات؛ فإذا خرج من صلاته استغفر الله خمس عشرة مرة، وجعل ثوابه لوالديه، فقد أدى حقهما وان كان عاقاً لهما، وأعطاه الله تعالى خير ما يعطى الصديقين والشهداء. رواه أبو هريرة.

ليلة الجمعة: يصلي بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة قل هو الله أحد احدى عشرة مرة، فكأنما عبد الله اثنتي عشرة سنة: صيام نهارها وقيام ليلها. رواه جابر؛ وفي رواية أنس يصلي صلاة العشاء الآخرة في جماعة، ويصلي ركعتي السنة، ثم يصلي بعدهما عشر ركعات، قرأ في كل ركعة الحمد لله وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة، ثم أوتر بثلاث ركعات، ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة. فمن فعل هذه فكأنما أحيا ليلة القدر. وقال صلى الله عليه وسلم: «أكثروا من الصلاة عليَّ في الليلة الغراء واليوم الأزهر ليلة الجمعة ويوم الجمعة».

ليلة السبت: يصلي بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة، من صلاها بني له قصر في الجنة، وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، وتبرأ من اليهود، وكان حقاً على الله تعالى يغفر له. رواه أنس.

القسم الثالث

ما تكرر بتكرر السنين

وهي أربعة:

(الأول) صلاة العيدين. وهي سنة مؤكدة وشعار من شعائر الدين. وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور:

الأول: التكبير.

والثاني: يغتسل ويتزين ويتطيب يوم العيد.

والثالث: يخرج من طريق ويرجع من آخر.

الرابع: الخروج إلى الصحراء الا في المطر في الآفاق، والا بمكة وببيت المقدس. ويجوز للضعفاء أن يتخلفوا بالمساجد وان كان يوم صحو.

الخامس: رعاية الوقت، ويستحب تعجيل صلاة الأضحى للذبح، وتأخير الفطر للصدقة.

السادس: يقرأ في الركعة الأولى سورة ق بعد الفاتحة، وفي الثانية اقتربت بعد الفاتحة أيضاً.

السابع: أن يضحي بكبش؛ ومن أراد أن يضحي فلا يقلم أظفاره في عشر ذي الحجة. قال سفيان الثوري: يستحب أن يصلي بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة، وبعد عيد الأضحى ست ركعات؛ وقال: هو من السنة.

(الثاني) التراويح عشرون ركعة، وكيفيتها مشهورة، وهي سنة مؤكدة وان كانت دون العيدين؛ والسنة أن يصليها مع الجماعة، وتفصيل هذه في كتب الفقه.

(**الثالث) صلاة رجب.** عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من أحد يصوم أول خميس من رجب، ثم يصلي فيما بين العشاء والعتمة اثنتي عشرة ركعة، يفصل بين كل ركعتين بتسليمة، يقرأ في كل ركعة ــ بعد لفاتحة ــ سورة القدر ثلاث مرات، والاخلاص اثنتي عشرة مرة؛ فإذا فرغ صلى على محمد سبعين، يقول: اللهم صلِّ على محمد النبي الأمي وعلى آله؛ ثم يسجد و يقول في سجوده سبعين مرة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح؛ ثم يرفع رأسه و يقول سبعين مرة: رب أغفر وأرحم، وتجاوز عما تعلم، فانك أنت العلي الأعظم؛ ثم يسجد سجدة أخرى و يقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى؛ ثم يسأل حاجته فانها تقضى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يصلي أحد هذه الصلاة الا غفر الله له جميع ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل وورق الجبال وورق الأشجار، و يشفع يوم القيامة في سبعمائة من أهل بيته ممن قد استوجب النار». هذه الصلاة مستحبة، وطعن فيها بعض المتأخرين، وادعوا أن الحديث الوارد فيها موضوع، وقيل: خبر آحاد. الا أنه لمواظبة أهل القدس، بل سائر المسلمين في الأمصار لا يسمحون بتركها، ولهذا أحببت ايرادها.

(**الرابع) صلاة شعبان.** في الليلة الخامسة عشرة منه يصلي مائة ركعة بخمسين تسليمة، يقرأ في كل ركعة بعد فاتحة الكتاب ــ «قل هو الله أحد» ــ عشر مرات؛ وان شاء صلى عشر ركعات، يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة «قل هو الله أحد» مائة مرة. كان السلف يصلونها و يسمونها صلاة الخير، وربما صلاها جماعة. روى عن الحسن رضي الله عنه انه قال: حدثني ثلاثون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة، نظر الله إليه سبعين نظرة، وقضي له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة.

القسم الرابع
ما يتعلق بأسباب عارضة

وهي تسعة:

الأولى: صلاة الخسوف. وهذه مذكورة في كتب الفروع.

الثانية: صلاة الاستسقاء. وهي مثل صلاة العيد بلا فرق، الا أنه يخرج فيها بثياب، بذلة واستكانة متواضعين، بعدما صاموا ثلاثة أيام، وتقديم صدقة وتوبة عن المعاصي، والخروج من المظالم، ثم يخرج اليوم الرابع بالصبيان والعجائز؛ وعند البعض: يخرج الدواب لمشاركتهم في الحاجة؛ وفي الحديث: «لولا صبيان رضع ومشايخ ركع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً». وعند البعض: لا يمنع أهل الذمة اذا خرجوا متميزين، والمختار عندنا منعهم.

والثالثة: صلاة الجنازة. وتفصيلها وتفصيل صلاة الاستسقاء مذكور في كتب الفقه.

الرابعة: تحية المسجد. وهي ركعتان فصاعداً سنة مؤكدة، حتى أنهم جوزوها في الأوقات المكروهة وعند الخطبة، ولو اشتغل بفرض أو قضاء تأدت به التحية وحصل الفضل. والمقصود عدم خلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياماً بحق المسجد، ولهذا يكره الدخول بلا وضوء، فإن دخل لعبور أو جلوس فليقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، يقولها أربع مرات. يقال أنها عدل ركعتين في الفضل.

الخامسة: ركعتان بعد الوضوء مستحبتان، اذ الوضوء معرض الآفات فالمبادرة إلى استيفاء المقصود به أولى.

السادسة: ركعتان عند دخول المنزل والخروج منه يدفعان مدخل السوء ومخرج السوء؛ وكذلك عند ابتداء السفر في المنزل وعند الرجوع منه في المسجد؛ كل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان بعض الصالحين يصلي ركعتين اذا أكل أكلة أو شرب شربة، وفي كل أمر يحدثه، كعقد

النكاح، وابتداء النصيحة والمشورة، وكانوا يقدمون في عقد النكاح والنصيحة والمشورة الحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ وكذا عند شراء دار جديدة، والخروج من منزل والدخول فأنه نوع سفر خفيف، وكذا عند الأحرام.

السابعة: صلاة الاستخارة. فمن هم بأمر وكان لا يدري عاقبته، ولا يعرف أن الخير في فعله أو تركه، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي ركعتين، يقرأ في الأولى ــ بعد الفاتحة ــ قل يا أيها الكافرون، وفي الثانية قل هو الله أحد بعد الفاتحة، فإذا فرغ دعا وقال: «اللهم اني أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك، فأنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم ان كنت تعلم ان هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله، فقدره لي ثم يسره لي، وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله، فأصرفني عنه وأصرفه عني وقدر لي الخير أينما كان ثم رضني به، انك على كل شيء قدير». رواه جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن. وقال صلى الله عليه وسلم: «اذا هم أحدكم بأمر فليصل ركعتين ثم يسم الأمر و يدعو بما ذكرناه».

الثامنة: صلاة الحاجة فمن ضاق عليه أمره، ومست حاجته في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه، فقد روى عن وهيب بن الورد أنه قال: أن من الدعاء الذي لا يرد أن يصلي العبد اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة بأم القرآن وآية الكرسي وقل هو الله أحد، فإذا فرغ يخر ساجداً، ثم قال: سبحان الذي لبس العز وقال به، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي المن والفضل، سبحان ذي العز والكرم، سبحان ذي الطول، أسألك بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، و باسمك الأعظم وجدك الأعلى، وكلماتك التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، أن تصلي على محمد؛ ثم يسأل حاجته التي لا معصية فيها فيجاب ان شاء

الله تعالى. قال وهيب: بلغنا انه كان يقال: لا تعلموها سفهاءكم فيتعاونوها على معصية الله.

التاسعة: صلاة التسبيح. وهذه إن لم تختص بوقت ولا سبب، إلا أن المستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر، ولهذا أوردتها هاهنا. روى عكرمة عن ابن عباس انه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعباس بن عبد المطلب: الا أعطيك الا أمنحك، الا أحبوك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله سبحانه ذنبك: أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، سره وعلانيته: تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة، فإذا فرغت من القراءة في أول كل ركعة وانت قائم قلت: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك فتقولها عشرا، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا، ثم تسجد السجدة الثانية فتقولها عشرا، ثم تقوم فتقولها عشراً، فذلك خمس وسبعون ركعة، تفعل ذلك في أربع ركعات، وان استطعت أن تصليها في كل يوم فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فان لم تفعل ففي السنة مرة؛ وفي رواية أخرى أنه يقول في أول الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، ثم تسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشرا بعدها، والباقي كما سبق عشراً عشراً، ولا تسبيح بعد السجدة الأخيرة قاعداً وهو الأحسن، وهو اختيار ابن المبارك. والمجموع من الروايتين ثلاثمائة تسبيحة، فإن صلاها نهاراً فتسليمة واحدة، وان صلاها ليلاً فتسليمتين أحسن، اذ ورد أن صلاة الليل مثنى مثنى؛ وان زاد بعد التسبيح قوله: ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لكان أحسن، فقد ورد في ذلك بعض الروايات. ولا يستحب شيء من هذه النوافل في الأوقات المكروهة، الا تحية المسجد دون غيرها، وأما في مذهبنا: فلا يجوز الا الفوائت وسجدة التلاوة وصلاة الجنازة وركعتي الطواف والذي أفسده ثم أعاد، والله أعلم بالصواب.

الأصل الخامس
في علم أسرار الزكاة

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في مراعاة شروطه الظاهرة

وهي خمسة:

الأول: النية. وهي أن ينوي بقلبه زكاة الفرض، أو نوى التوكيل بأداء الفرض.

الثاني: البدار عقيب الحول ويجوز تعجيله قبل الحول.

الثالث: أن يخرج المنصوص عليه ولا يبدله بقيمته وهو الأحوط، وان جاز ذلك في الأصح.

الرابع: أن لا ينقل إلى بلد آخر إلا إلى قريبه وإلى أحوج من أهل بلده.

الخامس: أن لا يخص بصنف واحد من الأصناف الأربعة، ولا يتكلف جميع الأصناف. وتفاصيل هذه الشروط خارج عن طوقنا مع استيفائها في الكتب الفقهية.

المطلب الثاني
في بيان الآداب الباطنة للزكاة

وهي ثماني وظائف:

(الأولى) أن يفهم أن الغرض من الزكاة الامتحان بأن لا يكون لها محبوب سوى الواحد الحق؛ ولها مراتب: إحداها: الذين نزلوا عن جميع أموالهم كما فعله الصديق رضي الله عنه؛ وثانيتها: الذين يدخرون على قدر الحاجة

وصرف الحاجة في وجوه البر؛ وثالثتها: الذين يقتصرون على أداء الواجب وهذه أقل الرتب؛ الثانية: التطهير من صفة البخل التي هي من المهلكات، الثالثة: شكر لنعمة المالية.

(الوظيفة الثانية) التعجيل وقت الأداء، اظهاراً للرغبة في الامتثال وايصال المسرة الى قلوب الفقراء، ومبادرة لعوائق الزمان أن يعوق من الخيرات لأن في التأخير آفات.

(الوظيفة الثالثة) الأسرار فإن ذلك أبعد من السمعة والرثاء.

(الوظيفة الرابعة) أن يقصد اقتداء الناس عند الاظهار، لأن تأخير السائل خيفة من الرثاء غير صحيح، بل ينبغي أن يتصدق و يتحفظ عن الرثاء بقدر الإمكان، اللهم الا أن يتأذى الفقير بهتك سره فعند ذلك يستحسن الإخفاء.

(الوظيفة الخامسة) أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى، كما قال تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾[1]. قيل: المن أن يذكرها، والأذى أن يظهرها؛ وقيل: المن أن يستخدمه بالعطاء، والأذى أن يعيره بالفقر، وقيل: المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه، والأذى أن يوبخه و ينتهره بالمسكنة.

وأعلم أن المن والأذى ينشآن من رؤية المعطى نفسه محسناً؛ وأنه ظن باطل، لما عرفت من أن الغرض منه إظهار حب الله، وتطهير نفسه عن رذيلة البخل، وشكراً لنعمة المال طلباً للمزيد. فظهر منه أنه لا معاملة بينه و بين الفقير الا فضل الفقير عليه بقبول أوساخ ماله، وتسببه لأداء فرضه وتحصيله الثواب الجزيل.

ومن علم فضل الفقر على الغنى، وان صلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام، وأنه مسخر له، يكتسب المال لأجله وهو ينتفع به بلا حساب ولا عذاب في طريق كسبه، كيف يطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٤.

والخدمة والتوقير في المجالس: وهذا معنى المن؛ وكيف يعيره، ويخشن الكلام، و يقطب الوجه، وبهتك السر بالاظهار وفنون الاستخفاف: وهذا معنى الأذى.

وهذا المن والأذى ــ وان كانا أمرين باطنين ــ الا أن لهما علامة ظاهرة، وهو أن الفقير لو جنى عليه بعد التصدق، و يفرض هذه الجناية قبله، ثم ينظر: هل كان استنكاره على ما فعله بعد التصدق زائداً على استنكاره على ما فعله قبل التصدق، فإن كان زائداً ففي باطنه المن، ثم الأذى يلازمه عادة، ولا أقل من الجواز فيمن جاز منه المن.

وأما علاج هاتين الرذيلتين: أما باطناً فملاحظة الأمور المذكورة؛ وأما ظاهراً فالتذلل للفقير والمنة له بأن يقبل صدقته، حتى كان بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير ويمثل قائماً و يسأله قبولها؛ وكان بعضهم يبسط يده ليأخذ الفقير منه لتكون يد الفقير هي العليا. وكانوا لا يتوقعون منه الدعاء لأنه شبه المكافأة، وكانوا يقابلون الدعاء بمثله، فالمذكور أولاً هو العلم، وثانياً هو العمل، والقلب ينصبغ بالأعمال الحسنة، ولا يعالج القلب الا بمعجون العلم والعمل.

(الوظيفة السادسة) أن يستصغر العطية والا داخل العجب، وهو من المهلكات ويحبط الأعمال. وهو غير المن والأذى، اذ في بناء المساجد والربط العجب دونهما. والدواء للاستعظام والعجب: أما العلم: فأنه يستحي من حيث أنه بذل من الكثير بالقليل، وقنع بأخس درجات البذل؛ وأيضاً المال لله وله المنة اذا أعطاه اياه ووفقه لبذله، وأيضاً أنه يرجو في الآخرة الثواب وهو عوضه اضعاف ما أعطاه، فكيف يستعظم بما ينتظر ثوابه؛ وأما العمل: فهو أن يستحي من أن لم يبذل كله لله ــ وهو الأحب عنده ــ والمال كله لله، وهو استعمل البخل وترك ما أحبه صاحب المال.

(الوظيفة السابعة) أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه اليه وأطيبه وأحله، و يستحي من أن يؤثر نفسه وأهله وعبيده على الله تعالى والمال له تعالى، وأيضاً أنه يبقي أطيبه لمن يرثه من بعده، ولا يقدم ذلك لنفسه؛ وليس له من ماله إلا ما أكل فأفناه، وما لبس فأبلاه، وما تصدق فأبقاه.

(الوظيفة الثامنة) أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة من الأتقياء، وهؤلاء ستة أصناف:

الأول: الأتقياء المتجردون لتجارة الآخرة والمعرضون عن الدنيا، فتكون شريكاً لهم في طاعتهم بإعانتك اياهم.

الثاني: العلماء خاصة، فإن في ذلك إعانة للعلم وهو أشرف العبادات مهما صحت فيه النية.

الثالث: أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه بالتوحيد؛ من جملة توحيده: أن يحمد الله تعالى عند أخذه و يشكره، ورأى النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة، لأنها مقهور مسخر بتسخير الله تعالى. ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط ـــ الا من حيث أنهم وسائط ـــ فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي بسره.

الرابع: من يكون مستتراً ومخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى، أو يكون من أهل المروءة، أو ممن ذهبت نعمته و بقيت عادته فهو يتعيش في جلباب التجمل؛ قال الله تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافاً﴾(١). و ينبغي أن يفحص هؤلاء في كل محلة عن أهل الدين، فثواب صرف المعروف اليهم اضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال.

الخامس: أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو بسبب من الأسباب؛ قال الله تعالى ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾(٢). أي حبسوا في طريق الآخرة؛ أما لعيلة أو ضيق معيشة أو اصلاح قلب، لا يستطيعون ضرباً في الأرض: لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف بهذه الأسباب.

السادس: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فيكون صدقة وصلة رحم، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يخفى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(٢) الآية السابقة.

المطلب الثالث

علم آداب قابض الصدقة

ولا يستحق إلا حر لا عبد، والا مسلم لا كافر، ولا يعطى إلى هاشمي ولا مطلبي، لأن الله تعالى صانها عن أوساخ الناس وأبدل منها خمس الغنائم، فإن المصارف ثمانية: منهم الفقراء: وهم الذين ليس لهم مال ولا قدرة على الكسب؛ ومنهم المساكين: وهم الذين لا يفي دخلهم بخرجهم؛ ومنهم العاملون: وهم الساعون لحفظ أموال المسلمين، كالعريف والكاتب والمستوفي والحافظ، ولا يدخل فيهم السلطان والقاضي؛ ومنهم المؤلفة قلوبهم وهم سقطوا بعزة الإسلام اليوم؛ ومنهم المكاتبون؛ ومنهم الغارمون في طاعة أو مباح؛ ومنهم الغزاة الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة؛ ومنهم ابن السبيل: وهم الفقراء الذين لهم مال في بلادهم.

وأما وظائف القابض خمس:

الأول: أن يفهم أن المال لأجل المعاونة على عبادته تعالى؛ فالأغنياء يتعبون في كسبه وحفظه، وركبوا متن الخطر، وصار المال عليهم محنة وفتنة وبلية؛ والفقراء انتفعوا بالمال ولم يقاسوا شدائدهم، وهذا منتهى النعمة، فليأخذوه رزقاً من الله وعوناً على طاعته، ولينو تقديمه على الطاعة؛ ومن صرفه إلى المعصية كان كافراً للنعمة، مستحقاً للمقت والبعد من الله تعالى.

الثاني: أن يشكر المعطي، فيدعو له و يثني عليه، لكن لكونه واسطة لا يمنع رؤية النعمة من الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يشكر الناس لم يشكره الله تعالى». فوظيفة المعطي الاستصغار، ووظيفة القابض الاستعظام، وعلى كل منهما القيام بحقه.

الثالث: أن ينظر فيا يأخذه، فإن لم يكن من حله تورع عنه؛ كأموال الأتراك والجنود وعمال السلطان، إلا إذا ضاق عليه الأمر، وكان ما يسلم إليه يعرف له مالكاً معيناً، فله أن يأخذ بقدر الحاجة.

الرابع: أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه فيا يقدر ما يأخذه، فلا يأخذ الا القدر المباح. مثلا: يأخذ بقدر دينه ان كان مديوناً، وان كان مسافراً بقدر الزاد وكراء الدابة إلى مقصده، وان كان في منزله أثاث يستغنى عنه أو عن نفاسته وجودته فليحترز عن قبوله فإن الورع في ذلك، ومنهم من لم يجوز أخذ ما زاد على قوت يومه وهذه مبالغة، ومنهم من لم يجوز أخذ ما زاد على شهر وهو أقرب للتقوى، ومنهم من لم يجوز ما زاد على قوت سنة وهذا أقصى ما يرخص فيه، مستدلاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخر لعياله قوت سنة، وذلك لأن السنة اذا تكررت تكررت أسباب الدخل، والأقرب إلى الاعتدال الكفاية إلى السنة، وما زاد على ذلك ففيه خطر فيا دونه تضييق.

الخامس: أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه، فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه لأنه لا يستحق مع شركائه الا الثمن، بمقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه، وهذا السؤال واجب والناس فيه متساهلون، الا إذا غلب على ظنه عدم النقص عن قدر الواجب.

المطلب الرابع

في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

ولا حاجة إلى ذكر فضائلها لشهرتها وكثرة الآيات والأخبار في ذلك.

أما إخفاء الصدقة ففيها معان:

الأول: أنه أبقى للستر على الآخذ وأصون لستر مروءته، وصاروا ممن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

الثاني: أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم، فأنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه، و يظنون أنه مستغن عنه، وأنه آخذ على زيادة قدر الحاجة، ففي الأخفاء صيانتهم عن هذه الجرائم.

الثالث: اعانة المعطي على أسرار العمل، لأن في السر فضلاً على الجهر، والإعانة على إتمام المعروف معروف.

الرابع: ان في اظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً، وليس للمؤمن أن يذل نفسه.

الخامس: الاحتراز عن شبهة الشركة ــ قال صلى الله عليه وسلم: «من أهدى إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها».

وأما الاظهار والتحدث ففيه أربعة معان:

الأول: الاخلاص والصدق والسلامة من تلبيس الحال والمراياة.

الثاني: اسقاط الجاه والمنزلة، واظهار العبودية والمسكنة، والتبرؤ من الكبرياء ودعوى الاستغناء، واسقاط النفس عن أعين الخلق.

الثالث: أن العارف لا نظر له إلا إلى الله تعالى فلا حاجة إلى الاخفاء، والسر والعلانية عنده سواء والا لنقص في توحيده.

الرابع: ان الأظهار لأقامة الشكر.

وإذا عرفت هذا الاختلاف، فاعلم أن الحق لا يجزم بفضيلة الاخفاء أو الاظهار مطلقاً، بل يختلف الحكم بحسب اختلاف الأحوال، وأيسرها الأخذ في الملأ والرد في السر، الا أن يستوى عنده السر والعلانية وهذا هو الكبريت الأحمر.

المطلب الخامس

كان ابراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون الأخذ من الصدقة أفضل، فإن في أخذ الزكاة مزاحمة المساكين، وربما لا يوجد فيه سبب الاستحقاق كما في الكتاب. وأما الآخرون فقالوا: يأخذ الزكاة لكونه اعانة على الواجب، ولو ترك المساكين أخذ الزكاة لأثموا، ولأنه لا مِنّة فيها وانما هي حق الله تعالى رزقاً لعباده الصالحين، ولأنه أخذ بالحاجة والحاجة معلومة، وأخذ الصدقة أخذ بالدين فان الغالب اعطاء الصدقة لأهل الديانة، ولأن موافقة المساكين أدخل في التواضع، والصدقة قد تعطى في معرض الهدية ولا تتميز عنها.

والقول الحق في هذا أنه مختلف بأحوال الشخص والنية، فإن كان شبهة في

اتصافه بصفة الاستحقاق فليترك الزكاة، وان كان مستحقاً وكان له ضرورة يجوز أخذها، فإذا خير بين الزكاة والصدقة: فإن كان صاحب الصدقة يتركها ـ لو لم يأخذه هو ـ يأخذ الصدقة، ففيه تكثير للخير وتوسيع على المساكين، اذا الزكاة تحصل لهم خاصة، وان كان المال معرضاً للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين، فهو مخير. وأخذ الزكاة على كل حال أشد في كسر النفس واذلالها في أغلب أحوالها.

الأصل السادس
في علم أسرار الصوم

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في الواجبات الظاهرة

وهي خمسة:

الأول: مراقبة أول شهر رمضان برؤية الهلال أو بتكميل شعبان.

الثاني: النية. والأفضل أن ينوي كل ليلة.

الثالث: الامساك عن المفطرات الثلاث عهد ذكر الصومة.

الرابع: الامساك عن الاستمناء.

الخامس: الامساك عن اخراج القيء بالاستقاء.

المطلب الثاني
في لوازم الإفطار

وهي أربعة: القضاء، والكفارة، والفدية، والامساك بقية النهار تشبهاً بالصائم. وتفاصيل هذه في علم الفقه.

المطلب الثالث

في السنن

وهي ستة: تأخير السحور، وتعجيل الإفطار على التمر والماء قبل الصلاة، وترك السواك بعد الزوال، والجود في شهر رمضان، ومدارسة القرآن، والاعتكاف في المسجد لا سيما في العشر الأخير، فهي عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان اذا دخل العشر الأواخر، طوى الفراش وشد المئزر ودأب معه أهله: أي أداموا النصب في العبادة اذ فيها ليلة القدر؛ والأغلب أنه في أوتارها وأشبه الأوتار احدى وثلاث وسبع، والتتابع في هذا الاعتكاف أولى.

المطلب الرابع

في أسرار الصوم وشروطه الباطنة

أعلم أن الصوم أما صوم العموم، وهو: كف الفرج والبطن عن قضاء الشهوة؛ وصوم الخصوص، وهو كف الجوارح عن الآثام؛ وصوم خصوص الخصوص، وهو: كف القلب عما سوى الله تعالى إلا دنيا تراد للدين.

أما صوم العموم: فقد عرفت شرائطه في علم الفقه.

وأما صوم الخصوص: وهو صوم الصالحين لا يتم الا بستة أمور:

الأول: غض البصر عن المحارم والمكاره وما يلهي عن ذكر الله.

الثاني: حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء، والزامه السكوت، أو شغله بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فهذا صوم اللسان.

الثالث: كف السمع عن الاصغاء إلى مكروه، لأن كل ما حرم الله قوله حرم الاصغاء إليه.

الرابع: كف بقية الجوارح عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات، ولا معنى للصوم الذي هو الامساك عن الطعام الحلال ثم الافطار على الحرام.

الخامس: أن لا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء، فما من وعاء أبغض إلى الله تعالى من بطن ملىء من حلال، فكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة، اذا تدارك الصائم عند افطاره ما فاته صحوة نهاره؛ وربما يزيد من أنواع الطعام، حتى استمرت العادات بأن يدخروا لرمضان جميع الأقوات ما لا يؤكل في سائر الأوقات.

وأعلم: أن مقصود الصوم كسر الشهوة بالخوى ليتقوى بذلك على التقوى، فإذا هاجت شهوة النفس بالجوع طول النهار، ثم أطعمت من اللذات وأشبعت، زادت لذتها وتضاعفت قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها، فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان، وذلك لا يحصل الا بأن يأكل أكلة في كل ليلة في غير رمضان، بل من الأدب أن لا ينام في النهار كثيراً، حتى يحس بجوعه وعطشه فيصفو عند ذلك قلبه، ويخف على أوراده وتهجده، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه، فينظر إلى ملكوت السماء، بل المراد بليلة القدر هي الليلة ينكشف فيها عن شيء من الملكوت، ومن جعل بين قلبه وصدره مخلاة من الطعام فهو من ملكوت السماء محجوب، ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همته عن غير الله، وذلك هو الأمر كله ومبدأ الكل تقليل الطعام.

السادس: ان يكون قلبه بعد الأفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء، اذ ليس يدري هل يقبل صومه فهو من المقربين، أو يرد فهو من المقوتين.

فإن قلت: الصوم هو ترك المفطرات الثلاث كما ذكره الفقهاء، فمن أين أخذت هذه الشروط؛ قلت: الفقهاء يبحثون عن الأفعال الظاهرة للمكلفين، وأما الأفعال الباطنة فخارجة عن نظرهم. ولو سئل فقيه عن حرمة الغيبة مثلاً يحكم بحرمته، بل هو أشد من الافطار في نهار رمضان عمداً، ومع ذلك يقول أن الغيبة غير مفطرة، وذلك لخروجها عن نظره لا لأنها غير مفطرة حقيقية، ولو كان مجرد الامساك عن المفطرات الظاهرة كافياً، فأي معنى لقوله صلى الله عليه وسلم: «كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش».

واعلم: أن لكل عبادة ظاهراً وباطناً وقشراً ولباً، ولقشوره درجات، ولكل درجة طبقات، فإليك الخيرة الآن في أن تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب.

المطلب الخامس

في التطوع بالصيام

وذلك يتجدد أما في كل سنة، أو في كل شهر، أو في كل جمعة.

أما السنة ــ بعد أيام رمضان: فيوم عرفة، ويوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة، وعشر المحرم. ولا يجوز استقبال رمضان بيوم أو يومين الا أن يوافق ورداً، ويجوز وصل شعبان كله برمضان. والأشهر الفاضلة: ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان؛ والأشهر الحرم: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، ثلاثة سرد، وأحدها فرد، وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والأيام المعدودات؛ وذو القعدة من الأشهر الحرم وأشهر الحج؛ وشوال من أشهر الحج ليس من الأشهر الحرم، والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج.

وأما ما يتكرر في الشهر: فأوله وأوسطه وآخره، والأيام البيض: وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

وأما في الأسبوع: فالاثنين والخميس والجمعة.

وأما صوم الدهر: فأنه شامل للكل وزيادة، فمن كرهه نظر إلى الأخبار الواردة في كراهته وسبب كراهته.

وأما صوم العيدين وأيام التشريق: والصوم فيها حرام، أو لتركه العمل بالرخصة التي فعلها النبي صلى الله عليه وسلم؛ الا أن الصحيح أن من رأى صلاح نفسه فيه فليفعل، سوى الأيام المنهية، كما فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين. والأفضل صيام داود، وهو: أن يصوم يوماً فيصبر ويفطر يوماً فيشكر؛ وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها، وقد ورد في فضل ذلك أخبار.

والأفضل أن يراعي السالك أحوال قلبه، و يفطر في وقت الحاجة إلى الأفطار، و يصوم عند الحاجة إلى الصوم، اذ الغرض من الكل اصلاح القلب لا غير.

الأصل السابع
في علم أسرار الحج

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في فضيلتها وفضيلة البيت ومكة

وهذه الفضائل مذكورة في كتب الأحاديث والآثار والأخبار، فلا نطول الكتاب بذكرها.

المطلب الثاني
في فضل الاقامة بمكة وكراهتها

أما فضيلتها فأشهر من أن تذكر.

وأما كراهيتها: فلما كره المحتاطون المقام بها لمعان:

أحدها: خوف التبرم من جهة الغربة، أو حرها، أو معاشها، أو الأنس بها حتى تسقط مهابة البيت من عينه. ولهذا كان عمر رضي الله عنه يصرف الحاج اذا حاجوا، و يقول: يا أهل اليمن يمنكم، و يا أهل الشام شامكم.

وثانيها: تهييج الشوق إلى بلده حتى تنبعث داعية العود والمفارقة.

وثالثها: الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها فإن ذلك محظور، و بالحرى

أن يورث مقت الله لشرف الموضع. وعن ابن عباس: لأن أذنب سبعين ذنباً بركبة أحب إليّ من أن أذنب ذنباً واحداً بمكة؛ وركبة منزل بين مكة والطائف.

ولا تظنن أن كراهية الاقامة تنافي في شرف الموضع، بل ذلك لعجز الناس عن القيام بحقه؛ وكيف لا وانها أحب بلاد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن النظر إلى البيت عبادة، وأن الحسنات تضاعف فيها.

المطلب الثالث

في فضيلة الاقامة بالمدينة

وهذه أيضاً أشهر من أن تذكر، وما مر في الاقامة بمكة جار ها هنا أيضاً.

وبالجملة: الغرض الأعظم للسالك اصلاح دينه وقلبه، واذا صلح حاله في بلد فليزم الاقامة بها، ولا يسافر الا لعلم أو اصلاح حال، ولا يترك وطنه أيضاً الا لما ذكر، وليختر من البلاد ما هو أقرب للخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة والمعاش. وفي الخبر: من رزق من شيء فليزمه؛ وفيه أيضاً: البلاد بلاد الله، والخلق عباد الله، فأي موضع رأيت فيه رفقاً فأقم وأحمد الله تعالى. وعن سفيان الثوري أنه قال: لا أدري أي البلاد أسكن؛ قيل له: خراسان، قال: مذاهب مختلفة وآراء فاسدة؛ فقيل له: الشام، قال: يشار اليك بالأصابع ـــ أراد الشهرة؛ فقيل: فالعراق، قال: بلد الجبابرة؛ قيل له: مكة، قال: يذيب الكيس والبدن.

المطلب الرابع

في وجوب الحج وصحته وأركانه وواجباته ومحظوراته

ولما كانت هذه المسائل مستوفاة في الكتب الفقهية اكتفينا بها.

المطلب الخامس

في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع

وهي عشر جمل:

الجملة الأولى

في السنن من أول الخروج إلى الأحرام

وهي ثماني:

الأولى: في المال. ينبغي أن يبتدىء بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون، واعداد النفقة له ولمن تلزمه نفقته الى وقت الرجوع، فيرد ما عنده من الودائع، و يستصحب مالا من حلال طيب ما يكفيه لذهابه وايابه من غير تقتير، بل قدر ما يواسي به الضعفاء والفقراء، و يتصدق بشيء قبل خروجه، وليشتر لنفسه دابة قوية على الحمل لا تضعف أو يكتريها، فإن اكترى فليظهر للمكاري كل ما يريد أن يحمله من كثير وقليل ويحصل رضاه فيه.

الثانية: في الرفيق: فينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً، محباً للخير معيناً عليه، أن نسي ذكره، وان ذكر اعانه، وان جبن شجعه، وان عجز قواه، وان ضاق صدره صبره. واذا فارق اخوانه يودعهم و يلتمس أدعيتهم، فإن الله تعالى جاعل في أدعيتهم البركة. والسنة في الوداع أن يقول: أستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد السفر: في حفظ الله وكنفه وزودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك إلى الخير أينما توجهت.

الثالثة: في الخروج من المنزل. ينبغي اذا هم بالخروج أن يصلي ركعتين، يقرأ في الأولى ــ بعد الفاتحة ــ قل يا أيها الكافرون، وفي الثانية سورة الاخلاص. واذا فرغ من رفع يديه، دعا الله تعالى عن اخلاص صاف ونية صادقة، وقال: اللهم أنت الصاحب في السفر، وانت الخليفة في الأهل والمال

والولد والأصحاب، احفظنا واياهم من كل آفة وعاهة. اللهم انا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم انا نسألك أن تطوي لنا الأرض وتهون علينا السفر، وأن ترزقنا في سفرنا هذا سلامة الدين والبدن والمال، وأن تبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد صلى الله عليه وسلم. اللهم انا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد والأصحاب. اللهم اجعلنا واياهم في جوارك، ولا تسلبنا واياهم نعمتك، ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك.

الرابعة: اذا حصل إلى باب الدار، قال: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. رب أعوذ بك أن أضل، أو أُضَل، أو أزل أو أزَل، أو أظلم أو أظلَم، أو أجهل أو يجهل علي. اللهم اني لم أخرج اشرا ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك شوقاً إلى لقائك. فإذا مشيت فقل: اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت واليك توجهت. اللهم انت ثقتي وانت رجائي، فاكفني ما أهمني به وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني، عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك. اللهم زودني التقوى وأغفر ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت. ويدعو بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه.

الخامسة: في الركوب. واذا ركب الراحلة يقول: بسم الله وبالله والله أكبر، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون﴾[١] اللهم أني وجهت وجهي اليك، وفوضت أمري اليك، وتوكلت في جميع أموري عليك، انت حسبي ونعم الوكيل. فإن استوى على الراحلة واستوت تحته، قال: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر سبع مرات، وقال: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾[٢]. اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور..

---

(١) سورة الزخرف، آية: ١٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٤٣.

السادسة: في النزول. والسنة أن لا ينزل حتى يحمى النهار و يكون أكثر مسيره في الليل ومهما أشرف على المنزل فليقل: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه، اللهم أصرف عني شر شرارهم. فإذا نزل المنزل صلى ركعتين، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق. فإذا جن عليه الليل يقول: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب، ومن ساكن البلد، ووالد وما ولد، ﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾(١).

السابعة: في الحراسة. ينبغي أن لا ينفرد عن القافلة لئلا يغتال أو ينقطع، ويحتاط بالليل، و يفترش ذراعه أن نام في أول الليل و ينصبه، ويجعل رأسه في كفه ان نام في آخرها، كذا نام رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره، وذلك لئلا ينام فيفوته الفجر. و يستحب في الليل أن يتناوب الرفيقان في الحراسة فهو السنة. فإن قصده سبع أو عدو فليقرأ آية الكرسي وشهد الله وسورة الاخلاص والمعوذتين، وليقل بسم الله ما شاء الله، لا قوة الا بالله، حسبي الله، توكلت على الله، ما شاء الله، لا يأتي بالخيرات الا الله، ما شاء الله، لا يصرف السوء الا الله، حسبي الله وكفى، يسمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ، ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي أن الله عزيز ذو انتقام﴾(٢) تحصنت بالله العلي العظيم، واستعنت بالحي الذي لا يموت، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا، اللهم أعطف علينا قلوب عبادك

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٣.

(٢) سورة المجادلة، آية: ٢١.

واماثك برحمة ورأفة أنك أنت أرحم الراحمين.

الثامنة: إذا علا شرفاً. يكبر ثلاثاً ثم يقول: اللهم لك الشرف ولك الحمد على كل حال. واذا هبط سبح مهما خاف الوحشة في سفره، قال: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، جللت السموات بالعزة والجبروت.

الجملة الثانية

في آداب الاحرام من الميقات الى دخول مكة

وهي خمسة:

الأول: أن يغتسل عند الاحرام، و ينوي غسل الأحرام، و ينظف بتسريح رأسه ولحيته، و يقلم أظفاره، وسائر ما مر في باب الطهارة من أنواع النظافة.

الثاني: يحرم و يرتدي و يتأزر بثوبين أبيضين، والبياض أحب الثياب الى الله عز وجل، و يتطيب في بدنه وثيابه، وان بقي جرمه بعد الأحرام.

الثالث: أن ينوي الاحرام بالحج والعمرة قرانا أو أفراداً كما أراد، اذا انبعث به راحلته أو اذا ابتدأ السيرلن كان راجلاً، و يكفي مجرد النية لاعتقاد الأحرام، ولكن السنة أن يقترن بالنية التلبية، بأن يقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، أن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك؛ وان زاد قال: لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والرغباء اليك والعمل، لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد.

الرابع: إذا انعقد بالتلبية، يستحب له أن يقول: اللهم أني أريد الحج فيسره لي، وأعني على أداء فرضه، وتقبله مني، اللهم أني نويت أداء فريضتك في الحج، فأجعلني من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك، واجعلني من وفدك الذين رضيت وارتضيت وقبلت، اللهم فيسر لي أداء ما نويت من الحج، اللهم قد أحرم لك شعري ولحمي ودمي وعصبي ومخي وعظامي، وحرمت على النساء والطيب ولبس المخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة. ومن وقت

الأحرام حرم عليه المحظورات الستة المذكورة في كتب الفروع.

الخامس: يستحب له تجديد التلبية عند ازدحام الرفاق واجتماع الناس، وعند كل صعود وهبوط، وعند كل ركوب ونزول، رافعاً صوته بحيث لا يبح حلقه ولا ينبهر، فانه لا ينادي أصم ولا غائباً، ولا بأس برفع الصوت والتلبية في مسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات، فإن هذه المساجد مظنة المناسك، وأما غيرها فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع الصوت.

الجملة الثالثة

في آداب دخول مكة الى الطواف

هي ستة:

الأول: الاغتسال بذي طوى لدخول مكة، والاغتسال المسنون في الحج تسعة: في الأحرام، من الميقات لدخول مكة، لطواف القدوم، للوقوف بعرفة، للوقوف بمزدلفة، وثلاثة اغتسال للجمرات الثلاث، ولا غسل لرمي جمرة العقبة، ثم لطواف الوداع.

الثاني: أن يقول عند الدخول في أول الحرم وهو خارج مكة: اللهم هذا حرمك وأمنك فحرم لحمي وبشري ودمي على النار، وآمني من عذابك يوم تبعث عبادك، واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك.

الثالث: أن يدخل مكة من الجانب الابطح، وهي ثنية كدا بفتح الكاف، ويخرج من ثنية كدا بالضم وهي الثنية السفلى، والأولى العليا.

الرابع: إذا دخل مكة وانتهى الى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت، فليقل: لا اله الا الله والله أكبر، اللهم انت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والاكرام، اللهم أن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته، اللهم فزده تعظيماً وزده تشريفاً وتكريماً وزده مهابة وزده من حجه براً وكرامة، اللهم افتح لي أبواب رحمتك وادخلني جنتك وأعذني من الشيطان الرجيم.

الخامس: فليدخل المسجد الحرام من باب بني شيبة، وليقل: اللهم بسم الله و بالله ومن الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا قرب من البيت قال: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، اللهم صلي على محمد عبدك ورسولك، وعلى ابراهيم خليلك، وعلى جميع أنبيائك ورسلك. وليرفع يديه وليقل: اللهم اني أسألك في مقامي هذا في أول مناسكي أن تقبل توبتي وتتجاوز عن خطيئتي وتضع عني وزري، الحمد لله الذي بلغني بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمنا وجعله مباركاً وهدى للعالمين. اللهم أني عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك، جئت أطلب رحمتك، أسألك مسألة المضطر الخائف عقوبتك الراجي رحمتك الطالب مرضاتك.

السادس: أن يقصد الحجر الأسود بعد ذلك ويمسه بيده اليمنى و يقبله و يقول: اللهم أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته أشهد لي بالوفاء؛ فإن لم يستطع التقبيل فليقف في مقابلته وليقل ذلك. ثم لا يعرج على شيء دون الطواف ــ وهو طواف القدوم ــ الا الصلاة المكتوبة اذا حضرت الجماعة.

الجملة الرابعة
في الطواف أما لقدوم أو لغيرة

وآدابه ستة:

الأول: شروط الصلاة من الطهارة وستر العورة لأنه صلاة؛ الا أنه يباح فيه الكلام. وليضطبع أولاً: وهو أن يضع وسط ازاره تحت أبطه الأيمن، ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر، فيرخي طرفاً وراء ظهره وطرفاً على صدره، و يقطع التلبية عند ابتداء الطواف، و يشتغل بالأدعية التي سنذكرها.

الثاني: بعد الاضطباع يجعل البيت عن يساره. وليقف عند الحجر الأسود، وليتنح عنه ليكون الحجر قدامه، فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه في ابتداء طوافه، وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريباً منه، ثم يبتدىء الطواف.

الثالث: يقول في ابتداء الطواف قبل مجاوزة الحجر: بسم الله والله أكبر، اللهم ايماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، ويطوف. وأول ما يجاوز الحجر ينتهي إلى باب البيت، فيقول: اللهم ان البيت بيتك والحرم حرمك والأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار. وعند ذكر المقام يشير بعينيه إلى مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ويقول: اللهم بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين، أعذني من الشيطان الرجيم، وحرم لحمي ودمي من النار، وآمني من أهوال يوم القيامة، واكفني مؤونة الدنيا والآخرة. ثم يسبح الله ويحمده حتى يبلغ الركن العراقي، فعنده يقول: اللهم اني أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء المنظر في الأهل والمال والولد. واذا بلغ الميزاب فليقل: اللهم أظلني تحت عرشك يوم لا ظل الا ظل عرشك، اللهم اسقني بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا ظمأ بعدها أبداً. واذا بلغ الركن الشامي فليقل: اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وتجارة لن تبور، يا عزيز يا غفور، رب أغفر وأرحم وتجاوز عما تعلم انك أنت الأعز الأكرم. فإذا بلغ الركن اليماني فليقل: اللهم أني أعوذ بك من الكفر، وأعوذ بك من الفقر، وأعوذ بك من عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من الخزي في الدنيا والآخرة. وليقل بين الركن اليماني والحجر الأسود: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وعذاب القبر. واذا بلغ الحجر الأسود فليقل: اللهم أغفر لي برحمتك، أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر. وعند ذلك قد تم له شوط واحد، فيطوف به كذلك سبعة أشواط، ويدعو بهذه الأدعية في كل شوط.

الرابع: أن يرمل في الثلاثة الأول من الأشواط ويمشي في البواقي، وتفصيله في كتب الفقه.

الخامس: اذا تم الطواف فليأت الملتزم؛ وهو ما بين الحجر والباب وموضع استجابة الدعاء، وليلتصق بالبيت، وليتعلق بالأستار. وليضع خده الأيمن، وليقل: اللهم يا رب البيت العتيق أعتق رقبتي من النار، وأعذني من الشيطان

الرحيم، وأعذني من كل سوء، وقنعني بما رزقتني، و بارك لي فيما آتيتني. اللهم ان هذا البيت بيتك والعبد عبدك، وهذا مقام العائذ بك من النار، اللهم أجعلني من أكرم وفدك عليك. وليحمد الله كثيراً في هذا الموضع، وليصلِّ على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء، وليدع بحوائجه الخاصة و يستغفر الله من كل ذنب. وكان بعض السلف يقول لمواليه: تنحَّوا عني حتى أقر لربي بذنوبي.

السادس: اذا فرغ مما ذكر فليصلِّ خلف المقام ركعتين، يقرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون، وفي الثانية سورة الأخلاص، وليقل بعدهما: اللهم يسر لي اليسرى وجنبني العسرى وأغفر لي في الآخرة والأولى اللهم أعصمني بألطافك حتى لا أعصيك، وأعني على طاعتك بتوفيقك وجنبني معاصيك، وأجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويحب عبادك الصالحين. اللهم حببني إلى ملائكتك ورسلك وعبادك الصالحين. اللهم وكما هديتني للإسلام فثبتني بألطافك ودلالتك عليه، واستعملني بطاعتك وطاعة رسولك، وأجرني من مضلات الفتن. ثم ليعد إلى الحجر وليستلمه وليختم به الطواف.

الجملة الخامسة

في السعي

وهو سبع مرات يبتدىء بالصفا. فليقبل أولا على البيت و يقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الحمد لله على ما هدانا، الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها، لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا اله الا الله مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون. اللهم اني أسألك ايماناً دائماً

و يقيناً صادقاً وعلماً نافعاً وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً، وأسألك العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة. و يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، و يدعو الله تعالى بما شاء من حاجته. ثم ينزل و يبتدىء السعي و يقول: رب أغفر وأرحم واعف وتكرم وتجاوز عما تعلم أنك أنت الأعز الأكرم؛ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. فإذا سعى وانتهى الى المروة صعدها وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء.

الجملة السادسة

في الوقوف

يخرج من مكة إلى منى ملبياً، فإذا انتهى الى منى قال: اللهم أن هذه منى فأمنن علي فيها بما مننت على أوليائك وأهل طاعتك. وليمكث هذه الليلة بمنى وهو مبيت منزل لا نسك فيه. فإذا أصبح سار إلى عرفات و يقول: اللهم اجعلها خير غدوة غدوتها قط، وأقربها من رضوانك وأبعدها من سخطك. اللهم اليك غدوت واليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلني ممن تباهى به اليوم من هو خير مني وأفضل. ثم يأتي عرفات و يفعل هناك ما هو مسطور في الكتب.

لكن أعظم أركان الوقوف الدعاء؛ اذ في مثل تلك البقعة في مثل ذلك اليوم في مثل ذلك الجمع ترجى اجابة الدعاء. والدعاء مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم عرفة أولى ما يدعو به. وهو هذا: لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير. اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً. اللهم أشرح لي صدري و يسر لي أمري. وليقل: اللهم رب لك الحمد كما نقول وخير ما نقول، لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي واليك مآبي واليك متابي. اللهم اني أعوذ بك من وساوس الصدور وشتات الأمر وعذاب القبر. اللهم أني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار ومن شر ما هبت به الرياح وشر بوائق الدهر. اللهم أني أعوذ بك من تحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك. اللهم اهدني بالهدى وأغفر لي في الآخرة والأولى، يا

خير مقصود وأشرف منزول عليه وأكرم مسؤول ما لديه، أعطني العشية أفضل ما تعطي أحداً من خلقك وحجاج بيتك يا أرحم الراحمين. اللهم يا رفيع الدرجات ومنزل البركات وفاطر الأرضين والسموات، ضجت اليك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات، وحاجتي اليك أن تذكرني في دار البلي اذا نسيني أهل الدنيا. اللهم انك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري واعلاني ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك خده، ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً وكن بي رؤوفاً رحيماً يا خير المسؤولين وأكرم المعطين. الهي: من مدح اليك نفسه فأني لائم لنفسي. الهي: أخرست المعاصي لساني، فما وسيلة من عمل ولا شفيع الا الأمل. الهي: أني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاهاً ولا للاعتذار وجهاً، ولكنك أكرم الأكرمين. الهي: ان لم أكن أهلاً ان أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني، رحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء. الهي: ان ذنوبي وان كانت عظاماً فهي صغار في جنب عفوك فأغفرها يا كريم. الهي: انت انت وأنا أنا، أنا العواد بالذنوب وأنت العواد الى المغفرة. الهي: ان كنت لا ترحم الا أهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون. الهي: تجنبت طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً، فسبحانك. ما أعظم حجتك علي وأكرم عفوك عني، فبوجوب حجتك علي وانقطاع حجتي، وفقري اليك وغناك عني، الا غفرت لي يا أرحم الراحمين، يا خير من دعاه داع وأفضل من رجاه راج، بحرمة الإسلام وبذمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام أتوسل اليك، فأغفر لي جميع ذنوبي، وأصرفني من موقفي هذا مقضى الحوائج، وهب لي ما سألت، وحقق رجائي فيما تمنيت. إلهي: دعوتك بالدعاء الذي علمتنيه، فلا تحرمني الرجاء الذي عرفتنيه. الهي: ما أنت صانع العشية بعيد مقر لك بذنبه، خاشع لك بذله، مستكين بجرمه، متضرع اليك من عمله، تائب اليك من اقترافه، مستغفر لك من ظلمه، مبتهل اليك في العفو عنه، طالب اليك من اقترافه، مستغفر لك

من ظلمه، مبتهل اليك في العفو عنه، طالب اليك في كل حوائجه، راج لك في موقفه مع كثرة ذنوبه، فيا ملجأ كل حي، وولي كل مؤمن، من أحسن فبرحمتك يفوز، ومن أساء فبخطيئته يهلك. اللهم اليك خرجنا، وبفنائك أنخنا، واياك أملنا وعندك طلبنا، ولاحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا، ومن عذابك أشفقنا ولبيتك الحرام حججنا، يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين، يا من ليس معه رب يدعى، ويا من ليس فيه خالق يخشى، ويا من ليس له وزير يؤتى ولا حاجب يرشى، يا من لا يزداد على السؤال الا تكرماً وجوداً، وعلى كثرة الحوائج الا تفضلاً واحساناً، انك جعلت لكل ضيف قرى ونحن أضيافك فأجعل قرانا منك الجنة. اللهم لك وفد جائزة، ولكل زائر كرامة، ولكل سائل عطية، ولك راج ثواب، ولكل ملتمس لما عندك جزاء، ولكل مسترحم عندك رحمة، ولكل داع اليك زلفة، ولكل متوسل اليك عفو، وقد وفدنا الى بيتك الحرام، ووقفنا بهذه المشاعر العظام، وشاهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا. الهنا: تتابعت النعم حتى اطمأنت الأنفس بتتابع نعمك، وأظهرت الصبر حتى نطقت الصوامت بحجتك، وظاهرت المنن حتى اعترف اولياؤك بالتقصير عن حقك، وأظهرت الآيات حتى أفصحت السموات والأرضون بأدلتك، وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك وعنت الوجوه لعظمتك، اذا أساء عبادك حلمت، واذا أحسنوا تفضلت وقبلت، واذا عصوا سترت، واذا أذنبوا غفرت، واذا دعونا أجبت، واذا نادينا سمعت، واذا أقبلنا اليك قربت، واذا ولينا عنك دعوت. الهي: انك قلت في كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين ﴿قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ (١) فأرضاك عنهم الأقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود، وأنا لنشهد لك بالوحدانية مخبتين ولمحمد بالرسالة مخلصين، فأغفر لنا بهذه الشهادة سوالف الأجرام، ولا تجعل حظنا منك أنقص من حظ من دخل في الإسلام. الهنا: انك أحببت التقرب إليك بعتق ما ملكت ايماننا، ونحن عبيدك، وأنت أولى بالتفضل، فأعتقنا، وأنك أمرتنا أن نتصدق على فقرائنا، وأنت أحق بالطول

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٨.

فتصدق علينا؛ ووصيتنا بالعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا، وأنت أحق بالكرم، فأعف عنا. ربنا أغفر لنا وأرحمنا أنت مولانا. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وقنا برحمتك عذاب النار.

وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام، وهو أن يقول: يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات. يا من لا تغلطه المسائل، ولا تختلف عليه اللغات. يا من لا يبرمه الحاح الملحين، ولا يضجره مسألة السائلين: أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك.

وليدع بما بدا له، وليستغفر لنفسه ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات، وليلح في الدعاء، وليعظم المسألة، فإن الله سبحانه لا يتعاظمه شيء.

قال مطرف بن عبد الله وهو بعرفه: اللهم لا ترد الجمع من أجلي؛ وقال بكر المزني: قال رجل: لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم.

الجملة السابعة
في بقية أعمال الحج

فإذا بلغ المزدلفة يغتسل بها لأنها من الحرم. ثم يقول: اللهم هذه مزدلفة، جمعت ألسنة مختلفة تسألك حوائج مؤتلفة، فاجعلني ممن دعاك فأستجبت له، وتوكل عليك فكفيته. ثم يبيت بها تلك الليلة. وأحياؤها سنة لمن قدر عليها.

وإذا انتصف الليل فليتأهب للرحيل. وليتزود منها سبعين حصاة ولا بأس بالزيادة عليها. اذ ربما يسقط بعضه، وليكن الحصى خفافاً تحتوي عليها أطراف البراجم. ثم يسير بعد صلاة الفجر، واذا انتهى الى المشعر الحرام ــ وهو آخر المزدلفة ــ يقف ويدعو بها بهذا الى الأسفار: اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام مع الركن والمقام، بلغ روح محمد صلى الله عليه وسلم منا التحية والسلام، وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والاكرام. ثم يرمي الجمرات في

المواضع الثلاثة و يقول مع كل حصاة منها: الله أكبر على طاعة الرحمن ورغم الشيطان، اللهم تصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك.

ولا يقف في هذا اليوم للدعاء و يقطع التكبير الا عقيب الصلوات من ظهر يوم النحر الى صبح آخر أيام التشريق. وصفة التكبير: الله أكبر الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا اله الا الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده، لا اله الا الله والله أكبر.

ثم يقول عند ذبح الهدى: بسم الله والله أكبر، اللهم منك وبك ولك، تقبل مني ما تقبلت من ابراهيم خليلك. ثم ليحلق وليقل: اللهم أثبت بكل شعرة حسنة وامح عني بكل شعرة سيئة، وأرفع لي عندك بها درجة. ثم يحل له كل شيء الا النساء والصيد.

ثم يفيض الى مكة و يطوف طواف الزيارة، ثم يحل له كل شيء. وهذا الطواف كما سبق. والامام يخطب في هذا اليوم بعد الزوال، وهي خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الحج أربع خطب: خطبة السابع، يوم عرفة، يوم النحر، يوم النفر الأول؛ وكلها بعد الزوال وافراد الا خطبة يوم عرفة فأنها خطبتان بينهما جلسة.

ثم يبيت بمنى ـــ وهي ليلة القر ـــ لقرار الناس لأنهم لا ينفرون.

وفي صبح الثاني من يوم العيد يغتسل للرمي، فيرمي الجمرة الأولى سبع حصيات، ثم اذا تعداها انحرف عن الجادة قليلاً، ووقف مستقبل القبلة، وحمد الله تعالى وهلل وكبر، ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح، ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة، مقبلاً على الدعاء؛ ثم يرمي الجمرة الثانية و يقف كما في الأولى؛ ثم الثالثة ولا يقف عندها. ثم يبيت تلك الليلة بمنى وهي ليلة النفر الأول.

فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق، رمى احدى وعشرين

حصاة كاليوم الذي قبله، ثم هو مخير بين المقام بمنى والعود الى مكة، لكن ان لم يخرج إلى الليل يلزمه المبيت بمنى حتى يرمي يوم النفر الثاني احدى وعشرين حصاة كما سبق. والتفصيل في كتب الفقه.

الجملة الثامنة

في صفة العمرة

من أراد ذلك فلينو عند الأحرام و يلبي، و يقصد مسجد عائشة و يصلي ركعتين، و يدعو بما شاء، ثم يعود إلى مكة وهو يلبي إلى أن يدخل المسجد الحرام، ثم يطوف و يسعى كما وصفناه في الحج، ثم يحلق رأسه فيتم عمرته. واذا يدخل البيت فليدخله حافياً موقراً، وليصل بين العمودين وهو الأفضل.

قال بعضهم ـــ وقد سئل عن دخول البيت: والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيته، فكيف أراهما أهلاً لأن أطأ بهما بيت ربي وقد علمت حيث مشتا وإلى أين مشتا. وليكثر شرب ماء زمزم، وليستق الماء بيده أن أمكنه، ليرتو منه حتى يتضلع: وليقل: اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم، وارزقنا الاخلاص واليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة. قال صلى الله عليه وسلم: «ماء زمزم لما شرب له أي يشفي ما قصد به».

الجملة التاسعة

في طواف الوداع

وهذا أيضاً كما سبق لكن من غير رمل واضطباع. فإذا فرغ صلى ركعتين خلف المقام، و يشرب من ماء زمزم، ثم يأتي الملتزم و يدعو و يتضرع و يقول: اللهم البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك، حملتني على ما سخرت لي من خلقك حتى سيرتني في بلادك، و بلغتني بنعمتك حتى اعنتني على قضاء مناسكك، فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضا، والا فمن الآن قبل تباعدي عن بيتك، هذا أوان انصرافي أن أردت غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب

عنك ولا عن بيتك. اللهم اصحبني العافية في بدني والعصمة في ديني، وأحسن منقلبي، وارزقني طاعتك ما أبقيتني، وأجمع لي خير الدنيا والآخرة انك على كل شيء قدير. اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي ببيتك الحرام، وان جعلته آخر عهدي فعوضني منه الجنة. والأحب أن لا تصرف بصرك عن البيت حتى تغيب عنه.

الجملة العاشرة

في زيارة المدينة وآدابها

وأما فضلها فأكثر من أن يحصى. فمن قصدها فليكثر في طريقه الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإذا وقع بصره على جدارها فليقل: اللهم هذا حرم رسولك صلى الله عليه وسلم، فاجعله لي وقاية من النار وأمنا من العذاب وسوء الحساب. وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة، وليتطيب وليلبس أفضل ثيابه وأنظفها، وليدخل متواضعاً معظماً، وليقل: بسم الله وعلى ملة رسول الله ﴿رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وأجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾(١). ثم ليقصد المسجد ويدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين، ويجعل عمود المنبر بحذاء منكبه الأيمن، ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق، وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يُغير المسجد.

ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل القبر على نحو أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدر القبر، وليجعل القنديل على رأسه. وليس من السنة مس الجدار وتقبيله بل الوقوف من بعد أقرب إلى الاحترام، فيقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا أمين الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا أحمد السلام

---

(١) سورة الاسراء، آية: ٨.

عليك يا محمد، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا ماحي، السلام عليك يا عاقب، السلام عليك يا بشير، السلام عليك يا نذير، السلام عليك يا طهر، السلام عليك يا أكرم ولد آدم، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك يا قائد الخير، السلام عليك يا فاتح السر، السلام عليك يا نبي الرحمة، السلام عليك يا سيد الأمة، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين، السلام عليك وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين، جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته، وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون، وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه؛ كما استنقذنا بك من الضلالة، وبصرنا بك من العماية، وهدانا بك من الجهالة، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه، وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وكرم وشرف وعظم.

وان كان أحد أوصى بتبليغ السلام فليقل: السلام عليك من فلان وفلانة. ثم ليتأخر قدر ذراع وليسلم على أبي بكر الصديق لأن رأسة عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأس عمر عند منكب أبي بكر رضي الله عنهما. ثم يتأخر قليلاً قدر ذراع، ويسلم على الفاروق عمر، وليقل: السلام عليكما يا وزيري رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعاونين له على القيام بالدين ما دام حياً، والقائمين في أمته بعده بأمور الدين تتبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته، فجزاكما الله خير ما جزى وزيري نبي عن دينه.

ثم ليرجع ويقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبر والاسطوانة اليوم، وليستقبل القبلة، وليحمد الله ويمجده، وليكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يقول اللهم انك قلت وقولك الحق ﴿ولو

أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾[1] اللهم أنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك، وقصدنا نبيك مستشفعين به اليك في ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا، تائبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا، فتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا، وأرفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك. اللهم أغفر للمهاجرين والأنصار، وأغفر لأخواننا الذين سبقونا بالإيمان. اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ولا من حرمك يا أرحم الراحمين.

ثم ليأت الروضة و يصلي فيها، و يكثر من الدعاء ما استطاع، وليدع عند المنبر. و يستحب أن يضع يده على الرمانة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة.

و يستحب أن يزور يوم الخميس قبور الشهداء بأُحد، فيصلي الغداة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يخرج و يعود الى المسجد لصلاة الظهر، فلا يفوته فريضة جماعة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.

و يستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، و يزور قبر عثمان وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وفيه أيضاً قبر علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد، و يصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها وعنهم، و يزور قبر ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبر صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك كله بالبقيع.

و يستحب أن يأتي في كل سبت مسجد قباء و يصلي فيه، و يأتي بئر أريس التي تفل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ريقه فيتوضأ منها و يشرب من مائها؛ و يأتي مسجد الفتح، وهو على الخندق، وكذا سائر المساجد والمشاهد،

---

(١) سورة النساء، آية: ١٤.

وهي ثلاثون موضعاً يعرفها أهل المدينة. وكذا يقصد طلباً للشفاء سبعة آبار التي توضأ واغتسل منها وشرب من مائها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واعلم: أن الاقامة بالمدينة أن أمكن فلها فضل عظيم؛ وفي الحديث «لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد الا كنت له شفيعاً يوم القيامة». وغير ذلك من الأحاديث. وان لم يمكن الاقامة وعزم على الخروج، فالمستحب أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم و يعيد دعاء الزيارة كما سبق، و يودع القبر، و يسأل الله أن يرزق اليه العودة، و يسأل السلامة في سفره، ثم يصلي ركعتين في الروضة الصغيرة، وهي موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة في المسجد.

فإذا خرج يقدم رجله اليسرى، ثم يقول: اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك، وحط أوزاري بزيارته، وأصحبني في سفري و يسر رجوعي إلى أهلي، وأجعلني من السالمين يا أرحم الراحمين؛ وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه، وليتتبع المساجد التي بين المدينة ومكة و يصلي فيها — وهي عشرون موضعاً.

فإذا رجع إلى بلده: السنة أن يكبر على كل شرف ثلاثاً و يقول: «لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»؛ وفي رواية: وكل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون.

واذا أشرف على مدينته فليحرك دابته وليقل: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً؛ ثم يرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة فذلك هو السنة، ولا يطرق أهله ليلاً.

فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أولاً فيصلي فيه ركعتين، ثم يدخل بيته

و يقول عند دخوله: توبا توبا لربنا أوبا لا يغادر علينا حوبا. ثم اذا استقر في منزله لا ينسى ما أنعم الله عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا ينبغي أن يكفر هذه النعمة و يعود الى الغفلة واللهو والخوض في المعاصي، لأن علامة الحج المبرور أن يعود زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، متأهباً للقاء رب البيت بعد لقاء البيت.

المطلب السادس
في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

وهي عشرة:

أحدها: أن تكون النفقة حلالاً، بلا تجارة تشغل القلب وتفرق الهم، بل يكون همه مجرد رضائه تعالى وذكره وتعظيم شعائره ومن جملة الحج لغيره؛ وقد تورع عنه أرباب القلوب ــ الا أن يكون قصده الاقامة بمكة ولم يكن له ما يبلغه، فيتوصل بالدنيا الى الدين لا عكسه، فيكون قصده زيارة البيت واسقاط الغرض عن أخيه المسلم. ولست أقول: الأجرة حرام أو مكروه؛ بل أقول: الأولى أن لا يفعل، لئلا يعطي الدين بالدنيا، ولو أخذه لأجل التوسل بالدنيا الى الدين كما سبق فلا بأس به.

ثانيها: أن لا يعاون أعداء الله بتسليم المكوس الى العمال الظلمة المترصدين في الطرق، بل يتلطف في حيلة الخلاص لأن في ذلك ذلاً وصغاراً على المسلمين ببذل جزية؛ ولا يحل العون عليه ولا الرضا به. وان أوله: بأنا مضطرون في ذلك، فقل له: فأين اضطرار في الخروج عن البيت، وترك زي الفقراء حتى تطالب بها.

ثالثها: التوسع في الزاد، وطيب النفس بالانفاق من غير تقتير، بأن يمنع ما وجب عن نفسه، أو عن قوت ما عليه مؤونته شرعاً أو مروءة ــ ولا اسراف بأن يترفه بأطايب النعم وأنواع الأطعمة على عادة المترفهين.

وأما كثرة الخير فقد قيل: لا سرف في الخير، ولا خير في السرف، والدرهم الواحد في طريق الحج بسبعمائة.

ورابعها: ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن، فيصون لسانه من اللغو والخنا والفحش، ويحفظ الأوامر ويترك النواهي، ويلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله تعالى، ويعاملهم بحسن الخلق، وهو احتمال الأذى لا مجرد كف الأذى، وسمي السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

وخامسها: المشي أن قدر، وله بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، كذا ورد الأثر عن ابن عباس؛ وسئل: ما حسنات الحرام، قال: الحسنة بمائة الف. وان أضاف اليه الأحرام من دويرة أهله فقد قيل أنه من تمام الحج، كما قال تعالى: ﴿واتموا الحج والعمرة لله﴾[1]. وقيل: الركوب أفضل لما فيه من الانفاق والمؤونة، وأبعد عن الضجر وأذى الغير، وأقرب إلى سلامته وتمام حجه. والتحقيق أن الأول لمن قدر عليه، والثاني لمن ضعف عنه وضجر، فلا مخالفة بين القولين.

وسادسها: أن يتجنب عن المحامل فأنه من زي المترفهين. قيل: وقد أحدثها الحجاج، وكان العلماء في وقته يكرهونها.

وسابعها: أن يكون أشعث أغبر، غير مائل الى التفاخر والتكاثر؛ وفي الحديث: «انما الحاج الشعث الغبر. يقول الله تعالى: ﴿ أنظروا الى زوار بيتي قد جاءوني شعثاً غبرا من كل فج عميق ﴾. ويروي أن أهل اليمن على هذه الهيئة، ولهذا قيل لهم: زين الحجيج. وينبغي أن يجتنب الحمرة في زيه والشهرة كيفما كانت على العموم.

وثامنها: أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق: كالمحمل؛ ومنها النوم عليها، والوقوف عليها وقوفاً طويلاً. ومن السنة نزوله عن الدابة بكرة وعشية،

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٩.

يروحها و يوقع السرور في قلب المكاري. وقد ورد في الخبر: أن في كل كبد حرى أجراً. وكان السلف يشترطون مع المكاري عدم النزول و يوفون الأجر، ثم ينزلون، ليكون ذلك من حسنات أنفسهم.

وتاسعها: أن يتقرب باراقة دم، وان لم يكن واجباً عليه؛ ويختار سمين النعم، و يأكل منه في التطوع دون الواجب، والقليل الجيد خير من كثير الدون.

وعاشرها: طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدى، وما أصابه من الخسران والمصيبة في المال والبدن، فأنها من دلائل قبول حجه؛ ومن امارة القبول تبديل أخوانه البطالين أخواناً صالحين، ومجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة.

المطلب السابع

في الأعمال الباطنة وطريق الاخلاص فيها

وذلك في عدة أمور:

الأول: الفهم. فأعلم أنه لا وصول الى الله تعالى الا بالتنزه عن الشهوات واللذات، والتجرد إلى الله تعالى في جميع الحالات. ولهذا انفرد الرهبان من الملل السالفة عن الخلق في قلل الجبال، فتركوا اللذات الحاضرة، واستوحشوا عن الخلق للأنس بالله تعالى، فأثنى الله عليهم في كتابه فقال: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون﴾ (١).

فلما اندرس ذلك، وأقبل الناس على الشهوات وفتروا عن العبادة، بعث الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم لهداية طريق الآخرة، فنع الناس الرهبانية في دينه، فقال: «أبدلنا بها الجهاد والتكبير على كل شرف» يعني: الحج. وسئل عن السائحين، فقال: هم الصائمون. وهذا من عناية الله تعالى بهذه الأمة، بحيث أعطى لهم في الناس ما حصلوه في الجبال، وجعل لهم الحج

(١) سورة المائدة، آية: ٨٢.

رهبانية بتشريف بيته العتيق، بأن أضافه إلى نفسه، مع تنزهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد؛ ثم جعل ما حوله حرماً وحرم صيده وقطع شجره، وجعل عرفات كالميدان لفناء حرمه، فقصده عباده من كل أوب سحيق، غبراً متواضعين لرب البيت مستكينين له، خضوعاً لجلاله واستكانة لعزته، حتى تعبدهم بأمور لا يفهمون معناها: كترددات السعي ورمي الجمار، تحقيقاً لمقام العبودية، وابتلاء لعباده، ليمتاز المطيع عمن اتبع نفسه هواها، وعمل بمقتضى الطباع، واعتقدها أموراً فارغة عن الحكمة، وليس كذلك، بل لها حكم وأسرار تغفل عنها العقول، ولهذا صار أبلغ أنواع التعبدات.

الثاني: أنه ينبعث من الفهم المذكور، الشوق بأن الأبصار الفانية قصرت عن النظر إلى وجه الله الكريم، وصار ذلك في دار القرار، جعل النظر إلى بيته في الدنيا سبباً إلى استحقاق لقاء البيت في الآخرة بمقتضى وعده الكريم، فيشتاق المحب إلى أسباب اللقاء.

الثالث: العزم بأن يصحح عزيمته باخلاصه واجتناب كل ما فيه رئاء وسمعة، وليحذر عن أن يقصد قرب البيت و يبعد عن رضا ربه.

الرابع: أن تقطع وليس معناه ترك الوطن والأهل والأولاد والأموال، بل رد المظالم، والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، فإن كل عظيمة علاقة تنادي عليه: أين تقصد وأنت مضيع أمره في منزلك.

الخامس: أن تقطع قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك، كما قطعت وجهك عن النظر إلى ما وراءك، فتوجه إليك بقلبك كتوجهك بقالبك، والا فليس لك منه الا النصب والعناء والتعب والشقاء، وليذكر عند قطعه العلائق الظاهرة والباطنة توجهه إلى سفر الآخرة، وليكتب وصية لأهله وأولاده، اذ المسافر لعلى خطر الا ما وقى الله تعالى.

السادس: يطلب الزاد والراحلة من موضع حلال؛ وليذكر أن المسافر يطلب من الزاد ما لا يتغير في أول منزل، بل لا يتغير على طول السفر، فكذلك سفر الآخرة لا يصلح له زاد الا التقوى، وما عداه يتخلف عند موته وكربه؛

وليذكر عند حضور الراحلة: الشكر لله تعالى على أن سخَّرها له، تحمل عنه الأذى، وترفع عنه المشقة، فليتذكر عنده مركب الآخرة، فينبغي أن يصلحه فوق ما يهتم لراحلة السفر.

السابع: شراء ثوبي الأحرام من مال حلال، فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه، اذ ليس في ثوب الاحرام مخيط، فكذا في الأكفان.

الثامن: الخروج من البلد؛ وليتذكر عنده الخروج من القبر والتوجه الى الحشر، ولا يدري كيف حاله: أيغتال في الطريق، أم يصل إلى مقصده سالماً، كذلك في الآخرة لا يعرف مآل أمره.

التاسع: فليتذكر عند دخول البادية الوقوف في المحشر، وان ما في البادية من الحيات والسباع نظير ما في الحشر من الأهوال والمخاوف. وأما الأحرام والتلبية التي هي اجابة نداء الله عز وجل في قوله: ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ (١) نظير نداء الخلق بالنفخ في الصور، وحشرهم من القبور، وازدحامهم في عرصات القيامة.

العاشر: يتذكر عند دخوله مكة الانتهاء الى حرمه وأمنه، مع خوفه من أن لا يكون من أهل القرب. لكن ينبغي أن يغلب رجاؤه، اذ الكرم عميم؛ وليتذكر عند وقوع البصر على البيت، وحضور عظمته في قلبه، مشاهدة رب البيت وعظمته؛ وليرج أن يرزقه النظر إلى وجهه الكريم في العقبى كما رزقه النظر الى بيته العظيم في الدنيا، وليتذكر عند ذلك دخول الجنة آمنين، وليسأل ذلك من الله تعالى.

الحادي عشر: فليتذكر عند الطواف التشبه بالملائكة الحافين حول العرش، الطائفين حوله؛ ولتعرف أن المقصود الأعظم طواف قلبك بذكر رب البيت، فلا تبتدىء الا منه ولا تختم الا به، كما أن الطواف يبتدىء بالبيت ويختم به.

---

(١) سورة الحج، آية: ٢٧.

وأعلم: أن أصل الطواف في عالم الملكوت، وهو: تطواف القلب بحضرة الربوبية، وان مثاله في عالم الملك هو البيت؛ فكما أن القلب يطوف بالبيت كذلك القلب يطوف بربه، اذ الموازنة بين عالم الملك والملكوت معلومة لمن فتح الله له هذا الباب، والى هذه الموازنة وقعت الاشارة بأن البيت المعمور في السماء بازاء الكعبة، وان طواف الملائكة كطواف الأنس بهذا البيت. ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف، أمروا بالتشبه بهم بحسب الامكان، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم، والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال ان الكعبة تزوره وتطوف به، على ما رواه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله عز وجل.

الثاني عشر: فاعتقد عند الاستلام انك مبايع لله تعالى على طاعته، فصمم عند ذلك على قيامك بالوفاء ببيعتك، فمن غدر في المبايعة استحق المقت؛ ألا ترى إلى ما ورد في الحديث: أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه. وليذكر عند التعلق بأستار الكعبة تعلق المذنب بثياب من أذنب إليه، المتضرع اليه، المظهر أنه لا ملجأ له منه الا إليه، ولا مفزع الا عفوه وكرمه، وانه لا يفارق ذيله الا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل، ويرجو التحصن عن النار في كل جزء يلاقي البيت.

الثالث عشر: ليتذكر عند السعي تردد العبد لفناء دار الملك، جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى: اظهاراً للخلاص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة؛ وليذكر أيضاً تردده بين كفتي الميزان، مردداً بين العذاب والغفران.

الرابع عشر: وليتذكر بالوقوف بعرفات اجتماع الناس يوم الحشر في العرصات مع الأنبياء والأولياء، وطمع كل أمة في شفاعة هؤلاء، وترددهم في الرد والقبول بلوغ كل منهم ما هو المأمول؛ الا أن الموقف لما لم ينفك من الأوتاد والابدال وطبقات الصالحين وأرباب القلوب ــ سيما عند اجتماع القلوب بالضراعة والابتهال ــ وارتفعت أيديهم إلى جنابه، وامتدت أعناقهم نحو بابه، وشخصت أبصارهم نحو السماء، فلا تظنن أن مجيب الدعوات يخيب

آمالهم و يضيع سعيهم، و يدخر عنهم رحمة تغمرهم، ولذلك قيل: ان من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات و يظن أن لن يغفر الله له، اذ لا طريق في استدرار رحمة الله عز وجل، مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد.

الخامس عشر: ليقصد برمي الجمار اظهار العبودية، والانتهاض لمجرد الامتثال، من غير حظ للعقل والنفس، بل يقصد التشبه بابراهيم النبي صلوات الله عليه — حين عرض ابليس في ذلك الموضع، ليدخل على حجته بشبهة، أو يفتنه بمعصية، فأمر الله تعالى أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله. وأن خطر لك أن ذلك رمي لأجل الشيطان، وأما أنا فلا فائدة لي في رميها، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان، يصدك بهذا عن امتثال أمر الرحمن، و يلقي في قلبك أن هذا أيضاً هي اللعب؛ فأطرد هذا عن نفسك بالجد في الرمي ترغم بذلك أنف الشيطان، فهو في الصورة رمي الجمار، وفي الحقيقة أرغام أنف الشيطان بامتثال أمر الله تعالى وترك حظ النفس.

السادس عشر: أن تعرف أن الهدى تقرب إلى الله تعالى بامتثال أمره، وارج عند ذبحه أن يعتق بكل جزء منه جزء من أجزاء بدنك بذلك من النار بمقتضى وعده الكريم، فكلما كان الهدى أعظم وأكبر كان الفداء من النار أعم وأعظم.

السابع عشر: اذا وقع بصرك على حيطان المدينة، فأذكر فضيلة هذه البلدة، وانها دار هجرة خير البشر صلى الله عليه وسلم، وفيها تربته المطهرة، وتربة وزيريه القائمين بالحق من بعده. وضع قدمك في تلك البلدة على السكينة والوقار، اذ طالما تشرف بقدم النبي صلى الله عليه وسلم في العشي والأبكار؛ وارج من الله تعالى أن يمنحك رؤيته في دار القرار، كما يسر لك رؤية هذه الديار التي فيها قبره الشريف وقبر أصحابه الكبار. وأذكر عند دخول مسجده أنه أول عرصة أقيمت فيها فرائض الله تعالى، وجمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً، وعظم أملك في أن يرحمك الله عز وجل بسبب دخولك اياها؛ فأدخل خاشعاً ومعظماً وما أجدر هذا المكان تعظيماً يقدر عليه انسان.

الثامن عشر: اذا زار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليعلم أن زيارته ميتاً كزيارته حياً، واذا رأيته حياً فكيف تعظمه. فأقدر ذلك القدر وراعه في حق زيارة قبره، ولا تدن منه كل الدنو، ولا تقبله، بل قف من بعيد ماثلاً بين يديه كما كنت تفعل لو زرته في حياته.

واعلم: أنه صلى الله عليه وسلم عالم بحضورك وقيامك وزيارتك، وأنه يبلغه سلامك وصلاتك، فمثل صورته الكريمة في خيالك موضوعاً في اللحد بازائك، واحضر عظم تربته في قلبك. واذا أتيت منبره، توهم صعوده وطلعته البهية قائماً على المنبر، وقد أحدق به المهاجرون والأنصار، وهو يحثهم في خطبته على طاعة الله تعالى، واسأل الله أن لا يفرق بينك وبينه في القيامة.

التاسع عشر: اذا فرغت من هذه الأعمال، فأخطر بالبال أنك بين خطر رد الأعمال وبشارة قبولها، وتحزن وتخاف على عدم معرفتك بأنك من زمرة المحبوبين؛ أورد حجتك وألحقت بالمطرودين.

العشرون: أن تمتحن قلبك بعد قدومك وطنك، انك أن ازددت تجافياً من دار الغرور الى دار أنس بالله تعالى، أو زدت الفرار من دار الذلة والخسار؛ ووازن أعمالك: فان كان من قبيل الشق الأول دل على القبول، والا فيوشك أن يكون حظك من هذه الأعمال التعب والعناء والنصب والشقاء؛ نعوذ بالله من الحرمان من أن نتسلك في حزب الشيطان.

فعليك بمحاسبة نفسك في كل غدوة وعشية، وتتدارك أمرك من قبل أن تدخل في الذين حيل بينهم وبين ما يشتهون، اذ عند ذلك تعظم الحسرة والخسارة، ولا يمكن التدارك بالتوبة والاستغفار. نبهنا الله تعالى واياكم قبل حلول المنية، ولا يحرمنا بحرمة نبيه عن هذه الأمنية، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وذرياته وأحبابه وسلم تسليماً.

الأصل الثامن

في علم فضيلة الأذكار والتلاوة والأوراد

وفيه مقدمة ومطالب:

المقدمة

أعلم: أن من المقدمات المقررة عند الخواص بل العوام، ان السعادة في لقاء الله الملك العلام، ولا سبيل اليه الا بالحب له والمعرفة وهما لا يحصلان الا بدوام الفكر في صفاته وأفعاله، وأن كل جمال وكمال شعبة من جناب جلاله وحضرة جماله. ثم ان النفس لما ابتليت بمصاحبة هذا البدن ليعينها في بلوغ مطالبه، ولما أحتاج البدن إلى حسن تدبير النفس اياه وتربيته، ولن يسخر اللطيف الكثيف بالاختيار حتى يقاسي رعايته وتربيته: أودع الله سبحانه وتعالى بينهما رابطة الحب لتكون تلك الرابطة واسطة تلك الرعاية.

ثم أن النفس الجاهلة ــ بسبب شوقها إلى البدن ــ ربما تميل إلى شهواته ومقتضياته، فتنسى ما خلقت لأجله من معرفة مبدئه وتدبير معاده. فلا بد لازالة هذا الميل عنها من اختيار التدريج: وذلك التدريج بالذكر، ثم الفكر، ثم الشوق، ثم العزم، ثم قطع العوائق، ثم السلوك إلى المطلب.

ولما كان أصل الكل الذكر المنتج للفكر، وذلك لا يحصل بالقدر اليسير منه لما نازعته الشهوات البدنية لاجرم كان الواجب على الانسان الذكر المستغرق للأوقات، حتى ينتهي إلى الفكر و ينزع النفس عن الشهوات.

ولما كان استغراق الكل متعذراً، واستغراق الأكثر متعسراً، لوجوب المصالح

الضرورية للبدن، وجواز الملاذ المباحة ـــ لا جرم لا بد من قانون ينتهي الذكر بذلك القدر إلى الفكر. فمن غلب أوقات ذكره فهو ممن يترجح كفة حسناته؛ وأما من ساوى بينهما فأمره إلى الله، مع أن سعة الرحمة تعظم الرجاء في أمره؛ وأما المستغرق جميع أوقاته، فهؤلاء هم المنتهون الفائزون بالجنان من غير حساب؛ وأما المبتدىء فلا يمكنه ذلك اذ تدخله السآمة والملال، والله تعالى لا يمل حتى تملوا. فلا بد في حقهم من التلطف والتدريج من فن إلى فن، لأن التفنن يروح النفس ويرغبها في الزيادة عليه. فلا بد من بيان أوقات التلاوة والأذكار آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾(١)؛ وقال تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾(٢)؛ وقال: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم﴾(٣) ثم قال في حق الفائزين: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾(٤) وقال الله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾(٥) إلى غير ذلك من الآيات.

المطلب الأول

في علم آداب التلاوة وفضيلتها

لا تخفى على أحد سيما من سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله تعالى»؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: «لو كان القرآن في أهاب ما مسته النار». وكذلك لا يخفى ذم تلاوة الغافلين كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه». فلا بد من ذكر آداب ينجو بها من نقيصة الغفلة ورذيلة التقصير.

---

(١) سورة الإنسان، آية: ٢٥.
(٢) سورة ق، آية: ٣٨.
(٣) سورة الطور، آية: ٤٨.
(٤) سورة الذاريات، آية: ١٧.
(٥) سورة السجدة، آية: ١٦.

ثم أن الآداب لها ظاهر و باطن:

والآداب الظاهرة عشرة:

الأول: في حال القارىء. وهو أن يكون على وضوء، و يقرأ على السكون والوقار: أما قائماً أو جالساً، مستقبلاً القبلة، مطرقاً رأسه، غير متربع ولا متكىء؛ ويجلس جلوسه عند الأستاذ. وأفضل أحوال القراءة في الصلاة قائماً و يكون في المسجد، ثم غير متوضىء، ثم المضطجع وان لم يخل عن الفضيلة، ولكن أن قرأ مضطجعا ينبغي أن يضم رجليه.

الثاني: في المقدار. وله مراتب: منهم من يختم في اليوم والليلة مرة أو مرتين، وانتهى بعضهم إلى ثلاث؛ ومنهم من يختم في ثلاث وهذا الوسط وهو الأفضل؛ ومنهم من يختم في أسبوع، وقد فعله كثير من الصحابة كعثمان وزيد ابن ثابت وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم؛ ومنهم من يختم في كل شهر.

والختم في اليوم والليلة مرة أو مرتين أو مرات مكروه، وفي الشهر مرة مبالغة في الاقتصار، والا حب بينهما؛ الا أن الحق ان القارىء ــ أن كان من العباد ــ يختم في الأسبوع مرة أو مرتين، وان كان من أر باب القلوب، أو ممن اشتغل بنشر العلم، ففي الأسبوع مرة، وان كان نافذ الفكر في معاني القرآن، ففي الشهر مرة لكثرة حاجته الى ترديد الآيات وتكريرها.

الثالث: في القسمة. من قسم القرآن على سبعة: يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة الى المائدة؛ وفي الليلة الثانية بالأنعام إلى هود؛ وفي الثالثة بيوسف إلى مريم؛ وفي الرابعة بطه الى طسم؛ وفي الخامسة بالعنكبوت الى ص؛ وفي السادسة بتنزيل الى الرحمن، وفي السابعة وهي ليلة الخميس يختم.

وقيل: في السبعة الأحزاب الأول ثلاث سور، والثاني خمس، والثالث سبع؛ والرابع تسع؛ والخامس احدى عشرة؛ والسادس ثلاث عشرة؛ والسابع المفصل من ق. وهذه تجزئة الصحابة، وما سوى هذه من الأخماس والعواشر محدث.

الرابع: الكتابة. يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه، ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها، فإن ذلك تزيين وصد من الخطأ واللحن. وأما ما نقل من الكراهة فيها وفي أمثالها، لخوفهم من أن يؤدي فتح هذا الباب إلى أحداث زيادات يطرق بها التغيير إلى القرآن. أما الذي نحن عليها فلم يبلغ تلك الدرجة، مع فائدة الأعراب والصون عن اللحن والخطأ، فهذه بدعة حسنة.

الخامس: البكاء. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا». وطريق التباكي: أن يلقى في قلبه الحزن ومنه ينشأ البكاء؛ قال صلى الله عليه وسلم: «أن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا». وطريق التحازن: ان يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والوثائق والعهود، ثم يتأمل تقصيره فيحزن و يبكي لا محالة، فإن لم يحزن بهذه فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك من أعظم المصائب.

السادس: الترتيل. وقد عرفت أن الغرض من الذكر الفكر، والترتيل معين عليه، و بذلك نعتت أم سلمة قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيما اذا كان القارىء أعجمياً لا يفهم المعنى، فانه يستحب له الترتيل والتؤدة، لأن ذلك أقرب الى التوقير والاحترام.

السابع: رعاية حق الآيات. مثل: ان يسجد في مواضعها ولو سمع من غيره، و يسجد على طهارة، و يشترط لها شرائط سجدة الصلاة: من الطهارة واستقبال القبلة وستر العورة.

الثامن: أن يتعوذ قبل القراءة و يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون، و يقرأ سورة قل أعوذ برب الناس وسورة الفاتحة. وليقل عند فراغه من كل سورة صدق الله العظيم و بلغ رسوله، اللهم انفعنا به و بارك لنا فيه، والحمد لله رب العالمين، وأستغفر الله الحي القيوم. واذا مر بآية تسبيح سبّح وكبّر، وان مر بآية استغفار استغفر ودعا، وان مر بآية سؤال سأل، وان مر بآية تخويف استعاذ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول: سبحان الله أعوذ بالله، اللهم ارزقنا، اللهم ارحمنا.

واذا فرغ يدعو بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ختم القرآن وهو: « اللهم ارحمني بالقرآن العظيم، واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله حجة لي يا أرحم الراحمين ».

التاسع: وأدنى الجهر في حق الصلاة وترتب الثواب اسماع النفس، ومرتبة اسماع الغير مستحب. وقد تعارضت الأخبار في حق الجهر والأسرار، الا أن الجمع بينهما ان الأسرار أفضل لمن يخاف فيه الرثاء والتصنع، وأما فيمن هو بخلافه فالجهر أفضل، الا أن يشوش وقت مصلٍّ آخر، لأن فيه فوائد كثيرة ليس في الاسرار، لأنه خير متعدد يوقظ القلب، ويجمع الهم إلى الفكر، ويجمع اليه سمعه، و يطرد النوم منه ومن غيره، و يزيد في نشاطه و يقلل من كسله. وقد يبعث نوم الكسلان الى القراءة، فمهما حضر شيء من هذه النيات فالجهر أفضل، وان اجتمع اثنان أو أكثر يضاعف الأجر بقدره.

العاشر: تحسين القراءة من غير تمطيط بغير النظم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « زينوا القرآن بأصواتكم » ــ وقال: « ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت يتغنى بالقرآن » ــ وقال: « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن وغير ذلك ».

المطلب الثاني
في الآداب الباطنة

وهي أيضاً عشرة:

الأول: فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله تعالى ولطفه، حيث انزله عن عرش جلاله الى درجة افهام خلقه، مع كونه صفة قديمة قائمة بذاته. ولو استنار كنه جمال كلامه في كسوة الحروف والألفاظ لما ثبت لسماعه عرش ولا ثرى، كما لم يطق الجبل مبادي تجليه حتى صار دكاً، لولا تثبيت الله تعالى موسى لما أطلق سماع كلامه؛ ومثلوا لذلك بتأديب الحيوانات بأصوات دالة على

كلمات لا يفهم الحيوان الا بكسوة أصوات تمكنها تمييزها من النفير والصفير. فالكلام عالي المنزلة، رفيع الدرجة، قاهر السلطان، نافذ الحكم في الحق والباطل؛ وهو القاضي العدل والشاهد المرتضى يأمر و ينهي، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام الحكمة، كالظل مع الشمس، فهو ملك محجوب غائب وجهه ظاهر أمره، وشمس ظاهرة الأضواء وعنصرها مكنون.

الثاني: تعظيم المتكلم؛ بأن يتفكر أن ظاهر الجلد ــ كما أنه محروس عن البشر ما لم يتطهر عن الأحداث والأخباث ــ كذلك معناه محجوب بحكم عزه وجلاله عن باطن القلب، ما لم يتطهر عن الحوادث والأكوان، أو يتنور بنور التعظيم والتوقير، فيعظم الجلد بتعظيم الكلام عن يد غير متطهر، والكلام بتعظيم متكلمه عن لسان غير متطهر عن الكذب والغيبة والبهتان؛ والمتكلم بالتفكر في صفاته وأفعاله بتطهير القلب عن تلوث الحدثان وكدورات الملوان.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس. وهذه الصفة تتولد عن التعظيم: فإن المعظم لأحد يستأنس بكلامه، ويحضر اليه قلبه، ويجمع اليه همه. وكان بعض السلف اذا لم يحضر قلبه عند قراءة سورة أعادها.

الرابع: التدبر. وهو وراء احضار القلب: فانه قد لا يتفكر في غير القرآن، وقد يقتصر على سماع القرآن وهو لا يتدبره؛ والمقصود من القرآن: التدبر، ولذلك سن فيه الترتيل. فإذا لم يتمكن من التدبر فليردد.

وعن أبي ذر: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها: ﴿ان تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾[1]؛ وقام سعيد بن جبير بهذه الآية يرددها: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾[2]؛ وعن أبي سليمان الداراني: اني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال، ولولا اني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها؛ وعن بعض السلف: انه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها؛ وقال

(١) سورة المائدة، آية: ١١٨.
(٢) سورة يس، آية: ٥١.

بعض العارفين: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، ولي في ختمة ثلاثين سنة ما فرغت منها.

الخامس: التفهم. وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، اذ القرآن مشتمل على ذكر صفات الله تعالى وأفعاله، وأحوال أنبيائه، وأوامره وزواجره، والجنة والنار: فتحت هذه معان مدفونة لا يصل اليها الا الموفقون. ولذلك قال علي رضي الله عنه: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب. وقد قيل: لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن ما يريد، و يعرف النقصان من المزيد، و يستغني بالمولى عن العبيد.

فالغرض مما ذكرناه: التنبيه على طريق التفهم، لينفتح بابه، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه.

السادس: التخلي عن موانع الفهم لأسباب وحجب سدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن.

منها: تحقيق مخارج الحروف. وأعظم ضحكة الشيطان: القراء الذين أطاعوا تلبيس الشيطان، الذين يخيل اليهم الشيطان ان الحروف لم تخرج من مخارجها فيصرفهم عن تكشف المعاني؛ بل الحزم في ذلك قدر الاقتصار.

ومنها: التقليد لمذهب مسموع له و يتعصب له، فيحرم من غيره ولو كان حقاً. وان لمع برق الحق على بعد و بدا له، حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد أسلافك الذين كانوا على الحق. وقول الصوفية: العلم حجاب أرادوا به هذا النوع من العلم، لا العلم الحقيقي المؤيد بالبرهان والعيان؛ مثلاً من غلب عليه مذهب التجسيم، ولاحظ معنى القدوس انه منزه عن كل ما يجوز لمخلوقاته، يكر عليه الشيطان و يصده عن ذلك بالتقليد قبل أن يستقر في قلبه.

ومنها: أن يتراكم على مرآة قلبه صدأ المعاصي والشهوات، فلا تنكشف له أسرار الكتاب. ولذلك قال تعالى: ﴿انما يتذكر أولوا

الألباب ﴾[1]؛ وقال تعالى: ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾[2].

ومنها: أن يقلد تفسيراً ظاهراً يروي عن قتادة ومجاهد و يعتقد أن ما وراءه تفسير بالرأي. وهذا أيضاً من أعظم الحجب؛ اذ القرآن لا تنقضي عجائبه. وستعرف التفسير بالرأي ان شاء الله تعالى.

السابع: التخصص. وذلك أن يقدر أن المقصود بكل خطاب في القرآن: من الأمر والنهي والوعد والوعيد، وان القصد من القصص والأخبار ليس الا الاعتبار، وكيف لا والقرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الا لأجله ولأجل أمته عامة.

الثامن: التأثر بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه: من الخوف والحزن والرجاء وغير ذلك. ومن لم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان. وهذه قليل الجدوى. وتلاوة القرآن حق تلاوته: انه يشترك فيه اللسان والعقل والقلب.

فحظ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل؛ وحظ العقل: تفسير المعاني؛ وحظ القلب: الإتعاظ والتأثر، والانزجار والائتمار. فاللسان والعقل ترجمان، والقلب يتعظ. فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط ــ كقوله تعالى: ﴿وأني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[3]. ــ يتضاءل خضوعاً من خيفته حتى كأنه يموت. ومنهم من مات عند سماع آية الوعيد، ومنهم من خر مغشياً عليه؛ وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح؛ وعند ذكر صفات الله تعالى وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته؛ وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله تعالى: كذكرهم لله سبحانه ولداً وصاحبة،

---

(١) سورة الزمر، آية: ٩.
(٢) سورة ق، آية: ٨.
(٣) سورة طه، آية: ٨٢.

يغض صوته وينكسر في باطنه، حياء من قبح مقالتهم؛ وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً اليها؛ وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً.

التاسع: التوقي إلى أن يسمح الكلام من الله عز وجل. فدرجات القراءة ثلاثة: أدناها: ان يقدر العبد نفسه كأنه ماثل بين يدي مولاه، وهو مستمع منه، فيقرأه بالتملق والتضرع والابتهال؛ وأوسطها: أن يشهد بقلبه كأن ربه يخاطبه بألطافه ويناجيه بأنعامه، فمقامه عند هذا الحياء والتعظيم والاصغاء والفهم، وهذه درجة أصحاب اليمين؛ وأعلاها: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، ويكون مقصوراً لهم على المتكلم كأنه مستغرق بمشاهدته عن غيره، وهذه درجة المقربين. وفي مثل هذه الحالة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة.

العاشر: التبري من حوله وقوته. وأن يشاهد نفسه بعين الرضا والالتفات اليها بالتزكية؛ فإذا تلا آيات الوعد يشهد بذلك للموقنين، ولا يرى نفسه أهلا لها، بل يتشوق أن يلحقه الله بهم؛ واذا تلا آيات المقت وذم العصاة، شهد نفسه هناك، وقدر نفسه المخاطب خوفاً واشفاقاً؛ ثم رؤيته نفسه بصورة التقصير، يكون سبب قربه إلى أن يجاوز حد الالتفات الى نفسه، ولم يشاهد الا الله تعالى في قراءته، فحينئذ انكشف له الملك والملكوت؛ وحيث يتلو آيات الرجاء، ويغلب على حاله الاستبشار، تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها عياناً، وعلى هذا الحال آيات الخوف اذ حينئذ كوشفت له الناس عياناً.

المطلب الثالث

في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل

لعلك بالبال ان ما ذكرت من المعاني يرجع الى التفسير بالرأي، وأنه مما أنكر عليه الشرع، حتى شنع العلماء على أهل التصوف في تأويل كلمات القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس، وسائر المفسرين، وذهبوا الى أنه كفر صريح.

فاعلم: أنه لا يجوز التهاون بالتفسير الظاهر أولاً، ولا مطمع في الوصول الى الباطن قبل احكام الظاهر، وهذا أمر اتفاقي. وانما الخلاف في أن وراءه معاني أخر يفهمها من أعطى فهمه أم لا؛ والحق جواز ذلك عقلاً ونقلاً.

أما نقلاً: فقوله صلى الله عليه وسلم: «أن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً»؛ وقال علي رضي الله عنه: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب؛ وقوله أيضاً: الا أن يؤتى الله عبداً فهماً في القرآن. ومعلوم أن تلك البطون والحد لم تنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أيضاً أن وقر سبعين بعيراً في الفاتحة لم يمكن بالنقل، وكذا ما يؤتى الله عبداً فهما خارج عن النقل، فظهر أن في القرآن معاني كثيرة وراء النقل. ومثال هذه الأخبار والآثار كثيرة.

وأما عقلاً: فهو أن النهي عن التفسير بالرأي: أما لحمله على معتقده الباطل وهواه؛ وأما بأن يعتقد على ذلك جهلاً، أو يعتقد على خلافه لكن يلبس على خصمه؛ وأما أن يفسره على ظاهر العربية، من غير نقل وسماع فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير؛ فمن خلص فهمه عن هذه الآفات لا يشغله الوعيد المذكور، ثم من يؤيد فهمه بنور الكشف والشهود فذلك ما أشار اليه ابن عباس: من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن. ولعلك سمعت فيما سبق ما يفتح عليك الاشكال المذكورة، والله ولي التوفيق في كل الأمور.

ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار القرآن وما يرتبط بمقدماتها ولواحقها، لأنقطع العمر قبل استيفائها، وما من كلمة في القرآن الا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك، وانما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم، وتوفير دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة منه، وأما الاستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان البحر مداداً والاشجار أقلاماً لنفد البحر قبل أن تنفد أسرار القرآن.

المطلب الرابع
في علم الأذكار

من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة والاستغفار. وفيه أنواع:

النوع الأول: فضيلة الأذكار. قال تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم﴾[(1)]؛ وقال: ﴿أذكروا الله ذكراً كثيراً﴾[(2)]؛ وقال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾[(3)]؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: اذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، واذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه، واذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، واذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، واذا مشى إليَّ هرولت إليه»؛ أي: أسرعت اجابته؛ وقال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله». وذكر من جملتهم رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.

النوع الثاني: فضيلة التسبيح والتحميد. قال صلى الله عليه وسلم: «من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد ثلاثاً وثلاثين، وكبر ثلاثاً وثلاثين، وختم المائة بلا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من قال في يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر».

روى أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي، فقال صلى الله عليه وسلم: فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون، قال: فقلت: وماذا يا رسول الله، قال: قل سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، استغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلي الصبح، تأتيك الدنيا راغمة صاغرة، ويخلق الله تعالى من كل كلمة ملكاً يسبح الله تعالى الى يوم القيامة لك ثوابه. وقال: «ما على

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٢.
(٢) سورة الأحزاب، آية: ١.
(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

الأرض رجل يقول: لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله، الا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر». وقال «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان الى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». وقال: «يا عبد الله بن قيس، أو يا أبا موسى: أو لا أدلك على كنز من كنوز الجنة، قال بلى، قال: قل: لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

وقال: «من قال حين يصبح: رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، كان حقاً على الله تعالى أن يرضيه يوم القيامة».

قال مجاهد: اذا خرج الرجل من بيته وقال: بسم الله، قال الملك: هديت، فإذا قال: توكلت على الله، قال الملك: كفيت، فإذا قال: لا حول ولا قوة الا بالله، قال الملك: وقيت. فتتفرق الشياطين فيقولون: لا سبيل لكم عليه، قد هدى وكفى ووقي.

النوع الثالث: فضيلة التهليل. قال صلى الله عليه وسلم: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا اله الا الله وحده لا شريك له».

وقال: «من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير — في كل يوم مائة مرة، كان له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكان له حرز من الشيطان يومه حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل ما جاء به الا أحد عمل أكثر من ذلك».

وقال: «ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء، ثم رفع طرفه الى السماء فقال: أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء».

وقال: «من تعار من الليل فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم أغفر لي، أو دعا أستجيب له، وان توضأ وصلى قبلت صلاته.

النوع الرابع: فضيلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾[1]. وروى أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه، فقال صلى الله عليه وسلم: «جاءني جبريل فقال: أما ترضى يا محمد أنه لا يصلي عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشراً». وقال صلى الله عليه وسلم: «من صلى علي صلت عليه الملائكة ما صلى علي، فليقلل عبد من ذلك أو ليكثر». وقال صلى الله عليه وسلم: «ان أولى الناس بي أكثرهم علي صلاة». وقال صلى الله عليه وسلم: «من صلى علي من أمتي كتب له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات». وقال صلى الله عليه وسلم: «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب». وقال: «من قال حين يسمع الآذان والاقامة: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة، حلت له شفاعتي» وقال صلى الله عليه وسلم: «ليس أحد يسلم علي الا رد الله على روحي حتى أرد عليه»

وقيل: يا رسول الله، كيف نصلي عليك، فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد».

النوع الخامس: فضيلة الاستغفار. قال الله عز وجل: ﴿والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً﴾[3] وقال صلى الله عليه وسلم: «من أكثر الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وكان صلى الله عليه وسلم يكثر الاستغفار، يقول: «سبحانك اللهم

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٦.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٥
(٣) سورة النصر، آية: ٣.

وبحمدك، اللهم أغفر لي أنك أنت التواب الرحيم». وقال صلى الله عليه وسلم: «من قال حين يأوي الى فراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا اله الا هو الحي القيوم أستغفر الله العظيم الذي لا اله الا هو الحي القيوم ــ ثلاث مرات؛ غفر الله ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر، أو رمل عالج، أو عدد ورق الشجر، أو عدد أيام الدنيا». وقال في حديث آخر: «من قال ذلك غفرت ذنوبه وان كان فاراً من الزحف».

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الاستغفار: «اللهم أغفر لي خطيئتي وجهلي واسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم أغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير. وقال: «من قال: سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً، فأغفر لي، انه لا يغفر الذنوب الا أنت ــ غفرت ذنوبه ولو كانت كمدب النمل».

وروى أن أفضل الاستغفار: اللهم أنت ربي وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء اليك بنعمتك علي، وأبوء على نفسي بذنبي، فقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فأغفر لي ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت، انه لا يغفر الذنوب جميعاً الا أنت.

المطلب الخامس

في أدعية مأثورة معزية إلى أربابها يدعى بها صباحاً ومساء

ومنها: دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتي الفجر. قال ابن عباس: بعثني العباس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته ممسياً وهو في بيت خالتي ميمونة، فقام يصلي من الليل، فلما صلى ركعتين قبل صلاة الفجر قال: «اللهم أني أسألك رحمة من عندك، تهدى بها قلبي، وتجمع بها شملي، وتلم بها شعثي، وترد بها إلفتي، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي،

وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء؛ اللهم أعطني إيماناً صادقاً و يقيناً ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة؛ اللهم أني أسألك الفوز عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، وللنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء؛ اللهم اني أنزل بك حاجتي وان ضعف رأيي وقصر عملي وافتقرت الى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور و يا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور وفتنة القبور؛ اللهم ما قصر عنه رأيي، وضعف عنه عملي، ولم تبلغه نيتي وأمنيتي من خير وعدته أحداً من عبادك وخير أنت معطيه أحداً من خلقك، فإني أرغب اليك فيه وأسألكه يا رب العالمين؛ اللهم أجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين، حرباً لأعدائك وسلماً لأوليائك، نحب بحبك الناس ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك؛ اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، وانا لله وانا اليه راجعون، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ذي الحبل الشديد والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة دار الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود، والموفين بالعهود، انك رؤوف ودود، أنت تفعل ما تريد، سبحان الذي تعطف بالعز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح الا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي العزة والكرم، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه؛ اللهم اجعل لي نوراً في قلبي، ونوراً في قبري، ونوراً في سمعي، ونوراً في بصري، ونوراً في لحمي، ونوراً في دمي، ونوراً في عظامي، ونوراً من بين يدي، ونوراً من خلفي، ونوراً عن يميني، ونوراً عن شمالي، ونوراً من فوقي، ونوراً من تحتي؛ اللهم زدني نوراً وأعطني نوراً وأجعل لي نوراً».

ومنها: دعاء عائشة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة: «عليك بالجوامع الكوامل، قولي: اللهم اني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب

اليها من قول وعمل، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم، وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين».

ومنها: دعاء فاطمة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا فاطمة، ما يمنعك أن تسمعي ما أوصي به، ان تقولي: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، لا تكلني الى نفسي طرفة عين وأصلح شأني كله».

ومنها: دعاء أبي بكر الصديق. علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اني أسألك بمحمد نبيك وابراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك وروحك، وبتوراة موسى وانجيل عيسى وزبور داود وقرآن محمد صلى الله عليه وسلم، وبكل وحي أوحيته وقضاء قضيته أو سائل أعطيته أو غني أقنيته أو فقيراً غنيته أو ضال هديته، وأسألك بآسمك الذي أنزلته على موسى، وأسألك باسمك الذي تثبت به أرزاق العباد، وأسألك بآسمك الذي وضعته على الأرض فاستقرت، وأسألك بآسمك الذي وضعته على السموات فاستقلت، وأسألك بآسمك الذي وضعته على الجبال فرست، وأسألك بآسمك الذي استقل به عرشك، وأسألك بآسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر، الذي وضعته على النهار فآستنار، وعلى الليل فأظلم، وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك، أن ترزقني القرآن والعلم، وتخلطه بلحمي ودمي وسمعي وبصري، وتستعمل به جسدي بحولك وقوتك، فأنه لا حول ولا قوة الا بك يا أرحم الراحمين».

ومنها: دعاء بريدة الأسلمي. روى أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بريدة، ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمه اياها ثم لا ينسيهن اياها أبداً، قال: فقلت: بلى يا رسول الله، قال يقل: اللهم أني ضعيف فقو في رضاك ضعفي، وخذ الى الخير بناصيتي، واجعل الإسلام منتهى رضاي؛ اللهم اني ضعيف فقوني، وأني ذليل فأعزني، وأني فقير فأغنني».

ومنها: دعاء قبيصة بن المخارق، اذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: علمني كلمات ينفعني الله عز وجل بها، فقد كبر سني وعجزت عن أشياء كنت أعملها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما لدنياك فإذا صليت الغداة فقل: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، لا حول ولا قوة الا بالله، فانك اذا قلتهن أمنت من الغم والجذام والبرص والفالج؛ وأما لآخرتك فقل: اللهم أهدني من عندك، وأفض علي من فضلك، وانشر علي من رحمتك، وأنزل علي من بركاتك». ثم قال صلى الله عليه وسلم: «أما أنه اذا وافى بهن يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة».

ومنها: دعاء ابي الدرداء. قيل له: قد احترقت دارك ـــ وكانت النار في محلته ـــ فقال: ما كان الله ليفعل ذلك، فقيل له ذلك ثلاثاً، فقال ما كان الله ليفعل ذلك؛ ثم أتاه آت فقال: ان النار لما دنت من دارك طفئت، قال: قد علمت، فقيل له: ما تدري أي قوليك أعجب، قال: اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قال هؤلاء الكلمات في ليل أو نهار لم يضره شيء، وقد قلتهن، وهي هذه: اللهم أنت ربي لا اله الا أنت، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، اللهم أني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم.

وروى عن أبي الدرداء أنه قال: من قال كل يوم سبع مرات: ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾[1] كفاه الله ما أهمه من أمر آخرته صادقاً كان بها أو كاذباً.

ومنها: دعاء ابراهيم الخليل عليه السلام. كان يقول اذا أصبح: اللهم هذا خلق جديد فأفتحه لي بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك، وأرزقني حسنة تقبلها وزكها وضاعفها لي، وما عملت فيه من سيئة فأغفرها لي أنك غفور رحيم ودود كريم. قيل: من دعا بهذا الدعاء اذا أصبح فقد أدى شكر يومه.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٩

ومنها: دعاء عيسى عليه السلام. كان يقول: اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجوه، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهناً بعملي، فلا فقير أفقر مني؛ اللهم لا تشمت بي عدوي، ولا تسؤ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا تسلط علي من لا يرحمني.

ومنها: دعاء الخضر عليه السلام. يقال: ان الخضر والياس عليهما السلام اذا التقيا في كل موسم لم يفترقا الا عن هذه الكلمات: بسم الله ما شاء الله لا قوة الا بالله، ما شاء الله كل نعمة فمن الله ما شاء الله الخير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله. من قالها ثلاثاً اذا أصبح أمن من الغرق والحرق والسرق.

ومنها: دعاء معروف الكرخي. قال محمد بن حسان: قال لي معروف الكرخي: ألا أعلمك عشر كلمات — خمس للدنيا وخمس للآخرة — من دعا الله عز وجل بهن وجد الله تعالى عندهن، قلت: أكتبها لي، قال: لا، ولكن أرددها عليك كما رددها عليَّ بكر بن خنيس: حسبي الله الحليم القوى لمن بغى علي، حسبي الله الشديد لمن كأدنى بسوء، حسبي الله الرحيم عند الموت، حسبي الله الرؤوف عند المسألة في القبر، حسبي الله الكريم عند الحساب، حسبي الله اللطيف عند الميزان، حسبي الله القوي عند الصراط، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

ومنها: دعاء عتبة الغلام. وقد رئي في المنام فقال: دخلت الجنة بهذه الكلمات: اللهم يا هادي المضلين، وراحم المذنبين، ومقيل عثرات العاثرين، أرحم عبدك ذا الخطر العظيم، والمسلمين كلهم أجمعين، وأجعلنا من الأحياء المرزوقين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين يا رب العالمين.

ومنها: دعاء آدم عليه السلام. قالت عائشة: لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم عليه السلام، طاف بالبيت سبعاً — وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء — ثم قام فصلى ركعتين، ثم قال: اللهم انك تعلم سري وعلانيتي فآقبل

معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فأغفر لي ذنوبي، اللهم اني أسألك ايماناً يباشر قلبي، و يقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني الا ما كتبته علي، ورضني بما قسمته لي. فأوحى الله عز وجل اليه: اني قد غفرت لك، ولن يأتيني أحد من ذريتك فيدعوني بمثل الذي دعوتني به الا غفرت له ذنوبه، وكشفت غمومه وهمومه، ونزعت الفقر من بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر، وجاءته الدنيا راغمة وان كان لا يريدها.

ومنها: دعاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ان الله عز وجل يمجد نفسه كل يوم و يقول: اني أنا الله رب العالمين، أني أنا الله لا اله الا أنا الحي القيوم، اني أنا الله لا اله الا أنا العلي العظيم، اني أنا الله لا اله الا أنا لم ألد ولم أولد، اني أنا الله لا اله الا أنا الغفور مبدىء كل شيء والي يعود، اني أنا الله لا اله الا أنا العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، خالق الخير والشر، خالق الجنة والنار، الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد، الفرد الوتر، عالم الغيب والشهادة، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الكبير المتعال المقتدر القهار الحكيم الكريم، أهل الثناء والمجد، أعلم السر وأخفى، القادر الرزاق للخلق والخليقة. وذكر قبل كل كلمة: اني أنا الله لا اله الا أنا كما أوردنا في الأول. فمن دعا بهذه الأسماء فليقل: انك أنت الله لا اله الا أنت كذا وكذا. فمن دعا بها كتب من الساجدين المخبتين، الذين يجاورون محمداً وابراهيم وموسى وعيسى والنبيين في دار الجلال، وله ثواب العابدين في السموات والأرضين.

ومنها: دعاء أبي المعتمر سليمان التيمي وتسبيحاته. روى أن يونس بن عبيد رأى رجلاً في المنام ممن قتل شهيداً ببلاد الروم، فقال: ما أفضل ما رأيت من الأعمال، قال: رأيت تسبيحات أبي المعتمر من الله بمكان، وهي هذه: سبحان الله، والحمد لله، ولا اله الا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، عدد ما خلق، وعدد ما هو خالق، وزنة ما خلق، وزنة ما هو خالق، وملء ما خلق، وملء ما هو خالق، وملء سمواته وأرضه، ومثل ذلك

وأضعاف ذلك، وعدد خلقه، وزنة عرشه، ومنتهى رحمته، ومداد كلماته، ومبلغ رضاه، وحتى يرضى، واذا رضي، وعدد ما ذكره به خلقه في جميع ما مضى، وعدد ما هم ذاكروه في ما بقي في كل سنة وشهر وجمعة و يوم وليلة وساعة من الساعات ونسم ونفس، من أبد إلى الأ بد، أبد الدنيا وأبد الآخرة، وأكثر من ذلك لا ينقطع أولاه ولا ينفد أخراه.

ومنها: دعاء ابراهيم بن ادهم. روى ابراهيم بن بشار خادمه انه كان يقول هذا الدعاء ــ اذا أصبح واذا أمسى: مرحباً بيوم المزيد والصبح الجديد والكاتب الشهيد، يومنا هذا يوم عيد، اكتبا لنا ما نقول: بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال في خلقه ما يريد، أصبحت بالله مؤمناً، و بلقائه مصدقاً، وبحجته معترفاً، ومن ذنبي مستغفراً، ولربوبية الله عز وجل خاضعاً، ولسوى الله عز وجل في الالهية جاحداً، والى الله سبحانه وتعالى فقيراً، وعلى الله متوكلاً، وإلى الله عز وجل منيباً، أشهد الله وأشهد ملائكته ورسله وحملة عرشه ومن خلقه وما هو خالقه بأنه هو الله لا اله الا هو وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً، وأن الجنة حق، وأن النار حق، والحوض والشفاعة حق، ومنكراً ونكيراً حق، ووعدك حق، ولقاءك حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور، على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث ان شاء الله؛ اللهم أنت ربي لا رب لي الا أنت، خلقتني وأنا عبدك على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك اللهم من شر كل ذي شر؛ اللهم اني ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب الا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها الا أنت، وأصرف عني سيئها فإنه لا يصرف سيئها الا أنت، لبيك وسعديك، الخير كله بيديك، انا لك واليك، أستغفرك وأتوب اليك، آمنت اللهم بما أرسلت من رسول، وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً خاتم كلامي ومفتاحه، وعلى أنبيائه ورسله أجمعين، آمين يا رب العالمين؛ اللهم أوردنا حوضه، واسقنا بكأسه مشرباً رو ياً سائغاً هنيئاً لا نظمأ بعده أبداً، واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا ناكثين ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب

علينا ولا ضالين؛ اللهم أعصمني من فتن الدنيا، ووفقني لما تحب وترضى، وأصلح لي شأني كله، وثبتني في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولا تضلني وان كنت ظالماً، سبحانك سبحانك يا علي يا عظيم يا رب يا رحيم يا عزيز يا حنان، سبحان من سبحت له السموات بأكنافها، وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها، وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بأبراقها، وسبحان من سبحت له الشجر بأصولها ونضارتها، وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن، سبحانك يا حي يا حليم سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، تحيي وتميت وأنت حي لا تموت، بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير.

المطلب السادس

في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم والآل والأصحاب

محذوفة الأسانيد مما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن المنذر على ما روى الغزالي في الأحياء.

وأعلم: أن من أراد حرث الآخرة لا بد له من الذكر كما بيناه. ومن أفضل الأذكار والدعوات المأثورة عن الأخبار، فقل في مفتتح دعواتك أعقاب صلواتك: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب، لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وقل: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ثلاث مرات.

وقل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد ان لا اله الا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه.

وقل: اللهم اني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي؛ اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، وأقل عثراتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي؛ اللهم لا تؤمني مكرك، ولا تولني غيرك، ولا تنزع عني سترك ولا تنسني ذكرك، ولا تجعلني من الغافلين.

وقل: اللهم أنت ربي لا اله الا أنت، خلقتني وأنا عبدك على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فأغفر لي أنه لا يغفر الذنوب الا أنت.

وقل: اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا اله الا أنت ــ ثلاث مرات.

وقل: اللهم أني أسألك الرضا بالقضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر الى وجهك، وشوقاً إلى لقائك، من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أُظلم أو أعتدي أو يعتدى علي أو اكتسب خطيئة أو ذنباً لا تغفره؛ اللهم اني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم فأنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، أغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، فأنك أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد؛ اللهم أني أسألك ايماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد وقرة عين الأبد، ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد، اللهم أني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقربني إلى حبك، وأن تتوب علي وتغفر لي وترحمني، واذا أردت أن تقوم فتنة فأقبضني اليك غير مفتون؛ اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيراً لي، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، ولذة النظر إلى وجهك

والشوق الى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان وأجعلنا هداة مهديين، اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا؛ اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك خوفاً، وأسكن في نفوسنا من عظمتك، وذلل جوارحنا لخدمتك، واجعلك أحب الينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك ممن سواك؛ اللهم أجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة؛ الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لعزته، وخضع كل شيء لملكه، واستسلم كل شيء لقدرته، الحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته، وأظهر كل شيء بحكمته، وتصاغر كل شيء لكبريائه؛ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، وبارك على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم في العالمين أنك حميد مجيد؛ اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسول الأمين وأعطه المقام المحمود يوم الدين؛ اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين، واستعملنا بما يرضيك عنا، ووفقنا لمحابك منا، وصرفنا بحسن اختيارك لنا، نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه، ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه؛ اللهم بقدرتك على تب على انك أنت التواب الرحيم، وبحلمك عني أعف عني أنك أنت الغفار، وبعلمك بي أغفر لي أنك أنت الرحمن، وبملكك لي ملكني نفسي ولا تسلطها علي أنك أنت الملك الجبار، سبحانك وبحمدك لا اله الا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي فأغفر لي ذنبي أنك أنت ربي أنه لا يغفر الذنوب الا أنت؛ اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي؛ اللهم أرزقني رزقاً حلالاً لا تعاقبني عليه، وقنعني بما رزقتني واستعملني به صالحاً تقبله مني، أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة، يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينفعك، افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين، وتوفني مسلماً والحقني بالصالحين، انت ولينا فأغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة، ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين

كفروا وأغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم، ربنا أغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فأغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد، ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فأنصرنا على القوم الكافرين، رب أغفر لي ولوالدي وأرحمهما كما ربياني صغيراً، واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، رب أغفر وأرحم وتجاوز عما تعلم فأنت الأعز الأكرم. وأنت خير الراحمين وخير الغافرين وانا لله وانا إليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أنواع الاستعاذة
المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

اللهم أني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر؛ اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع وطمع من غير طمع ومن طمع حين لا مطمع؛ اللهم اني أني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع، ومن الجوع فأنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فأنها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن، ومن الهرم ومن أن أرد إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات؛ اللهم انا نسألك قلوباً أواهة مخبتة متيبة في سبيلك؛ اللهم أنا نسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك، والسلامة من كل اثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة والنجاة من النار؛

اللهم اني أعوذ بك من التردي، وأعوذ بك من الهم والغرق والهرم، وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك من أن أموت في طلب دنيا؛ اللهم أني أعوذ بك من شر ما علمت وما لم أعلم؛ اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال وادواء والأهواء؛ اللهم اني أعوذ بك من جهد البلاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء؛ اللهم أني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من فتنة الدجال؛ اللهم أني أعوذ بك من شر سمعي و بصري ومن شر لساني وقلبي وسوء ظني؛ اللهم أني أعوذ بك من جار السوء في دار البقاء فإن جار البادية يتحول؛ اللهم أني أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرئاء، وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام؛ اللهم اني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك، ومن فجاءة نقمتك ومن جميع سخطك؛ اللهم اني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار، ومن عذاب القبر وفتنة القبر، وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر، وشر فتنة المسيخ الدجال، وأعوذ بك من المغرم والمأثم؛ اللهم أني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب؛ اللهم أني أعوذ بك من شر العمر ومن ضيق الصدر؛ اللهم اني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء.

المطلب السابع
في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث

منها: دعاء الخروج الى المسجد. اللهم أجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، وأجعل خلفي نوراً وأمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، اللهم أعطني نوراً.

وقل: اللهم أني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا اليك، لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رئاء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء

مرضاتك، فأسألك أنْ تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي فأنه لا يغفر الذنوب الا أنت.

وان خرجت من المنزل لحاجة فقل: بسم الله أعوذ بك أن أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل عليَّ، بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم التكلان على الله.

فإذا انتهيت الى المسجد تريد دخوله فقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم، اللهم أغفر جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك. وقدم رجلك اليمنى في الدخول، فإذا رأيت في المسجد من يبيع أو يبتاع فقل: لا أربح الله تجارتك. واذا رأيت من ينشد ضالة في المسجد فقل: لا رد عليك. أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنها دعاء بعد ركعتي الصبح. اللهم أني أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبي.. الدعاء الى آخر قد مر فيما سبق.

ومنها: دعاء الركوع. اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت، انت ربي خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي، وما استقلت به قدمي لله رب العالمين. وان أحببت فقل: سبحان ربي العظيم ثلاثاً، أو: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

فإذا رفعت رأسك من الركوع فقل: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد، كلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

فإذا سجدت فقل: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين؛ اللهم سجد لك سوادي وخيالي وبك آمن فؤادي، أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبيَ، وهذا ما جنيت على نفسي فأغفر لي أنه لا يغفر الذنوب الا أنت. أو تقول: سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات.

فإذا فرغت من الصلاة فقل: انت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والاكرام.

وتدعو بسائر الأدعية التي ذكرناها هذا عند الشافعي. وأما عند أبي حنيفة فلا يزيد في الركوع على أن يقول: سبحان ربي العظيم، ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً أو تسعاً؛ وفي السجود على أن يقول: سبحان ربي الأعلى كذلك.

ومنها: دعاء كفارة المجاس. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا اله الا أنت، أستغفرك وأتوب اليك، عملت سوءاً وظلمت نفسي فأغفر لي أنه لا يغفر الذنوب الا أنت.

منها: دعاء دخول السوق. لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير؛ بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم أني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها؛ اللهم أني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها؛ اللهم اني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة..

ومنها: دعاء الدين. اللهم اكفني بحلالك عن حرامك واغنني بفضلك عمن سواك.

ومنها: دعاء عند لبس الثوب الجديد. اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له.

ومنها: دعاء عند التطير. اللهم لا يأتي بالحسنات الا أنت، ولا يذهب بالسيآت الا أنت، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

ومنها: دعاء عند رؤية الهلال. اللهم أهله علينا بالأمن والسلامة والإسلام ربي وربك الله؛ و يقول: هلال رشد وخير، آمنت بخالقك، اللهم اني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر؛ و يكبر قبل الدعاء أولاً ثلاثاً.

ومنها: دعاء هبوب الريح. اللهم أني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به.

ومنها: دعاء اذا بلغك وفاة أحد. انا لله وانا اليه راجعون وانا إلى ربنا لمنقلبون؛ اللهم اكتبه من المحسنين، واجعل كتابه في عليين، واخلف على عقبه في الغابرين؛ اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده.

ومنها: دعاء اذا تصدقت بصدقة. ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم.

ومنها: دعاء عند الخسران. عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها انا إلى ربنا راغبون.

ومنها: دعاء عند ابتداء الأمور. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً، رب أشرح لي صدري و يسر لي أمري.

ومنها: دعاء عند النظر إلى السماء. ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار، تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً.

ومنها: دعاء عند صوت الرعد. سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته.

ومنها: دعاء عند رؤية الصواعق. اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك.

ومنها: دعاء عند المطر. اللهم سيبا هنيئاً وصيبا نافعاً اللهم أجعله سيب رحمة ولا تجعله سيب عذاب.

ومنها: دعاء عند الغضب. اللهم أغفر ذنبي واذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم.

ومنها: دعاء عند الخوف من قوم. اللهم أنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.

ومنها: دعاء عند الغزاة. اللهم أنت عضدي ونصيري و بك أقاتل.

ومنها: دعاء طنين الآذان. صل أولاً على محمد صلى الله عليه وسلم وقل: ذكر الله من ذكرني.

ومنها: دعاء اذا استجيبت دعوتك. الحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات، واذا أبطأت استجابة دعوتك فقل: الحمد لله على كل حال.

ومنها: دعاء عند آذان المغرب. اللهم هذا استقبال ليلك وادبار نهارك، وأصوات دعاتك وحضور صلواتك، أسألك أن تغفر لي.

ومنها: دعاء اذا أصابك هم. اللهم اني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك نافذ في قضائك، أسألك بكل أسم سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو أعطيته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء غمي وذهاب حزني وهمي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أصاب أحداً حزن فقال هذا الا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكانه فرحاً» فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها، فقال صلى الله عليه وسلم: «بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها».

ومنها: دعاء اذا وجدت وجعاً في جسدك أو جسد غيرك، فارق برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان صلى الله عليه وسلم اذا أشتكى انسان قرحة أو جرحاً وضع سبابته في فيه وجعلها على الأرض، ثم رفعها وقال: «بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا باذن ربنا» واذا وقع في جسدك، فضع يدك على الذي يألم من جسدك، وقل: بسم الله، ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر.

ومنها دعاء اذا أصابك كرب. لا إله الا الله العلي الحكيم، لا اله الا الله رب العرش العظيم، لا اله الا الله رب السموات والأرض والعرش الكريم.

ومنها: دعاء عند النوم. فتوضأ أولاً، ثم توسد يمينك مستقبل القبلة، ثم كبر الله أربعاً وثلاثين، وسبحه ثلاثاً وثلاثين، واحمده ثلاثاً وثلاثين، ثم قل: اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك؛ اللهم لا أستطيع ان أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك؛ اللهم باسمك أحيا وأموت؛ اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيء، فألق الحب والنوى، ومنزل التوراة والانجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر، ومن شر كل دابة ربي آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر؛ اللهم انك خلقت نفسي وأنت تتوفاها، لك مماتها ومحياها، اللهم ان أمتها فأغفر لها وان أحييتها فأحفظها؛ اللهم اني أسألك العافية، بأسمك ربي وضعت جنبي فأغفر لي ذنبي؛ اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك؛ اللهم أسلمت نفسي اليك، وفوضت أمري اليك، والجأت ظهري اليك رغبة ورهبة اليك، لا منجا ولا ملجأ منك الا اليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت. و يكون هذا آخر دعائك فقد أمر صلى الله عليه وسلم بذلك. وليقل قبل ذلك: اللهم أيقظني في أحب الساعات اليك، واستعملني بأحب الأعمال لديك، وتقربني اليك زلفى، وتباعدني من سخطك بعداً، أسألك فتعطيني، وأستغفرك فتغفر لي، وأدعوك فتستجيب لي.

ومنها: دعاء يدعى به عند الصباح اذا استيقظت من نومك، الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور، أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله، أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الاخلاص، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وملة أبينا ابراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين؛ اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور؛ اللهم انا نسألك أن تبعثنا في هذا اليوم الى كل خير، ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءاً ونجره إلى مسلم، فإنك قلت وقولك الحق: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل

مسمى﴾[1]؛ اللهم فالق الاصباح، وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً، أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه، بسم الله ما شاء الله لا قوة الا بالله، ما شاء الله كل نعمة فمن الله، ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله، رضيت الله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، ربنا توكلنا واليك أنبنا واليك المصير.

ومنها: دعاء يقوله اذا أمسى. يقول الدعاء المذكور، الا أنه يقول: أمسينا، ويقول مع ذلك: أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ، ومن شر كل ذي شر، ومن شر كل دابة ربي آخذ بناصيتها، ان ربي على صراط مستقيم.

ومنها: اذا نظرت في المرآة: الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله، وكرم صورة وجهي وحسنها، وأجعلني من المسلمين.

ومنها: دعاء اذا اشترى خادماً أو غلاماً أو دابة، فخذ بناصيته وقل: اللهم اني أسألك خيره وخير ما جبل عليه، وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه.

ومنها: دعاء اذا هنأت بالنكاح. بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما في خير.

ومنها: دعاء اذا قضيت الدين، فقل للمقضي له: بارك الله لك في أهلك ومالك، انما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انما جزاء السلف الحمد والأداء».

فهذه أدعية لا يستغنى سالك سبيل الآخرة عن حفظها، وما سوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرنا ذلك كله في كتاب الطهارة والصلاة والحج.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٠.

المطلب الثامن
في أدعية مأثورة

رواها الشيخ العلامة تاج الدين عبد الوهاب السبكي، نقلتها من نسخة منقولة من نسخة منقولة من نسخة منقولة ثلاثاً من خط السبكي المذكور، ذكر ذلك في آخر طبقاته الكبرى، روح الله روحه.

عن وهب بن منبه: إن ابن عباس ــ رضي الله عنهما قال له: تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء مستجاباً تدعو به عند الكرب، قال: نعم، قال: اللهم اني أسألك يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمائر الصامتين، فإن لكل مسألة منك جواباً حاضراً عتيداً، ولكل صامت منك علماً محيطاً باطناً، مواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة، أن تفعل بي كذا وكذا. فقال ابن عباس: هذا دعاء علمته في المنام ما كنت أرى ان أحداً يحسنه.

وعن أبي خالد: ان العذاب لما هبط على قوم يونس، وجعل يحوم على رؤوسهم مثل قطع الليل المظلم، ومشى ذوو العقول منهم الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: انا نزل بنا ما ترى فعلمنا دعاء ندعو به عسى الله عز وجل أن يرفع عنا عقوبته، فقال: قولوا: يا حي حين لا حي، تحيي الموتى يا حي، لا اله الا أنت. فكشف الله عز وجل عنهم.

وعن ابن عباس: ان علياً رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم ــ يعني شيئاً من الدنيا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، والذي بعثني بالحق نبياً يا علي ما عندي لا قليل ولا كثير، لكني أعلمك شيئاً أتاني به جبريل عليه السلام فقال: يا محمد هذه هدية من الله عز وجل لم يعطها أحداً من الأنبياء قبلك، وهي تسعة عشر حرفاً لا يدعو بها ملهوف ولا مكروب ولا محزون، ولا سرق ولا حرق، ولا عبد خاف سلطاناً الا فرج الله عنه، أربعة منها مكتوبة على جبهة جبريل عليه السلام، وأربعة مكتوبة حول العرش، وأربعة حول الكرسي، قال: فكيف أدعو بها يا نبي الله، قال: قل: يا عماد من لا عماد له، يا سند من لا سند له، يا ذخر من لا ذخر له، يا حرز

من لا حرز له، يا غياث من لا غياث له، يا كريم العفو، يا حسن البلاء، يا عظيم الرجاء، يا عون الضعفاء، يا منقذ الغرقى، يا منجي الهلكى، يا محسن يا مجمل يا منعم يا متفضل، أنت الذي سجد لك سواد الليل ونور النهار وضوء القمر وشعاع الشمس ودوي الماء وحفيف الشجر، يا الله لا شريك لك يا رب يا رب؛ ثم تدعو بحاجتك وبما بك لا تقوم من مقامك حتى يستجاب لك.

عن عبد الله بن أيوب قال ليعقوب بن داود في الطواف: قلت له: أحب أن تخبرني كيف كان سبب خروجك من المضيق، قال: كنت في المضيق فأتى آت في منامي قال لي: يا يعقوب كيف ترى مكانك، فقلت: وما سؤالك، أما ترى ما أنا فيه، قال: قم فأسبغ الوضوء وصل أربع ركعات وقل: يا محسن يا مجمل يا منعم يا متفضل، يا ذا النوافل والنعم، يا عظيم يا ذا العرش العظيم، أجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً؛ فانتبهت فحفظت الدعاء، فقمت وتوضأت وصليت ودعوت به، فلما أسفر الصبح جاءوا فأخرجوني.

وعن قدامة بن عتبة العتكي. وكان من أصحاب عتبة الغلام قال: رأيت عتبة الغلام في النوم، فقلت: يا عبد الله ما صنع الله بك، قال: دخلت الجنة بتلك الدعوات المكتوبة في بيتك؛ فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا بخط عتبة في الحائط: يا هادي المضلين يا راحم المذنبين يا مقبل عثرات العاثرين.

وعن بعضهم قال: أتى الحجاج رجل عزم على قتله، فلما دخل تكلم بشيء فخلى سبيله، فقيل: أي شيء قلت، قال: قلت: يا عزيز يا حميد يا ذا العرش المجيد، أصرف عني كل جبار عنيد.

وعن حصين: كان سعيد بن المسيب يدعو: أعوذ بوجه الله الكريم وأسمه العظيم، وكلماته التامة من شر السامة والعامة، ومن شر ما خلقت يا رب، ومن شر ما أنت آخذ بناصيتها، ومن شر الدنيا وما فيها.

وعن عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال: حدثني بعض أصحابنا بهذا الدعاء، قال: كان الصالحون من التابعين يدعون اذا دخلوا على السلطان، فيقون به البطش من السلطان وظلمه، وهو: بسم الله، أعوذ بالرحمن منك ان

تقيا، اخسئوا فيها ولا تكلمون، أخذت قوتك بقوة الله، بيني و بينك ستر الله الذي كانت الأنبياء يستترون به من سطوات الجبابرة الفراعنة، جبريل عن يمينك، وميكائيل عن شمالك، ومحمد صلى الله عليه وسلم امامك، والله عز وجل مطلع عليك يجيرني ويمنعني منك بحوله وقوته.

وعن محمد بن يحيى قال: بينما علي كرم الله وجهه يطوف بالكعبة، اذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة ينادي: يا من لا يشغله سمع عن سمع، يا من لا يغلطه السائلون، يا من لا يتبرم بالحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك. قال له علي رضي الله عنه: دعاؤك هذا، قال: نعم، قال: وقد سمعته، قال: نعم، قال: فادع به في دبر كل صلاة الصبح في مصلاه مائة مرة فليقل: بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، يا قديم يا دائم يا حي يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد. وكان مقاتل يقول: من دعا بهذا الدعاء فلم يستجب فليلعن مقاتلاً في قبره.

وعن جعفر بن محمد: ما من نبي الا وخلف في أهل بيته دعوة مجابة، وقد خلف فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوتين مجابتين: أما الواحدة فلشدائدنا، وأما الأخرى فلحوائجنا. أما التي لشدائدنا: يا كائن دائماً لم يزل، يا الهي يا اله آبائي، يا حي يا قيوم اجعلني لك مخلصاً. وأما التي لحوائجنا: يا من يكفي من كل شيء ولا يكفي منه شيء، يا الله يا رب محمد صلى الله عليه وسلم. ثم تسأل حاجتك.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم: قال، «من أراد أن يوعيه الله حفظ القرآن فليكتب هذا الدعاء في اناء نظيف بعسل ماذى، ثم ليغسله بماء المطر قبل أن يمس الأرض، وليشربه على الريق ثلاثة أيام فأنه يحفظه باذن الله تعالى، وهو: اللهم اني أسألك مسؤولاً لم يسأل مثلك، أسألك بحق محمد رسولك ونبيك، وابراهيم خليلك وصفيك، وموسى كليمك ونجيك، وعيسى كلمتك وروحك، وأسألك بصحف ابراهيم وتوراة موسى وانجيل عيسى وفرقان محمد، وأسألك بكل وحي أوحيته، وبكل حق قضيته، وبكل

سائل أعطيته، وبكل ضال هديته، وغني أقنيته وفقير أغنيته، وأسألك باسمائك التي دعاك بها أدعياؤك وأنبياؤك فاستجيب لهم، وأسألك بكل اسم أنزلته في كتابك، وأسألك بأسمك الذي وضعته على النهار فاستنار، وأسألك بأسمك الذي وضعته على الليل فأظلم، وأسألك بأسمك الذي وضعته على الجبال فأرست، وأسألك بأسمك الذي وضعته على الأرضين فأستقلت، وأسألك باسمك الذي استقل به عرشك، وأسألك بأسمك الواحد الأحد الفرد الصمد، العزيز الذي ملأ الأركان كلها، الطاهر المطهر، المبارك المقدس، الحي القيوم، نور السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، وأسألك بكتابك المبارك أن ترزقني حفظ كتابك ا لقرآن، وحفظ أصناف العلم، وثبتها في قلبي وسمعي وبصري، وتخلطها بلحمي ودمي، وتستعمل بها جسدي في ليلي ونهاري، فأنه لا حول ولا قوة الا بك».

عن أبي رجاء: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اشتد به حلقة البلاء وكانت ضيقة يقول: تضيقي تنفرجي، ثم يرفع يديه فيقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، اياك نعبد واياك نستعين، اللهم اكفنا بأس الذين كفروا انك أشد بأساً وأشد تنكيلاً».

وعن نعيم بن أبي هند قال: كنت جالساً عند يزيد بن أبي مسلم امام الحجاج وهو يعذب الناس، فذكر رجلاً في السجن فبعث اليه بغيظ وغضب، فأتى به، وما أشك أن استنفع به، فلما قام بين يديه رأيت الرجل يحرك شفتيه بشيء لم أسمع، فرفع رأسه فقال: خلوا سبيله أو ردوه، فقمت الى الرجل وذكرت له القصة وقلت له: ما الذي قلت، قال: قلت هذا الدعاء: اني أسألك بقدرتك التي تمسك بها السموات السبع أن يقع بعضهن على بعض أن تكفينيه.

وعن البراء بن عازب قال: دخلت على علي بن أبي طالب ذات يوم فقلت: يا أمير المؤمنين، سألتك بالله الا ما خصصتني بأعظم ما خصك به رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما خص به جبريل عليه السلام، بما أرسل به

اليه الرحمن عز وجل، فقال: لولا سألت ما نشرت ذكر ما أريد أن أستره حتى أضمن لحدي؛ اذا أردت أن تدعو باسم الله الأعظم، فأقرأ من أول الحديد ست آيات وآخر الحشر، فإذا فرغت فتكلم فقل: يا من هو كذا وكذا افعل بي كذا وكذا، فوالله لو دعوت به على شقي لسعد؛ قال البراء: فوالله لا أدعو بها للدنيا أبداً؛ قال علي رضي الله عنه: أصبت، كذا أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أنه أذن لي في الأمر البارح.

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سمع وهو يطوف بالكعبة ومعه ولداه الحسن والحسين رضي الله عنهما قائلاً في جوف الليل.

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم ... يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وعين جودك يا مولاي لم تنم
هب لي بجودك فضل العفو عن زللي ... يا من اليه رجاء الخلق في الحرم
ان كان عفوك لا يرجوه ذو خطأ ... فمن يجود على العاصين بالنعم

فقال علي لولديه: اطلبا لي هذا القائل، فأتياه فقالا: أجب أمير المؤمنين، فأقبل يجر شقه حتى وقف بين يديه، فقال: قد سمعت خطابك فما قصتك، قال: اني من أمري في ضيق، فان تبت لم تقبل توبتي وان سألت لم يقلني عثرتي، قال له: ولِمَ ذلك، قال له: لأني كنت رجلاً مشهوراً بالطرب والعصيان، وكان والدي يعظني ويحذرني مصارع الجهال ويقول لي: ان لله سطوات ونقمات وما هي من الظالمين ببعيد، فلما ألحّ في الموعظة فحلف ليدعون علي ويأتي مكة مستغيثاً الى الله عز وجل، ففعل ودعا، فلم يتم دعاءه حتى جف شقي الأيمن، فندمت على ما كان مني اليه، وداريته وراضيته الى أن ضمن لي أن يدعو لي حيث دعا عليّ، فقدمت اليه ناقة فأركبته، فنفرت الناقة ورمت به بين صخرتين فمات هناك. فقال لي أمير المؤمنين: أحقاً ان أباك رضي عنك، فقلت: اللهم كذلك، فقام علي رضي الله عنه وصلى ركعات ودعا بدعوات أسرها إلى الله عز وجل، ثم قال: يا مبارك قم، فقام ومشى ثم دعا الى الصحة كما كان، ثم قال: لولا أنك حلفت ان أباك رضي عليك ما دعوت لك.

وعن جعفر بن محمد الصادق: عجبت لامرىء كيف لا يقول: ما شاء الله لا قوة الا بالله، والله تعالى يقول: ﴿ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله﴾؛[1] وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول: حسبي الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول: ﴿الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾[2]؛ وعجبت لمن مكر به كيف لا يقول: وأفوض أمري الى الله أن الله بصير بالعباد، والله تعالى يقول: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾[3]؛ وعجبت لمن أصابه غم كيف لا يقول: ﴿لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين﴾. الى قوله: ﴿فنجيناه من الغم﴾[4]. قال سفيان بن عيينة: انه تعالى لما قال: ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ كان وعداً لكل مؤمن من قال: لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين، ان ينجيه من الغم والله لا يخلف الميعاد.

بخط الشيخ القرطبي: قل وأنت ساجد: اللهم يا لطيف يا لطيف بجميع عباده ألطف بي بلطفك الخفي الذي ما لطفته بأحد الا كفى، ثم يرفع رأسه و يقول: فسيكفيكم الله وهو السميع العليم.

ومن كلام الشيخ ابي الحسن الشاذلي: ان أردت كرامتي فعليك بطاعتي والأعراض عن معصيتي، فإن زللت بغلبة الشهوة وعظيم القدرة، فأعلم قربي منك ونظري اليك واحاطتي بك وقدرتي عليك، واستنقذ نفسك مني ومن عظيم قدرتي، وقل: يا موجود قبل كل موجود وهو الآن على ما هو عليه موجود، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن، ضاقت علي الأرض بما رحبت وضاقت عليَّ نفسي ولا ملجأ منك الا اليك، فتب علي يا تواب انك أنت التواب الرحيم.

ذكر الحافظ ضياء الدين في سيرة الشيخ العماد ابراهيم بن عبد الواحد

---

(١) سورة الكهف، آية: ٣٩.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.
(٣) سورة غافر، آية: ٤٥.
(٤) سورة الأنبياء، آية: ٨٧، ٨٨.

المقدسي انه قال: ما رأيت مثل هذا الدعاء أسرع اجابة: يا الله يا الله أنت الله بلى والله أنت، الله لا اله الا أنت، الله الله والله لا اله الا الله.

قال الشيخ تاج الدين عبد الوهاب السبكي: سمعت الشيخ الامام الوالد وهو الشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي رحمه الله ـ اذا اهتم بأمر قرأ قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم﴾.. إلى قوله ﴿ذو فضل عظيم﴾ تسع عشرة مرة، عشرين الا مرة، كان الوالد يذكر أن هذا مجرب لداهم الأمر ومعضله.

وجدت في بعض المجامع مروياً بإسناد مجهول الى أبي الحسن محمد بن جعفر قال: وجدت ببلاد الهند حجراً منقوشاً بالعبرانية ببلد سرنديب:

أنا الموجود فأطلبني تجدني	فإن تطلب سواي لم تجدني
تجدني أين تطلبني عبيدي	قريباً منك فأطلبني تجدني
تجدني ماجداً صمداً كريماً	كثير البر فاطلبني تجدني
تجدني مستغاثاً بي مغيثاً	أنا الجبار فأطلبني تجدني
اذا اللهفان ناداني كظيماً	أقل لبيك فاطلبني تجدني
اذا المضطر قال ألا تراني	نظرت اليه فاطلبني تجدني
أنا بالمرء أرحم من أخيه	ومن أبويه فأطلبني تجدني
فإن هو تاب تبت عليه اني	أنا التواب فأطلبني تجدني
أتذكر ليلة ناديت سراً	ألم أسمعك فأطلبني تجدني
أنا الجبار لا شيء كمثلي	أنا الغفار فاطلبني تجدني
أنا الرب الذي يخشون مني	جميع الخلق فأطلبني تجدني
وليس يبيحك الفردوس غيري	أنا الرزاق فأطلبني تجدني
أتعرف غافراً للذنب غيري	أنا الغفار فاطلبني تجدني
سأغفر للعباد ولا أبالي	غداً في الحشر فأطلبني تجدني
وأكرم من أريد بغير بخل	أنا الوهاب فاطلبني تجدني
وأرحم من يتوب وكان عندي	له الاكرام فأطلبني تجدني
فمن مثلي ولم تر قط مثلي	ولست تراه فأطلبني تجدني

ولبعضهم وذكر أنه ما رددها من هو في شدة الا وفرجها الله عنه

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استكملت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

ولبعضهم

كم أعقبت ثوب الزمان جميلاً وكفين خطباً قد أهم جليلا
لا تيأس من الاله فروحه ان لم يغادرك بكرة فأصيلا
وأمل لطائف صنعه فلطالما كشف الهموم وبلغ المأمولا
يا رب مكروه تعذر حله ليلاً فأصبح عقده محلولا
وملمة أعيا نهاراً حلها أمست يسهل خطبها تسهيلا

وعن جعفر الخلدي قال: ودعت المزين، فقلت زودني شيئاً، فقال: ان ضاع منك شيء، أو أردت أن يجمع الله بينك وبين انسان فقل: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين كذا، فما دعوت بها شيئاً الا استجيب.

وروى ابن أبي الدنيا ان طاوساً قال: اني لفي الحجر ذات ليلة اذ دخل علي بن الحسين، فقلت: رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمعن الليلة الى دعائه، فصلى ثم سجد، فأصغيت بسمعي اليه فسمعته يقول في سجوده: عبيدك بفنائك فقيرك بفنائك سائلك بفنائك قال طاوس: فحفظتهن فما دعوت بهن في كرب الا فرج عني.

وروى أيضاً عن الحارث الكعبي: أن رجلاً جاء الى الحسين بن علي يستعين به على علي في حاجة، فقال له الحسين: أن أمير المؤمنين قد خلا في بيت اذا حز به أمر خلا فيه، قال: فأدنني إلى الباب حتى أسمع كلام أمير المؤمنين، قال: فسمعته يقول: يا كهيعص يا نور يا قدوس يا حي بالله يا رحمن ــ رددها ثلاثاً ــ اغفر لي الذنوب التي تحل النقم، وأغفر لي الذنوب التي تغير النعم، واغفر لي الذنوب التي تورث الندم، واغفر لي الذنوب التي تحبس

السقم، واغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء، واغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، واغفر لي الذنوب التي تعجل الفناء، واغفر لي الذنوب التي تدبل الأعداء، واغفر لي الذنوب التي ترد الدعاء، واغفر لي الذنوب التي تمسك غيث السماء، واغفر لي الذنوب التي تظلم الهواء، وأغفر لي الذنوب التي تكشف الغطاء.

سمعت بعضهم يذكر أنه رأى بخط من يعتمد اذا غلب المرء في مواقعه، فليقل في دبر كل صلاة: رب اني مغلوب فانتصر ــ مائة مرة.

ومن شعر الشيخ أبي اسحاق الشيرازي صاحب التنبيه، و يقال أنها أبيات مباركة:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا | وقمت أشكو الى مولاي ما أجد
وقلت يا عدتي في كل نائبة | ومن عليه لكشف الضر اعتمد
وقد مددت يدي والضر مشتمل | اليك يا خير من مدت اليه يد
فلا تردنها يا رب خائبة | فبحر جودك يروي كل من يرد

ولأبي القاسم السهيلي وقيل ما رددها ذو حاجة ثلاث مرات و يدعو الا استجيب له:

يا من يرى ما في الضمير و يسمع | أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها | يا من اليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن فضله في قول كن | امنن فإن الخير عندك اجمع
ما لي سوى فقري اليك وسيلة | فبالافتقار اليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة | فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه | ان كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لفضلك ان تقنط عاصياً | الفضل أجزل والمواهب أوسع

وله أبيات أُخر:

قال تاج الدين السبكي: كنت أسمع الشيخ الامام ــ أراد والده تقي الدين السبكي رحمهما الله ــ يرددها و يدعو عقيبها و يقول: ان الإجابة عقيبها

مجربة، وانه كان يقول: ما سألت الله بها في شيء الا اعطانيه وهي:

صرفت الى رب الانام مطالبي ... ووجهت وجهي نحوه ومآربي
الى الملك الأعلى الذي ليس فوقه ... مليك يرجى سيبه في المتاعب
الى الصمد البر الذي فاض جوده ... وعم الورى طراً بجزل المواهب
مجيري من الخطب ونـاصر ... مغيثي اذا ضاقت على مذاهبي
مقيل اذا زلت بي النعل عاثراً ... واسمح غفار وأكرم واهب
فما زال يوليني الجميل تلطفاً ... ويدفع عني في صدور النوائب
ويرزقني طفلاً وكهلاً وقبلها ... جنينا ويحميني وبي المكاسب
اذا سدد الأملاك دوني غلقت ... ونهنه عن غشيانهم زجر حاجب
فزعت الى باب المهيمن طارقاً ... مدلاً أنادي باسمه غير هائب
فلم الف حجاباً ولم أخش منعة ... ولو كان سؤلي فوق هام الكواكب
كريم يلبي عبده كلما دعا ... نهاراً وليلاً في الدجى والغياهب
يقول له لبيك عبدي داعياً ... وان كنت خطاء كَثير المعايب
فما ضاق عفوي عن جريمة خاطىء ... وما أحد يرجو نداي بخائب
فلا تخش املالاً وان كنت مكثراً ... فعفوي مبذول الى كل طالب
سأسأله ما شئت أن يمينه ... تسح دفاقاً باللهى والرغائب
فحسبي ربي في الهزاهز ملجأ ... وحرزاً اذا خيفت سهام النوائب

ولأبي الفضل يوسف بن محمد التوزري قصيدة تسمى: الفرج بعد الشدة تشتمل على الأسم الأعظم، لأنها جربت لاستجابة الدعاء وهي:

أشتدى أزمة تنفرجي ... قد آذن ليلك بالبلج
وظلام الليل له سرج ... حتى يغشاه أبو السرج
وسحاب الخير له مطر ... فإذا جاء الابان تجي
وفوائد مولانا جمل ... لسروح الأنفس والمهج
ولها أرج محيى أبداً ... فاقصد محيى ذاك الأرج
فلربتما فاض المحيى ... ببحور الموج من اللجج

والخلق جميعاً في يده ... فذوو سعة وذوو حرج
ونزولهم وطلوعهم ... فإلى درك وعلى درج
ومعايشهم وعواقبهم ... ليست في المشي على عوج
حكم نسجت بيد حكمت ... ثم انتسجت بالمنتسج
فإذا اقتصدت ثم انعرجت ... فبمقتصد وبمنعرج
شهدت بعجائبها حجج ... قامت بالأمر على حجج
ورضا بقضاء الله حجي ... فعلي مركوزته فعج
واذا انفتحت أبواب هدى ... فأعجل لخزائنها ولج
فإذا حاولت نهايتها ... فأحذر اذ ذاك من العرج
لتكون من السباق اذا ... ما جئت الى تلك الفرج
فهناك العيش وبهجته ... فلمبتهج ولمنتهج
فهج الأعمال اذا ركدت ... فإذا ما هجت اذن تهج
ومعاصي الله سماجتها ... تزدان لذي الخلق السمج
ولطاعته وصباحتها ... أنوار صباح منبلج
من يخطب حور الخلد بها ... يظفر بالحور وبالغنج
فكن المرضى لها بتقي ... ترضاه غداً وتكون نجي
واتل القرآن بقلب ذي ... حزن وبصوت فيه شج
وقيام الليل مسافتها ... فأذهب فيها بالفهم وجي
وتأملها ومعانيها ... تأت الفردوس وتفترج
واشرب تسنيم مفجرها ... لا ممتزجاً وبممتزج
مدح العقل الآتيه هدى ... وهوى متول عنه هجي
وكتاب الله رياضته ... لعقول الخلق بمندرج
وخيار الخلق هداتهم ... وسواهم من همج الهمج
فإذا كنت المقدام فلا ... تجزع في الحرب من الرهج
وإذا أبصرت منار هدى ... فأظهر فرداً فوق الثبج
وإذا اشتاقت نفس وجدت ... ألما بالشوق المعتلج

وثنايا الحسنا ضاحكة ... وتمام الضحك على الفلج
وعياب الأسرار اجتمعت ... بأمانتها تحت الشرج
فالرفق يدوم لصاحبه ... والخرج يصير الى الهرج
صلوات الله على المهدي ... الهادي الناس الى النهج
وأبي بكر في سيرته ... ولسان مقالته اللهج
وأبي حفص وكرامته ... في قصة سارية الخلج
وأبي عمرو ذي النورين ... المستهدي المستحيى البهج
وأبي حسن في العلم اذا ... وافى بسحائبه الخلج

قال تاج الدين السبكي: سمعت غير مرة الشيخ الامام ـ يعني والده ـ ينشد لنفسه هذين البيتين:

الهي فوضت الأمور جميعها ... اليك فدبرني بما شئت والطف
وسلمني اللهم يا رب واحمني ... وخذ بيدي وامنن وجد وتلطف

هذا ما أورده السبكي من الدعوات فيما يوجد في آخر كتاب الدعوات، حامداً لله تعالى خالق الأرض والسموات، ومصلياً على نبيه محمد شفيع الأمة في العرصات، وعلى آله وصحبه المتدرجين الى أعلى الدرجات، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

يقول الفقير المعترف بالتقصير: كما كتبت هذه الأدعية المنظومة تذكرت حرزاً منظوماً وضعه الشيخ الزاهد أبو عمران موسى الفاسي رحمه الله، وقد رأيت أن أثبت ذلك ههنا لما رأيت أن جمع كل شيء الى شكله ونظيره أحسن وأولى، وسماه صاحب النظم المبارك: حرز الأقسام لجميع العلل والاسقام، يكتب بالزعفران، ويبخر باللبان، ويلوي عليه بخيط حرير أبيض، وتشده على عضدك وأنت طاهر نقي، وتعتصم، تقضي الحاجات ان شاء الله سبحانه وتعالى: تبدأ بالبسملة وفاتحة الكتاب والمعوذتين وما يختار من آى القرآن، ثم تكتب الحمد وهو هذا المنظوم المبارك الشافي:

بدأت باسم الله في أول السطر ... فاسماؤه حصن منيع من الضر

وصليت في الثاني على خير خلقه　　محمد المبعوث بالفتح والنصر
تعوذت بالرحمن في السر والجهر　　من الشرك والشيطان ما دمت في دهري
اذا استفتح القراء في محكم الذكر　　فباسمك يا مولاي استفتح المقري
ونسألك اللهم من فضلك الرضا　　تحل عقود العسر في أيسر اليسر
توسلت بالأقسام أسأل راغباً　　ونرغب للرحمن في السر والجهر
ونرغب فيما يرغب الخلق ساجداً　　الى مالك الأملاك في النفع والضر
بأسمائك اللهم أنت الهنا　　بديع السموات المدبر للأمر
بجملة ما أثنى عليك أولو النهى　　من المجد والتعظيم والحمد والشكر
بمالك ربك في سمواتك العلى　　من الملك والسلطان والعز والنصر
بما سبحتك الخلق بالألسن التي　　تخيرت للتسبيح والحمد والشكر
بذكرك عند العارفين بقدره　　بما قلت في القرآن بالشفع والوتر
باحصائك الأشياء عدا وخبرة　　بتكسير أمواج البحار و بالقطر
بما في السموات العلى من مقرب　　بمن في تخوم الأرض من ملك نذر
بأنك أنت الله خالق ما يرى　　وما لا يرى حتى من الذر في القفر
سميع بصير عالم متفضل　　يجازي باحسان و يعفو عن الوزر
بجملة ما أنزلت في الكتب كلها　　على الرسل تبياناً لمن كان ذا حجر
بكتبك بالأقلام بالرسل بالبها　　بتقديرك الأشياء بالنهي والأمر
بفضل صلاة الصبح رب و بالضحى　　بذكر غروب الشمس بالظهر والعصر
برضوان خزان النعيم بمالك　　معذب أصحاب الجحيم على الجمر
بجملة من لباك من ظهر آدم　　من المؤمنين الصالحين أولى الطهر
بما نال وفد الله من نصر ربهم　　بزوار قبر الهاشمي الى الحشر
بجاه النبيين الذي اصطفيتهم　　أولو الأيدي والأبصار والعز والفخر
بآدم اذ كرمته واصطفيته　　وعلمته العلم الذي كان لا يدري
بشيث بادريس بنوح بصالح　　بهود بلوط بالخليل الذي يقري
بحرمة اسماعيل صادق وعده　　باسحاق لما جاء في كبر العمر
بيعقوب بالاسباط باليسع الرضا　　بيوسف أعلى الناس في أرفع الذكر
بيونس الأصفى بصاحب مدين　　شعيب بالياس بذي الكفل بالخضر

بأيوب ذي البلوى بداود بابنه ... سليمان من غل الشياطين للحشر
بمن قد قرأ التوراة عن ظهر قلبه ... وهل كانت التوراة تقرأ عن الظهر
بأي نبي كان في أي أمة ... الى أي ما قوم في أي ما عصر
واذ نحن لم نسمع به وبذكره ... واذ نحن لم نعلم سواه ولم ندر
كذا زكريا أنه كان مخلصاً ... بيحيى الحصور السيد الطيب النشر
بموسى بهارون بعيسى بن مريم ... بكل نبي لست منه على خبر
بآخرهم بعثاً بأولهم مدى ... محمد المبعوث بالفتح والنصر
بجاه خليل المصطفى وأنيسه ... فنعم أنيس الغار كان أبو بكر
بجاه ابن خطاب أبي حفص الرضا ... بجاه الشهيد المستجاب أبي عمرو
بجاه علي أرفع القوم في الهدى ... ومن كعلي في الهداية والنصر
هما السيدان السابقان الى الهدى ... شهيدان صهراه فيا أشرف الصهر
بحمزة بالعباس عمي نبينا ... بفخرهما المنسوب في أرفع الفخر
بفاطمة الزهراء سيدة النسا ... بسبطي رسول الله فخراً على فخر
بآل رسول الله كلهم معاً ... بمجدهم فوق الفراقد والنسر
بأصحابه بالطاهرات نساؤه ... بعائشة الموصوفة الذكر بالذكر
بطلحة منهم بالزبير بصحبه ... سعيد وسعد ذي الفضائل والبر
وتاسعهم ذاك ابن عوف رفيعهم ... بجاه ابن جراح هو الطيب النشر
بما كان فيهم من خصال رضية ... كزهد أبي الدردا وصدق أبي ذر
بأشياعهم بالتابعين باقتدائهم ... كلهم الأخيار كالأنجم الزهر
بما كان يدعو المصطفى في جهاده ... بما كان في المحراب يتلوه من ذكر
بما كان يدعو أول الليل ربه ... بما كان يدعو عند منصدع الفجر
بشعبان بالشهر الأصم بقدره ... بحرمة شهر الصوم بالعيد بالفطر
بحق ظنون الواقفين على منى ... بحق يقين الناس في ساعة النفر
بميقات موسى بالثلاثين ليلة ... باتمامها من بعد ذلك بالعشر
بقدر ليالي العشر وهي فضيلة ... بأيام حج الناس بالعيد بالنحر
بما يهب الداعين في يوم حجهم ... بما تهب الداعين في ليلة القدر

بعرشك بالكرسي ندعوك ربنا — بلوحك بالأقلام تجري بما تجري
بالانجيل بالتوراة أنزلتها على — كليمك موسى بالصحائف بالزبر
بحق كتاب انت بينت فضله — على ما سواه من كتاب ومن سر
بأوله أم الكتاب وختمه — أعوذ برب الناس من نفثة السحر
بما في آلم ذلك قبلته — وبآل عمران المعظمة الذكر
بيا أيها الناس اتقوا ربكم — بسورة أوفوا بالعقود وبالنذر
بالأنعام بالأعراف بالتوبة التي — تلي سورة الأنفال كالسطر بالسطر
بالأنفال والأنفال كانت لأحمد — ولله ربي عالم السر والجهر
بيونس اذ تتلى بهود بيوسف — بسورة ابراهيم بالرعد بالحجر
بمقدار ما في النحل من ذكره نعمة — مننت بها حقاً يقيناً لمن يدري
بسبحان من أسرى بليل بعبده — من المسجد الأقصى الى البيت والحجر
بسورة ذكر الكهف ثم بمريم — بطه بذكر الأنبياء على الأثر
وبالحج ثم المؤمنون بأثرها — وبالنور والفرقان يا جابر الكسر
بحق طواسين الثلاث فلم يقف — سواد على ما في الفواتح من سر
وبالروم ثم العنكبوت وبعدها — بلقمان ذي الوعد الصدوق مع الذخر
سألتك بالأحزاب من بعد سجدة — بأسمائك الحسنى بآلائك الزهر
وفي سبأ والحمد لله فاطر — ضياء يضيء القلب كالقمر البدر
بسورة يس المعظم قدره — فما هي الا كالعرائس في الخدر
وبالتاليات ثم ص وبعدها — بسورة تنزيل الكتاب من الذكر
بسبع الحواميم الكريم محلها — فما هي الا كالعرائس في الخدر
وبالسورة المذكور فيها محمد — وانا فتحنا سورة الفتح والنصر
وبالحجرات ثم ق وطورها — وبالذاريات الذر حاملة الوقر
وبالنجم والرحمن نسأل راغباً — وباقتربت أدعوك يا كاشف الضر
اذا وقعت يشفي بها كل مؤمن — ويشفي بآيات الحديد وبالحشر
بسورة ذات الامتحان وفضلها — بقد سمع اللهم فأعظم بها أجري
بسورة ذكر الصف والحرب واللقا — ببنيانك المرصوص في السر والجهر
بسورة يوم الجمعة الأزهر التي — يحرم فيها الشغل بالبيع والتجر

بسورة أصحاب النفاق وفضلها أعوذ نفسي من نفاق ومن غدر
بسورة يوم الجمع يوم تغابن به يعلم الخير الخصيص من الشر
بفاتحة التحريم يا أيها النبي فيا رب اطلق بالطلاق أخا الأسر
سألتك يا ذا الملك بالملك سائلاً بنون بما يتلوه من نفخة الحشر
بنوح بقل أوحى الى سأل سائل بمزمل ثم القيامة والدهر
بيا أيها المدثر أنهض مبلغاً فأنك مبعوث نذير من النذر
وفي نبأ والمرسلات قوارع وسورة ذكر النازعات من الذكر
وفي عبس الوعظ البليغ لو أنه يصادف قلب المرء أقسى من الحجر
و بانفطرت أدعوك بالشمس كورت و بالسماء انشقت وأدعوك بالفجر
بسورة قوم بالمكاييل طففوا فكالوا عبا الله بالبخس والخسر
سألتك ربي بالبروج وطارق يحط بها وزري و يشدد بها أزري
قصدتك بأعلى و بالبلد الذي بها أقسم الرحمن في محكم الذكر
بغاشية بالشمس بالليل بالضحى بما في ألم نشرح من الشرح للصدر
و بالتين والزيتون نسأل راغباً (اليك) و باقرأ باسم ربك والقدر
بلم يكن القصوى بسورة زلزلت بالهاكم والعاديات و بالعصر
بسورة أهل الفيل والهمز قبلها بقارعة والناس سكرى من الذعر
بسورة ايلاف بسورة كوثر وتبت و بالماعون بالفتح والنصر
بسورة ذكر الكافرين بفضل قل هو الله ربي خالق الخلق والأمر
و بالفلق العظمي و بالناس بعدها فحفظها أمن من البأس والضر
له الحمد في الأولى له الحمد في الأخرى له الحمد اعلاناً له الحمد في السر
له الملكوت الله جل جلاله يقرون بالتوحيد للواحد الوتر
بمن لم يزل فوق الخلائق واحداً بمن أتقن الأشياء في حكمة تجري
بمن يكشف الشكوى بمن يصرف البلو ى بمن يعلم النجوى و يعفو عن الوزر
بمن قال يا موسى أنا الله فاستمع مطيعاً لما يوحى ولا تعص في أمري
وخذ هذه الألواح اخذاً بقوة ولا تسه يا موسى بن عمران عن ذكرى
برحمتك اللهم وهي محيطة بمالك يا ربي من العفو والغفر
بأسمائك اللهم وهي كريمة تنجي بها داعيك في البر والبحر

تفضل على المرضى من أمة أحمد ... بكشفك عنهم ما شكوه من الضر
أناثاً وذكراناً كهولاً وشباناً ... فطيماً رضيعاً في الذراع وفي الحجر
وفرج به من كل داء وعلة ... ومن كل ما يشكوه يا كاشف الضر
من العلل التي خلقت لجسومهم ... كمثل اتجاع العين والسن والظهر
ومن حمة أو حمرة أو شقيقة ... ومن وجع في الرأس والجنب والصدر
ومن شر عين الحاسدين وبأسهم ... ومن شر ابليس اللعين أخي الشر
ومن شر ما يؤذي ومن شر حاسد ... ومن شر وسواس يوسوس في الصدر
ومن نظرة المعيان في المال كله ... من الكسب والأنعام من كل ما يجري
فيا نظرة المعيان بالله فاذهبي ... بحق الذي نتلوه من طيب الذكر
ولا تقربي من علق الحرز حوله ... بأسماء ربي في الحديد وفي الحشر
وقد جاء أن العين حق عن النبي ... وكم صار من انسان بالعين في القبر
فيا رب نج العين عمن شكا بها ... بحق الذي يتلى من السور الغر
ومن يشتكي في جسمه بتوجع ... فأنت الذي تبلى وأنت الذي تبري
وأنت الذي أجبت أيوب اذ دعا ... فقال الهي مسني ألم الضر
ففرجت عنه الضر منك تفضلاً ... فأصبح أيوب النبي بلا ضر
فإن كان بالطفل الصغير قرينة ... تخالطه في الثدي والمهد والحجر
فاني بما أقسمت من قسم الرضا ... نعوذ بربي من قرين ومن غدر
وان عسرت عن الولادة حامل ... فيا رب يسر بعد عسر إلى يسر
وخفف بهذا الحرز عن كل مثقل ... من الحاملات الوالدات على طهر
وان كان مصروعاً الجن يشتكى ... عليه وقوع الصرع في منتهى الشهر
فأنقذه يا ذا الطول من شر صرعهم ... بحق النبي المصطفى خاتم النذر
وان كان سلطان يخاف وعيده ... له صولة في النهي منه وفي الأمر
فأني باسم الله حصنت حاملاً ... كتابي هذا من عدو ومن قهر
وان كان هذا الحرز عند مسافر ... له سفر في البر أو لجة البحر
فلا يخل من حرز الصيانة رحله ... من السارق الغازي وفي ليله يسري
وان كان هذا الحرز في رحل تاجر ... فبارك له فيما يحاول من تجر

بـفـضــل ورزق مــنـك لا بمـشـقـة فـإنـك ذو الـفـضـل العظيم لمن يدري
بـكـرسيـه بـالـعـرش بـالـنـور بـالبها وبـاللوح والأقـلام تجـري بمـا تجـري
بآيـاتـه الحـسنى بمـكـنـون سـره بــطــه بــيــس المــعــظـمـة الـذكـر
بمـا جـاء في الـقـرآن مـن كـل آيـة الى المـصـطفى المبعوث بالفتح والنصر
تـنـجـى بهـا داعـيـك مـن كـل آفـة ومـن كـل مـا يـعدو على العبد والحر
ومــن ألم الحــمــى والـبـرد بـعـدهـا يــغــطــي بمـا يـغـطـي فـيـؤلم بـالضر
فـيـا حـامـل الحـرز المـبـارك والـدعـا نجــوت بحــمــد الله مــن جمـلـة الشر
فـصــنــه بمــا صــان الـنـبي محـمـداً وأيــده بــالــنـصر في مــنـتـهــى بــدر
أجـبـنـا بمـا تـدعـوك مـا قـد وعـدتنا بـكـشـفـك بـلـوائي لهـيـف ومـضـطـر
وصــل على جــبــريـل في كـل مـرة وصــل على كـل المـلائـكـة الـطـهـر
وصلّ على المخـتــار مــا ذر شـارق ومـا لاح نجـم في الـسماء لمن يـدري

وها هنا انتهت قصيدة: حرز الأقسام لجميع العلل والاسقام، وعدد أبياتها مائة وخمسة وأربعون بيتاً.

وأعلم: أن الدعوات المنقولة بين الناس أكثر من أن تحصى لكن لم يعرف لنا صحة اسنادها وصدق روايتها، ولنذكر نبذاً مما غلب على ظني صدقه تتميماً للفائدة واتماماً للمرام، وان أدى ذلك إلى التطويل في الكلام، والله الموفق.

ومن ذلك: دعاء الخضر عليه السلام. ذكره العلامي في تفسيره قال: روى عن ابن المهاجر قال: قدم الخليفة المنصور مكة، فكان يخرج من دار الندوة الى الطواف في آخر الليل يطوف و يصلي ولا يعلم به، فإذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة، وجاء المؤذنون فسلموا عليه، وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس. فخرج ذات ليلة حتى أسحر، فبينا هو يطوف اذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول: اللهم اني أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع. فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله، ثم خرج فجلس ناحية من المسجد، فأرسل اليه فدعاه، فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين، فصلى ركعتين واستلم الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه، فقال له المنصور: ما هذا الذي سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما

يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني. فنصح للمنصور ووعظ وذكر بما يطول شرحها، حتى بكى المنصور بكاء شديداً، ونحب وارتفع صوته، ثم قال: يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً. وجاء المؤذنون فسلموا عليه، وأقيمت الصلاة فخرج وصلى بهم، ثم قال للحرسي: عليك بالرجل ان لم تأتني به لأضربن عنقك، وأغتاظ عليه غيظاً شديداً ان لم يوجد. فخرج الحرسي فطلب الرجل، فبينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلي في بعض الشعاب، فقعد حتى صلى، ثم قال: يا ذا الرجل ما تتقي الله، قال: بلى، قال: أما تعرفه، قال: بلى، قال فانطلق معي إلى الخليفة فقد آلى ان يقتلني ان لم آته بك، قال: ليس الى ذلك من سبيل، قال: يقتلني، قال: لا يقتلك، قال: فكيف؟ قال: تحسن تقرأ، قال: لا. فأخرج من مزود كان معه رقا مكتوب فيه شيئاً، قال: خذه فاجعله في جيبك فان فيه دعاء الفرج، قال: فما دعاء الفرج، قال: لا يرزقه الا الشهداء، قلت: رحمك الله قد أحسنت الي، فإن رأيت ان تخبرني ما في هذا الدعاء وما فضله، قال: من دعا به صباحاً ومساء عدمت ذنوبه، ودام سروره، ومحيت خطاياه، واستجيب دعاؤه، وبسط في رزقه، وأعطى أمله، وأُعين على عدوه، وكتب عند الله صديقاً، ولا يموت الا شهيداً.

يقول: اللهم لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك ما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك، وخضع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك: واجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً؛ اللهم ان عفوك عن ذنوبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وسترك عن قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستحقه بما قصرت فيه، أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً، وانك لمحسن إليَّ واني لمسيء الى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد الي واتبغض اليك، ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك، فجد بفضلك واحسانك عليَّ أنك أنت التواب الرحيم.

قال: فأخذته فصيرته في جيبي، ثم لم يكن لي هم غير أمير المؤمنين، فسلمت عليه، فرفع رأسه وتبسم ثم قال: ويلك تحسن السحر، قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ثم قصصت عليه أمري مع الشيخ. ثم أخذ الرق وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف درهم وقال: نجوت، ثم قال: أتعرفه؟ قلت: لا، قال: ذلك الخضر عليه السلام.

ومن الأدعية الصحيحة الاسناد الى جعفر الصادق دعاء مسمى بدعاء الجيب

روى ابن فخر الدين الرومي جمعه في عمل الليل والنهار عن العلائي، ذكره في كتاب (العدة عند الكرب والشدة) عن ابن أبي الدنيا في كتاب (الفرج بعد الشدة) عن الفضل بن الربيع قال: حج الخليفة المنصور سنة سبع وأربعين ومائة، فلما قدم المدينة قال لي: ابعث إلى جعفر بن محمد ــ يعني الصادق رضي الله عنهما ــ وقال: قتلني الله ان لم أقتله، فأمسكت عنه رجاء أن ينساه، فأغلظ في الثانية، فقلت: هو بالباب فقال: ائذن له، فخرجت اليه فلما دنونا من الباب قام فحرك شفتيه، فدخل فسلم، فقال: لاسلم الله عليك يا عدو الله، تلحد في سلطاني وتبغيني الغوائل في ملكي، قتلني الله ان لم أقتلك، فقال له: يا أمير المؤمنين، ان سليمان أعطى فشكر، وان داود ابتلى فصبر، ويوسف ظلم فغفر، فنكس طويلاً ثم رفع رأسه باللطف وقال: اليّ وعندي يا أبا عبد الله البري الساحة السليم الناحية القليل الغائلة، جزاك الله من رحم خيراً. فتناول يده فأجلسه على مفرشه، فدعا بالغالية فطيبه بيده بحيث يقطر، ثم قال له: في حفظ وكلائه، يا ربيع الحق أبا عبد الله جائزته وكسوته. فأنصرف، فلحقته بالجوائز السنية فقلت له: أني رأيت قبلك ما لم تره، ورأيت بعدك ما قد رأيت، ورأيتك تحرك شفتيك فما الذي قلت، قال: انك رجل من أهل البيت ولك محبة وود، وهو دعاء أحفظه من آبائي عليهم السلام واسمه دعاء الجيب، وينبغي لمن يتوقع بلية أو خوفاً أن لا يخلو جيبه عنه.

وهو: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام،

وارحمني بقدرتك علي، أنت ثقتي ورجائي، رب كم نعمة أنعمت بها عليَّ قل لك عندها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل لك عندها صبري، فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمني، و يا من قل عند بلائه صبري فلم يخذلني، و يا من رآني على الخطايا فلم يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبداً، و يا ذا النعم التي لا تحصى عدداً، أسألك أن تصلي على محمد وآله كما صليت على ابراهيم انك حميد مجيد، اللهم انه عبد من عبادك ألقيت عليه سلطاناً من سلطانك، فخذ سمعه و بصره وقلبه إلى ما فيه صلاح أمري، و بك أدرأ في نحره وأعوذ بك من شره؛ اللهم أعني بديني على دنياي، وعلى آخرتي بالتقوى، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني الى نفسي فيما حضرته، يا من لا يضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة اغفر لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك انك أنت الوهاب؛ يا الهي: أسألك فرجاً قريباً ورزقاً واسعاً، وأسألك العافية من كل بلية، وأسألك الشكر على العافية ودوام العافية، وأسألك الغنى عن الناس، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم برحمتك يا أرحم الراحمين.

قال الربيع: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال موسى: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال ابن يحيى: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال محمد بن هارون: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال القطان: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال أبو الحسين العاقولي: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال الشاشي: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال جعفر الهمذاني: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال أبو الحسين العراقي: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال شيخ والدي وأستاذه الشيخ محمد الفيروز اباذي: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال شيخي وأستاذي ووالدي أبو البركات الشيخ فخر الدين الرومي: فكتبته عنه فها هو في جيبي. قلت: وأنا الفقير الحقير تراب قدم الفقراء فكتبته عنه رضوان الله عليهم أجمعين، وقد رأيت له أثراً ظاهراً وانتفعت به عدة، فعليك أن تنخرط في هذا السلك بشرط الاعتقاد الصحيح الجازم انتهى.

واعلم يا أخي: لولا خوف الأطناب لملأت الكتاب من هذا الباب، لكنه يكفيك هذا القدر الآن، والله المستعان في كل حين وأوان.

المطلب التاسع
في فضيلة الدعاء وآدابه

قال الله تعالى: ﴿واذا سألك عبادي عني فأني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾(٣)؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «ان الدعاء هو العبادة»؛ ثم قرأ: «أدعوني أستجب لكم» وقال: «الدعاء مخ العبادة»؛ وقال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»، وقال: «أن العبد لا يخطئه من الدعاء احدى ثلاث: أما ذنب يغفر له، وأما خير يعجل له، وأما خير يدخر له»: وقال: «سلوا الله تعالى من فضله فأنه يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج».

أما آداب الدعاء فهي عشرة

الأول: ان يترصد لدعائه الأوقات الشريفة: كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل.

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة: كزحف الصفوف في سبيل الله اذ عنده تفتح أبواب السماء، وعند نزول الغيث، وعند اقامة الصلاة المكتوبة، وأعقاب الصلوات المفروضة، وبين الاذان والاقامة، وحالة الصوم، وحالة السجود.

وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات الى شرف الحالات، اذ وقت السحر وقت صفاء القلب، ويوم الجمعة ويوم عرفة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٥.
(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة، ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه ويمسح بها وجهه في آخر الدعاء. وينبغي أن يضم كفيه ويجعل بطونهما مما يلي وجهه، وينبغي أن لا يرفع بصره إلى السماء؛ قال صلى الله عليه وسلم: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم الى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم».

الرابع: خفض الصوت بين المخافة والجهر. كذا ورد الأثر عن عائشة رضي الله عنها قالت في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾[1] أي بدعائك.

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء، فإن السجع تكلف ولا يناسب ذلك في محل التضرع. وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿أنه لا يحب المعتدين﴾[2] التكلف للاسجاع. والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة، لأنه اذا جاوزها ربما اعتدى في دعائه، فيسأل الله بما لا يقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء.

ويقال: ان العلماء والابدال لا يزيد أحدهم في الدعاء على سبع كلمات فما دونها؛ ويشهد بذلك آخر سورة البقرة: فإن الله عز وجل لم يخبر في موضع من أدعية عباده بأكثر من ذلك. وقال صلى الله عليه وسلم: «اياكم والسجع في الدعاء، بحسب أحدكم أن يقول: اللهم أني أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل».

واعلم: أن المنهي عنه هو التكلف للسجع، وأما اذا كان غير متكلف وصدر عن طبع فلا نهي عن ذلك. ووقع عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود، والموفين بالعهود، انك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد».

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١١٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٠.

وبالجملة: أصل الدعاء الضراعة والابتهال، فينبغي أن يحتفظ عما ينافيه من الكلفة من السجع وغيره، وان لم يخل بها فلا بأس.

السادس: التضرع والخشوع والرغبة والرهبة كما هو شأن الدعاء.

السابع: أن يجزم الدعاء ويوقن بالاجابة ويصدق رجاءه فيه. قال صلى الله عليه وسلم: «لا يقل أحدكم اذا دعا: اللهم أغفر لي ان شئت، اللهم ارحمني ان شئت فإنه لا مكره له». وقال: «اذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء». وقال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة، واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل».

الثامن: ان يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعا دعا ثلاثاً. وينبغي أن لا يستبطىء الاجابة فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، بل يقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ــ اذا تعرف الاجابة ــ ومن أبطأ عنه الاجابة يقول: الحمد لله على كل حال.

التاسع: يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى ولا يبدأ بالسؤال. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح بقوله: «سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب». وقال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يختم بالصلاة عليه، فإن الله عز وجل يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما. كذا ورد في الخبر أيضاً.

العاشر: وهو الأدب الباطن. والأصل في الاجابة: أن يتوب عن الذنوب، ويرد المظالم، ويقبل على الله عز وجل بكنه الهمة، فذلك هو السبب القريب في الاجابة.

المطلب العاشر

في فائدة الدعاء مع أنه لا مرد للقضاء

واعلم: ان من القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج

النبات من الأرض؛ وكما ان الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله عز وجل أن لا يحمل السلاح، وأن لا تسق الأرض بعد القاء البذر، فيقال: ان سبق القضاء بالنبات نبت، بل الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، ويقال له: القضاء الأول الذي هو كلمح البصر.

وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسبب، والذي قدر الشر قدره بسبب وقدر لدفعه سبباً أيضاً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته على أن في الدعاء في نفسه فائدة العبادة وثواب الذكر والخير العاجل، ولا يخلو أصلاً عن طائل، والله المجيب وانا السائل، أسأل منه الاقتفاء بأعظم الوسائل: محمد عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، وعلى آله وأصحابه وذريته وأحبابه.

الأصل العاشر

في تقسيم الأوراد وفضيلتها وأحكامها

واعلم: أن السالك لطريق الآخرة: أما عابد، أو عالم، أو متعلم، أو دال، أو محترف، أو موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره.

ففيه مطالب.

المطلب الأول

في ترتيب أوراد العابد المتجرد لعبادة الله عز وجل

فلنذكر أولاً فضيلة الأوراد:

قال الله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾؛ ﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾[١]؛ وقال تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم: أن في النهار سبعة أوراد: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ورد، ومنه إلى الزوال وردان، ومنه الى العصر وردان، ومنه الى المغرب وردان؛

---

(١) سورة الانسان، آية: ٢٥، ٢٦.

(٢) سورة ق، آية: ٣٩.

(٣) سورة هود، آية: ١١٤.

وفي الليل أربعة أوراد: من المغرب الى نوم الناس وردان، وفي النصف الأخير إلى الفجر وردان، ثم ورد خامس وهو ورد النوم.

والأول: ورد الصبح. وفضله كثير في الآيات منه قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس﴾؛ وقوله: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾[1]. فإذا انتبه من النوم يدعو بدعاء الاستيقاظ وقد مر، ويلبس ثوبه وهو في الدعاء، وينوي به ستر عورته امتثالاً لأمر الله تعالى واستعانة على عباده من غير قصد رئاء ورعونة. ثم يباشر الطهارة على ما مر، ثم يستاك ويتوضأ على ما مر، ثم يصلي ركعتي الفجر في منزله، ثم يدعو بدعاء ابن عباس: اللهم اني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، إلى آخر الدعاء وقد مر ذكره، ثم يخرج ويدعو بدعاء الخروج، ويمشي بالسكينة والوقار، ويدخل المسجد ويذكر دعاء الدخول، ثم يطلب الصف الأول ان وجد فرجة، ولا يتخطى الرقاب ولا يزاحم. ثم يصلي ركعتي الفجر ان لم يصلها في البيت، ويدعو بما يدعى بعدهما وقد سبق. وان كان صلاهما صلى ركعتي التحية، وجلس منتظراً للجماعة فانه بمنزلة غزوة في سبيل الله. كذا ورد في الآثار. والأحب التغليس عند الشافعية وعند الحنفية الأسفار. وينبغي ان لا يترك الجماعة لأنها فرض كفاية عند الشافعية وسنة مؤكدة عندنا.

ثم يشتغل بعد ركعتي الفجر بالدعاء بالاستغفار والتسبيح الى أن تقام الصلاة، فيقول: أستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم وأتوب اليه سبعين مرة، وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ــ مائة مرة. ثم يصلي الفريضة مع آدابها الظاهرة والباطنة، ثم يقعد في مصلاه الى طلوع الشمس.

ويشتغل عند ذلك بأربعة أنواع:

أحدها: الدعاء. ويقول أولاً: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم أنت السلام واليك يعود السلام، حينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام، تباركت يا ذا الجلال والاكرام. ثم يقول: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب،

---

(١) سورة الانسان، آية: ٢٥.

لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت ــ وهو حي لا يموت ــ بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا اله الا الله اهل النعمة والفضل والثناء الحسن، لا اله الا الله لا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ثم يبتدىء و يدعو بالأدعية المذكورة كلا أو بعضاً بقدر طاقته وما يراه أوفق لحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه.

ثانيها: الأذكار المكررة ثلاثاً أو سبعاً، وأكثرها مائة أو سبعين، وأوسطها عشر، و يكرر بقدر فراغه وسعة وقته، وفضل الأكثر أكثر، الا أن القليل مع المداومة أفضل وأشد تأثيراً في القلب من غير مداومة.

وتلك الأذكار عشرة:

الأولى: لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت ــ بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

الثانية: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

الثالثة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

الرابعة: سبحان الله العظيم وبحمده.

الخامسة: أستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم وأسأله التوبة.

السادسة: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

السابعة: لا اله الا الله الملك الحق المبين.

الثامنة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

التاسعة: اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد.

العاشرة: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ اللهم اني أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون.

فهذه عشر كلمات اذا كرر كل واحدة منها عشر مرات حصل له مائة مرة، فهو أفضل من أن يكرر ذكر واحدة مائة، لأن لكل واحدة منها فضلاً على حيالها، وللقلب لكل منها نوع تلذذ واستراحة وأمن من الملال.

ثالثها: القراءة. فالأفضل أن يقرأ سورة الحمد وآية الكرسي وخاتمة البقرة، من قوله: آمن الرسول، وشهد الله، وقل اللهم مالك الملك الآيتين؛ ولقد جاءكم رسول من أنفسكم... إلى آخرها؛ ولقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ــ الى آخرها؛ والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، وخمس آيات من أول الحديد؛ وثلاث آيات من آخر سورة الحشر.

وان أراد أن يستكمل الفضل فليقرأ المسبعات العشر، وهي: سورة الحمد، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسي ــ كل واحدة سبع مرات. و يقول سبعاً: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر؛ و يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم سبعاً؛ و يستغفر للمؤمنين والمؤمنات سبعاً، وتستغفر لنفسك ولوالديك سبعاً، وتقول: اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل، انك غفور رحيم ــ سبع مرات.

رواها كرز بن وبرة عن ابراهيم التيمي انه أهداها اليه الخضر عليه السلام، وقال: أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم، وقال: اذا لقيته فسل عن ثوابه. فذكر ابراهيم التيمي أنه رأى ذات ليلة في منامه كأن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلته الجنة فرأى في الجنة أموراً عظيمة، فقال للملائكة: لمن هذا، فقالوا: للذي يعمل مثل عملك. وذكر أنه أكل من ثمارها وسقوه من شرابها. قال: وأتاني النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبياً وسبعون صفاً من الملائكة، كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب، فسلم علي وأخذ بيدي، فقلت: يا رسول الله، ان الخضر أخبرني أنه سمع هذا الحديث منك، فقال

صلى الله عليه وسلم: صدق الخضر وكل ما يحكيه فهو حق، وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الابدال، وهو من جنود الله تعالى في الأرض، فقلت: يا رسول الله من فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامي، فقال: والذي بعثني بالحق أنه ليعطيي بهذا ـ وان لم يرني ولم ير الجنة ـ انه ليغفر له جميع الكبائر، و يرفع الله سبحانه عنه غضبه ومقته، و يؤمر صاحب الشمال ان لا يكتب عليه شيئاً من السيئات الى سنة؛ والذي بعثني بالحق ما يعمل بهذا الا من خلقه الله سعيداً، ولا يتركه الا من خلقه الله شقياً.

وكان ابراهيم مكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب، ولعله كان بعد هذه الرؤيا.

واعلم: أنه ان أضاف الى ذلك ما انتهى اليه ورده من القرآن كان أحسن وأفضل.

ورابعاً: الأفكار: وذلك أما في المعاملات: بأن يحاسب نفسه بأن يتفكر في تقصيره وفي دفع الصوارف والعوائق عن الخير وطريق الاخلاص في النيات، واما في المكاشفات: بأن يتفكر في جلال الله تعالى ونقمته فيزداد خوفاً، أو في جماله ونعمته و يزداد شكراً. والفكر أشرف العبادات لأن فيه الذكر ومادة المعرفة، اذ الفكر مفتاح المعارف، ويحصل من المعرفة التعظيم، ومنه المحبة. وأيضاً الذكر وان أورث الأنس الذي هو نوع من المحبة، فالمحبة الخالصة من الفكر أقوى وأثبت وأعظم، أو لا يرى أن العشق لمن يشاهد جماله بالعين أقوى من العشق لمن كرر على السمع وصفه، اذ ليس الخبر كالعيان.

قال الشاعر

ولكن للعيان لطيف معنى   به سأل المعاينة الكليم

ولهذا صار يقين العارفين الذين شاهدوا ذلك الجمال والجلال بعين البصيرة الباطنة ـ التي هي أقوى من البصر الظاهر ـ أجل وأعظم من يقين العباد المواظبين على ذكر الله بالقلب واللسان، اذ ليس معهم من محاسن الصفات الا

أمور جميلة لا تشفي العليل ولا تسقي الغليل الا الأقل من القليل، الذين قنعوا من اليقين بالدليل.

الورد الثاني: وهو الذي من طلوع الشمس الى ضحوة النهار، وهي منتصف ما بين الطلوع الى الزوال، وذلك لمضي ثلاث ساعات من نهار يكون اثنتي عشرة ساعة، اذ هي ربع النهار. وفي هذا الربع وظيفتان:

أحداهما: صلاة الضحى.

وهي نوعان:

أحدهما: وقت أشراق الشمس. وهو وقت ظهور نورها بارتفاعها عن موازاة البخارات الأرضية المانعة عن اشراق نورها. وهذا ركعتان، وقد مر ذكرهما، ويسميان صلاة الاشراق.

وثانيها: وقت اشتداد حر الشمس. اذا رمضت الفصال ـــ وهو الضحى الأعلى ـــ فيصلي عند ذلك أربعاً أو ستاً أو ثمانياً، ويسمى ذلك صلاة الأوابين.

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عند الاشراق، فنادى بأعلى صوته: ألا أن صلاة الأوابين اذا رمضت الفصال. ولذلك يقال اذا اقتصر على واحد من النوعين فهذا الوقت أفضل.

وثانيتها: الخيرات المتعلقة بالناس التي جرت بها العادة بكرة: من عيادة مريض، أو تشييع جنازة، ومعاونة على بر وتقوى، وحضور مجلس علم، وقضاء حاجة لمسلم، ونحو ذلك. فإن لم يوجد شيء من أمثال هذه عاد الى الوظائف الأربع التي قدمناها: من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلاة تطوعاً اذ حينئذ تحل الصلاة.

الورد الثالث: من ضحوة النهار إلى الزوال. فالصلاة في كل ساعة مستحبة أو مفروضة. من الصبح الى الضحوة ثلاثاً، ومنها إلى الزوال ثلاثاً، وكذا منه إلى العصر، ومن العصر الى المغرب. فالضحى نظير العصر، الا أنه لم

يفترض لأنه وقت أشغال الناس ومعاشهم، فخفف عنهم. فوظيفة الوقت المذكور الأقسام الأربعة ويزيد أمرين.

أحدهما: الاشتغال بالكسب وتدبير المعاش. فإن كان تاجراً يحضر السوق، ــ وسنذكر شرائطه ــ ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه.

وثانيهما: القيلولة. وهي سنة ليستعين بها على قيام الليل، كما أن التسحر سنة ليستعين به على صيام النهار. فإن كان لا يقوم بالليل، لكن كان بحيث لو لم ينم لأشتغل بالتحدث مع الناس، فالنوم أحب إليه؛ وكذا لو كان بحيث لا ينشط بدون النوم للأذكار والوظائف المذكورة، فنومه على النيتين المذكورتين يصير قربة. ولكن ينبغي أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة وحضور المسجد قبل وقت الصلاة، وان لم ينم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار، لأنه وقت غفلة الناس واشتغالهم بهموم الدنيا، فالخدمة عند اعراض العبيد عن باب مولاهم جدير بأن يزكيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته، ولهذا المعنى صار احياء الليل قربة وفضلاً.

الورد الرابع: ما بين الزوال الى الفراغ من صلاة الظهر وراتبه، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها. فإذا حضر المسجد قبل الزوال فليصبر إلى فراغ المؤذن عن جواب أذانه، ثم ليقم إلى أحياء ما بين الآذان والاقامة وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وحين تظهرون﴾[1]. وليصل أربع ركعات لا يفصل بينها بتسليم وليطولها، اذ فيها تفتح أبواب السماء، وليقرأ فيها سورة البقرة، أو سورتين من المئين، أو أربعاً من المثاني، فهذه ساعة يستجاب فيها الدعاء. وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع له فيها عمل. ثم يصلي الظهر بجماعة، ثم يصلي بعده ركعتين، ثم أربعاً يقرأ فيها آية الكرسي وآخر البقرة والآيات التي أوردناها في الورد الأول.

(١) سورة الروم، آية: ١٨.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر. فيعتكف ما بينهما في المسجد مشتغلاً بالذكر والصلاة وفنون الخير، وكان ذلك سنة السلف لأنه وقت غفلة الناس، لكن ان كان البيت أسلم لدينه وأجمع لهمه فهو أفضل. وفي هذا الوقت يكره النوم اذ يكره نومتان بالنهار وهذا الوقت هو المراد بالآصال في قوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾[1].

واعلم: أن اعتدال النوم ثماني ساعات بالليل والنهار اللذين هما جميعاً أربع وعشرون ساعة، وان نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار ولا يزيد عليه، فحسب ابن آدم ان عاش ستين ان ينقص من عمره عشرين سنة وهو ثلث عمره، ولكن لا ينقص منه لئلا يختل البدن فيضيع طاعته وكماله، الا أن يتعود السهر بالتدريج ويتمرن عليه من غير اضطراب. وقد شاهدنا ذلك في بعض العباد مع قوة أبدانهم في العبادات.

الورد السادس: بعد دخول وقت العصر وليس في ذلك صلاة غير أربع ركعات بين الآذان والاقامة، ثم يصلي العصر، ثم يشتغل بالوظائف الأربع المذكورة، وان اشتغل بالتلاوة وبتدبر كان أفضل.

الورد السابع: وقت اصفرار الشمس. وهو المراد بقوله: ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾[2]. فيستحب فيه الدعاء والتسبيح والاستغفار خاصة، وسائر ما ذكر في الورد الأول؛ مثل أن يقول: أستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم وأسأله التوبة، وسبحان الله العظيم وبحمده، ويستغفر ويقول: ﴿واستغفروا ربكم انه كان غفاراً﴾[3]؛ ﴿واستغفره انه كان تواباً﴾[4]؛ رب أغفر وأرحم وأنت خير الراحمين، فأغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الغافرين الراحمين.

ويستحب أن يقرأ قبل الغروب: والشمس وضحاها والليل اذا يغشى

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٥.
(٢) سورة الروم، آية: ١٧.
(٣) سورة نوح، آية: ١٠.
(٤) سورة النصر، آية: ٣.

والمعوذتين، ولتغرب الشمس وهو في الاستغفار كما قال تعالى: ﴿واستغفر لذنبك﴾؛ و ﴿سبح بحمد ربك بالعشي والابكار﴾.

فإذا سمع الأذان قال: اللهم هذا اقبال ليلك وادبار نهارك ــ الدعاء كما سبق. ثم يجيب المؤذن، ثم يشتغل بصلاة المغرب، وبذلك انقضت مرحلة من عمره. فحينئذ يحاسب نفسه هل كان شراً من أمسه فكان من الملعونين، فعند ذلك فليعزم على تلافي ما سبق من تفريطه، فإن الحسنات يذهبن السيئات والليل خلفه النهار، فيداوي تفريطه بالليل؛ أو ساواه فكان من المغبونين، لأن من استوى يوماه فهو مغبون. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيراً». فإن رأى زيادة في خيره فليحمد الله عز وجل وليشكره على توفيقه وتسديده اياه لطريقه، وليحضر في قلبه ان نهار العمر له غروب ولا طلوع بعده فيغلق باب التدارك، فيبادر الى الخيرات قبل فواتها.

بيان أوراد الليل وهي خمسة

الأول: الاشتغال بأحياء ما بين العشاءين الى غيبوبة الشفق، وهي المراد في قوله تعالى: ﴿ان ناشئة الليل﴾[1]. وليحذر عن النوم في ذلك الوقت. ويصلي بعد المغرب ركعتين يقرأ فيهما: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، و﴿قل هو الله أحد﴾ ــ من غير تحلل كلام وشغل عقيب صلاة المغرب. ثم يصلي أربعا يطليلهن، ثم يصلي ما تيسر له إلى غيبوبة الشفق. فإن كان منزله قريباً من المسجد فلا بأس أن يصلي هاتين الصلاتين في بيته، اذا لم يكن قصده العكوف في انتظار العتمة، وان قصد ذلك فهو أفضل ان لم يدخله التصنع والرئاء والسمعة.

الورد الثاني: من وقت العشاء الى حد نوم الناس. وهو بمراعاة أمور ثلاثة:

---

(١) سورة المزمل، آية: ٦.

الأول: أن يصلي بين الأذان والاقامة أربع ركعات، و يصلي بعد الفرض ركعتين، ثم أربعاً، و يقرأ فيها آخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وغيرها.

الثاني: أن يصلي ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر. والحزم تقديمه على النوم، اذ ربما لا يستيقظ و يثقل عليه القيام. الا أن يعتاد ذلك فالتأخير أفضل. وليقرأ في هذه الصلاة قدر ثلاثمائة من السور التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر قراءتها؛ مثل: سورة يس، وسجدة لقمان، وسورة الدخان، وتبارك الملك، والزمر والواقعة. فإن لم يصل فلا يدع قراءة هذه السورة بعضها قبل النوم.

وروى: ان ما كان يقرأ النبي صلى الله عليه وسلم في كل ليلة: السجدة وتبارك الملك؛ وفي رواية: الزمر وبني اسرائيل؛ وفي رواية: كان يقرأ المسبحات كل ليلة، و يقول: «فيها آية أفضل من الف آية». وبعض العلماء يزيدون: سبح اسم ربك الأعلى، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يحب هذه السورة. وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر: سبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وسورة الأخلاص. فإذا فرغ قال: سبحان الملك القدوس ثلاث مرات.

الثالث: الوتر قبل النوم. والتأخير أفضل لمن وثق بالانتباه. و يقول بعد السلام من الوتر: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، جللت السموات والأرضين بالعظمة والجبروت، وتعززت بالقدرة، وقهرت العباد بالموت.

الورد الثالث: النوم. وانه من العبادة ان روعيت آدابه. وورد في الحديث: «اذا نام العبد على طهارة وذكر الله عز وجل يكتب مصلياً حتى يستيقظ، و يدخل في شعاره ملك فإن تحرك في نومه فذكر الله عز وجل دعا الملك واستغفر له». وفي الخبر: اذا نام العبد على طهارة رفعت روحه الى العرش. هذا في العوام فكيف في العلماء وأرباب القلوب المكاشفين بالأسرار في النوم؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح».

وآدابه عشرة:

الأول: الطهارة والسواك. اذ بذلك عرج بروحه الى السماء فتصدق رؤياه والا فتصير أضغاث أحلام، كذا ورد في الخبر. الا أن المراد طهارة الظاهر والباطن جميعاً، لأنها هي المؤثرة في انكشاف حجب الغيوب.

الثاني: أن يعد عند رأسه سواكه وطهوره، و ينوي القيام للعبادة، وكلما انتبه استاك، كذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وان لم يتيسر له الطهارة يتيمم، فإن لم يجد فليقعد مستقبل القبلة و يشتغل بالذكر والدعاء والفكر، فذلك يقوم مقام قيام الليل.

الثالث: ان لا يبيت الا ووصيته مكتوبة عنده فأنه لا يأمن القبض في النوم. يقال: من مات من غير وصية لم يؤذن له في الكلام في البرزخ الى يوم القيامة، يتزاورون الأموات و يتحدثون فهو لا يتكلم، فيقول بعضهم لبعض: هذا المسكين مات من غير وصية. وذلك مستحب خوفاً من الفجاءة.

وموت الفجاءة تخفيف الا لمن ليس مستعداً للموت بكونه مثقل الظهر بالمظالم.

الرابع: أن ينام تائباً من كل ذنب، سليم القلب لجميع المسلمين، لا يحدث نفسه بظلم أحد، ولا يعزم على معصية ان استيقظ.

الخامس: ان لا يتنعم بالفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه. وكان بعضهم يكرهون الفراش المهيأ للنوم. وكان أهل الصفة لا يتركون بينهم وبين التراب حاجزاً، و يقولون: منها خلقنا واليها نرد، وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر لتواضع نفوسهم، الا أن ذلك في البلاد الباردة يضر بالمزاج. فالاقتصاد فيها: أن لا يعين للنوم فراشاً، بل ينام على ما يقعد عليه في النهار أي شيء كان.

السادس: أن لا ينام ما لم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه. وقد كان السلف نومهم غلبة، وأكلهم فاقة، وكلامهم ضرورة، الا أن يقصد به

الاستعانة على قيام الليل. وان غلبه النوم عن الصلاة أو الذكر وصار لا يدري ما يقول فلينم حتى يدري ما يقول. قال صلى الله عليه وسلم: «لا تشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده يغلبه». فلا تبغض اليك عبادة الله عز وجل.

السابع: أن ينام مستقبل القبلة: أما كهيئة المحتضر بأن يستلقي على قفاه ورجلاه الى القبلة، أو كهيئة المقبور بأن ينام على جنب ووجهه اليها، مع قبالة بدنه اذا نام على الأيمن.

الثامن: الدعاء عند النوم، وقد مر ذلك. و يستحب أن يقرأ آية الكرسي وآخر البقرة، وغيرها: ﴿والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم﴾.. الى قوله: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾(١)؛ يقال ان من قرأ هذا عند النوم حفظ عليه القرآن فلم ينسه؛ و يقرأ من سورة الاعراف: ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾(٢)، وآخر — بني اسرائيل: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾(٣). الآيتين، فانه يدخل في شعاره ملك يوكل بحفظه و يستغفر له. و يقرأ المعوذتين و ينفث بهما في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده، وذلك مروي من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليقرأ عشراً من أول الكهف وعشراً من آخرها، وهذه الآى لاستيقاظ قيام الليل، وكان علي كرم الله وجهه يقول: ما أرى رجلاً مستكملاً عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة. وليقل خمساً وعشرين: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر، ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة.

التاسع: أن يتذكر عند النوم أخو الموت والتيقظ نوع بعث، ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة، فلا بد للنائم وأن يفتش عن قلبه عند النوم: انه على ماذا ينام، وما الغالب عليه: حب الله تعالى وحب لقائه، أو حب الدنيا، وليتحقق انه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه، فإن المرء مع من أحب ومع ما أحب.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٤.

العاشر: الدعاء عند التنبه بما سبق. و يقول مهما تنبه من النوم: لا اله الا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار. وليجتهد أن يكون آخر ما يجري على قلبه عند النوم وأول ما يجري على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى، فإن علامة الحب ذلك، وليجرب قلبه بذلك فانها علامة تكشف عن باطن القلب.

الورد الرابع: يقوم في السدس الأخير من الليل الى التهجد، وهو اسم لما بعد الهجود والهجوع وهو النوم، اذ حينئذ يهتز العرش، وتنتشر رياح الجنة العدن، و ينزل الجبار سبحانه الى سماء الدنيا كما ورد في الخبر. فبعد ما فرغ من دعاء الانتباه يتوضأ، ثم يستقبل القبلة و يقول: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً. ثم يسبح عشراً ويحمد عشراً ويهلل عشراً، و يقول: الله أكبر ذو الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة. ثم يقول هذه الكلمات، فأنها مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قيامه لتهجد: اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق، ومنك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق؛ اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت واليك حاكمت، فأغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت؛ اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها الا أنت، وأصرف عني سيئها لا يصرف سيئها عني الا أنت، أسألك مسألة البائس المسكين، وأدعوك دعاء المفتقر الذليل، فلا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين وأكرم المعطين.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل افتتح صلاته وقال: اللهم رب جبرئيل وميكائيل واسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا

فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. ثم يفتتح الصلاة و يصلي خفيفتين. ثم يصلي مثنى ما يسر له ويختم بالوتر ان لم يكن صلاة.

و يستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح و يزيد في نشاطه للصلاة، وقد صحح في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالليل، انه صلى أولاً ركعتين خفيفتين، ثم ركعتين طويلتين، ثم ركعتين دون اللاتي قبلهما، هكذا إلى ثلاث عشرة ركعة بالتدريج.

وسئلت عائشة رضي الله عنها: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر في قيام الليل أم يسر، فقالت: ربما أسر وربما جهر. وقال صلى الله عليه وسلم: «صلاة المغرب أوترت صلاة النهار، فأوتر صلاة الليل».

الورد الخامس: السدس الأخير من الليل ــ وهو وقت السحر. فيصلي ركعتي الفجر ثم يقول: ﴿شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم﴾[1]. الآية. ثم يقول: وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت ملائكته وأولو العلم من خلقه. وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي وديعة عنده، وأسأله حفظها حتى يتوفاني عليها، اللهم احطط عني بها وزراً، واجعل لي بها عندك ذخراً، واحفظها علي وتوفني عليها حتى ألقاك بها غير مبدل تبديلاً.

فهذا ترتيب الأوراد للعباد.

ومع ذلك فقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعة أمور: صوم، وصدقة وان قلت ــ حتى العنبة والبصلة وكسرة خبز وعيادة مريض وشهادة جنازة، اذ قد ورد في فضل كل منها الأحاديث والأخبار والآثار.

واعلم: أن الأولى من بين الأوراد قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التدبر لأنه يجمع جميع أنواع الأذكار، لكن ربما تعسر المواظبة عليها فيجوز للعابد

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨.

الانتقال من نوع إلى نوع لا يلحقه فيه الملل، اذ الغرض تحصيل صفاء الباطن.

والتحقيق: أن أحوال الأشخاص متفاوتة: فمن واحد يرى الصفاء في نوع، ومن آخر في غيره، فعليه أن يلازم. أوجد عنده في قلبه فتحاً وصفاء. وتوزيع الأوراد انما هو لأجل دفع الملل وتجربة لما له فيه الصفاء، فإذا أصابه فليواظب عليه، وذلك يختلف باختلاف الطبائع وبتفاوت الأحوال. وكان في الصحابة من ورده في اليوم والليلة إثنا عشر ألف تسبيحة، وفيهم من ورده ثلاثون ألفاً، وفيهم من يصلي ثلاثمائة ركعة الى ستمائة ركعة والى ألف ركعة، ولم يكن أقل من مائة ركعة، وكان فيهم من يختم في اليوم مرة ومرتين، ومنهم من ورده آية واحدة يرددها بالتفكر الى غير ذلك.

المطلب الثاني

العالم الذي ينتفع بعلمه بفتوى أو تدريس أو تصنيف

فترتيب أوراده يخالف ترتيب أوراد العابد، لأن العلم أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات وفيه منفعة الخلق وهدايتهم الى طريق الآخرة، ورب مسألة واحدة يصلح بها المتعلم عبادة عمره. وانما المراد بالعلم: العلم المذكر للآخرة لا العلم الذي يتوسل به الى المال والجاه وقبول الخلق. فينبغي للعالم أن يوزع أوقاته والا يلحقه الكلال، فيخصص ما بين الفجر الى طلوع الشمس، ومنه الى الضحوة في الافادة والتعليم ان كان عنده من يستفيد علماً لأجل الآخرة، وان لم يكن فيصرفه إلى الفكر وحل مشكلات العلوم الدينية، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا أكثر وأوفر؛ ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة، لا يتركها الا في وقت أو طهارة أو مكتوبة أو قيلولة خفيفة ان طال النهار؛ ومن العصر الى الاصفرار يشتغل بسماع ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع؛ ومن الاصفرار الى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح. فيكون ورده الأول عمل اللسان، والثاني عمل القلب، والثالث عمل العين واليد، والرابع عمل السمع لتتروح به العين واليد؛ اذ المطالعة

والكتابة بعد العصر ربما أضر الى البصر. وعند الاصفرار يعود الى عمل اللسان. هذا تقسيم النهار.

وأما تقسيم الليل: فالأولى فيه تقسيم الشافعي؛ حيث جعل الثلث الأول للمطالعة وتربية العلم، والثاني للصلاة، والثالث للنوم. الا أن ذلك ربما لا يتيسر في ليالي الصيف الا اذا كثر النوم بالنهار، والا فليجعل المطالعة والصلاة أقل من الثلث، وليضم ما فضل منهما الى النوم، اذ البدن اذا ضعف يفوت الكمال الكثير. اللهم الا أن يعتاد ذلك بالتدريج. وقد شاهدنا من يفعل ذلك.

المطلب الثالث

في المتعلم

والتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل فحكمه حكم العالم في ترتيب الأوراد، لكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالافادة، والتعليق أو النسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف.

المطلب الرابع

في المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله

فليس له أن يستغرق الأوقات في العبادات لئلا يضيع له العيال، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب. لكن ينبغي أن لا ينسى الله عز وجل في صناعته، فيواظب على ما أمكن جمعه مع العمل، فإذا فرغ من كفايته يعود الى أوراده.

المطلب الخامس

في الوالي

مثل الامام والقاضي والمتولي لأمر من أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين على وفق الشرع وقصد الاخلاص أفضل من الأوراد المذكورة. فحقه

أن يشتغل بأمور الناس نهاراً و يقتصر على المكتوبة، و يقيم الأوراد المذكورة بالليل، كما كان عمر رضي الله عنه اذ قال: مالي والنوم لو نمت بالنهار لضيعت أمر المسلمين، ولو نمت بالليل لضيعت نفسي. فظهر مما ذكر، أن العلم والرفق بالمسلمين مقدمان على كثير من العبادات لتعدي نفعهما الى العامة.

المطلب السادس

الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذي أصبح وهمه هم واحد، فلا يحب الا الله عز وجل، ولا يخاف ولا يرجو الا منه. فمن ترقت رتبته الى هذا الحد لا يحتاج الى ترتيب الأوراد وتوزيعها، لأن قلبه مع الله في كل وقت، فلا محرك له ولا مسكن الا الله تعالى، ولا تتميز عنده عبادة عن عبادة، وهو الذي يستغني عن تعليم المعلمين. فذلك خارج عن خطابنا في هذا الباب. الا أنه ينبغي للمريد أن لا يدعي لنفسه تلك المرتبة و يتكاسل عن وظائف العبادات، وان أحاط به حسن الظن بنفسه وألقاه في العجب فعليه أن يتدارك حاله بما سنذكره ان شاء الله تعالى.

خاتمة

في قيام الليل

وهو صنفان أما قبل النوم أو بعده.

الصنف الأول: يسمى صلاة الأوابين. وهي ركعتان، من واظب عليها بني الله له قصرين في الجنة. قيل فيقرأ في الأولى ــ بعد الفاتحة ــ عشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها من قوله تعالى: ﴿ والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ــ ان في خلق السموات والأرض﴾. الآية؛ ﴿وقل هو الله أحد﴾ خمس عشرة مرة؛ و يقرأ في الثانية ــ بعد الفاتحة ــ آية الكرسي وآيتين بعدها الى قوله: ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾؛ وثلاث آيات من آخر البقرة من قوله تعالى: ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض﴾ الى آخرها؛ ﴿وقل هو الله أحد﴾ خمس عشرة مرة ــ ووصف في الحديث: ثوابها

يخرج عن الحصر؛ وفي رواية: أربع ركعات من واظبها عدلت له عبادة سنة، أو كأنها صليت ليلة القدر؛ وفي رواية: عشر ركعات من واظبها بني له قصر في الجنة.

ونقل عن كرز بن وبرة ــ وهو من الابدال: قلت للخضر عليه السلام: علمني شيئاً أعمله في ليلتي، قال: اذا صليت المغرب فقم الى صلاة العشاء مصلياً من غير أن تكلم أحداً، وأقبل على صلاتك التي أنت فيها، وسلم من كل ركعتين، واقرأ في كل ركعة ــ بعد الفاتحة ــ «قل هو الله أحد» ثلاثاً. فإذا فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحداً، وصل ركعتين، واقرأ في كل ركعة ــ بعد الفاتحة ــ الاخلاص سبعاً، ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر الله سبعاً وقل: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم سبعاً، ثم أرفع رأسك من السجود، واستو جالساً وأرفع يديك وقل: يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والاكرام، يا اله الأولين والآخرين، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يا رب يا رب، يا الله يا الله يا الله، ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك، وصل على النبي صلى الله عليه وسلم وادم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم؛ فقلت له: أحب أن تعلمني ممن سمعت هذا، فقال: اني حضرت محمداً صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحى به اليه وكنت عنده، وكان ذلك بمحضر مني فتعلمته ممن علمه اياه.

ويقال: ان هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليها بحسن يقين وصدق نية رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه قبل أن يخرج من الدنيا. وقد فعل ذلك بعض الناس، فرأى أنه دخل الجنة ورأى فيها الأنبياء، ورأى محمداً صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء، وكلمه وعلمه.

الصنف الثاني: القيام بعد النوم والآيات والأخبار والآثار في فضله أكثر من أن تحصى.

ومن الآيات قوله عز وجل: ﴿ان ربك يعلم أنك تقوم ادنى من ثلثي الليل

ونصفه ﴾(١)؛ وقوله تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾(٢) الآية؛ وقوله جل ذكره: ﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾(٣).

ومن الأخبار قوله صلى الله عليه وسلم: «ان من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً الا أعطاه اياه». وقال: «عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم، فإن قيام الليل قربة الى الله تعالى وتكفير للذنوب ومطردة للداء عن الجسد ومنهاة عن الاثم». وقال لأبي ذر: «لو أردت سفراً أعددت عدة، فكيف سفر طريق الآخرة، ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم، قال: بلى، فداك أبي وأمي، قال: صم يوماً شديد الحر ليوم النشور، وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور، وحج حجة لعظائم الأمور، وتصدق بصدقة على مسكين، أو كلمة حق تقولها، أو كلمة شر تسكت عنها».

ومن الآثار: قيل للحسن: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً، قال: انهم خلوا بالرحمن تعالى فألبسهم نوراً من نوره. وقال: ان الرجل ليذنب الذنب فيحرم قيام الليل. وقال الفضيل: اذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم انك محروم وقد كثرت خطيئتك.

واعلم: انك اذا عرفت فضيلتها فعليك أن تعرف الأسباب المسهلة لقيام الليل.

وهي أما ظاهرة أو باطنة:

الأول: أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم و يثقل عليه القيام.

الثاني: أن لا يتعب بدنه بالنهار في الأعمال فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة.

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار فأنه يحول بينه و بين أسباب السعادة.

---

(١) سورة المزمل، آية: ٢٠.
(٢) سورة الزمر، آية: ٩.
(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٤.

الثاني أربعة أيضاً:

الأول: سلامة القلب من الحقد على أحد من المسلمين، ومن البدع، ومن فضول هموم الدنيا، لأن من كثر همه فنائم ولو استيقظ.

الثاني: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل، لأن ذكر جهنم يطير نوم العابدين.

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل فيهجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في الجنان.

الرابع: وهو أشرف البواعث، الحب لله عز وجل وقوة الايمان، لأن من أحب مولاه أحب الخلوة به والتذ المناجاة معه.

واعلم: أن محبة الله تعالى لا ينكرها الا من ران قلبه بالبدع أو غلب عليه حب الدنيا، والا فهي من أعظم اللذائذ ولا لذة فوقها بل لا لذة غيرها، وقد شهد العقل والنقل بوجودها.

أما العقل: فإن من أحب شخصاً بسبب جماله، أو عالماً بسبب كماله كيف يريد رؤيته وسماع كلامه والخلوة به وبمناجاته، وليس التلذذ بالنظر الى المحبوب فقط، بل يلتذ من وراء ستر أو في بيت مظلم؛ ولا بسماع كلامه فقط، اذ ربما يلتذ مع عرض حاله الى المحبوب وان لم ير ولم يتكلم.

وأما النقل: فيشهد له أحوال المحبين في قيام الليل وتلذذهم بالمناجاة، ومن لم ينتبه بهذا المقدار لا يعترف بالتطويل والاكثار.

فاعلم: أن قيام الليل سبع مراتب:

الأولى: أحياؤه كلا وهذا شأن الأقوياء.

الثانية: قيام نصفه، والأحسن أن ينام الثلث الأول والسدس الأخير ويصير قيامه في الوسط.

الثالثة: قيام ثلثه، بأن ينام النصف الأول والسدس الأخير. وبالجملة:

نوم آخر الليل محمود، لأنه يذهب النعاس بالغداة، و يقلل صفرة الوجه التي هي سبب الشهرة؛ وأيضاً سبب لكشف حجب الغيوب كما يشاهده أرباب القلوب. وقيام ثلث الليل من النصف الأخير ونوم السدس الأخير قيام داود عليه السلام.

الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه. وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير.

الخامسة: أن لا يراعي التقدير، فإن ذلك انما يتيسر لنبي يوحى اليه، أو لمن يعرف منازل القمر. فإذا كان غيم يقوم أول الليل ثم ينام، وهذا أشد الأعمال وأفضلها، فتكون له قومتان ونومتان. وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو طريقة ابن عمر وأولى العزم من الصحابة والتابعين.

السادسة: وهي الأقل ــ أن يقوم قدر أربع ركعات أو ركعتين، أو يتعذر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة مشتغلاً بالذكر والدعاء، فيكتب في جملة قيام الليل برحمة الله وفضله. وقد جاء في الأثر: صل من الليل ولو قدر حلب الشاة.

السابعة: أن يقوم بين العشاءين، ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر، وهي أدنى المراتب و يقوم طرفي الليل فقط.

ثم اعلم: أن الليالي التي يحسن احياؤها خمس عشرة ليلة في السنة: ست منها في رمضان هي أوتار العشر الأخير ــ اذ فيها تطلب ليلة القدر، وليلة سبعة عشر من رمضان ــ وهي التي صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر. وقيل: هي ليلة القدر. وأما الثماني الأخر: فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه. وهي ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة. قال صلى الله عليه وسلم: «للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة»؛ فمن صلى فيها اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل منها ــ بعد الفاتحة ــ سورة من القرآن، و يتشهد في كل ركعتين،

ويسلم في آخرهن، ثم يقول: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ــ مائة مرة، ويستغفر الله مائة مرة، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة، ويدعو لنفسه ما شاء من أمر دنياه وآخرته، ويصبح صائماً، فإن الله يستجيب دعاءه كله الا أن يدعو في معصية.

فأما ليلة النصف من شعبان: فيصلي فيها مائة ركعة، ويقرأ ــ بعد الفاتحة ــ سورة الاخلاص عشر مرات كانوا لا يتركونها.

وليلة عرفة وليلة العيدين: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أحيا ليلة العيد لم يمت قلبه يوم تموت القلوب».

وأما الأيام الفاضلة: فهي تسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها؛ يوم عرفة؛ ويوم عاشوراء؛ ويوم سبعة وعشرين من رجب له شرف عظيم ــ وفي الحديث: «من صام فيه كتب الله له صيام ستين شهراً». وهو يوم هبط فيه جبريل بالرسالة على محمد صلى الله عليه وسلم؛ ويوم سبعة عشر من رمضان: وفيه كانت وقعة بدر؛ ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوم العيدين، والأيام المعلومات وهي عشر ذي الحجة، والأيام المعدودات وهي أيام التشريق.

ومن فواضل الأيام في الأسبوع الأثنين والخميس، ترفع فيها الأعمال الى الله عز وجل. والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

الشعبة الثانية

في العادات

ويتفرع ذلك عن عشرة أصول:

الأصل الأول

في آداب الأكل

وفيه مطالب:

المطلب الأول

في أحوال المنفرد

وهي ثلاثة أقسام:

القسم الأول

في آدابه قبل الأكل

وهي سبعة:

الأول: أن يكون الطعام حلالاً في الشرع في نفسه ومن جهة كسبه، وطيباً في الورع. وستعرف معنى الحلال الطيب، وهو من الفرائض وأصول الدين.

الثاني:-غسل اليد قبل الطعام وبعده، قال صلى الله عليه وسلم: «الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم».

الثالث: أن يوضع الطعام على السفرة دون الخوان والموائد، لأنه أقرب الى التواضع وأوفق للسنة، وان جاز الأكل على غيرها أيضاً.

الرابع: أن يحسن الجلسة: بأن يجثو على ركبتيه، ويجلس على ظهر قدميه، أو ينصب رجله اليمنى على اليسرى. كذا فعل صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: «أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد». و يكره قائماً ومتكئاً، الا ما يتنقل به من الحبوب والشرب متكئاً مكروه و يضر المعدة.

الخامس: أن ينوي بأكله أن يتقوى على الطاعة ليكون أكله عبادة، ولا يقصد التلذذ والتنعم، و يعزم على التقليل، اذ الشبع يمنع العبادة و به يعرف كون نيته قصد العبادة بأن لا يمد يده الا وهو جائع و يرفعه قبل الشبع. ومن فعل كذلك استغنى عن الطبيب وأقوى على العبادة. وأدنى درجات الأكل وأوسطه ما ورد في الحديث: «ما ملأ آدمي وعاء شر من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس».

السادس: أن يرضى بالموجود و يقنع بالحاضر ولا ينتظر الزيادة؛ مثلاً اذا حضر الخبز لا ينتظر الادام.

السابع: أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده لأن فيه البركة. وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده.

القسم الثاني
في آداب حالة الأكل

وهو: أن يبتدىء ببسم الله ويختم بالحمد لله، بل يقول مع اللقمة: بسم الله، ومع الثانية: بسم الله الرحمن الرحيم، ولو قال مع كل لقمة: بسم الله لكان أحسن لئلا يصده الشره عن ذكر الله؛ ويجهر ليذكر غيره، و يأكل باليمين. و يبدأ بالملح ويختم به، و يصغر اللقمة ويجود مضغها، وما لم يبتلعها لم يمد يده الى الأخرى، فإن ذلك عجلة مذمومة. وأن لا يذم مأكولاً وأن يأكل مما يليه الا الفاكهة لأنه ليس نوعاً واحداً، وأن لا يأكل من ذروة القصعة ولا من

وسط الطعام، بل يأكل من استدارة الرغيف، الا اذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطعه ولا اللحم بالسكين. ولا يضع على الخبز قصعة ولا غيرها الا ما يؤكل به، ولا يمسح يده بالخبز اذ ورد الأمر في الحديث بأكرام الخبز وأنه من بركات السماء. واذا كان باللقمة أذى فليمط ذلك وليأكل ولا يدعها للشيطان، والا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فأنه لا يدري في أي طعامه البركة. وورد النهي عن النفخ في الطعام الحار بل يصبر الى أن يسهل أكله. و يأكل من التمر وتراً: سبعاً أو تسعاً أو احدى عشرة أو احدى وعشرين أو ما اتفق، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق ولا في كفه بل يجمعه على ظهر كفه ثم يلقيها، وكذا ماله عجم أو ثقل، وأن لا يكثر الشرب أثناء الطعام الا اذا غص بلقمة أو صدق عطشه. و يقال: ان ذلك مستحب طباً لأنه دباغ المعدة.

وأما الشراب: فأدابه أخذ الكوز بيمينه، و يقول: بسم الله، و يشربه مصاً لا عباً ولا قائماً ومضطجعاً. و يراعي أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه، و ينظر في الكوز قبل الشرب، ولا يتجشأ في الكوز بل ينحيه عن فيه بالحمد و يرده بالتسمية. و يشرب في ثلاثة أنفاس، ويحمد كل مرة في أواخرها و يسمى في أوائلها، و يقول في آخر النفس الأول: الحمد لله، وفي الثاني: يزيد رب العالمين، وفي الثالث: يزيد الرحمن الرحيم. والكوز كل ما يدار على القوم يدار يمنة. كذا أورده السنة. وقال صلى الله عليه وسلم بعد الشرب: «الحمد لله الذي جعله عذباً فراتا برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا».

القسم الثالث
في الآداب بعد الطعام

وهو: أن يغسل يده بعد لعق أصابعه و يلتقط فتات الطعام؛ قال صلى الله عليه وسلم: «من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده».

وقيل: أنه مهور الحور العين. ويخلل أسنانه و يرمي ما خرج الا ما يجتمع

بين أصول أسنانه فخرج بلسانه، وليتمضمض بعد الخلال، وأن يلعق القصعة، وأن يشكر على الطعام بقلبه.

وان أكل حلالاً قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات، اللهم اطعمنا طيباً واستعملنا صالحاً. وان أكل شبهة فيقول: الحمد لله على كل حال، اللهم لا تجعله قوة لنا على معصيتك. و يقرأ بعد الطعام «قل هو الله أحد» و «لايلاف قريش» ولا يقوم قبل رفع المائدة.

وان أكل طعام غيره فليقل: اللهم بارك له فيما رزقته، و يسر له أن يفعل منه خيراً، وقنعه بما أعطيته، واجعلنا واياه من الشاكرين.

وان أكل طعام غيره فليقل: اللهم بارك له فيما رزقته، و يسر له أن الابرار، وصلت عليكم الملائكة.

وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبهة ليطفىء بدموعه وحزنه حر النار التي تعرض لها بقوله صلى الله عليه وسلم: «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به». وليس من يأكل و يبكي كمن يأكل و يلهو. وليقل اذا أكل لبناً خاصاً به «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه». وخص رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء باللبن لعموم نفعه.

وان أكل غير اللبن قال: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وأرزقنا خيراً منه. و يستحب عقيب الطعام أن يقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، سيدنا ومولانا يا كافي من كل شيء ولا يكفي منه شيء، أطعمت من جوع وآمنت من خوف فلك الحمد، آو يت من يتم وهديت من ضلالة وأغنيت من عيلة، فلك الحمد حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركاً فيه كما أنت أهله ومستحقه. اللهم كما أطعمتنا طيباً فاستعملنا صالحاً، اللهم اجعله عوناً لنا على طاعتك ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك.

وأما كيفية غسل اليد بالاشنان: أن يجعله على كفه اليسرى و يغسل الأصابع الثلاث من اليد اليمنى أولاً، و يضرب أصابعه على الاشنان اليابس

فيمسح به شفتيه، ثم ينعم غسل الفم بأصبعيه، و يدلك ظاهر أسنانه و باطنها والحنك واللسان، ثم يغسل أصابعه ظهراً و بطناً، و يستغنى بذلك عن اعادة الاشنان الى الفم واعادة غسله.

المطلب الثاني
في آداب الجماعة في الأكل

وهي سبعة:

الأول: أن لا يبتدىء قبل من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل، الا أن يكون المقتدى فيعجل لئلا ينتظر فيعجل.

الثاني: أن لا يسكتوا بل يتكلمون بالمعروف وحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها وانما السكوت من فعل الأعاجم.

الثالث: أن لا يأكل زيادة على رفيقه فإن ذلك حرام ان لم يرض رفيقه به والطعام مشترك، بل يقصد الايثار، ولا يأكل تمرتين في دفعة الا اذا استأذنهم وفعل الكل، و ينشط رفيقه و يرغبه في الأكل ان قلل، و يقول ولا يزيد على ثلاث لئلا يكون الحاحاً، ولا يحلف عليه بالأكل لما قال الحسن بن علي: الطعام أهون من أن يحلف عليه.

الرابع: أن لا يحوج رفيقه الى أن يقول له: كل ويحمل عنه مؤونة القول، ولا يدع ما يشتهيه فانه تصنع ورئاء بل يجري على المعتاد، ولا ينقص عن عادته في الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع، الا أن يقلل ايثاراً لأخوانه ونظراً لهم عند الحاجة لأنه حسن. وان زاد في الأكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم فلا بأس به بل هو حسن.

الخامس: غسل يده في الطشت، واذا قدمه اليه غيره اكراماً له فلقبله، كما قدم أنس إلى ثابت فأمتنع، فقال أنس: اذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها اليه فإنما يكرم الله عز وجل.

ويروي: أن الرشيد صب على يد أبي معاوية الضرير، ثم قال: يا أبا معاوية، تدري من صب على يدك، قال: لا، صبه أمير المؤمنين فقال يا أمير المؤمنين انما أكرمت العلم وأجللته، فأجلك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله.

وينبغي أن يجمعوا الماء في الطشت، لأنه أقرب إلى التواضع وأبعد عن التشبه بالعجم. وأما الخادم: فقد ذكره بعضهم أن يصب الماء قائماً، وكره بعضهم جلوسه، وأما وضع الخادم لذلك ليس بتكبر اذا كانت له نية صالحة، اذ الحاجة قائمة والعادة جارية.

وفي الطشت سبعة آداب: ان لا يبزق فيه، وأن يقدم المتبوع، وأن يقبل الاكرام بالتقديم، وأن يدار يمنة، وأن يجتمع فيه جماعة، وأن يجمع الماء فيه، وأن يكون الخادم قائماً، وأن يمج الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه. ويصب صاحب المنزل الماء على يد ضيفه، هكذا فعل مالك على الشافعي في أول نزوله عليه، وقال: لا يروعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض.

السادس: أن لا يراقب أكل صاحبه بل يغض بصره عنهم، ويشتغل بنفسه لئلا يستحيوا، ولا يمسك قبل أخوانه الا اذا كانوا لا يحتشمون الأكل بعده بل يتوقف أولاً ثم يأكل.

السابع: أن لا يفعل ما يستقذره غيره: بأن ينفذ يده في القصعة، أو يخرج شيئاً من فيه. وان احتاج اليه يصرف وجهه عن الطعام وأخذه، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة، ولا يغمس ما قطعه بسنه في المرقة والخل ولا يتكلم بالمتقذرات.

المطلب الثالث

في آداب تقديم الطعام إلى اخوانه الزائرين

وله فضل كثير. وفي الخبر: لا يحاسب العبد على ما يأكله مع أخوانه، وكذا على السحور وما أفطر عليه.

وكان الصحابة يقولون: الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق. وكانوا يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون الا عن ذواق.

وأما آدابه: أن لا يدخل وقت الأكل بلا اذن؛ وفي الخبر: من مشى الى الطعام لم يدع اليه مشى فاسقاً وأكل حراماً. وأما اذا كان جائعاً فقصد بعض أخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به، اذ فيه اعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الاطعام. وكان ذلك عادة السلف، قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعاً، وكان لعون بن عبد الله المسعودي ثلاثمائة وستون صديقاً يدور عليهم في السنة، ولآخر ثلاثون يدور عليهم في الشهر، ولآخر سبعة، فكان أخوانهم يعولونهم بدلاً من كسبهم، وهم كانوا يتبركون باطعامهم.

فإن دخل ولم يجد صاحب الدار ــ وكان واثقاً بصداقته عالماً بفرحه ــ فله أن يأكل بغير اذنه، اذ المراد من الأذن الرضا لا سيما في الأطعمة؛ وأمرها على السعة: فرب رجل يصرح بالأذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه، ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب. وقال تعالى ﴿أو صديقكم﴾ وقد فعله السلف.

وأما آداب التقديم: فترك التكلف أولاً وتقديم ما حضر، ولا يستقرض لأجله. وان لم تسمح نفسه فلا يقدم وان رأى المحتاج.

والتكلف هو: ان تزيد ما تأكله في الجودة والقيمة، وانما يكره لأدائه الى كراهة الزائر وملله وانقطاعه عن المجيء اليه.

ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فيؤذي عياله، وكان السلف يقولون: لا ندري أيهما أعظم وزراً: الذي يحتقر ما يقدم عليه، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه.

ومن الآداب: أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء فربما يشق على المزور احضاره، فإن خيره أخوه بين طعامين فليختر أيسرهما عليه، كذلك ألسنة الا اذا علم أنه يتيسر له أولاً يكره له الاقتراح.

ومن الآداب: أن يشهي المزور أخاه الزائر و يلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح، فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل. وكذا لا يقول له: هل أقدم لك طعاماً بل يقدم ان كان، فإن أكل والا فارفع.

المطلب الرابع
في آداب الضيافة

وكانت الضيافة سنة ابراهيم الخليل، وكان يكنى: أبا الضيفان. وكان اذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يتغذى معه، ولصدق نيته فيها دامت ضيافته في مشهده. ونقل عن قوام الموضع أنه لم يخل الى الآن ليلة عن ضيف. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الايمان، فقال: اطعام الطعام و بذل السلام.

وفيها ستة آداب:

أحدها: الدعوة. فيدعو الأتقياء دون الفساق، وقد ورد في الحديث: «أكل طعامكم الأبرار»، في الدعاء لمن دعاه. و يقصد الفقراء ولا يخص الأغنياء؛ وفي الحديث: «شر الطعام طعام الوليمة يدعى اليه الأغنياء و يذاد عنه الفقراء».

و ينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته فإن اهمالهم ايحاش وقطع رحم. وكذا يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه لأن تخصيص البعض ايحاش الباقين.

وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الأخوان، والتسنن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اطعام الطعام وادخال السرور على قلوب المؤمنين. ولا يدعو من يعلم أنه يشق الاجابة عليه، واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب ولا يدعو الا من يحب اجابته.

وثانيها: الاجابة. فهي سنة مؤكدة وقيل بوجوبها في بعض المواضع؛ وفي الحديث: «لو دعيت الى كراع لأجبت ولو أهدى إليَّ ذراع لقبلت».

ولها آداب خمسة:

الأول: أن لا يميز الغني بالاجابة عن الفقير لأن ذلك تكبر، الا اذا دعي فخراً أو تكلفاً فليعلل ولا يجيب. ولذلك قال بعض الصوفية: لا تجب الا دعوة من يرى انك أكلت رزقك، وانه سلمه اليك وديعة كانت لك عنده، ويرى لك الفضل عليه في قبول الوديعة منه.

الثاني: لا يمتنع عن الاجابة لبعد المسافة، ومقدار مسافة الاجابة معلوم من العرف والعادة. وقيل: يجيب اذا كان قدر ثلاثة أميال.

الثالث: أن يحضر ولو صائماً تطوعاً، ولينو ادخال السرور على قلب أخيه فانه أفضل منه، الا اذا علم من الداعي تكلفاً فيتعلل، واذا لم يفطر فضيافته الطيب والحديث الطيب.

الرابع: أن يمتنع من الاجابة ان كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط المفروش، أو كان في مكان منكر: من فرش ديباج، أو اناء فضة، أو تصوير حيوان، أو سماع الملاهي، أو الهزل أو اللعب، فإن الاجابة عند هذه محرمة أو مكروهة، وكذا اذا كان الداعي ظالماً أو مبتدعاً أو فاسقاً أو شريراً أو متكلفاً طلباً للمباهاة والفخر.

الخامس: أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن بل الاقتداء بالسنة.

وفي الحديث: «لو دعيت الى كراع لأجبت»؛ وينوي التحرز عن المعصية، وفي الحديث: «من لم يجب الداعي فقد عصى الله»؛ وينوي اكرام

أخيه المؤمن لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله»؛ و ينوي ادخال السرور في قلبه لقوله صلى الله عليه وسلم: «من سر مؤمناً فقد سر الله»؛ و ينوي أيضاً سنة الزيارة.

ثالثها: آداب الحضور. فيدخل بلا تصدر، بل يتواضع، ولا يطول عليهم الانتظار، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل استعدادهم، ولا يزاحم الحاضرين في المكان بل يجلس حيث يأمر صاحب الدعوة، ولا يجلس مقابلة حجرة النساء، ولا يكثر النظر الى موضع خروج الطعام فأنه من الشره، ويخص من يقرب منه بالتحية اذا جلس.

واذا بات الضيف في منزله فليعرفه القبلة وموضع الطهارة والوضوء، و يغسل رب البيت يده أولاً قبل الطعام و بعده يتأخر، واذا رأى في البيت منكراً غيره ان قدر، والا أنكر بلسانه وانصرف ــ كفرش الديباج وأواني الفضة والذهب والتصوير والملاهي وحضور النساء المكتشفات الوجوه؛ ومنها: ستر الحيطان بالديباج ــ وعند البعض لا يحرم اذ الحرمة للرجال والجدار ليس منهم، وأما النظر فلا يحرم كما اذا لبس الحرير الجواري.

ورابعها: احضار الطعام. وله آداب خمسة:

الأول: تعجيل الطعام فإن ذلك سنة.

الثاني: ترتيب الأطعمة. فتقديم الفاكهة أولى شرعاً وطبعاً، ثم اللحم والثريد لأن له فضلاً على سائر الأطعمة؛ وفي الحديث: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». فإن جمع اليه حلاوة فقد جمع الطيبات، وتمامها بشرب الماء البارد والماء الفاتر في غسل اليد. قال المأمون: الماء المثلوج يخلص الشكر لله وزينة المائدة بالبقول لخضرتها.

و يستحب أيضاً أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستكفي منها من يريد و يكثر الأكل بعده. وعادة المترفهين تقديم الغليظ ليكثر من اللطيف بعده، وهو خلاف السنة، فإنه حيلة في استكثار الأكل. ومن سنة المتقدمين أن يقدموا

الألوان جملة دفعة ليأكل كل واحد مما يشتهي، وأن لم يكن عنده الا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا ينتظروا أطيب منه.

الرابع: أن لا يبادر الى رفع الألوان بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي. وأيضاً لا يرفع يده قبل الضيوف بل يكون آخرهم رفعاً.

الخامس: أن يقدم قدر الكفاية اذ النقص منه نقص في المروءة، والزيادة عليه تصنع الا ان يطيب نفسهم بأكلهم الجميع؛ وفي الحديث أنه لا يحاسب عليه. وعن ابراهيم بن أدهم: ليس في الطعام سرف.

وينبغي أن يعزل نصيب أهل بيته لئلا تطمع أعينهم الى رجوع شيء منه، فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتنطلق في الضيوف ألسنتهم. وأيضاً رفع الزلة حرام، الا اذا صرح بالاذن صاحب الطعام، أو علم أنه لا يكره ذلك، ومع ذلك أيضاً فلا يخص نفسه بما لا يرضي به رفيقه.

خامسها: الانصراف وله آداب ثلاثة:

الأول: من سنة الضيف أن يشيع الى باب الدار ــ كذا ورد في الحديث، وذلك من اكرام الضيف، وقد أمرنا به. وتمام الأكرام: طلاقة الوجه، وطيب الكلام عند الدخول والخروج، وعلى المائدة.

والثاني: أن من التواضع أن ينصرف الضيف طيب النفس وان جرى في حقه تقصير. يحكى أن أستاذ الجنيد دعاه صبي الى دعوة أبيه، فرده الأب في أربع مرات، وهو يرجع في كل مرة تطيباً لقلب الصبي في الحضور ولقلب الأب في الانصراف. فهذه النفوس اطمأنت بالتوحيد وترى الكل من الله الواحد القهار فيتذلل له بالتواضع.

والثالث: أن لا يخرج الا برضا صاحب المنزل وأذنه، و يراعي قلبه في قدر الاقامة. واذا نزل ضيفاً فلا يقيم فوق ثلاثة أيام لئلا يتبرم به ويحتاج الى اخراجه؛ الا اذا ألح رب المنزل عن خلوص قلب فله المقام اذ ذاك.

الأكل في السوق دناءة، وجوزه البعض، والحق أنه يختلف باختلاف البلاد والعادات وتفاوت أحوال الأشخاص.

قال علي كرم الله وجهه: من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء، ومن أكل كل يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه، ومن أكل كل يوم احدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسمه شيئاً يكرهه، واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، والشفارجات تعظم البطن وترخي الانثيين، ولحم البقر داء ولبنها وسمنها شفاء، والشحم يخرج مثله من الداء، ولن تستشفى النفساء بشيء أفضل من الرطب، والسمك يذيب الجسد، وقراءة القرآن والسواك يذهب البلغم. ومن أراد البقاء —ولا بقاء— فليباكر الغداء وليقلل غشيان النساء وليخفف الرداء وهو الدين.

وعن بعض الحكماء: لا تنكح الا فتاة، ولا تأكل الا فتياً، ولا تأكل ما لم ينضج طبخه، ولا تشرب دواء الا من علة، ولا تأكل من الفاكهة الا نضيجها، ولا تأكل طعاماً الا أجدت مضغه، وكل ما أحببت من الطعام ولا تشرب عليه، فإذا شربت فلا تأكل منه شيئاً، ولا تحبس الغائط والبول. فإذا أكلت بالنهار فنم، واذا أكلت بالليل فأمش قبل أن تنام ولو مائة خطوة، وفيه تقول العرب: تغد تمد تعش تمش؛ كما قال تعالى: ﴿ذهب الى أهله يتمطى﴾ (١) أي يتمدد. وقيل: حبس البول يفسد الجسد افساد النهر ما حوله اذا سد مجراه. وفي الخبر: قطع العروق مسقمة، وترك العشاء مهرمة.

ومن الفوائد الجليلة: الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها بالمريض؛ وقيل: الحمية مستحسنة. والحق أن الحمية من المضرات نافعة للبدن بلا شك، وانما التي تمنع هي الحمية التي يعتادها البدن، فإذا تغير عنها ولو بشيء قليل يتضرر بها البدن.

---

(١) سورة القيامة، آية: ٣٣.

ويستحب أن يحمل الطعام الى أهل الميت وهو سنة الا ما يهيأ للنوائح والمغنيات فلا يأكل معهن وكذا طعام الظلمة.

وقيل: اذا صح التوكل لا يضر حمل الطعام معه، واذا صحت النية لا يضر التوسع في الطعام، وقد أمر أبو علي الروذباري فصنعوا له الحلاوى من أحمال السكر على هيئة أبنية ومحاريب وأعمدة، ثم أمر وانتهبها الصوفية.

قال الشافعي: الأكل على أربع أنحاء: الأكل بأصبع من المقت، وبأصبعين من الكبر، وبثلاث من السنة، وبما زاد من الشره. وقال: أربع تقوى البدن: أكل اللحم والطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، ولبس الكتان؛ وأربع تقوى البصر: الجلوس في حيال القبلة، والكحل عند النوم، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف الملبس؛ وأربع توهن البصر: النظر الى القذر، والنظر الى المصلوب، والنظر إلى فرج المرأة، والقعود في استدبار القبلة؛ وأربع تزيد الجماع: أكل العصافير، وأكل الاطريفل الأكبر، وأكل الفستق، وأكل الجرجير. والنوم على أربع أنحاء: نوم الأنبياء وهو النوم على القفا يتفكرون في خلق السموات والأرض، ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك لهضم طعامهم، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين. وأربع تزيد في العقل: ترك فضول الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين والعلماء. وأربع من العبادة: لا يخطو خطوة الا على وضوء، وكثرة السجود، ولزوم المساجد، وكثرة قراءة القرآن. وقال أيضاً: عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت، وعجبت لمن احتجم ثم يبادر الأكل كيف لا يموت. وقال: لم أر شيئاً أنفع في الوباء من البنفسج يدهن به ويشرب.

الأصل الثاني
في آداب النكاح

وفيها مطالب:

المطلب الأول
في الترغيب فيه وعنه

واختلف فيه. قال بعضهم: انه أفضل من التخلي لعبادة الله تعالى، وبعضهم عكس، لكن لمن ليس له توقان يشوش حاله. وقيل: الأفضل الترك في هذا الزمان. وبيان الحق فيه يتوقف على تفصيل أمر التفضيل.

أما الترغيب فيه فبقوله تعالى: ﴿وانكحوا الأيامى منكم﴾[1] وهذا أمر؛ وبقوله صلى الله عليه وسلم: «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»؛ وقال: «من ترك التزويج مخافة العيلة فليس مني».

وكان ابن مسعود يقول: لو لم يبق من عمري الا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزباً. قال سفيان بن عيينة: كثرة النساء ليس من الدنيا، لأن علياً رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية، فالنكاح سنة ماضية وخلق من أخلاق الأنبياء.

---

(١) سورة النور، آية: ٣٢.

وقيل: فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد، وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب.

وأما الترغيب عنه فبقوله صلى الله عليه وسلم «خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد». وفي الخبر: قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين. وقال الحسن: اذا أراد الله بعبد خيراً لم يشغله بأهل ولا مال.

وقد ظهر من مساق ما قدمناه أن ما نقل في الترغيب عنه مشروط بشرائط بخلاف الترغيب فيه.

المطلب الثاني
في فوائد النكاح

وهي خمس:

الأولى: الولد. وهو الأصل الذي وضع لأجله النكاح لئلا يخلو العالم من جنس الأنس، وانما الشهوة للتلطف في السياقة الى اقتناص الولد. ولما اقتضت الحكمة الأزلية ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها، لعدم قصور القدرة الأزلية عن ايجاد الأشخاص ببعد الوقاع، قدر الولد بالأزدواج اتماماً لعجائب الصنعة، وتحقيقاً لما سبقت به المشيئة، وحققت به الكلمة، وجرى به القلم.

في تحصيل الولد قربة من أربعة أوجه:

أحدها: فضل النكاح والأمن من غوائل الشهوة، وموافقة محبة الله في السعي لبقاء جنس الانسان.

وثانيها: طلب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم من يباهي به.

وثالثها: طلب التبرك بدعاء الولد الصالح له بعده.

ورابعها: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير اذا مات قبله.

أما الوجه الأول فهو أدق الوجوه وأبعدها عن افهام الجماهير، وهو أقواها عند ذوي البصائر النافذة في عجائب صنع الله ومجاري حكمته. وذلك لأن الله تعالى خلق أعضاء الحراثة وأعضاء مهيأة لها، وخلق البذر، وسلط متقاضي الشهوة على كل واحد من الزوجين. فمن له بصيرة نافذة يفهم من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط الهي ــ ليس برقم حروف وأصوات ــ ان الصانع الحكيم أراد من عباده الأولاد والنسل. ولذلك عظم الشرع الرأد، سيما وقد صرح بالأمر وباح بالسر بأن قال: تناكحوا تكثروا.

واياك أن تتوهم التنافي بين محبة الله تعالى وارادة فنائهم، لأن ارادة الفناء يمكن جمعها مع كراهته، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه عز وجل: «ما ترددت في شيء وأنا أكره مساءته ولا بد منه». وفي قوله: ولا بد من الموت أشارة الى سبق الارادة والتقدير المذكور في قوله تعالى: ﴿نحن قدرنا بينكم الموت﴾ [1]؛ وقوله عز وجل هو: ﴿خلق الموت والحياة﴾ [2].

وتحقيق هذا المقام خارج عن طوق هذا المختصر، لأنها داخلة في علوم المكاشفة، ووراءها سر القدر الذي منع الشرع عن افشائه. فظهر من هذا ان من رغب عن النكاح فقد ضيع نسلاً أدام الله وجوده من آدم عليه السلام، عقب بعد عقب إلى أن انتهى اليه، حتى ختم الوجود المستدام من وجود آدم على نفسه، فمات أبتر لا عقب له.

الوجه الثاني: من محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلمباهاته بكثرة أمته حتى قال: «خير نسائكم الودود الولود»؛ وقال: «سوداء ولود خير من حسناء لا تلد». هذا يدل على أن الأصل من التزوج الولد دون الشهوة، لأنها أكمل في الحسناء وأنها أملح للتحصين وغض البصر.

---

(١) سورة الواقعة، آية: ٦٠.

(٢) سورة الملك، آية: ٢.

الوجه الثالث: أن يبقى له ولد يدعو له كما ورد في الخبر: ان «جميع عمل ابن آدم ينقطع الا ثلاثاً: ولد صالح يدعو له» الحديث.

الوجه الرابع: أن يموت الولد قبله فيكون شفيعاً، والأخبار في ذلك كثيرة.

الفائدة الثانية: التحصن عن الشيطان، وكسر التوقان، ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر، وحفظ الفرج. واليه وقعت الاشارة في الحديث بقوله صلى الله عليه وسلم: «من نكح فقد أحرز نصف دينه فليتق الله في الشطر الآخر.

وأعلم أن هذه الفائدة دون الفائدة الأولى، لأن الغاية الأخيرة أشرف من الغاية المتقدمة، الغاية الأخيرة هي الولد والمتقدمة هي اللذة.

ومع ذلك ففي اللذة مصلحة أخرى باطنة سوى المصلحة الظاهرة التي هي الولد، وذلك: أن تستدل المناكح بهذه اللذة العظيمة السريعة الانقطاع الى اللذة الدائمة التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لتكون باعثة على عبادة الله تعالى.

فأنظر الى هذه الحكمة ثم الرحمة ثم النعمة الالهية كيف غيبت تحت شهوة واحدة حياتين: حياة ظاهرة وهي بقاء النسل، وحياة باطنة وهي التوسل الى لذة الآخرة. سبحان من لم يجعل ذرة من ذرات ملكوت السموات والأرض الا جعل تحتها من لطائف الحكم وعجائبها ما تحار فيها العقول، وانما ينكشف للقلوب الطاهرة الصافية الراغبة عن زهرة الدنيا وغرورها وأغوالها.

الفائدة الثالثة: النظر الى وجهها والملاعبة معها، لأن في ذلك اراحة للقلب وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول في الأمور، وهي عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة جمحت وتأبت، واذا روحت باللذات المباحة في بعض الأوقات قويت ونشطت. وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويروح القلب. وفي الخبر: على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه فإن هذه الساعات عون على تلك الساعات.

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، اذ التكفل بجميع أشغال المنزل يضيع أكثر الأوقات ولم يفرغ للعلم والعمل. ولذلك قيل: المرأة الصالحة ليست من الدنيا. قال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿ربنا آتنا في الدنيا﴾(١) قال: المرأة الصالحة.

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في اصلاحهن وارشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، اذ ليس من اشتغل باصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل باصلاح نفسه فقط، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة، وان الرجل ليؤجر في رفع اللقمة الى في «امرأته»؛ وفي حديث آخر: «أن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال».

وأعلم: أن هذه الفائدة للعابدين، وأما أرباب القلوب فربما يشغلهم العيال عن الكمال.

المطلب الثالث
في آفات النكاح

وهي ثلاثة:

الأولى: أقواها العجز عن طلب الحلال، فإن المتأهل ربما يتبع هوى زوجته، والحلال ربما يعز عليه، فيبيع آخرته بدنياه. ويقال: ان أهله وعياله يكونون خصماء له في القيامة، بأنه أطعمنا الحرام ونحن لا نعلمه، ولذا قال ابن سالم: ترك التزوج أفضل في زماننا هذا الا لمن له شبق كشبق الحمار ولا يملك نفسه أصلاً.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠١.

الآفة الثانية: القصور عن القيام بحقوقهن والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن، وفي هذا أيضاً خطر لأن كل أحد راع ومسؤول عن رعيته. الا أن هذه أيسر من الآفة الاولى، ومع ذلك فهي آفة عظيمة لا يسلم منها الا حكيم عاقل يتغافل عن زللهن و يداري أخلاقهن، اذ الأغلب عليهن السفه والفظاظة والحدة والطيش وسوء الخلق وعدم الانصاف مع طلب تمام الانصاف.

الآفة الثالثة: وهي دون الأولين. أن يكون الولد والأهل شاغلين له عن الله تعالى، وجاذباً الى طلب الدنيا وتدبير حسن المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم، وطلب التفاخر والتكاثر. ولست أعني المال الحرام فإن ذلك مما اندرج تحت الأولين، بل التنعم بالمباح والامعان في ملاعبة النساء والأولاد ولا يتفرغ للفكر في الآخرة والاستعداد لها.

اذا عرفت مجامع الفوائد والآفات في النكاح فأعتبر هذه الفوائد والآفات، واعرض نفسك عليها، فإن اتفقت في حقه الآفات: بأن يكون شاباً محباً محتاجاً الى التحصين، ومنفرداً محتاجاً الى تدبير المنزل، فأنظر ان اجتمعت في حقه الفوائد: من المال والخلق الحسن، وعدم صد النكاح اياه عن الشغل بالله فعليه النكاح. فإن اتفقت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له. وان بعض الفوائد مع بعض الآفة فعليه أن يوزن بالميزان القسط، فأيها أرجح فالحكم له. مثلاً: من ليس له حاجة الى كسر الشهوة وكان حظه الولد فقط ولم يتيسر له الكسب الحلال فالعزوبة أفضل، لأن عدم الولد خير من الطعام الحرام. وأما ان خاف الزنا مع الكسب الحرام فالنكاح أولى. وأما اذا خاف النظر الحرام مع الكسب الحرام فالعزوبة أولى، لأن النظر يقع أحياناً فهو أهون الشرين. وان أمن النظر أيضاً ولكن لم يقدر على دفع وسواس الجماع فالعزوبة أولى، لأن عمل القلب أقرب الى العفو من القوت الحرام.

فإن قلت: فمن أمن الآفات كلها فالأفضل له التخلي للعبادة أو النكاح، قلت: يجمع بينهما ان كان من العباد، لأن الكسب الحلال لأجل العيال عبادة. وان كان من أهل القلوب يشوشه طلب المعاش فالتخلي أفضل له.

فإن قلت: فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله، ولم استكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج مع أن التخلي للعبادة أفضل، قلت: الكلام في مثل هذه المواضع لا يليق بأمثالنا، الا أن بعضاً من العلماء قال: الجمع أفضل لمن قويت منته وعلت همته وتشمر لذلك، كما فعله نبينا صلى الله عليه وسلم حتى كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته. أما عيسى عليه السلام ــ وان كان الظن به القدرة على الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة ــ لكن لعله عمل بالحزم ولم يتشمر لذلك، أوعز في زمانه طلب الحلال. والله أعلم بأسرار أحوالهم.

المطلب الرابع
في شروط العقد

وهي أربعة:

الأول: اذن الولي فإن لم يكن فالسلطان.

الثاني: رضا المرأة.

الثالث: الشاهدان.

الرابع: ايجاب وقبول.

وتفاصيل هذه الشروط في كتب الفقه.

وأما آدابه: فتقديم الخطبة مع الولي بعد العدة بلا خطبة من الغير، والخطبة قبل النكاح، ومزج التحميد والصلاة بالايجاب والقبول أيضاً، وأن يلقي أمر الزوج الى سمع الزوجة، كما يستحب نظر الزوج اليها قبل النكاح ليكون أحرى أن يؤدم بينهما، واحضار جمع أهل الصلاح سوى الشاهدين.

ومنها: أن ينوي بالنكاح اقامة السنة وغض البصر وطلب الولد وسائر الفوائد لا مجرد الهوى لئلا يصير من عمل الدنيا.

المطلب الخامس
في أحكام المنكوحة

وهي نوعان:

الأول: ما يعتبر فيها الحل وموانعه تسعة عشر:

الأول: أن تكون منكوحة للغير.

الثاني: أن تكون معتدة للغير.

الثالث: أن تكون مرتدة.

الرابع: أن تكون مجوسية.

الخامس: أن تكون وثنية أو زندقية أو أهل اباحة.

السادس: أن تكون كتابية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فليست من نسب بني اسرائيل، فإذا عدمت كلتا الفضيلتين لم يحل نكاحها، وان عدمت النسب فقط ففيه خلاف.

السابع: أن تكون رقيقة والناكح حر قادر على طول الحرة.

الثامن: أن يكون كلها أو بعضها مملوكة للناكح ملك يمين.

التاسع: أن تكون ذات رحم محرمة للزوج.

العاشر: أن تكون محرمة بالرضاع.

الحادي عشر: أن تكون محرمة بالمصاهرة.

الثاني عشر: أن تكون خامسة في النكاح أو في العدة.

الثالث عشر: أن تجتمع في النكاح مع امرأة لو كانت ذكراً حرمت الأخرى عليه.

الرابع عشر: أن تكون مطلقة ثلاثاً للزوج.

الخامس عشر: أن لا تكون ملاعنة للزوج.

السادس عشر: أن لا يكون أحد الزوجين محرماً.
السابع عشر: أن تكون ثيباً صغيرة وفيه خلاف أبي حنيفة.
الثامن عشر: أن تكون دون البلوغ وفيه أيضاً خلاف أبي حنيفة.
التاسع عشر: أن تكون من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهن من أمهات المؤمنين، وذلك مما لا يوجد في زماننا هذا.

النوع الثاني: الخصال المطيبة للعيش.

وهي ثماني:

الأولى: أن تكون صالحة ذات دين، لأنها ان كانت ضعيفة الدين في نفسها وفرجها ازرت بزوجها، وسودت بين الناس وجهه، وتشوش بالغيرة قلبه، وتنغص بذلك عيشه؛ وكذا ان كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله.

الثانية: حسن الخلق. وذلك أصل معهم في طلب الفراغ والاستعانة على الدين، فأنها اذا كانت سليطة بذيئة اللسان سيئة الخلق كان ضررها أكثر من نفعها.

الثالثة: حسن الوجه؛ اذ الطبع لا يكتفي بالدميمة فيفوت غض البصر. والنهي عن التزوج للجمال كون الغرض الأصلي الجمال دون الدين لا أنه لا يطلب أصلاً.

الرابعة: أن تكون خفيفة المهر لأن ثقلها يفسد مقاصد النكاح وأيضاً يخالف السنة.

الخامسة: أن تكون ولوداً وقد مر.

السادسة: أن تكون بكراً، ففيها ثلاث فوائد: احداها: ان الأبكار تحب أزواجهن اذ الحب للحبيب الأول؛ ثانيتها: انهن مرغوبات عند الأزواج فإن بعض الطباع تنفر عن التي مستها يد غير يده؛ ثالثتها: أن البكر لا تحن الى الزوج الأول لما مر.

السابعة: أن تكون نسيبة من أهل الدين والصلاح، اذ للتربية مدخل عظيم في حسن الأخلاق.

الثامنة: أن لا تكون من قرابته القريبة فإن ذلك يقلل الشهوة، ومن ذلك يخلق الولد ضاوياً أي نحيفاً.

المطلب السادس
في آداب المعاشرة

وهي صنفان:

الأول: ما على الزوج. وهو اثنا عشر امراً:

احدها: الوليمة. وهي مستحبة. ويستحب التهنئة فيقول الداخل: بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما بخير. ويستحب اظهار النكاح. وفي الخبر: فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت.

وثانيها: حسن الخلق. وليس هو كف الأذى عنهن، بل احتمال الأذى منهن كما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم، ترحماً عليهن لقصور عقلهن، وكان آخر ما وصي به رسول الله صلى الله عليه وسلم: الاحسان اليهن — كذا ورد في الحديث.

وثالثها: أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة فهي التي تطيب قلوب النساء. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل الى درجة عقولهن في الأعمال والأخلاق، وذلك مشهور مذكور في كتب الأحاديث.

ورابعها: أن لا ينبسط في الدعابة الى درجة تسقط هيبته لأن ذلك يفسد خلقها، بل يراعي الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، وفي الحديث: «تعس عبد الزوجة».

قال الشافعي: ثلاثة ان أكرمتهم أهانوك وان أهنتهم أكرموك: المرأة

والخادم والنبطي؛ أراد ان محضت الاكرام ولم تمزجه بالغلظة. وبالجملة: قامت السموات والأرض بالعدل، كل ما جاوز حده انعكس على ضده، والغالب عليهن ركاكة العقل ولا يعتدل ذلك منهن الا بنوع لطف ممزوج بسياسة.

خامسها: الاعتدال في الغيرة: بأن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في اساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتتبع عورات النساء. الا أنه لا يدخل عليها الرجال ولا هي تخرج الى الأسواق ولا يخرجن الى المساجد الآن، وقد كن يخرجن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ الزمان قد تغير. وقد أذن لهن أن يخرجن في الأعياد خاصة ولكن لا يخرجن الا برضا أزواجهن، لكن يمنعن من الخروج الى النظارات ومجامع الناس لغلبة الفساد في زماننا.

واذا خرجن ينبغي أن يغضضن أبصارهن من وجوه الرجال ووجوههن في حقهن، كوجه الأمرد في حق الرجال، حيث يحل النظر اذا لم يحتمل الفتنة والا يكره.

سادسها: الاعتدال في النفقة والاقتصار، فلا يقتر ولا يسرف. وينبغي أن لا يستأثر عن أهله بمأكول طيب لأن ذلك خارج عن المعاشرة بالمعروف. واذا أكل يقعد كل العيال على مائدته، ولا يصف عندهم طعاماً لا يطعمهم. ويجب عليه أطعام عياله الحلال. ويجوز للمرأة التصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك وان لم يأذن لها بذلك صريحاً اذ الحال شاهد بالأذن.

وسابعها: أن يعلم زوجته أحكام الحيض وأحكام الصلاة، ويلقنها اعتقاد أهل السنة. وان لم يعلم الزوج ذلك فعليه أن ينوب عنها في السؤال، فإن لم يفعل فعليها الخروج للسؤال ويعصى الرجل بمنعها. وبعد تعلم الفرائض ليس لها طلب الفضل وحضور مجلس الذكر الا برضا زوجها.

وثامنها: أن يعدل بين نسوته ولا يميل إلى بعضهن، وان أراد السفر يقرع بينهن، وان لم يعدل بينهن جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل. كذا في الحديث. فيعدل في العطاء والمبيت، وأما الحب والوقاع فلا يدخل تحت الاختيار.

وتاسعها: في النشوز. وهذا ان كان من جانبها معاً، أو من الرجل، فلا بد من حكمين: أحدهما من أهله والآخر من أهلها، لينظرا بينهما و يصلحا أمرهما و ﴿ أن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ (١). وان كان من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً. ولكن ينبغي له التدريج في التأديب: يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع، أو انفرد عنها في الفراش وهجرها وهو في البيت من ليلة الى ثلاث، وان لم ينجع ضربها ضرباً غير مبرح، ولا يضرب وجهها، وله أن يهجرها في أمر الدين الى شهر أو عشر.

عاشرها: في آداب الجماع. و يستحب أن يبدأ باسم الله، و يقرأ: قل هو الله أحد، ولا يكبر ويهلل، و يقول: بسم الله العظيم العلي، اللهم أجعله ذرية طيبة ان كنت قدرت أن يخرج من صلبي. وفي الحديث: «لو أن أحدكم اذا أتى أهله قال: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان». واذا قربت من الانزال فقل في نفسك ولا تحرك شفتيك: الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً.. الآية.

وكان بعض أهل الحديث يكبر حتى يسمع صوته أهل الدار، و ينحرف عن القبلة اكراماً للقبلة. وليغط نفسه وأهله بثوب، و يغض صوته، و يأمر المرأة بالسكينة. وفي الخبر: لا يتجردان تجرد العيرين. وليقدم التلطف بالكلام والتقبيل، ولا يجامع في ثلاث ليال من الشهر: الأول والنصف والآخر، يقال ان الشيطان يحضر الجماع في هذه الليالي ولا يقوم عنها حتى تقضي وطرها من الرجل.

والعدل في الجماع ان يأتيها في كل أربع ليال، ولا حق لها دون الأربع اذ عدد النساء أربعة، ثم يزيد و ينقص بحسب الحاجة والقدرة. ولا يأتيها في الحيض لأنه حرام و يورث الجذام في الولد. و يستمتع بجميع بدن الحائض سوى الموضع المكروه في القبل والدبر، وله أن يستمنى ببدنها. وان أراد العود بعد

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٥.

الجماع يغسل فرجه ثم يعود، وكذا اذا احتلم وأراد أن يجامع. وان أراد النوم جنباً فليتوضأ وضوءه للصلاة فانه سنة. و يكره العزل عنها واذا قدر الله ولداً لا يمنعه شيء، ويحل العزل في زوجته برضاها وفي أمته مطلقاً.

الحادي عشر منها: آداب الولادة. وهي خمسة.

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى فإنه لا يدري الخير في أيها، وفي تربية البنات فضائل تذكر في الأحاديث.

الثاني: أن يؤذن في أذنه اليمنى و يقيم في أذنه اليسرى؛ وفي الحديث: من فعل كذلك دفعت عنه أم الصبيان. و يستحب أن يلقنوا له أول انطلاق لسانه: لا اله الا الله، ليكون ذلك أول حديثه. والختان في اليوم السابع ورد به الخبر.

الثالث: أن يسميه باسم حسن فذلك حق الولد؛ وفي الحديث: «أحب الأسماء الى الله عبد الله وعبد الرحمن»؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي». قال بعض العلماء ذلك في عصره اذ كان ينادي يا أبا القاسم. وكره من يكنى أبا عيسى فقال: ان عيسى لا أب له. و ينبغي أن يسمى السقط، و يقال انه يطالب أباه و يقول: أنت ضيعتني وما سميتني. وان لم يدر أنه غلام أو جارية يسمى باسم يجمعهما: كحمزة وطلحة وعمارة وعتبة وعنبسة. و يستحب تبديل الأسماء القبيحة، بدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاصي بعبد الله. وورد النهي في مثل أفلح وبركة اذ يقال: ثم بركة؟ فيقال: لا.

الرابع: العقيقة في اليوم السابع عن الذكر بشاتين وتجوز شاة واحدة وعن الأنثى شاة واحدة، ولا بأس أن تكون الشاة ذكراً أو أنثى. ومن السنة أن يحلق رأسه اليوم السابع، و يتصدق بزنة شعره فضة أو ذهباً.

الخامس: أن يحنكه بتمرة أو حلاوة.

الثاني عشر: في آداب الطلاق وانه مباح لكنه أبغض المباحات. وليراع

فيه أربعة أمور: الأول أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه؛ الثاني: ان يقتصر على طلاق واحد ولا يجمع بين الثلاث؛ والثالث: أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف، ويطيب قلبها بهدية على سبيل الامتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق؛ الرابع: أن لا يفشي سرها لا عند النكاح ولا عند الطلاق فقد ورد في ذلك وعيد عظيم.

الصنف الثاني: في حقوق الزوج عليها؛ اذ النكاح نوع رق، فعليها طاعة الزوج في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه. وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة: فلا تعطي شيئاً من بيته الا باذنه، ولا تصوم تطوعاً الا باذنه والا لا يقبل منها، ولا تخرج من بيته الا باذنه فإن فعلت لعنتها الملائكة حتى ترجع الى بيتها أو تتوب.

وأهم الحقوق أمران: أحدهما الستر والصيانة، والآخر ترك المطالبة بما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه اذا كان حراماً. وكانت امرأة السلف أو ابنته تقول لزوجها: اياك وكسب الحرام فانا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار.

ولا تفرط في بذل ماله الا الذي يفسد، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وان أطعمت بلا رضاه كان له الأجر وعليها الوزر.

روى: ان أسماء بن خارجة الفزاري قال لأبنته عند التزويج: انك خرجت من العش الذي منه درجت، وصرت الى فراش لا تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكوني له أرضاً يكون لك سماء، وكوني له مهاداً يكون لك عماداً، وكوني له أمة يكون لك عبداً، لا تلحفي به فيقلاك، ولا تباعدي عنه فينساك، ان دنا فأقربي منه، وان نأى فأبعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، ولا يشم منك الا طيباً، ولا يسمع الا حسناً، ولا ينظر الا جميلاً.

ومن آدابها: أن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه وتلازم الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع الى اللعب وأسباب اللذة

في حضور زوجها، ولا تؤذي زوجها بحال، وتقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها.

والقول الجامع في ذلك: ان تكون قاعدة في بيتها لازمة لمغزلها، لا تكثر اطلاعها قليلة الكلام لجيرانها، لا تدخل عليهم الا وقت يجب الدخول عليهم عادة، ولا تخرج بلا اذن زوجها، وان أذن لها فتذهب في المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها، مقبلة على صلاتها وصيامها، وتكون قانعة من زوجها بما رزقه الله، ومقدمة حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها، متنظفة في جميع أحوالها ليستمتع بها ان شاء، مشفقة على أولادها ولا تسبهم. واذا مات زوجها تحد عليه أربعة أشهر وعشراً، وتلزم مسكن النكاح، ولا تنتقل عن ذلك إلى أهلها الى آخر العدة، ولا تخرج الا لضرورة.

الأصل الثالث
في آداب الكسب والمعاش

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في فضل الكسب والحث عليه

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾[1]، وقوله: « وابتغوا من فضل الله ». وقال صلى الله عليه وسلم: « التاجر الصدوق « يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء ». وقال: « من طلب الدنيا حلالاً تعففاً عن المسألة وسعياً على عياله وتعطفاً على جاره، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر ».

الا أن فضل التجارة اذا كان لقوت العيال وتعففاً عن السؤال، وأما اذا كانت للثروة والادخار فمذمومة لأنه اقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة، فإن كان مع ذلك خائناً فهو ظلم وفسق. وأيضاً: التجارة أفضل، وان حصلت له النفقة بلا سؤال لأنه يصير كلا على الناس، فالتجارة تكون أفضل. الا أن الحق ان قبول صدقتهم والتخلي للعبادة أفضل اذ فيه اعانة للناس على الخيرات والصدقات.

(١) سورة النبأ: آية ١١.

المطلب الثاني

في بيان أحوال العقود الأربعة

العقد الأول: البيع، وقد أحله الله. وله ثلاثة أركان:

أحدها: العاقد. فلا يعامل الصبي والمجنون لأنهما غير مكلفين، والعبد العاقل بلا اذن سيده، والأعمى لعدم رؤية المبيع فيوكل غيره. أما الكافر فتجوز معاملته غير بيع المصحف منه، والعبد المسلم، والسلاح للحربي منهم، فإن فعل فهو عارض به. وأما الجندية من الأتراك والأكراد والخونة والظلمة وأكلة الربا وكل من أكثر ماله حرام، فلا ينبغي أن يتملك منهم شيئاً الا ما يعرف انه حلال بعينه.

ثانيها: المعقود عليه؛ ففيه ستة شروط:

الأول: أن لا يكون نجساً في عينه كالكلب والخنزير والفيل والخمر.

الثاني: ان يكون منتفعاً، فلا يجوز بيع الفأر والحية، ويجوز بيع الطيور المليحة الصورة كالطوطي والطاووس، أو مليحة الصوت كالبلابل والقمارى، ولا يجوز بيع الملاهي والمزامير لحرمتها.

الثالث: أن يكون المتصرف فيه مملوكاً للعاقد أو مأذوناً فيه من جهة المالك، فلا يصح بيع مال الوالد من الولد وعكسه اعتماداً على أن يرضى اذا عرف، وكذا الزوج والزوجة، بل ينبغي تقدم الرضا.

الرابع: أن يكون المعقود عليه مقدور التسليم شرعاً وحساً، فلا يصح بيع السمك في الماء والجنين وعسب الفحل واللبن في الضرع والآبق، ولا يجوز تفريق الولد من أمه.

الخامس: أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف وتفصيله في كتب الفقه.

السادس: أن يكون المبيع مقبوضاً عقاراً أو منقولاً.

وثالثها: لفظ العقد. فلا بد من جريان ايجاب في قبول متصل بلفظ دال على المقصود منهم أما صريح أو كناية، ويجوز بالتعاطي عند أبي حنيفة في النفيس والخسيس، وعند الشافعي لا يجوز. و ينبغي أن يحكم فيه الحال بأن يعلم أنه يرضى بالبيع، وان علم الكراهة يصرح.

وأيضاً: الاحتياط التصريح في النفيس: كالعبد والفرس والدار، والتعاطي في الخسيس: كالخبز واللحم البقل، وان صح التعاطي في كليهما. وأما تميز النفيس عن الخسيس فبالعرف، وان كان مشتبهاً فعليه الاحتياط بأن يصرح الايجاب والقبول، هذا من حيث الورع فيه أن تستفتي قلبك، الا أن في الشرع يجوز في الكل التعاطي هو الصحيح من مذهب أبي حنيفة.

العقد الثاني: عقد الربا. وقد حرمه الله، ويجب الاحتراز منه على الصيارفة وباعة الأطعمة اذ لا ربا الا فيها. فالصيرفي يحترز من النسيئة بل يبيع يداً بيد، وعن الفضل وهو التفاوت في الوزن والكيل عند اتحاد الجنس، ولا يفيد الجودة والرداءة.

العقد الثالث: التسلم. وله شروط عشرة:

الأول: أن يكون رأس المال معلوماً علم مثله.

الثاني: أن يسلم رأس المال في مجلس العقد قبل التفرق.

الثالث: أن يكون المسلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه.

الرابع: أن يستقصي الأوصاف بأن لا يبقى وصف تغابن فيه.

الخامس: معلومية الأجل بالأشهر والأيام.

السادس: أن يكون المسلم فيه مما يقدر على تسليمه.

السابع: أن يذكر مكان التسليم.

الثامن: أن لا يعقله بعين كثمرة هذا البستان ونحوه.

التاسع: أن لا يكون المسلم فيه شيئاً نفيساً يعز وجوده كدرة موصوفة بما يعز وجودها.

العاشر: أن لا يسلم في طعام اذا كان رأس المال طعاماً، أو في نقد اذا كان هو نقداً لأنه عين الربا.

العقد الرابع: الاجارة: ولها ركنان: الاجرة والمنفعة. أما العاقد واللفظ: فكما في البيع بعينه. أما الأجرة: فينبغي أن يكون معلوماً وموصوفاً كالثمن في البيع، ولا يجوز بكل ما يتوقف حصوله على عمل الأجير: ككراء الدار بعمارتها وسلخ الشاة بجلدها. وأما المنفعة: فهي العمل، وحده: ان كل عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويتطوع به الغير عن الغير فيجوز الاستئجار عليه.

وتندرج تحته أمور خمسة:

الأول: أن يكون متقوماً فيه كلفة وتعباً، فلا يصح أجرة الطعام وأجرة الكلام.

الثاني: أن لا تتضمن استيفاء عين مقصودة كلبن المواشي وأجيز في المرضعة استحساناً.

الثالث: أن يكون مقدور التسليم حساً وشرعاً، فلا يجوز استئجار الأخرس على التعليم والمعلم على تعليم السحر، أو الصائغ على صيغة أواني الذهب، وغير ذلك من المحرمات.

الرابع: أن لا يجب العمل على الأجير، فلا يجوز أجرة الجهاد وسائر العبادات التي لا نيابة فيها. ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ونحو ذلك، وفي أجرة الامامة والأذان والتدريس واقراء القرآن خلاف، وأما أجرة تعليم مسألة أو سورة بعينها لشخص معين فصحيح.

والخامس: أن يكون المنفعة والعمل معلوماً، فالخياط يعرف عمله بالثوب، والحمال يعرف قدر المحمول، الى غير ذلك.

العقد الخامس: القراض.

وفيه ثلاثة أركان:

الأول: أن يكون رأس المال معلوماً مسلماً الى العامل.

الثاني: الربح بأن يشرط له الثلث أو النصف أو ما شاء من مقدار شائع، فلا يجوز تقديره بمقدار معين كالمائة مثلاً.

الثالث: العمل الذي على العامل، وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقة عليه بتعيين أو بتأقيت.

العقد السادس: الشركة.

وهي أربعة وثلاثة منها باطلة.

الأولى: شركة المفاوضة: وهو أن يقول تفاوضنا في كل ما لنا وعلينا وما لا هما ممتازان.

الثانية: شركة الأبدان: وهي أن يتشارطا الاشتراك في أجرة العمل وهي باطلة.

الثالثة: شركة الوجوه: وهي أن لا تكون لأحدهما حشمة وقول مقبول، فيكون من جهته التنفيذ ومن جهة الآخر العمل، وهذا أيضاً باطل.

الرابعة: شركة العنان: وهو أن يختلط مالاهما بحيث يتعذر التميز الا بقسمة، ويأذن كل منها لصاحبه في التصرف، وحكمها توزيع الربح والخسران على قدر المالين، وهذا صحيح.

المطلب الثالث

في العدل في المعاملة

وهذا قسمان:

الأول: ما يعم ضرره. وهو أنواع:

أحدها: الاحتكار والذي يدخر الطعام الى غلاء الأسعار، وهذا حرام في الشرع. الا أنه في أجناس الأقوات، وأما في غيرها: كالأدوية والعقاقير

والزعفران فلا، وان مأكولاً ثم هو زمان احتياج الناس الى القوت، وأما زمان غنى الناس عنه فلا. ولهذا قيل: أوصى بعض التابعين رجلاً: لا تسلم ولدك في صنعتين ولا في بيعتين، أما البيعتان: فبيع الطعام وبيع الأكفان، فانه يتمنى الغلاء وموت الناس. والصنعتان: أن يكون جزاراً فأنها تقسي القلب، أو صواغاً فأنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة.

وثانيها: ترويج الزائف من الدراهم أثناء النقد فهو ظلم، فيعم فيه الضرر، فيكون وزراً له ولغيره لأنه فتح هذا الباب. والويل الطويل لمن مات وذنبه باق الى مائة سنة أو مائتين يعذب بها في قبره.

وأعلم: أن في الزائف أموراً خمسة.

الأول: اذا وجده ينبغي أن يطرحه في موضع لا تناله الأيدي.

الثاني: أن يتعلم طريق النقد ليحفظ دينه لا ليحفظ دنياه.

الثالث: أنه لا يبرأ عن الاثم بأعلام المعامل فقط اذ ربما يروجه على غيره.

الرابع: أن أخذ الزيف وطرحه في بئر فهو عامل بخير.

الخامس: الزائف ما لا نقرة فيه أصلاً، وأما المغشوش فإن كان نقد البلد ففيه رخصة، والا فان علم مقدار النقرة فيجوز والا فلا يجوز أصلاً.

القسم الثاني: ما يخص ضرره المعامل. والضابط فيه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وذلك أربعة:

الأول: أن لا يثني على سلعة، فإن كان بما ليس فيها فهو كذب، وان قبل ذلك فهو ظلم وكذب، والا فهو كذب واسقاط مروءة وان أثنى على السلعة بما هو فيها: فإن عرفه المشتري فهو هذيان وكلام لا يعنيه فما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد، وان لم يعرفه فلا بأس به. وان كان نيته ان يعرف أخوه المسلم فيقضي به حاجته، ولا يحلف عليه البتة، فانه ان كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس التي تدع الديار بلاقع مع كونها من الكبائر، وان كان كاذباً فقد جعل

الله عرضة لإيمانه والدنيا أخس من أن يذكر اسم الله لترجها. وفي الخبر: ويل للتاجر من بلى والله لا والله، وويل للصانع من غدٍ أو بعد غد.

الثاني: أن يظهر جميع عيوب السلعة خفيها وجليها فذلك واجب، والا كان غاشاً والغش حرام، وفي حكمه عرض الثياب في المواضع المظلمة. وهذا وان نقص من الثمن لكن لذلك جهتي التسلية، إحداهما: ان الدنيا أمر حقير والربح ربح الآخرة؛ وثانيتها: ان صورة الزيادة لا اعتبار لها اذ ربما تهلك جملة، والحلال القليل ينتفع به أكثر من الحرام الكثير، ولقد جرب ذلك فوجد كذلك.

المطلب الرابع

في الإحسان في المعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والاحسان، وذلك بواحد من ستة أمور.

الأول: أن لا يغابن صاحبه بما لا يغابن به العادة. أما أصل المغابنة فمأذون فيه، فان البيع للربح ولا يمكن ذلك الا بغبن ما. ولكن يراعي فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد أما لشدة رغبته أو لشدة حاجة في الحال، فينبغي أن لا يأخذ فذلك من الاحسان، وان جاز ذلك شرعاً اذ ليس فيه ظلم مهما لم يكن فيه تلبيس.

وقيل لعبد الرحمن بن عوف: ما سبب يسارك، قال: ثلاث: ما رددت ربحاً قط، ولا طلب مني حيوان فأخرت فيه، ولا بعت بنسيئة.

الثاني: في احتمال المشتري العيب. ان اشترى من ضعيف أو فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن، ويتساهل ويكون به محسناً؛ وان اشترى من الغني التاجر فالغبن ليس بمحمود بل هو تضييع للمال من غير أجر وحمد. وقيل في وصف عمر بن الخطاب: كان أكرم من أن يخدع وأعقل من أن يغبن.

الثالث: في استيفاء الثمن وسائر الديون، والاحسان فيه: مرة بالمسامحة وحط البعض، ومرة في طلب جودة النقد، وكل ذلك مندوب اليه.

الرابع: في توفية الدين: ولا يكلفه أن يمشي اليه يتقاضاه، ومهما كلمه مستحق الحق بكلام خشن فليحتمله، وليقابله باللطف لأن لصاحب الحق مقالاً. ومن يصلح بينهما ينبغي أن يكون ميله الى من عليه الدين لأنه المحتاج، وكذا يميل في المبايعة الى جانب المشتري لأنه محتاج إلى السلعة والبائع راغب عنها، اللهم الا أن يتجاوز من عليه الدين حده فعند ذلك نصرته في منعه من تعديه.

الخامس: أن يقيل من يستقيله ولا يضر اخاه؛ وفي الحديث: «من أقال نادماً صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة» أو كما قال.

السادس: ان يقصد في معاملته جماعة من الفقهاء بالنسيئة، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم ميسرة، فهذه طريق تجارات السلف وقد اندرست، والقائم بها محي لهذه السنة، والتجارة محك الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه.

المطلب الخامس

في شفقة التاجر في دينه

وذلك بمراعاة سبعة أمور:

الأول: حسن النية: بأن ينوي بها الاستعفاف عن السؤال وكف الطمع عن الناس، واستعانة بكسبه على دينه، وقياماً بكفاية عياله ليكون من جملة المجاهدين. ولينو النصح للمسلمين واتباع طريق العدل والاحسان، ولينو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السوق.

الثاني: أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فانها لعمارة الدنيا ونظام المعاش الا ما لا حاجة فيه؛ كصناعة النقش والصياغة وتشييد البنيان بالجص وغير ذلك مما تتزخرف به الدنيا. وأما اجتناب صنعة الملاهي فذلك من باب دفع الظلم، ومنها خياطة القباء من الابريسم للرجال، وصياغة مراكب الذهب وخواتيم الذهب للرجال، وكل ذلك من

المعاصي والأجرة عليها حرام. وقد مر بيع الطعام والأكفان وحكم الجزارة، ويكره الدباغة والكناسة لمخامرة النجاسة. وكره ابن سيرين الدلالة، وكره قتادة أجرتها لتضمنها الكذب والمبالغة غالباً. وأجرتها بقدر عملها لا بقدر قيمة الثوب وهو العادة. ويكره بيع الحيوان لأنه يكره قضاء الله وهو الموت. والصيارفة أيضاً لا يسلمون من الحيلة والا لم يكن الربح.

وقد كان غالب أعمال السلف عشر صنائع: الخرز والتجارة والحمل والخياطة والقصارة وعمل الجفاف وعمل الحديد وعمل المغازل ومعالجة صيد البر والبحر والوراقة. وأربعة من الصناع موسومون عند الناس بضعف الرأي؛ الحاكة والقطانون والمغازليون والمعلمون، وذلك لكثرة مخالطتهم مع النساء والصبيان، والمخالطة سبب السراية وكل قرين بالمقارن يقتدي.

وعن مجاهد: أن مريم طلبت عيسى عليه السلام، فمرت بحاكة فأرشدوها الى غير الطريق، فقالت: اللهم انزع البركة من كسبهم وأمتهم فقراء وحقرهم في أعين الناس، فأستجيب دعاؤها. وكره السلف أجرة العبادات: كغسل الأموات وتعليم القرآن وصلاة التراويح والاذان، فإن ذلك استبدال بالدنيا عن الآخرة.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن الآخرة وهي المساجد.

الرابع: أن يلازم ذكر الله تعالى في السوق وذكر الله بين الغافلين. وفي الحديث: «من قال في سوق من الأسواق: لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ــ كتب له ألفا ألف حسنة، ومحى عنه ألفا ألف سيئة، وبني له قصر في الجنة.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، بأن يكون أول داخل وآخر خارج، وبأن يركب البحر في التجارة فهما مكروهان. وكان عمرو بن العاص يقول: لا تكن أول داخل في السوق ولا آخر خارج منها فإن

بها باض ا لشيطان وفرخ. ويقال: من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق؛ وفي الخبر: لا يركب البحر الا لحج أو لعمرة أو لغزو.

وبالجملة: لا يحرص على السوق فيراقب وقت كفايته، فإذا حصلت ينصرف ويشتغل بتجارة الآخرة.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام بل يتقي مواضع الشبهة ومظان الريب، ولا ينظر الى الفتاوى بل يستفتي قلبه، فما وجد فيه حزازة اجتنبه، وأمر الفتوى على التيسير للعامة لا على الشدة.

السابع: أن يراعي ويراقب جميع مجاري معامليه، فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة، ويحاسب على كل أحد محاسبة على عدد من عامله.

الأصل الرابع
في الحلال والحرام

وفيه مطالب ثمانية

المطلب الأول
في فضيلة الحلال

وذلك في الآيات كثير ــ وكذلك مذمة الحرام ــ وكذا الحال في الأخبار والآثار.

وأما أصناف الحلال والحرام ففي كتب الفقه على التفصيل: ولنبين ههنا على سبيل الاجمال. فأعلم: ان الحرمة في المال أما في عينه أو في كسبه.

القسم الأول: أن الأعيان المأكولة: إما معادن أو نبات أو حيوان، والحرمة فيها. إما لأجل ازالة العقل أو ازالة الصحة أو الاستقذار.

القسم الثاني: ستة أقسام.

الأول: مالا يؤخذ من مالك: كالمعادن والأصطياد والاحتطاب والاستسقاء، فذلك حلال الا أن يسبقها يد قبله.

الثاني: المأخوذ قهراً ولا عصمة له كأموال الكفار، وذلك أيضاً حلال بشروط ذكرت في الفقه.

الثالث: ما يؤخذ قهراً لكن بالاستحقاق، وذلك حلال اذا تم سبب الاستحقاق، وأسباب ذلك في كتب الفقه.

الرابع: ما يؤخذ تراضياً بمعارضة، وذلك حلال اذا تضمنت شرائطه المذكورة في موضعها.

الخامس: ما يؤخذ بالرضا بلا عوض: كالهبة والوصية والصدقة وذلك حلال بشرائطه.

السادس: ما يؤخذ بغير اختيار كالأرث، وذلك حلال اذا كان المال مكتسباً من وجهة الحلال وأخرجت منه سائر الحقوق المذكورة في علم الفرائض، وان لم تعلم فأسأل أهله.

المطلب الثاني
في درجات الحلال والحرام

أعلم: الحرام كله خبيث: ولكن بعضه أخبث من بعض؛ والحلال كله طيب لكن بعضه أطيب من بعض؛ ومثال ذلك في المحسوسات: ان الحرارة والبرودة نوعان ومع ذلك لهما درجات أربع عند الأطباء، فلذلك لهما درجات أربع.

الأولى: ورع العدول. وهو الذي يجب الفسق بتركه و يدخل في العصيان والتعرض للنار، وهو الورع مما تحرمه فتاوى الفقهاء.

الثانية: ورع الصالحين. وهو الامتناع عما يتطرق اليه احتمال التحريم، وان رخص المفتي بذلك بناء على الظاهر.

الثالثة: ورع المتقين. وهو ما لا حرمة فيه بحسب الفتوى ولا شبهة في حله، لكن يخاف منه اداؤه الى محرم، وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

الرابعة: ورع الصديقين. وهو ما لا بأس به أصلاً ولا يخاف منه أن يؤدي ما به بأس، ولكنه يتناول لغير الله ولا على نية التقوى به على عبادة الله تعالى، أو يتطرق الى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية، وتعرف هذه الدرجات بتشديدات الشرع ووعيده وزجره البليغ وتأكيده.

المطلب الثالث

في مراتب الشبهات وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحلال بين والحرام بين و بينهما أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه». فهذا الحديث مدار أمر الشرع وقطب أحكام الدين، وفيه نص في اثبات الأقسام الثلاثة.

والمشكل منها هو القسم المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس، فلا بد من كشف الغطاء عنه. فنقول: الحلال المطلق وهو الذي لا تتطرق اليه أسباب التحريم أو الكراهية: كماء المطر قبل أن ينزل على ملك أحد؛ و يقابله الحرام المحض: وهو اما حرام لعينه بصفة مجربة: كالشدة في الخمر والنجاسة في البول، أو حصل بسبب منهى عنه كالمحصل بالظلم والربا ونظائره، فهذان طرفان ظاهران. و يلتحق بالطرفين ما تحقق أمره ولكن احتمل بغيره، ولكن لم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه؛ مثل: صيد البر والبحر حلال، فيحتمل أن تفلت الظبية من صياد، والسمك قد تزلق من خريطة صياد، فالورع في أمثاله وسواس، اللهم الا أن يدل عليه دليل: كالجرح في الظبي والحلقة في أذن السمكة. وبالجملة: ما لم يترجح أحد طرفي الشك لا يعتبر به أصلاً، ولا يعد ذلك شبهة، وانما الشبهة: احتمال حرمة يستند الى دليل و يعارض أصل الحل.

ومثارات الشبهة خمسة:

المثار الأول

الشك في السبب المحلل والمحرم

فذلك أقسام أربعة:

الأول: أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الأقدام عليها، فهذا حرام لأن الأصل التحريم.

الثاني: أن يعلم الحل و يشك في الحرم، فالأصل الحل وله الحكم، كما اذا طار طائر فقال: أن كان هذا غراباً فأمرأته طالق، وقال آخر: ان لم يكن غراباً فامرأته طالق، والتبس أمر الطائر، فلا يقضي بالتحريم في واحدة منها، الا أن الورع اجتنابها.

الثالث: أن يكون الأصل التحريم وطرأ عليه سبب التحليل بظن غالب، فهو مشكوك فيه والغالب حله، فإن استند الظن الى سبب معتبر شرعاً فالمختار الحل اذ الأصل عدم طريان غيره، فطريانه مشكوك فيه. ولا يرفع اليقين بالشك ولكن اجتنابه من الورع، كمن رمى الى صيد فجرحه، ثم غاب فوجده ميتاً وليس عليه أثر جراحة أخرى، التحق بالقسم الأول، اذ حصل غلبة الظن بأنه مات من جرحه؛ وأما احتمال موته من غير جراحته شك فيه لا يعتبر إذ ذاك جار في كل مجروح لاحتمال أنه مات بغلبة مرض، وإن وجد جراحة أخرى فقد تعارض السبب فتعارض الظن والاحتمال فيحرم.

الرابع: أن يكون الحل معلوماً ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً، كما اذا غلب على ظنه نجاسة أحد الإناءين بعلامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه، والذي هو المختار: ان الأصل هو المعتبر، وان العلامة اذا لم تتعلق بعين المتناول لم يوجب رفع الأصل.

المثار الثاني

الشبهة بشك منشؤه

الاختلاط بين الحلال والحرام

و يشتبه الأمر فلا يتميز ففيه أقسام ثلاثة:

الأول: أن نسبتهم المعين بعدد محصور كمن تزوج أحد الأختين ـــ ولم تعلم بعينها ـــ يجب اجتنابها بالأجماع اذ لا مجال للأجتهاد؛ واذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد، وتقابل فيه جهة التحليل والتحريم فيجتنب؛ وان اختلط حلال محصور بحرام غير محصور فوجوب الاجتناب أولى.

الثاني: حرام محصور بحلال غير محصور، كما اذا اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح من شاء منهن الا اذا علمها بعينها. الا ان علة الحل ليست كثرة الحلال، اذ يلزم منه جواز النكاح اذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال، بل العلة الغلبة والحاجة جميعاً؛ مثلاً: من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لا يلزمه ترك الشراء والأكل، فإن ذلك حرج وما في الدين حرج. واذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضاً في بلد وما في الدين حرج. واذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضاً في بلد اذا وقع بين جماعة محصورين، فاجتناب هذا من ورع الموسوسين اذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة، ولا يتصور الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار.

واعلم: ان تميز المحصور من غير المحصور مشكل، وبالتقريب: كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عددهم بمجرد النظر كالألف والألفين فهو غير محصور، وما كالعشرة والعشرين فهو محصور، وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن. وربما يفتي المفتي، لكن ان وقع عندك الشك فعليك أن تستفتي قلبك، فإن حاك في صدرك شيء فهو الاثم بينك وبين الله فإن الأثم حزاز القلوب، ولا ينجيك في الآخرة فتوى المفتي فأنه يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة: «استفت قلبك وان أفتوك وأفتوك وأفتوك».

وكذا الحال في الأوساط المتشابهة التي تقع في الاقسام الأربعة في المثار الأول.

الثالث: أن يختلط حرام غير محصور بحلال غير محصور، كحكم الأموال في زماننا هذا. وقد يظن ان هذا مثل اختلاط المحصور بالمحصور في الحرمة لكنه ليس كذلك، بل هذا غير حرام، كمن يتناول شيئاً بعينه احتمال أنه حرام وأنه حلال، الا أن يقترن بتلك العين علامة الحرمة فحينئذ يحرم.

و يدل على ما ذكـرنا ان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقع الغلول واختلط بالأموال، وكذا اختلط أثمان الخمور في أيدي أهل الذمة، بل الر با أيضاً، وكذا في زمن الصحابة والتابعين.

وقد نهب يزيد المدينة شرفها الله ثلاثة أيام، ولم يمتنع أحد من الصحابة عن الشراء في السوق الا القليل يعلمون من أهل الورع.

ومن زعم أنه تفطن من الشرع ما لم يتفطنه السلف الصالحون فهو موسوس مختل العقل؛ وأيضاً: لو فتح هذا الباب لأنسد باب جميع التصرفات وخرب العالم، اذ الفسق غالب على الناس و يتساهلون في شروط الشرع.

فإن قلت: ما ذكرته فيما اذا كان الحرام قليلاً وقد صار الحرام في زماننا أكثر، قلت ليس هو أكثر بل هو كثير؛ وقولك: الحرام أكثراً ما لكثرة الظلمة أو كثرة المعاملات الفاسدة أو كثرة الأ يدي.

الأول باطل: اذ الظلمة وهم الجندية وذو الغلبة والشوكة اذا أضيفوا الى جملة العالم لم يبلغوا عشر عشرهم.

وكذا الثاني: اذا أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع، وأهل الر با بينهم قليل فضلاً عن كونهم كثيراً أو أكثر.

وأما الثالث: فلأنّ الأموال انما تحصل من المعادن والنبات والحيوان، ولم يبق درهم واحد ولا دينار خرجت من معدن أو دار ضرب الا تناوله يد الظلمة؛ وكذا الحال في الحيوان، فلم يبق الا الصيد والحشيش والحطب في الموات، فالجواب عنه: ان هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال، فالتحق بما عددناه من قبل وهو تعارض الأصل والغالب.

فالحكم فيه: ان الغالب الذي لا يستند الى علاقة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح، فلا يقال: أصول الحرام أكثر، بل أصول الحلال لم تزل أكثر في كل عصر وزمان، وذلك ظاهر لمن تدبر باذعان وامعان، وانما الكلام فيما اذا قدر غلبة الحرام واختلط غير محصور ولم يكن في العين المتناولة علامة خاصة.

والذي نراه أن تركه ورع وأخذه ليس بحرام، لأن الأصل الحل. ولا يرفع ذلك الا بعلامة معينة كما في طين الشوارع ونظائرها، بل نقول: لو طبق الحرام الدنيا على الفرض والتقدير ــ والعياذ بالله من ذلك ــ لكنا نقول: يعفى عما سلف و يستأنف بتمهيد الشروط، بل نقول: ما جاوز حده انعكس على ضده، فمهما حرم الكل حل الكل؛ وذلك لأن الاحتمالات خمسة: لأن الناس إما أن يدعوا الأكل حتى يموتوا، أو يقتصروا على سد الرمق، أو يتناولوا كيف شاءوا سرقة أو غصباً من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة، أو يتبعوا شروط الشرع و يستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة، أو يقتصروا على قدر الحاجة مع شروط الشرع.

أما الأول: فلا يخفى بطلانه.

وأما الثاني: فباطل أيضاً، لأنهم إذا اقتصروا على سد الرمق وزجوا أوقاتهم على الضعف فشافيهم الموت، وبطلت الأعمال والصناعات وخربت الدنيا، وفي خرابها خراب الدين لأنها مزرعة الآخرة، بل أكثر أحكام الفقه لحفظ مصالح الدنيا ليتم بها مصالح الدين.

وأما الثالث: فهو دفع لسد الشرع بين المفسدين، فتمتد الأيدي بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم عنه، فيؤدي الى بطلان سياسة الشرع. فلا يبقى الا الاحتمال الرابع: بأن يبقى لكل ذي يد على ما في يده. فيصير الاحتمال الخامس هو: الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدي لائقاً بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة.

المثار الثالث للشبهة
أن يتصل بالسبب المحلل معصية

وهذا أنواع أربعة:

النوع الأول: المعصية في القرائن: كالبيع وقت النداء يوم الجمعة،

وكالذبح بالسكين المغصوب وهذا مكروه وليس بحرام والورع اجتنابه. وهذه الكراهة لها ثلاث درجات:

الأولى منها: ما يقرب من الحرام، والورع عنه مهم كالصيد بكلب مغصوب.

والثانية: الاحتطاب بالقدوم المغصوب، وهذه دون الأولى في الكراهة وهي أيضاً من الورع.

والثالثة: البيع وقت النداء، وهذه دون الثانية فانه ضعيف التعلق بمقصود البيع. لا بأس بالذر منه، ولكن لو أدى ما هو دون هذا من عدم صحة نكاح الظلمة ــ لتعلق الحقوق الواجبة عليه ــ لأدى الى التحرج عن نكاح بناتهم، وأنه الوسواس، والورع حسن، والمبالغة فيه أحسن، ولكن الى حد معلوم.

النوع الثاني: المعصية في اللواحق. ولها درجات:

أعلاها: بيع العنب من الخمار، وبيع الغلام ممن يعرف بالفجور بالغلمان. والقياس: ان العقد صحيح والمأخوذ حلال وليس بحرام، والرجل عاص، الا أن المأخوذ مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهم.

ويليها في الرتبة: بيع العنب ممن يشرب الخمر ولم يكن خماراً، لأن الاحتمال قد تعارض والكراهة فيه أخف والورع فيه فوق الأول.

ويليها في الرتبة: ما هو مبالغة ويكاد يلحق بالوسواس، كمن لا يجوز معاملة الفلاحين بآلات الحرث، لأنهم يستعينون بها على الحراثة ويبيعون الطعام من الظلمة، وهذا ورع الوسوسة.

النوع الثالث: المعصية في المقدمات. ولها أيضاً ثلاث درجات:

العليا: ما بقي أثره في المتناول: كالأكل من شاة رعت من مرعى حرام، وهذا الورع وان لم يكن واجباً.

الوسطى: ما نقل عن بشر من امتناعه عما يساق في نهر الظلمة، لأن النهي

موصل اليه، وقد عصى الله بحفره؛ وامتناع آخر عن كرم سقي بنهر مذكور وهو أبلغ في الورع منه؛ وأعلى من ذلك امتناع ذي النون من طعام حلال أوصل اليه بيد سجان، وقوله: انه جاءني على يد ظالم.

ودرجات هذه الرتب لا تنحصر؛ والأدنى منها — وهي قريبة من الوسواس: ان يمتنع من حلال وصل اليه على يد رجل زنى أو قذف، وليس هذا كما وصل على يدي من أكل الحرام، فإن الموصل قوته الحاصلة من الحرام، والزنا والقذف لا يزيدان في القوة، ولو امتنع الشرب من كوز لأن صانعه قد عصى الله يوماً بضرب انسان أو شتمه لكان وسواساً.

وأعلم: ان كل هذا خارج عن فتوى العلماء من الفقهاء، لأن فتواهم تختص بالدرجة الأولى التي يمكن بها تكليف العامة، ولو اجتمعوا عليها لم يخرب العالم دون ما عداه من ورع المتقين والصالحين الذين لا يفتيهم الا قلوبهم، لكن يخرج عن هذا قلب الموسوس لأنهم قوم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم كما شدد على أصحاب موسى عليه السلام.

النوع الرابع: المعصية في العوض. ولها درجات:

العليا: أن يشتري شيئاً في الذمة و يقضي ثمنه من غصب أو مال حرام، فإن سلم البائع اليه الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلب فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال، وتركه ليس بواجب بالاجماع ولا هو من الورع الكامل، وانما الاثم بقضاء الثمن من الحرام لكن لا ينقلب الطعام حراماً، فإن أبرأه البائع مع العلم بأن الثمن حرام فقد برئت ذمته ولم يبق عليه الا مظلمة تصرفه في الحرام، فان أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا يحصل له البراءة من الثمن، لأنه أبرأه بشرط الاستيفاء ولا يصلح الحرام للايفاء. وان لم يسلم اليه بطيبة قلب ولكن أخذه فأكله حرام، سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده، اذ للمالك حق الحبس حتى يقبض الثمن، وانما يبطل حق حبسه بالأبراء والاستيفاء ولم يجر شيء منهما، ولكنه أكل ملك نفسه وهو عاص به عصيان الراهن للطعام اذا أكله بغير اذن المرتهن و بينه و بين أكل طعام الغير فرق، ولكن أصل التحريم شامل.

أما اذا أوفى الثمن الحرام أولاً ثم قبض، فإن كان عالماً بحرمته ومع هذا قبض المبيع بطل حق حبسه وبقي له الثمن في ذمته، اذ ما أخذه ليس بثمن ولا يصير أكل المبيع حراماً بسبب بقاء الثمن. فأما اذا لم يعلم أنه حرام، وكان بحيث لو علم لما رضي به ولا أقبض المبيع، فحق حبسه لا يبطل بهذا التلبيس، فأكله حرام تحريم أكل المرهون الى أن يبرئه، أو يوفي بحلال، أو يرضى هو بالحرام و يبرىء فيصح ابراؤه، ولا يصح رضاه بالحرام فهذا مقتضى الفقه.

وبيان الحكم في الدرجة الأولى من الحل والحرمة، فأما الامتناع عنه فمن الورع المهم، لأن المعصية اذا تمكنت من السبب الموصل تشتد الكراهة كما سبق. وأقوى الأسباب الموصلة الثمن، ولولا الثمن الحرام لما رضي البائع بتسليمه اليه، فرضاه لا يخرجه عن كونه مكروهاً كراهة شديدة، ولكن العدالة لا تنخرم به وانما تزول به درجة التقوى والورع.

والدرجة الوسطى: أن لا يكون العوض غصباً ولا حراماً ولكن يتهيأ لمعصية، كما لو سلم عن الثمن عنباً والآخذ شارب خمر، أو سيفاً وهو قاطع طريق، فهذا لا يوجب تحريماً في المبيع، ولكن يقتضي فيه كراهية دون الكراهة التي في الغصب.

والدرجة السفلى: وهي درجة الوسواس، كما اذا حلف على أن لا يلبس من غزل أمته فباع غزلها واشترى به ثوباً فهذا لا كراهة فيه، والورع عنه وسوسة.

وأعلم: أن الدرجات المذكورة لا تنحصر في عدد ولكن المقصود من التعديد التفهيم.

وأعلم: أن الانسان لا ينبغي أن يشتغل بدقائق الورع الا بحضرة عالم متقٍ، فانه اذا جاوز ما رسم له وتصرف بذهنه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

المثار الرابع
الاختلاف في الأدلة

وهذا كالاختلاف في السبب، لأن السبب سبب للحل والحرمة، والدليل سبب لمعرفتها. وهي ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتعارض أدلة الشرع: كالعمومين من القرآن أو السنة، أو قياسين، أو قياس وعموم. وكل ذلك يورث الشك ويرجع في مثله الى الترجيح. فان ظهر الترجيح في جانب الحرمة وجب الأخذ به، وان ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به، ولكن الورع تركه.

ثم أن المقلد ينبغي له أن يبحث عن أفضل المذاهب بين علماء بلده فيتبعه، وليس له أن يتبع أوسعها. نعم: ان أمامه افتاه بشيء وله مخالف، فعليه أن يترك الخلاف الى مذهب أجمعوا عليه. وكذا المجتهد اذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحدس وتخمين وظن فالورع له الاجتناب.

وهذا على ثلاث مراتب:

أولاها: ما يقوى فيه الدليل المخالف ويدق ترجيح المذهب الآخر عليه، فالمستحب التورع عنه وان أفتى المفتي أنه حلال، لأن الترجيح فيه غامض.

وثانيتها: تراحم درجة الوسواس، كالتورع عن أكل جنين ذكى أمه وفي الصحاح ما يدل على حله.

وثالثتها: أن لا يشتهر في المسألة خلاف أصلاً، ولكن يكون الحل معلوماً بخبر الواحد فيتورع عنه لاختلاف الناس في الخبر الواحد، فهذا ورع لم ينقل عن الصحابة الا اذا تطرق شبهة في حق الراوي خاصة. ومن هذا القبيل خلاف النظام في أصل الاجماع بأنهم غير معصومين، فإذا لا طرف لا طرف من أطراف الشبهات الا وفيها علو واسراف.

والأصل: أن تستفتي قلبك، وتدع ما يريبك إلى ما لا يريبك، وتترك

حزازة القلوب وحكاكة الصدور. وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والداعي، ولكن تحفظ قلبك عن دواعي الوسواس حتى لا يحكم الا بالحق، ولا ينطوي على حزازة في مظان الوسواس، ولا يخلو عن الحزازة في مظان الكراهة، وما أعز مثل هذا القلب.

القسم الثاني: أن يتعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة؛ مثلاً: يخبر عدل بأن هذا المتاع حلال، وعدل آخر بأنه حرام، فان ظهر ترجيح حكم به فالورع الاجتناب، وان لم يظهر وجب التوقف.

القسم الثالث: تعارض الأشباه في الصفات التي بها تناط الأحكام، كمن أوصى ماله للفقراء، فالفاضل في الفقه داخل بلا شبهة، والمتعلم منذ يوم أو شهر غير داخل لا شبهة، وبينهما درجات لا تحصى يقع الشك فيها، فالمفتي يفتي بحسب الظن، والورع الاجتناب. وهذه أغمض مثارات الشبهة، فإن فيها صوى يتحير فيها المفتي تحيراً لازماً لا حيلة له فيه، اذ يكون المتصف بصفة في درجة متوسطة لا يظهر له ميل الى أحدهما.

وكذلك الصدقات: فإن المحتاج ما ليس له شيء، والغني من له مال كثير، وأما من له دار وأثاث وثياب وكتاب فإن قدر الحاجة منه والزائد عليه لا يمكن تحديدهما، وانما يدرك بالتقريب، وينظر في مقدار سعة الدار وأبنيتها ومقدار قيمتها لكونها في وسط البلد أو في طرفه ووقوع الاكتفاء بدار دونها؛ وكذا الأثاث أما من صفر أو من خزف، وكذا في عددها وقيمتها، وكذلك ما يحتاج اليه كل يوم أو سنة. وشيء من هذه الأمور لا حد له، فإن توقف المفتي فيها فلا وجه الا التوقف، وان أفتى المفتي بظن وتخمين فالورع التوقف وهو أعم مواضع الورع. الوجه في مثل هذا ما قال صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك الى ما لا يريبك».

فهذه مثارات الشبهات وبعضها أشد من بعض، ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أغلظ؛ مثل: أن يأخذ طعاماً مختلفاً فيه عوضاً عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة، والبائع قد خالط ماله حرام، ليس

هو أكثر ماله ولكنه صار مشتبهاً به، فقد يؤدي ترادف الشبهات الى أن يشتد الأمر في اقتحامه. وليس في قوة الامر حصرها، فما اتضح من هذا الشرح أخذ به، وما التبس فليجتنب فإن الأثم حزاز القلوب، وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح المفتي. أما حيث حرمه فيجب الامتناع، ثم إنّ في الاستفتاء لا يعول على كل قلب، اذ رب موسوس ينفر عن كل شيء، ورب شره متساهل يطمئن الى كل شيء، وانما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال، فهو المحل الذي يمتحن به خفايا الأمور، وما أعز هذا القلب في القلوب، فمن لم يثق بقلبه فليلتمس النور ممن قلبه بهذه الصفة وليعرض عليه واقعته.

المطلب الرابع

في البحث والسؤال، والهجوم والإهمال ومظانهما

واعلم: أن لا وجه للتفتيش عن كل ما أهدى اليك أو وهب أو بيع منك، وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما تجده، بل للتفتيش أحوال: فإنه واجب مرة وحرام أخرى، ومندوب اليه مرة مكروه أخرى، فمثار الشبهة فيها في أمرين: أما في المال أو في صاحبه.

النوع الأول: أحوال المالك. وهي ثلاث:

الحالة الأولى: أن يكون مجهول الحال، بأن لا يكون في زي الظلمة ولا في زي العلماء والصلحاء، فإن كنت غريباً تريد ان تشتري خبزاً ولا تدري صاحبه، فلا يلزمك السؤال، بل يده واسلامه كافيتان في الهجوم على أخذه. وقولك: الفساد غالب في الناس وسوسة وسوء ظن بالمسلم، ويدل عليه: أن الصحابة كانوا ينزلون القرى، ولا يتركون القرى ويدخلون البلاد، ولا يتحرزون من العباد، وكان الحرام موجوداً في زمانهم أيضاً. فليس له السؤال: من أين اكتسبه، ومن أين حصل له، بل إن حصل له فيه ريبة فليتلطف في الترك، وان كان لا بد له من أكله فليأكل بغير سؤال ايذاء وهتك سر وايحاش وهو حرام بلا شك، وليس الآثم في ايذاء مسلم بأقل من الآثم في أكل شبهة.

ولا يجوز أن يسأل من حيث لا يدري، لأن في ذلك إساءة ظن وهتك سر، وفيه تجسس وفيه تشبيه بالغيبة وان لم يكن صريحاً، وكل ذلك منهى عنه في آية واحدة قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن أثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾[1]. فكم من زاهد جاهل تجسس الجاهل عنده ذلك طلباً للشهرة بأكل الحلال، ولو كان باعثه الدين لكان خوفه من ايذاء مسلم أشد من خوفه على أن يدخل بطنه ما لا يدري وهو غير مؤاخذ بما لا يدري. فطريق الورع في أمثاله الترك دون التجسس، وان لم يكن بد فالورع الأكل واحسان الظن.

الحالة الثانية: أن يكون مشكوكاً فيه بسبب دلالة أورثت ريبة: أما في خلقته بأن يكون على خلقة الأتراك والبوادي والمعروفين بالظلم وقطع الطريق وأن يكون طويل الشارب، وأما في زيه: بأن يكون لباسه على زي اهل الفساد من الظلمة والأجناد، وأما من فعله وقوله: بأن يشاهد منه الأقدام على أخذ الحرام. والحكم فيه جواز الاقدام نظراً الى ضعف الأدلة وقوة اليد والاسلام ورجحان الترك، لأن اليد دلالة ضعيفة، وقد قابلها مثل هذه فأورثت ريبة.

وأما الورع هو الثاني، وهو الذي يختار و يفتى به لقوله صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك الى ما لا يريبك». ثم أن بين هذه الدلالات تفاوتاً، فإن طول الشارب وهيئة الاجناد، وكذا القول والفعل المتعلقان بظلم المال، وكذا الأمر بالغصب والظلم، أو العقد بالربا أقوى في الدلالة ممن شتم غيره في غضبه واتبع نظره امرأة، اذ كم من انسان يتحرج في طلب المال ولا يكسب الا الحلال، ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة. فلا يمكن أن يضبط هذه الدلالات بحد، فالمرجع هو الاستفتاء بالقلب.

ثم أن ما ذكر في مجهول المال: وأما أن رأيته ممن عرفته بالورع في العبادات يصير في حكم المال كالمجهول لتعارض الأدلة في حق المال، اذ لا يلزم من

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

الورع في العادات الورع في المال، فالمرجع هو حكم القلب، وأيضاً: ان هذه الدلالة انما تعتبر اذا دلت على حرمة أكثر ماله، وان على حرمة أقله لا يجب السؤال، بل يكون السؤال من الورع.

الحالة الثالثة: أن يكون الحال معلوماً بنوع خبرة وممارسة بحيث يوجب الظن في الحل والحرمة؛ مثل: أن يعرف ديانته وعدالته في الظاهر، واحتمل عنده أن يكون الباطن بخلافه، فههنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما في المجهول بل أولى، والأقدام ههنا أبعد عن الشبهة من الشبهة من الأقدام على طعام المجهول، فإن ذلك بعيد من الورع وأن لم يكن حراماً.

النوع الثاني: أحوال المال. بأن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا أشترى أهل السوق أحمالاً من طعام غصب، فلا يجب السؤال عما يشتريه في تلك السوق، وانما التفتيش هو الورع، الا أن يظهر أكثر ما في أيديهم حرام فعند ذلك يجب السؤال. والدليل على عدم وجوب السؤال اذا لم يكن الحرام أغلب عدم امتناع الصحابة عن الشراء من الأسواق مع أن فيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرهما، وانما السؤال ينقل عن آحادهم نادراً في بعض الأحوال، وفي محل الريبة في الشخص المعين.

المطلب الخامس
في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

وعليه في ذلك وظيفتان:

الوظيفة الأولى: في كيفية تميز الحرام واخراجه. فالمال الحرام أن كان معلوم العين فالأمر سهل، فإن كان مختلطاً: فاما أن يكون من ذوات الأمثال كالنقود والأدهان، أو من أعيان متمايزة كالعبيد والثياب.

فإن كان الأول أو كان شائعاً في المال كله كمن خلط دهناً مغصوباً بدهن نفسه، فإن كان معلوم القدر كالنصف فعليه تميز ذلك القدر، وأن

أشكل فله طريقان: أحدهما الأخذ باليقين، والآخر الأخذ بغالب الظن. فيجوز الأخذ بغالب الظن اجتهاداً، ولكن الورع الأخذ باليقين.

طريق الأخذ بالورع: أن لا يستبقي الا القدر الذي يتيقن انه حلال، وطريق الأخذ بالجواز: مثلاً يتيقن ان النصف حلال والثلث حرام و يشك في السدس، فيخرج الثلث ويحكم في السدس بغالب الظن، والورع اخراجه أيضاً. وان شك فيه جاز الامساك، والورع الاخراج أيضاً وهذا آكد.

فإن قلت: الذي يخرج لا يدري أنه عين الحرام فلعل الحرام ما بقي، قلت: أنه غير مضر. ولنفرض في درهم اشتبه بدرهم آخر أيهما رد إلى المالك ورضي به فقد برىء، أما المردود وان كان عين درهمة فذاك، وان كان غيره فقد حصل لكل منهما درهم في يد صاحبه، فالاحتياط أن يتبايعا باللفظ، فإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاطاة، اذ المغصوب منه ــ وان فات له درهم في يد الغاصب وعسر الوصول الى عينه واستحق ضمانة لكن ما أخذه يقع عن الضمان، وهذا في جانبه واضح، فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ. والاشكال في الجانب الآخر انه لم يدخل في ملكه فنقول: لأنه أيضاً قد سلم درهم نفسه فقد فات له أيضاً درهم هو في يد الآخر، وليس يمكن الوصول اليه فهو كالغائب، فيقع بدلاً عنه في علم الله تعالى ان كان الأمر كذلك، و يقع هذا التبادل في علم الله سبحانه. هذا في ذوات الأمثال فأنها تصح عوضاً بلا عقد.

وأما اذا اشتبه دار بدار أو عبد بعبد فلا سبيل الا المصالحة والتراضي، فإن أبى أن يأخذ الا عين حقه وأراد أن يعوق عليه جميع ملكه، فإن كانت متماثلة القيمة يبيع القاضي جميع الدور و يوزع الثمن بقدر النسبة، وان كانت متفاوتة أخذ من طالب الدفع قيمة أنفس الدور، وصرف الى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل، وتوقف في قدر التفاوت الى البيان أو الاصطلاح لأنه مشكل، وان لم يوجد القاضي فللذي يريد الخلاص وفي يده الكل أن يتولى ذلك نفسه.

الوظيفة الثانية: في الصرف. وله أحوال ثلاثة: أما أن يكون له مالك

معين ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك، كغلول الغنيمة فأنها بعد تفرق الغزاة لا يقدر على جمعهم؛ وان قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً على ألوف من المسلمين. فحكم هذا المال أن يتصدق به، وان كان من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين يصرفها الى المساجد والقناطر والرباطات ومصانع طريق مكة وأمثال ذلك. فإن وجد قاضياً عدلاً يسلم اليه المال وهو يصرفه الى ما ذكر، والا يحكم عالماً متديناً من أهل البلد فان التحكيم أولى من الانفراد، وان عجز عن ذلك يتولاه بنفسه اذ المقصود الصرف.

فإن أخطرت بالبال أن التصدق بالحرام غير جائز ولا أقل من عدم ثوابه، قلت: ثبت ذلك بالخبر والأثر والقياس.

أما الخبر: فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت اليه فكلمته بأنها حرام، أو قال: اطعموها فتصدق بالثمن.

وأما الأثر: فإن ابن مسعود اشترى جارية ولم يظفر بمالكها لينقده الثمن، فطلبه كثيراً فلم يجده، فتصدق بالثمن وقال: اللهم هذا عنه ان رضي والا فالأجر لي.

وسئل الحسن عن توبة الغال بعد تفرق الجيش، قال: يتصدق به.

وأما القياس فهو: أن هذا المال مردد بين أن يضيع وبين أن يصرف الى خير اذ يقع اليأس عن مالكه، ولا يخفى أن صرفه الى خير ينتفع به مالكه في الآخرة خير له من أن ينتفع به في الدنيا، فضلاً عن أن لا ينتفع أصلاً لا في الدنيا ولا في الآخرة، مع أن فيه انتفاع فقير وسد حاجته. وحصول الأجر للمالك بغير اختياره لا ينكر، اذ قد ورد في الخبر الصحيح: ان للزارع والغارس أجراً في كل ما يصيبه الناس والطيور من ثماره وما يقال: لا يتصدق الا الطيب فذلك اذا طلبنا الأجر لأنفسنا، ونحن نطلب الخلاص عن المظلمة لا الأجر، وترددنا بين التضييع والتصدق.

وقول القائل: لا نرضى لغيرنا ما لا نرضاه لأنفسنا فهو كذلك، لكنه حرام علينا وحلال للفقير فرضينا له الحلال.

وأعلم: أن المال اذا كان مختلطاً من الحرام والحلال يخص الحلال بنفسه اذ لا يعذر نفسه في الحرام، و يعطي الحرام العيال لأنهم ربما يعذرون بعدم العلم، ثم أنه يخص بالحلال قوته ولباسه، وأما اذا أريد تخصيص واحد منها فيخص الحلال بالقوت اذ ينبت لحمه ودمه منه، واللباس انما هو ساتر من الحر والبرد فالاهتمام بالأول أولى. وقال الحارث المحاسبي: يقدم اللباس لبقائه مدة بخلاف الطعام، الا أن المختار تقدم القوت. ولهذا تقيأ الصديق رضي الله عنه لبناً شربه مع الجهل بحاله لئلا ينبت منه لحم.

فإن قيل: بعدما صرف الكل إلى أغراضه لا يبقى الفرق بين نفسه وغيره، قلنا: عرف ذلك التفاوت مما روى أن رافع بن خديج مات وخلف ناضحاً وعبداً حجاماً، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنع من كسب الحجام، فروجع مرات فمنع، فقيل له: ان له أيتاماً، فقال: اعلفوه الناضح. فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو ودابته.

ثم اذا تصدق على الفقراء الحرام يوسعه عليهم، واذا أنفق على نفسه فلينفق ما قدر وان أنفق على عياله فليقتصد. وأما الضيف: فإن كان فقيراً يوسعه عليه منه، وان كان غنياً فلا يطعمه منه الا في برية أو قدم ليلاً لم يجد شيئاً. وان كان الضيف الفقير تقياً ورعاً فليعرض الطعام، وليخبره جمعاً بين حق الضيافة وترك الخداع، ولا يقول أنه لا يدري فلا يضيره لأن الحرام يؤثر في قساوة القلب.

وان كان الحرام في والديه فليمتنع من أكل طعامها وان سخطا، اذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وان كان شبهة فالامتناع للورع فليتلطف في الامتناع لأن رضاهما أيضاً ورع بل واجب. فإن لم يقدر فليوافق، وليقلل الأكل بأن يصغر اللقمة و يطيل المضغ، ولا يتوسع فإن ذلك غرور. والأخ والأخت قريب منها لأن حقها أيضاً مؤكد، وكذا اذا ألبسته أمه ثوباً من شبهة وكانت

تسخط برده، فليقبله بين يديها ولينزعه في غيبتها، ولا يصل فيه الا عند حضورها، فلا يصل فيه الا صلاة المضطر.

المطلب السادس

في ادارات السلاطين

فالنظر فيها في أمرين:

النظر الأول: في جهات الدخل. وهي قسمان:

أحدهما: مال الفيء والجزية ومال المصالحة، وهذا من الكفار.

وثانيها من المسلمين، وهو المواريث التي لا وارث لها والأموال ضائعة.

وأما الصدقات فلا تؤخذ في هذا الزمان، وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام.

ثم مصارف ما ذكر ثمانية:

الأول: الجزية. وأربعة أخماسها للمصالح وخمسها لجهات معينة، وذلك حلال أنْ اجتمع شرائطها المذكورة في الفقه.

الثاني: المواريث والأموال الضائعة فهي للمصالح. والنظر في حال المال بأنه حرام أو حلال كله أو بعضه فقد مر حاله.

الثالث: الأوقاف. والنظر فيها كشرائط المواريث مع شرائط الوقف خاصة.

الرابع: ما أحياه السلاطين ولا يعتبر له فيه شرط، اذ له التصرف العام في الأراضي، فيعتبر فيه ما مر من أحوال الأعواض.

الخامس: ما أشتراه السلطان من الذمة من أرض أو ثياب ونحو ذلك، هو حلال لو كان ثمنه حلالاً والا فحرام.

السادس: ما عينه للعمال بأن يجمعوا من أموال القسمة والمصادرات وهو الحرام السحت.

السابع: ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال فماله كله حرام، والا فمختلط: أما غالب أو مساو أو قليل.

الثامن: ما يكتب على بياع يعامل السلطان، فان كان لا يعامل غيره والحرام، فإن لم يعرف للسلطان دخل حلال فهو سحت محض، وان لم يعلم ففيه خلاف، منهم من قال: الحرام فيه غالب فلا يجوز، ومنهم من قال: كل ما لا أتيقن بحرمته فلي ان آخذه. والمختار: ان الغالب ان كان حرام حرم، وان كان الأغلب حلالاً وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا كما سبق.

واحتج المجوزون بأخذ بعض من الصحابة من مروان و يزيد ومن عبد الملك، و بعض من التابعين كالشعبي وابراهيم والحسن وابن أبي ليلى، وأخذ الشافعي من الرشيد ألف دينار دفعة واحدة، وأخذ مالك من الخلفاء أموالاً جمة، وكان الحسن والحسين يقبلان جوائز معاوية.

وأما امتناع آخرين فيدل على الورع دون الحرمة؛ وأجيب: بأن الآخذين أكثر من الممتنعين، فإن وجه الرد بالورع فكذا الأخذ يوجه بأحد أمور ثلاثة اذ الاحتمالات أربعة:

الأول: ان لا يأخذ من مالهم شيئاً وهو أشد الورع.

الثاني: أن يأخذ مما يعلم أنه من جهة حلال، وعلى هذا يحمل ما نقل عن الصحابة والتابعين.

الثالث: أن يأخذ ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين، فإنه مال لا يتعين مالكه والسلطان لا يصرفه في محله، فالأخذ منه وتفريقه في محله أولى من تركه في يده، وعلى هذا يحمل أخذ كثير من السلف.

الرابع: أن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال و يستنفق، وهكذا كان الخلفاء في زمان الصحابة والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر مالهم حراماً، ولهذا قال علي رضي الله عنه: خذ ما أعطاك السلطان فإن ما يأخذه من الحلال أكثر. وأما مال السلاطين في زماننا هذا اما حرام كلها أو أكثرها، اذ الظلم تداخل جميع أموالهم أو أكثرها. وأيضاً: كان السلاطين في العصر الأول

يتقلدون المنة بأخذ الصحابة والتابعين أموالهم، وهم يأخذون من غير اذلال وسؤال، ولا هم يسكتون عن الحق لأجل عطائهم؛ وفي زماننا هذا انعكس الأمر كله فيؤدي القبول الى المعصية.

النظر الثاني: في قدر المأخوذ وصفة الأخذ.

واعلم: أن تصرف السلطان في أموال المصالح كأربعة أخماس الفيء والمواريث صحيحة، فله أن يعطي ما شاء لمن شاء، وأما مصارفها فالغنى ليس منهم اذ لم يكن فيه مصلحة للناس، بل المصرف من فيه مصلحة عامة أو محتاج إلى الكسب، فكل من يتولى أمراً بقوم يتعدى مصلحته الى المسلمين، فلو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه، فله في بيت المال حق الكفاية، ومنهم العلماء النافعون كالفقهاء والمحدثين والمفسرين والقراء، بل المعلمون والمؤدبون وكذا طلبة هذه العلوم، وكذا زراري العلماء المذكورين، فأنهم ان لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب.

وأيضاً: الدين والملك توأمان، فيدخل فيهما الذين ترتبط مصالح الدنيا بأعمالهم؛ ومنهم: عمال بيت المال، والاجناد الحارسون للمملكة، و يدخل فيهما الحساب والكتاب والوكلاء لأعمال المال الحرام، بل عمال بيت المال على حسب الشرع، و يدخل فيهما الأطباء أيضاً لأن لهم مدخلاً في صحة الجسد الذي لا يتم أمر الدين الا به، لكن من يعالج المسلمين بغير أجرة وهؤلاء المصارف يجوز أن يعطوا مع الغنى.

وكذا للسلطان أن يخص واحداً بقدر ما شاء، لكن ينبغي أن يراعي فيه المصلحة، اذ مهما خص عالم أو شجاع بصلة كان فيه بعث الناس وتحريضهم على الاشتغال والتشبه به. هذا في السلطان العامل على وجه الحق.

وأما الظلمة ففيهم أمران:

أحدهما: أنه بظلمه أما معزول أو واجب العزل، فكيف يجوز أن يؤخذ من يده.

ثانيها: أنه يمنع بعض المستحقين فلا يجوز الأخذ للبواقي أصلاً، وان جاز فبقدر حصتهم.

والجواب عنه:

أما عن الأول: فلان السلطان مهما عسر استبداله وكان في خلعه فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه والطاعة؛ وأيضاً: أنا نراعي الصفات والشروط في السلاطين تشوفاً الى مزايا المصالح، ولو قضينا ببطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأساً، فكيف نفوت رأس المال في طلب الربح، بل الولاية الآن لا تسع الا الشوكة أو من بايعه صاحب الشوكة وهو الخليفة، فمن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الحكم، والقضاة في أقطار الأرض ولاة نافذو الأحكام.

وأما عن الثاني ففيه أربع مراتب:

فغلا بعضهم وقال: المسلمون كلهم فيه شركاء، ولا يدري ان حصته منه دانق أو حبة فليترك الكل.

وقال قوم: له أن يأخذ قوت يومه اذ الضرورة تندفع بهذا.

وقال قوم: له قوت سنة، فإن أخذ الكفاية كل يوم عسير وهو ذو حق فلا يتركه.

وقال قوم: يأخذ ما يعطي، والمظلوم هم الباقون. وهذا هو القياس لأن اشتراك هذا المال بين المسلمين ليس بطريق التعيين، والا للزم الأرث فيمن مات قبل القبض، وانما يتعين بالقبض فلا يسقط الباقي بظلم السلطان للبعض منهم.

المطلب السابع
في حكم مخالطة السلاطين

وذلك لا يخلو عن أحوال ثلاثة:

الحالة الأولى: أن تدخل عليهم فهي مذمومة شرعاً، وفيه تشديدات وتغليظات تواردت بها الأخبار والآثار. ثم أن في الدخول ما يحرم وما يكره وما يباح بسبب أمور ثلاثة: أما بفعله واما بسكوته وأما بقوله.

أما الأول: فلان الأكثرين دارهم مغصوبة فيحرم الدخول فيها بغير اذن المالك، وان لم تكن داره حراماً فلا يعصى بالدخول والسلام، ولكن سجد أو ركع أو مثل قائماً في سلامه وخدمته كان مكرماً للظالم فيكون عاصياً، والتواضع لغنى غير ظالم معصية، وفي الخبر: نقص ثلثاً دينه، فكيف بالظالم.

وأما تقبيل اليد والانحناء في الخدمة فهو معصية، الا عند خوف، أو لامام عادل، أو لعالم، أو لمن يستحق ذلك بأمر ديني. قبل أبو عبيدة الجراح يد عمر رضي الله عنه فلم ينكر عليه.

فإن ترك جميع ذلك واقتصر بالسلام فلا يخلو من الجلوس على بساطهم، واذا كان أغلب أموالهم حراماً فلا يجوز الجلوس على بساطهم.

وأما الثاني وهو السكوت: فأنه سيرى في مجلسهم من الفرش الحرام والأواني الحرام والملبوسات المحرمة عليهم وعلى غلمانهم، بل يسمع منهم الفحش والكذب وأمثالها، فالسكوت على جميع ذلك حرام، فإن ترخص بأنه يخاف فهلا عمل بالعزيمة في عدم الدخول اللهم الا اذا أكره على الدخول أيضاً.

وأما الثالث وهو القول: فهو أن يدعو له و يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بتصريح أو بتحريك رأس أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والاشتياق والحرص على طول عمره وبقائه، وكل ذلك حرام وقعت فيه الأخبار والآثار.

فلا يجوز الدخول عليهم الا لعذرين:

أحدهما: الاكراه، وعلم أنه لو امتنع أوذي أو نزع العوام نفسهم عن طاعة الأمراء لاقتدائهم بامتناعه.

وثانيها: أن يدخل لدفع ظلم عن نفسه أو عن غيره، بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع النصيحة بتوقع قبولها.

الحالة الثانية: أن يدخل عليك السلطان الظالم زائراً فيجب السلام، وأما القيام: فإن كان بجمع كثير يقوم لرعاية حشمة الولاة بين الرعايا فإن ذلك مهم، وان كان في خلوة فيجوز القيام مكافأة لما وقع من الاكرام، ولكن الأولى أن لا يقوم ليظهر به عز الدين وحقارة الظلم، ويظهر به غضبه للدين والأعراض عمن أعرض الله عنه، ثم يخوف فيما يرتكبه من المعاصي، ويرشده الى طريق المصلحة، والارشاد الى ما هو غافل عنه بما يغنيه عن الظلم.

الحالة الثالثة: أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يرونه وهو الواجب، اذ لا سلامة الا فيه، ولا يستخبر عن احوالهم ولا يتقرب الى المتصلين بهم. فإذا خطر بباله تنعمهم فليذكر ما قال أبو حاتم الأصم: انما بيني وبين الملوك يوم واحد، أما أمس فلا يجدون لذته، وانا واياهم من غد على وجل، وانما هو اليوم، فما عسى أن يكون في اليوم.

ولا بد أن تكون الجناية على الله فوق الجناية على نفسك، فيجب أن لا تحب، وما يقال: المحبة غير اختياري فليس كذلك، لأن المحبة فرع معرفة الكمال، فمن أحب الله تعالى أحب ما أحبه وكره ما أبغضه.

وان احتججت بدخول السلف عليهم فنقول لك: أدخل كما دخلوا، لكنه قريب من المحال في حقنا، أين نحن من أحوالهم: لأنهم كانوا يعاتبونهم ويعظونهم ولا يخافون في الحق لومة لائم، ونحن نتقرب الى قلوبهم فندلهم على الرخص فيما يوافق أغراضهم. وان لنا في ذلك غرورين يغتر بهما الحمقاء.

أحدهما: أن يظهر أن قصدي أصلاحهم بالوعظ وانما الباعث لهم الشهرة،

وربما تلبس أنفسهم بذلك عليهم، ويمتحن بأنه لو تولاه غيره لفرح به و يشكره على كفايته هذا المهم.

وثانيها: أن يزعم أنه يقصد الشفاعة لمسلم لدفع ظلامة، وهذا أيضاً مظنة الغرور ومعياره ما تقدم.

المطلب الثامن

اذا بعث اليك السلطان مالا لتفرقه على الفقراء

فان كان له مالك معين فلا يحل أخذه، والا فيجوز أن تتولى بها، لكن اشترط بعضهم الأمان عن ثلاث غوائل:

الأولى: أن يظن السلطان حل ماله بأخذك.

الثانية: أن يقتدي بك غيرك و يستدل بذلك على جوازه ثم لا يفرقون، فهذا أعظم من الأول، كما يستدلون بأخذ الشافعي على جواز الأخذ و يغفلون عن تفرقته وأخذه على هذه النية.

الثالثة: أن يتحرك قلبك الى نفسه لتخصيصه اياك وايثاره لك، وهذا هو السم القاتل، فانك ان أحببته تحرص عليه وتداهن فيه. ومما ينبغي أن يعلم أنه يجب الاحتراز عن معاملتهم لأن أكثر مالهم حرام، وكذا عن معاملة قضاتهم وعمالهم وخدمتهم اذ أكثر أموالهم الغصب، فمن أين يقع في أيديهم مال مصلحة وجزية وميراث ووجه حلال حتى تضعف شبهة الحرام باختلاط الحلال بمالهم.

وأيضاً: الأسواق التي بنى السلاطين بالمال الحرام تحرم سكناها وان لم يحرم كسبه، فإن وجدوا سوقاً آخر فلا يشتري منهم فإن ذلك اعانة لسكناهم وتكثيراً لكراء حوانيتهم. ومنهم من بالغ وجعل كسبهم حراماً وليس كذلك.

وأما القناطر من مالهم فلا يجوز العبور عليها الا للحاجة، والورع الاحتراز ما أمكن.

وأما المساجد: فإن كان بناؤها وآلاتها مغصوبة أو من مال لا يعرف مالكه

فلا يجوز الصلاة فيها ولا الجمعة، وان أمكن اقتداء الامام من خارج فليفعل. فالورع العدول الى مسجد آخر ان وجد والا فلا يترك للجمعة والجماعة، ولينظر الى احتمال أن يكون من مال بانيه، أو أن لا يكون له مالك معين.

وكذا السقاية من مال حرام، والورع الاحتراز عنها الا اذا خاف فوت الصلاة فيتوضأ.

وأما الرباطات والمدارس فإن كانت في الأرض المغصوبة لا يرخص للدخول فيها، وان التبس فقد أرصد لجهة من الخير فالورع اجتنابه، لكن لا يفسق مرتكبه.

وهذه الأبنية ان صدرت عن خدم السلطان فالأمر فيها أشد، اذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة الى المصالح مع غلبة الحرام على أموالهم، اذ ليس لهم أخذ مال المصالح، وانما يجوز ذلك للولاة وأرباب الأمر. والكلام في هذا يطول والله أعلم.

الأصل الخامس
في آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وفيه مطالب

المطلب الأول
في فضيلة الأخوة وشروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الأخوة والألفة:

أعلم: أن حسن الخلق يوجب التوافق والتحاب و يثمرهما، ومحمودية المثمر توجب محمودية الثمرة، كما ان سوء الخلق يثمر التباغض والتدابر.

أما فضيلة حسن الخلق فقوله تعالى: ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾[1]. وقال صلى الله عليه وسلم: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى وحسن الخلق»؛ وقال «أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن»؛ وقال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ثم ان الأخوة في الدنيا والأخوة في الآخرة. وأعلم: أن الصحبة: أما اتفاقي: كالصحبة بسبب الجوار أو الاجتماع في المكتب والمدرسة أو السوق أو باب السلطان أو الأسفار، وأما اختياري: وهي فرع المحبة: وهي أربعة أقسام:

---

(١) سورة القلم، آية: ٤.

القسم الأول: حبك الانسان لذاته، وذلك بأن تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له، فإن كل جميل لذيذ وكل لذيذ محبوب، فاللذة تتبع الاستحسان، ويتبع هو المناسبة والموافقة من الطباع.

ثم ذلك المستحسن: أما أن يكون صورته الظاهرة أو الباطنة — أعني: كمال العقل المثمر غزارة العلم، وحسن الخلق المثمر حسن الأفعال.

وقد تكون الألفة بمناسبة باطنة توجب الإلفة، فإن شبه الشيء منجذب اليه، وتلك المناسبة لها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، واليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف».

وكان مالك بن دينار يقول: كل انسان يأنس بشكله كما أن كل طير مع جنسه. فرأى يوماً غراباً مع حمامة فعجب من ذلك، فلما طارا فإذا هما أعرجان، فقال: من ها هنا اتفقا. فقد ظهر منه أن الحب قد يكون لا لنفع صوري. ويدخل فيه الحب للجمال بدون ملاحظة الشهوة، فإن الصورة الجميلة مستلذة في عينها —وان فرض عدم الشهوة— كما يستلذ الماء والخضرة والأزهار فهو محمود في نفسه. وان اتصل به غرض مذموم من الشهوة الحرام صار مذموماً، وان اتصل به غرض مباح لا يذم ولا يحمد.

وفي هذا القسم لا يدخل حب الله لأنه طبيعي، وحب الله ليس كذلك.

القسم الثاني: لينال من ذاته غير ذاته، فيكون المحبوب الغير وهو وسيلة اليه. والطريق الى المحبوب محبوب ومنه محبة الذهب والفضة. ثم القصد بالوسيلة: اما إلى المال والجاه كحب الملوك والسلاطين، أو العلم كحب التلميذ الاستاذ. وليس في شيء منها محبة الله تعالى اذ يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى. الا أنه قد يكون مذموماً اذا قصد التوصل إلى قهر الأقران بالمال، وحيازة أموال اليتامى بالجاه، وظلم الرعايا بالعلم بولاية القضاء أو غيره. وقد يكون مباحاً اذا توسل الى مباح، اذ الوسيلة بكسب الحكم والصفة من المتوسل اليه.

القسم الثالث: أن يحبه لا لذاته بل لغيره، وذلك الغير ليس راجعاً الى حظوظه في الآخرة، كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوسل به الى تحصيل العلم وتحسين العلم، ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة، فهذا من جهة المحبين في الله تعالى؛ وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم و ينال بواسطته رتبة التعليم، بل الذي يتصدق بأمواله تقرباً الى الله تعالى، بل من أحب من يواسيه في المطعم والملبس ليتفرغ للعلم والعمل، بل من أحب امرأته الصالحة ليتحصن بها من وسواس الشيطان و يصون بها دينه و يولد له ولد صالح يدعو له، فكل هذه المقاصد دينية فهو محب لله تعالى.

القسم الرابع: أن يحب لله وفي الله لا لينال منه علماً أو عملاً وليتوصل به الى أمر وراء ذاته، وهذا أعلى الدرجات وهو ادقها وأعظمها. وهذا القسم أيضاً ممكن.

ومن آثار هذا الحب أن يتعدى من المحبوب الى من يتعلقه و يناسبه ولو من بعد: من محبوب محبوبه ومن يثني عليه حتى منزله ومحله وجيرانه، حتى قيل: ان المؤمن اذا أحب المؤمن أحب كلبه. و يشهده التجربة في أحوال العشاق و يدل عليه أشعار الشعراء. فكذلك حب الله تعالى اذا غلب واستولى يتعدى الى كل موجود سواه لأنه أثر من آثار قدرته، كمن أحب خط حبيبه وصنعته. وكذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حمل اليه باكورة مسح عينها وأكرمها، وقال: أنه قريب العهد بربه.

ولو كان الحب مقصوراً على حظ ينال من المحبوب في الحال أو المال لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين، بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين، وكل ذلك حب الله لأنهم خواص عباده.

واذا عرفت درجات الحب فقد اتضح عندك درجات البغض بالمقايسة، لأن من أحب لسبب فبالضرورة يبغض لضده، فكل عاص لله يبغضه كما يحب

المطيع، وهذان متلازمان. وكل من الحب والبغض دفين في القلب، وانما يترشح عند ظهور أفعال المحبين والمبغضين.

ولكن يشكل حال من اختلط فيه الطاعة والمعصية، اذ يلزم فيه الجمع بين الحب والبغض وهما متضادان، الا أن الأمر ظاهر عند الله تعالى. وأما أنت فتبغض من جهة عصيانه وتحب من جهة طاعته وذلك ممكن، كما اذا كان لك ولد ذكي خدوم لكنه فاسق، فإنك تحبه من الجهة الأولى وتبغضه من الجهة الثانية.

وكذلك الحال في المسلم العاصي، فلا تبالغ في اهانته كاهانتك الكافر، ولا تبالغ في اكرامه كاكرامك المسلم المطيع. ثم ينبغي أن يكون ميلك الى طرف الاهانة عند غلبة المعصية، والى طرف المجاملة والاكرام عند غلبة الطاعة. وهكذا حال من يطلب رضا الله ويتجنب سخطه.

ثم **طريق اظهار البغض:** أما القول أو الفعل.

أما القول: فبترك مكالمته ومحادثته مرة، أو الاستخفاف والتغليظ أخرى.

وأما الفعل: فبعدم اعانته أو بالسعي في اساءته أخرى. وهذه مراتب بعضها أشد من بعض، ويترشح بحسب درجات الفسق والمعصية.

أما درجات المعصية: فأما أن يصدر بطريق الهفوة فالأولى فيه الاغماض والستر، أو بطريق الاصرار على الصغيرة أو الكبيرة. فإن كانت متعدية الى الغير فلا يسامح فيه بل ينكر بقدر ما يرتدع عنه وبقدر ما أمكن لك، وان لم تكن متعدية الى الغير بل متعدية اليك فقط فطريقة العفو والصفح وان عظمت جريمته، كما قطع أبو بكر نفقته على مسطح حين تكلم في الأفك، ثم أمره الله تعالى باعادة النفقة اليه وهو قوله تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾[1]. الآية. وأية جريمة أعظم من أن يتعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم واطالة اللسان في مثل عائشة رضي الله عنها.

---

(١) سورة النور، آية: ٢٢.

وأما ان كانت معصية لنفسه: فإن كانت بينك وبينه مودة فله حكم مخصوص سنذكره، والا فلا بد من اظهار أثر البغض بالقول أو الفعل وما يندرج تحتها من الأنواع بحسب مرتبة انزجاره. وأقل الدرجات قطع الرفق والنصرة عنه، وأقواها افساد أغراضه عليه وهذا لا بد منه فيما يفسد عليه طريق المعصية لا في كل أمر. هذا مذهب البعض.

وأختار بعضهم في المعصية الغير المتعدية النظر بعين الرحمة، لأنهم مقهورون لما قدر لهم والقدر لا ينفع منه الحذر، ولكن قد يلتبس المداهنة ومراعاة القلوب بالرحمة. ومحك ذلك أن ينظر عليه بعين الرحمة ان جنى على خاص حقه، ويقول: كيف لا يفعله وقد كتب عليه، وان كان يغتاظ عند الجناية على حقه ويترحم عند الجناية على حق الله فهو مداهن مغرور بمكيدة من مكائد الشيطان.

فإن قلت: هل يجب الأعراض وقطع النفقة والاعانة عن العاصي بحيث يأثم من يتركه؟ قلت: لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكليف والايجاب، لأن الصحابة كانوا منقسمين في حق أهل المعاصي: فمنهم من يغلظ القول، ومنهم من يكتفي بالأعراض، ومنهم من ينظر بعين الرحمة، فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرائق السالكين.

المطلب الثاني
في أقسام المعاصي وأحكام كل منها

القسم الأول: الفساد في الاعتقاد. وهو نوعان:

الأول: الكفر. فالكافر الحربي يجازى بالقتل والاسترقاق وهذا أقصى الاهانة؛ والذمي هو الذي ماله وعرضه معصوم، لكن يعرض عنه ويحقر بالاضطرار الى أضيق الطرق، ويترك المفاتحة بالسلام، ويقول في جواب سلامه: وعليك، والأولى الكف عن معاملته ومخالطته ومؤاكلته. وأما الانبساط معه والاسترسال اليه فمكروه كراهة شديدة تكاد تنتهي ما يقوى منها الى حد التحريم.

والثاني: المبتدع. وهو أما أن يدعو إلى بدعته: فإن كانت بدعته بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمي، والا فأمره أخف من الذمي عند الله ولكن أشد عند الناس، لأن شره يخاف أن يتعدى الى المسلم بخلاف شر الكافر.

وأما المبتدع الذي يدعو الى بدعته و يزعم أن ما يدعو اليه حق فشره متعد، فالاستحباب في اظهار بغضه والانقطاع عنه وتحقيره، والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد. وأما رد سلامه: فإن كان عند الناس فلا يجوز تنفيراً للناس عنه وتقبيحاً لبدعته في أعينهم، وان كان في الخلوة: فإن ظن أن ترك الجواب يردعه عن بدعته فالترك أولى، والا فلا بأس بجوابه.

وأما المبتدع العامي الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون، فالأولى أن يتلطف به في النصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الأعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الأعراض.

القسم الأول: العاصي بفعله وعمله لا باعتقاده. وهذا على أقسام:

أحدها وهو أشدها: ما يتضرر به الناس: كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة، فالأعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم أشد. ثم أن فساد هؤلاء: أما في الدماء أو في الأموال أو في الأعراض، و بعضها أشد من بعض، فالاستحباب في اهانتهم والأعراض عنهم يتأكد بحسب شدة الفساد وغلظته.

القسم الثاني: المأخور الذي يهيء أسباب الفساد و يسهل طريقه على الفساق، فهذا لا يؤذي الخلق في دنياهم، لكن ينقص بفعله من دينهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه. فإن المعصية بين العبد والرب الى العفو والمغفرة أقرب، ولكنه من حيث تعديه الى غيره شديد يقتضي الاهانة والأعراض والمقاطعة وترك جواب السلام، اذا ظن فيه أو في غيره نوعاً من الزجر.

القسم الثالث: الفاسق في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة

محظور يخصه. فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته ــ ان صودف ــ يجب منعه بما يمتنع منه ولو بالضرب والاستخفاف، فإن النهي عن المنكر واجب. واذا فرغ منه وعلم أنه مصر عليه، فإن علم النصح يمنعه من العود وجب النصح، وان لم يتحقق ولكنه كان يرجوه فالأفضل النصح والزجر لطفاً، أو تغليظاً ان كان هو الأنفع. وان علم اصراره وان النصح لا ينفعه فسير العلماء فيه مختلفة، فبعضهم يقول: الرفق والنظر بعين الرحمة أولى، كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم من لعن من شرب خمراً وقال: «لا تكن عوناً للشيطان على أخيك». أو كما قال. والحق ان ذلك يختلف باختلاف نيات الرجال والتفاوت في الأحوال، والمفتي فيه القلب والبال، اذ لكل من الطرفين خطر، اذ العنف قد يكون عن كبر وعجب والتذاذ باظهار العلو والادلال بالصلاح، والرفق قد يكون عن مداهنة واستمالة قلب.

المطلب الثالث

في الصفات المشروطة فيمن تصاحبه

اذ ليس كل انسان يصلح للصحبة، فالصحبة اما للدنيا: كالانتفاع بالمال والجاه أو الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة، ولا يتعلق بذلك غرضنا؛ واما للدين: وذلك لأغراض منها استفادة العلم والعمل، ومنها استفادة الجاه تحصنا به عن أذى من يشوش القلب ويصده عن العبادة، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب الأقوات، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأهوال، ومنها التبرك بمجرد الدعاء، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة. قال بعض السلف: استكثر من الأخوان فإن لكل مؤمن شفاعة.

وأيضاً: ينبغي فيمن تريد صحبته خمس خصال: العقل، وحسن الخلق، وترك الفسق والابتداع، والحرص على الدنيا.

أما العقل: فهو رأس المال، اذ الأحمق يضرك وهو يريد نفعك واعانتك من حيث لا يدري.

وأما حسن الخلق: اذ رب عاقل يغلبه هواه أو غضبه أو شهوته، ويخالف ما هو المعلوم عنده، لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه.

وأما الفاسق المصر على الفسق لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته، بل يتغير بتغير الأغراض. وقال الله تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾[1].

وأما المبتدع: في صحبته خطر سراية البدعة، وهو مستحق للقطيعة فكيف الصحبة.

وقد جمع شرائط الصحبة علقمة العطاردي لأبنه لما حضرته الوفاة فقال: يا بني ان عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من اذا صحبته صانك، وان صحبته زانك، وان قعدت بك مؤونة مالك؛ أصحب من اذا قلت صدق قولك، وان حاولت أمراً أمرك، وان تنازعتما في شيء آثرك. كأنه جمع في هذا جميع حقوق الصحبة. الا أن مثل هذا الرجل عزيز أو مفقود، ولذلك قيل: أوصاه بذلك لأنه أراد أن لا يصحب ابنه أحداً.

قال بعض الأدباء: لا تصحب من الناس الا من يكتم سرك و يستر عيبك، و يكون معك في النوائب و يؤثرك في الرغائب، و ينشر حسنتك و يطوي سيئتك، فإن لم تجده فلا تصحب الا نفسك. وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه.

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٨.

المطلب الرابع

في حقوق الصحبة

وهي ثمانية:

الأول: في المال. اذ الأخوة اتحاد معنوي يقتضي الاشتراك في المال والجاه والمساهمة في السراء والضراء. وقال الله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾[1] أي: كانوا خلطاء في المال. ومراتبها ثلاث، أولاها أدناها: ان تنزله منزلة خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك؛ ثانيتها: أن تنزله منزلة نفسك وتشاركه في مالك؛ وثالثتها وهي العليا: أن تؤثره على نفسك، وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين، ومن تمام هذه الرتبة ايثار بالنفس أيضاً.

روى: أنه سعى بجماعة من الصوفية الى بعض الملوك، فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسن الثوري، فبادر هو الى السياف ليكون هو أول مقتول، فقيل له في ذلك، فقال: أحببت ان أؤثر اخواني بالحياة في هذه اللحظة. فكان ذلك سبب نجاة جميعهم في حكاية طويلة.

الثاني: في الاعانة بالنفس في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجات الخاصة. ولها أيضاً درجات: أدناها القيام بالحاجة عند السؤال، والقدرة لكن مع البشاشة والاستبشار، واظهار الفرح، وقبول المنة.

وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة: يقوم بحاجاتهم، و يتردد كل يوم اليهم، ويمونهم من ماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم الا عينه، بل كانوا يرون منه ما لا يرون من أبيهم في حياته.

وكان الواحد يتردد الى باب دار أخيه و يقول: هل لكم زيت، هل لكم ملح، هل لكم حاجة، وكان يقوم بها من حيث لا يعرف أخوه.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٨.

وبالجملة ينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم، وتتقلد منة بسبب قبوله فضلاً عن أن ترى لنفسك حقاً عليه. ولا ينبغي أن يقتصر على قضاء الحاجة بل يجتهد في البداية بالاكرام في الزيادة، والايثار والتقديم على الأقارب والولد.

الثالث: وهو السكوت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته، بل يتجاهل عنه، و يسكت عن الرد عليه فيا يتكلم، ولا يماريه ولا يناقشه، و يسكت عن أسراره فلا يبثها إلى غيره ولو أخص أصدقائه ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن، و يسكت عن القدح في أحبائه وأهله وولده وعن حكاية قدح غيره فيه، فإن الذي سبك من بلغك، ولا يخفى ثناء أحد عنه فإن ذلك سرور للمبلغ والقائل واخفاؤه عنه من الحسد؛ وأيضاً: لا يفاتح بسؤال غرضه ومورده ومصدره، اذ ربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج الى أن يكذب فيه.

وبالجملة: يسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً، الا في الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر ولم يجد رخصة في السكوت، فإن ذلك احسان اليه وان كرهه.

أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوىء أهله فهو من الغيبة، وذلك حرام في حق كل مسلم، و يزجرك عنه أمران:

أحدهما: أن تطالع نفسك فإن وجدت فيه أمراً مذموماً أنت عاجز عن تركه فقس على نفسك حاله.

وثانيهما: أنك إن طلبت أحداً لا عيب فيه لم تجد من تصاحبه فأي الرجاء المهذب، وانما الكريم من غلبت فيه المحاسن المساوىء، فالكريم يلاحظ محاسنه واللئيم مساوئه، ولا يوجد أحد ليس له مساوىء أو محاسن، وانما الاعتبار للنظر فالمحب يعمى حسه عن عيوب المحبوب والمبغض عينه تبرز كل عيب.

الرابع: على اللسان بالنطق، فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحاب، اذ الأخوان انما يراد ليستفاد منهم لا ليتخلص عن

أذاهم. فعليه أن يتودد اليه بلسانه و يتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها: كالسؤال عن عارض أن عرض له، واظهار لشغل للقلب بسببه، واستبطاء العافية عنه، وكذا جملة أحواله التي يكرهها ان يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها.

و ينبغي أن يظهر السرور بلسانه مشاركة في السرور، فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء؛ وفي الحديث: «اذا أحب أحدكم أخاه فليخبره»؛ وأنما أمره بالأخبار ليزداد حباً.

ومن ذلك: أن تدعوه بأحب أسمائه اليه في غيبته وحضوره.

ومن ذلك: ان يثني عليه وعلى أولاده وفعله، حتى عقله وخلقه وهمته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به، وذلك من غير كذب وافراط، وآكد من ذلك أن يبلغه ثناء من أثنى عليه مع اظهار الفرح به.

ومن ذلك: أن يشكره على صنيعه في حقه، بل على نيته وان لم تتم، وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه، فالسكوت عنه موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة. فلك معنيان:

أحدهما: أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضراً ما الذي تحب أن يقوله فيك؟ فينبغي أن تقابل المتعرض لعرضه به.

وثانيها: أن تقدر أنه حاضر أو وراء جدار يسمع قولك و يظن انك ما تعرف حضوره، فما كان يتحرك في قلبك من النصرة له بمسمع منه ومرأى ينبغي أن تكون في غيبته كذلك. ومن لم يكن مخلصاً في اخائه فهو منافق، والاخلاص استواء الغيب والشهادة، واللسان والقلب، والسر والعلانية، والخلوة والجماعة، والاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك مما ذم في المودة، وهو دخل في الدين ووليجة في طريق المسلمين. ومن لم يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة، فإن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه الا محقق، ولا جرم أجره جزيل لا تناله الا بتوفيق.

ومن ذلك: التعليم والنصيحة، اذ الحاجة الى العلم فوق الحاجة الى المال، فإذا وجب مواساته وجب مواساة العلم بالطريق الأولى. وان لم يعمل بعد تحصيل العلم بعلمه فعليك نصحه لكن في الخلوة لما ذكرناه، ولا تظنن أن في ذكر العيوب ايحاش القلب فلا يكون من حقوق الأخوة، لأن الايحاش في عيب يعلمه صاحبه، وان لم يعلم فهو عين الشفقة. وأما ما يعلمه ولا يقدر على دفعه فلا يكشف سره فيه ان كان يخفيه، وان كان يظهره فلا بد فيه من النصح، بالتعريض تارة وبالتصريح أخرى الى حد لا يؤدي الى ايحاش، وان علمت ان النصح غير مؤثر وانه مجبور عليه فالسكوت عنه أولى.

وأما ما يتعلق بتقصيره في حقك: فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه، فالتعريض ليس من النصح في شيء. نعم ان كان بحيث يؤدي استمراره عليه الى القطيعة فالعتاب في السر خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والكناية خير من المشافهة، والاحتمال خير من الكل.

الخامس: العفو عن الزلات والهفوات. والهفوة اما في دينه أو في حقك.

أما الأول: فعليك التلطف في نصحه بما تقيم أوده وتجمع شمله وتعيد الى الورع والصلاح حاله، فإن لم تقدر وبقي مصراً فقد اختلف فيه الصحابة والتابعون؛ فذهب أبو ذر الى الانقطاع ورأى ذلك من البغض في الله؛ وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا الى خلافه، وقال أبو الدرداء: اذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى؛ وقال ابراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه، فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً، وكم من أخ زل ولم يتغير عليه أخوه حتى صار باعثاً على هدايته، ولعله لو ترك لكان باقياً على ذنبه.

وأيضاً: هذا وقت حاجته وعقد الأخوة مرصدة لوقت الحاجة، وأي حاجة أشد من فقر الدين. فهذه طريقة قوم، وهي ألطف وأفقه من طريق أبي ذر، وطريقته أحسن وأسلم، والأكثرون على خلاف أبي ذر حتى قال الشاعر:

وأغفر عوراء الكريم ادخاره ... واعرض عن شتم اللئيم تكرماً

وقال

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

السادس: الدعاء للأخ في حياته ومماته، فتدعو له كما تدعو لنفسك فانه دعاء لك على التحقيق. وفي الخبر: «اذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال له الملك: ولك مثل ذلك»؛ وفي الحديث: «دعوة الأخ لأخيه لا ترد»؛ وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل الميت في القبر مثل الغريق يعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب».

السابع: الوفاء والاخلاص. ومعنى الوفاء: الثبات على الحب وادامته الى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب أمر أخروي، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي. ومن ثمرات المودة: ان لا تكون مع حسد في دين ودنيا، فكيف يحسده وكل ما لأخيه فاليه ترجع فائدته؛ ومن الوفاء: أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وان ارتفع شأنه وعظم جاهه، والارتفاع على الأخوان مما يتجدد من الأحوال لؤم.

قال الشاعر

ان الكرام اذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم بالمنزل الخشن

ومن آثار الأخلاص وتمام الوفاء أن يشتد جزعه من المفارقة نفور الطبع من أسبابها، وأن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه، سيا من يظهر أولاً أنه صديقه و ينقل عنه ما يوغر الصدر فذلك من دقائق الجهل في التعريف، ومن الوفاء: أن لا يصادق عدو صديقه.

الثامن: التخفيف وترك التكلف والتكليف، بأن لا يكلف على أخيه ما يشق عليه بل يروح سره عن مهماته وحاجاته، و يرفهه عن تحمله شيئاً من أعبائه، ولا يستمد منه من جاه ومال، ولا يكلفه التواضع له والتفقد والقيام بحقوقه، بل لا يقصد بمحبته الا الله تعالى: تبركاً بدعائه، واستئناساً بلقائه، واستعانة به على دينه، وتقرباً به الى الله بالقيام بحقوقه، وبحمل مؤنه.

وتمام التخفيف على بساط التكليف أن لا يستحي منه فيما لا يستحي عن نفسه، ولا يعترض في نوافل العبادات، و يشاور في كل ما يقصده و يقبل اشارته، ولا يخفي عنه شيئاً من أسراره، و يرى نفسه دون أخيه، ويحسن الظن به و يسيء بنفسه، فإذا رآه خيراً من نفسه فعند ذلك يكون هو خيراً منه.

وتنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتخدمهم بجميع جوارحك؛ أما البصر: فتنظر اليهم نظر المودة يعرفونها منك، وتنظر الى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم، ولا تصرف بصرك عنهم في وقت اقبالهم اليك وكلامهم معك؛ وأما السمع: فإن تسمع كلامهم متلذذاً بسماعه ومصدقاً به ومظهراً للاستبشار فيه، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادة ومنازعة ومداخلة واعراض، فإن راهقك عارض اعتذرت اليهم، وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهونه؛ وأما اللسان: أن لا ترفع صوتك عليهم ولا تخاطبهم الا بما يفهمون وقد مر باقي حقوقه؛ وأما اليدان: أن لا تقبضهما عن معونتهم في كل ما يتعاطى باليد؛ وأما الرجلان فأن تمشي وراءهم مشي الاتباع لا مشي المتبوعين، ولا تتقدمهم الا بقدر ما يقدمونه ولا تقرب منهم الا بقدر ما يقربونه، وتقوم لهم اذا أقبلوا ولا تقعد الا بقعودهم، وتقعد حيث تقعد متواضعاً. ومهما تم الاخاء خفت جملة من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء، فأنها من حقوق الصحبة، وفي ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف. فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسلك فيه الا مسلك نفسه، ومهما صفت القلوب استغني عن تكلف اظهار ما فيها.

المطلب الخامس
في جمل من آداب المجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء

ان أردت حسن المعيشة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا، من غير ذلة له ولا هيبة منهم، وتوقر في غير كبر، وتواضع في غير مذلة، وكن من جميع أمورك

في أوسطها: كلاطر في قصد الأمور في ذميم. ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، واذا جلست فلا تستوفز، وتحفظ من تشبيك أصابعك، والعبث بلحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وادخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك، وطرد الذباب عن وجهك، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلوات وغيرها.

وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مترتباً، وأصغ الى الكلام الحسن ممن حدثك من غير اظهار تعجب مفرط، ولا تسأله اعادته، واسكت عن المضاحك من الحكايات. ولا تحدث عن اعجابك بولدك وجاريتك وشعرك وتصنيفك وسائر ما يخصك. ولا تفرط الزينة كالمرأة، ولا تتبذل كالعبيد، توق كثرة الكحل والاسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع احداً على الظلم، ولا تعلم ولدك وأهلك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك، فأنهم أن رأوا قليلاً هنت اليهم وان كان كثيراً لا تبلغ قط رضاهم، واجفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف، ولا تهازل امتك ولا عبدك فيسقط وقارك.

واذا خاصمت فتوقر، وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الاشارة بيدك، ولا تكثر الالتفات الى من وراءك، ولا تجث ركبتك، واذا هدأ غضبك فتكلم.

وان قربك سلطان فكن منه على حد السنان، وان استرسل اليك فلا تأمن من انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهيه، ولا يحملنك لطفه بك إلى أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه، فإن سقطة من هذا دأبة لا ينعس وزلة لا تقال. وأترك الغيبة والكذب، واحفظ السر، وأقلل الحوائج، وهذب الألفاظ، والأعراب في الخطاب أحسن، وذاكر بأخلاق الملوك، وأقلل المداعبة، وأكثر الحذر منهم وان ظهرت المودة، ولا تتجشأ بحضرته، ولا تتخلل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يتحمل كل شيء الا افشاء السر والقدح للملك والتعرض للحرم.

واياك وصديق العافية فأنه أعدى الأعداء. ولا تجعل مالك أكرم من

عرضك، واذا دخلت مجلساً فابدأ بالتسليم، ولا تتخط لمن سبق، والجلوس حيث اتسع، وحيث تكون أقرب الى التواضع أولى.

والأدب أن تحيي بالسلام من قربت منه عند الجلوس، ولا تجلس على الطريق فان وقع فغض البصر، وانصر المظلوم، وأغث الملهوف، وأعن الضعيف، وارشد الضال، ورد السلام، واعط السائل وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك أو تحت قدمك اليسرى.

ولا تجالس العامة فإن فعلت فأدبهم ترك الخوض في حديثهم وقلة الاصغاء الى أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة اليهم.

واياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب، اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترىء عليك، لأن المزاح يخرق الهيبة، و يذهب ماء الوجه، و يعقب الحقد، و يذهب بحلاوة الود، و يشين فقه الفقيه، ويجرىء السفيه، و يسقط المنزلة عند الحكيم، ويمقته المتقون، ويميت القلب، و يباعد عن الرب، و يكسب الغفلة، و يورث الزلة، و به تظلم السرائر وتموت الخواطر وتتبين العيوب. و يقال: لا يكثر المزاح الا من سخف أو بطر. ومن بلي في مجلس بمزاح فليقل قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قاله قبل أن يقوم من مجلسه غفر له ما كان في مجلسه ذلك».

المطلب السادس
في حق المسلم والرحم والجوار والملل

وأخص المخالطة القرابة، وذو الرحم المحرم آكد، ومنهم حق الوالدين آكد. وحق الصحبة لها درجات: الصحبة في الدرس والمكتب آكد، ثم صحبة السفر

والصداقة اذا قويت صارت أخوة، فإذا زادت صارت محبة، فإذا زادت صارت خلة. والمحبة ما يتمكن من حبة القلب، والخلة ما يتخلل القلب.

حقوق المسلم: ان تسلم عليه اذا لقيته، وتجيب اذا دعاك، وتشمته اذا عطس، وتعوده اذا مرض، وتشهد جنازته اذا مات، وتبر قسمه اذا أقسم عليه، وتنصح له اذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب اذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك. ورد في جميع ذلك أخبار وآثار.

ولا تؤذي أحداً بفعل وقول، وتتواضع لكل مسلم، ولا تتكبر عليهم، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض، ولا تزيد في الهجر على ثلاثة أيام، ويحسن على كل من قدر على الاحسان عليه ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل، ولا يدخل على أحد منهم الا بأذنه، بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف، ويخالق الجميع بخلق حسن، ويعاملهم بحسن طريقه، فإنه اذا أراد لقاء الجاهل بالعلم والعامي بالفقه والغني باليسار آذى وتأذى، ويوقر المشايخ ويرحم الصبيان.

ومن تمام توقير المشايخ: أن لا يتكلم بين أيديهم الا باذن، وفي الخبر: «ما وقر شاب شيخاً الا قيض الله له في سنه من يوقره». وفي هذا اشارة الى دوام الحياة فليتنبه له، فلا يوفق لتوقير الشيوخ الا من قضى له بطول العمر.

ويكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رفيقاً، ولا يعد مسلماً بوعد الا ويفي به، وأن ينصف الناس من نفسه، ولا يأتي اليهم الا ما يحب أن يؤتى اليه، وأن يزيد توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم، وان يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد اليه سبيلاً، وأن يستر عورات المسلمين كلهم حتى الحدود، كما قال صلى الله عليه وسلم لماعز لما أخبره: لو سترته بثوبك كان خيراً لك؛ وقال أبو بكر الصديق: لو رأيت أحداً على حد من حدود الله ما أخذته ولا دعوت له أحداً حتى يكون معي غيري.

و ينبغي أن يتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن وألسنتهم عن الغيبة، فأنهم اذا عصوا الله بذكره وكان هو السب فيه كان شريكاً؛ وأن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين عند من له منزلة عنده، فيسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه، وان يبدأ كل مسلم بالسلام قبل الكلام، و يصافحه عند السلام، وأن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر، و يرد عنه و يناضل دونه و ينصره، وأن يشمت العاطس ثلاثاً، واذا زاد فهو زكام: يقول العاطس: الحمد لله على كل حال، و يقول الذي يشمته: يرحمكم الله، و يرد العاطس فيقول: يهديكم الله و يصلح بالكم.

وأيضاً: اذا بلي بذي شر ينبغي أن يجامله و يتقيه، وأن يتجنب مخالطة الأغنياء، ويختلط بالمساكين ويحسن الى الأيتام، و يفعل النصيحة لكل مسلم، والجهد في ادخال السرور على قلبه. قال معروف الكرخي، من قال كل يوم ثلاث مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم أرحم أمة محمد، اللهم أفرج عن أمة محمد، كتبه الله من الأبدال.

و ينبغي أن يعود مرضاهم، والمعرفة والاسلام كاف في اثبات هذا الحق ونيل فضله. وآدابه: خفة الجلسة، وقلة السؤال، واظهار الرقة، والدعاء بالعافية، وغض البصر عن عورات الموضع. وأدبه عند الاستئذان: أن لا يقابل الباب و يدق برفق، ولا يقول: أنا إذا قيل: من، ولا يقل: يا غلام، لكن يحمد و يسبح. وفي الحديث: «تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده و يسأله كيف هو».

قال عثمان رضي الله عنه: مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، أعيذك بالله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شر ما تجد» قاله مراراً.

ودخل صلى الله عليه وسلم على علي رضي الله عنه وهو مريض، فقال له: «قل: اللهم أني أسألك تعجيل عافيتك، أو صبراً على بليتك، أو خروجاً من الدنيا» فأنك ستعطى أحداهن.

و يستحب للعليل أيضاً أن يقول: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: اذا اشتكى أحدكم بطنه فليسأل امرأته شيئاً من صداقها فيشتري به عسلاً فيشربه بماء السماء، فيجمع له الهنيء المريء والشفاء المبارك.

وآداب المريض: حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر، والفزع الى الدعاء والتوكل بعد الدعاء على خالق الدواء، قال صلى الله عليه وسلم: «يا أبا هريرة، ألا أخبرك بأمر هو حق، من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار، قلت: بلى يا رسول الله، قال: تقول: لا اله الا الله يحيي ويميت وهو حي لا يموت، سبحان رب العباد والبلاد، والحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه على كل حال، الله أكبر كبرياء ربنا وجلاله وقدرته بكل مكان، اللهم أن أنت أمرضتني لتقبض روحي في مرضي هذا فاجعل روحي في أرواح من سبقت لهم منك الحسنى، وباعدني من النار كما باعدت أولياءك الذين سبقت لهم منك الحسنى».

ومن الآداب: أن يشيع جنائزهم وأن يزور قبورهم. والمقصود الدعاء والاعتبار وترقيق القلب.

وأدب المعزي: خفض الجناح، واظهار الحزن، وقلة الحديث، وترك التبسم.

وأدب تشييع الجنازة: دوام الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتذكر في الموت، والاستعداد له، وأن يمشي أمام الجنازة بقربها، والاسراع بها.

وجملة الكلام: ان لا تستصغر أحداً منهم حياً كان أو ميتاً فتهلك لأنك لا تدري لعله خير منك، وان كان فاسقاً فلعله يختم بالصلاح وتختم أنت بمثل حاله، ولا تنظر اليهم بعين التعظيم في دنياهم فإن الدنيا صغيرة الى الله، واذا عظمت يستحق المقت، ولا تبذل دينك لدنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم، فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولا

تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض، ولا تطمع أن يكون لك في الغيب والسر كما في العلانية، فذلك طمع كاذب وأنى تظفر به، ولا تتكبر عليهم لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك اليهم عقوبة على فعلك، واذا قضى أحد حاجتك فهو أخ مستفاد فإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدواً، ثم انك لا تقدر مقاساته.

ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك و يعاديك، ولا تعظ الا ارسالاً من غير تنصيص على أحد، واذا رأيت منهم خيراً فأشكر الله الذي سخرهم لك واستعذ بالله أن يكلك اليهم، واذا رأيت شراً أو بلغك منهم غيبة أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم الى الله واستعذ بالله من شرهم، ولا تشغل بالمكافأة فيزيد الضرر و يضيع العمر، ولا تقل لهم: لم لا تعرفون قدري وموضعي، واعتقد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موضعاً في قلوبهم فالله المحبب والمبغض للقلوب، وكن سميعاً لحقهم أصم من باطلهم نطوقاً بحقهم صموتاً عن باطلهم.

وأحذر صحبة أكثر الناس: فأنهم أن صحبوك لا يقيلون العثرة، ولا يغفرون الزلة، ولا يسترون العورة، ويحاسبون على النقير والقطمير، ويحسدون على القليل والكثير، ينتصفون ولا ينصفون، و يؤاخذون ولا يعفون، يعيرون الاخوان بالنميمة والبهتان، فصحبة أكثرهم خسران، وقطيعتهم رجحان، ان رضوا فظاهرهم الملق، وان سخطوا فباطنهم الحنق، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب، يقطعون بالظنون و يتغامزون وراءك بالعيون، و يتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليجبهوك بها في غضبهم ووحشتهم.

ولا تعول على مودة من لم تخبره في حق الخبرة، بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد، فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره، وتسافر معه أو يعاملك في الدينار الدرهم، أو تقع في شدة فتحتاج اليه. فإن رضيته في هذه الأحوال فاتخذه أباً لك ان كان كبيراً أو ابناً ان كان صغيراً، أو أخاً ان كان مثلك.

المطلب السابع
حقوق الجوار

اعلم: أن للجوار حقاً وراء ما يقتضيه أخوة الإسلام؛ وفي الحديث: «الجار المسلم ذو الرحم له ثلاثة حقوق: حق الجوار وحق الاسلام وحق الرحم، والجار المسلم له حقان: الجوار والإسلام؛ والجار الكافر له حق واحد للجوار».

وليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى، بل لابد من الرفق واسداء الخير والمعروف. يقال: ان الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة و يقول: يا رب سل هذا لم منعني معروفه وسد بابه دوني.

وجملة حق الجار: أن يبدأ بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، و يكثر عن حاله السؤال، و يعوده في المرض، و يعزيه في المصيبة، و يقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، و يظهر الشركة في السرور معه، و يصفح عن زلاته ولا يطلع من السطح الى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء من ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طريقه الى داره، ولا يتبعه بالنظر فيما يحمله الى داره، و يستر ما ينكشف له من عوراته، و يعينه اذا نابته نائبة، ولا يغفل عن تعهد داره عند غيبته، ولا يتسمع عليه كلاماً، و يغض بصره عن حرمه، ولا يديم النظر الى خادمه، و يتلطف لولده في كلامه، و يرشده الى ما جهله من أمر دينه ودنياه. هذا الى جملة الحقوق التي ذكرناها للمسلمين عامة.

قال صلى الله عليه وسلم: «أتدرون ما حق الجار، ان استعان بك أعنته، وان استقرضك أقرضته، وان افتقر جدت عليه، وان مرض عدته، وان مات اتبعت جنازته، وان أصابه خير هنأته، وان أصابه مصيبة عزيته، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا بأذنه، واذا أشتريت فاكهة فأهد له فان لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك الا أن تغرف له منها؛ أتدرون ما حق الجار، والذي نفسي بيده لا يبلغ حق

الجار الا من رحمه الله ». هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه صلى الله عليه وسلم.

المطلب العاشر

حقوق الأقارب

قال صلى الله عليه وسلم: « يقول الله: أنا الرحمن، وهذه الرحم، شققت لها اسم من أسمى فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته »؛ وقال صلى الله عليه وسلم: « من سره أن ينسأ له في أثره و يوسع له في رزقه فليتق وليصل رحمه ». روى أن عمر رضي الله عنه كتب الى عماله: مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ــ انما قال ذلك لأن التجاور ربما يورث القطيعة.

حقوق الوالدين والولد

أعلم: أن آكد الحقوق القرابة وآكدها قرابة الولاد. قال صلى الله عليه وسلم: « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله »؛ وقال: « بر الوالدة على الوالد ضعفان »؛ وقال « الوالدة أسرع اجابة؛ قيل: يا رسول الله ولم ذلك؟ قال: هي أرحم من الأب ودعوة الرحيم لا تسقط ».

وطاعة الأبوين واجبة في الشبهات وان لم تجب في الحرام المحض، وليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة الا بأذنها، والمبادرة الى الحج ــ الذي هو فرض الإسلام ــ كالنفل، لأنه على التأخير، والخروج لطلب العلم نفل، الا اذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك. قال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الغلام يعق عنه اليوم السابع و يسمى ويماط عنه الأذى، فإذا بلغ ست سنين أدب، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشرة ضرب على الصلاة، فإذا بلغ ست عشرة زوجه، ثم أخذ بيده وقال: أدبتك وعلمتك وأنكحتك، أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة ».

وقيل: ولدك ريحانك سبعاً وخادمك تسعاً، ثم هو عدوك أو صديقك. قال صلى الله عليه وسلم: «حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده»، وقال صلى الله عليه وسلم: «اذا استصعبت على أحدكم دابته، وساء سوء خلق زوجته لواحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه».

المطلب الحادي عشر

حقوق الملك

وهو أما ملك النكاح وقد مر، وأما ملك اليمين، وهو آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «أتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبدلوا، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم اياهم ولو شاء ملكهم اياكم»؛ قال صلى الله عليه وسلم: «اذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلوى فأنه أطيب لنفسه»، رواه معاذ؛ وقال صلى الله عليه وسلم «: اذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليمسكه فليؤكله معه وان لم يفعل فليناوله»، رواه أبو هريرة.

فجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته، ولا يكلفه فوق طاقته، ولا ينظر اليه بعين الكبر والازدراء، وأن يعفو عن زلته، و يتفكر عند غضبه عليه بهفواته أو جنايته في معاصيه، وجنايته على حق الله وتقصيره في طاعته، مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته عليه.

الأصل السادس
في آداب العزلة

المطلب الأول
في فضلها وكراهتها

وأختار الأول: سفيان الثوري وابراهيم بن أدهم وداود الطائي والفضيل بن عياض وسليمان الخواص ويوسف بن اسباط وحذيفة المرعشي وبشر الحافي؛ واختار الثاني سعيد بن المسيب والشعبي وابن أبي ليلى وهشام بن عروة وابن شبرمة وشريح وشريك بن عبد الله وابن عيينة وابن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل وجماعة كثيرة.

المطلب الثاني
في فوائد العزلة

وهي ست:

الأولى: الفراغ للعبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاستكشاف بأسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة اليه. ولذلك تبتل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره في جبل حراء، وانعزل اليه حتى قوي فيه نور النبوة، فكان الخلق بحيث لا يحجبونه عن الله تعالى، فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلاً على الله تعالى.

ولن يتسع للجمع بين المخالطة ظاهراً والاقبال على الله سراً الا قوة النبوة فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء اليه. وقد نقل عن الجنيد أنه قال: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلمهم. وهذا انما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبقى لغيره فيه متسع، وهذا غير منكر اذا لأنسان ربما يلقى همه في أمر من أمور دنياه ويخالط ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم، وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء من ذلك.

واذا عرفت ذلك: فمن تيسر بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر تحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل، فإن المطلب الأعلى ان يموت الانسان محباً لله عارفاً بالله، وأصل ذلك الخلوة والعزلة.

الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الانسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة، وهي أربعة:

أحدها: الغيبة. وهي التي يتفكه بها الانسان ويتنقلون، فهي طعمتهم ولذتهم، فأما وافقتهم أثمت، أو سكت فكنت شريكاً لهم، والمستمع أحد المغتابين، أو أنكرتهم فأبغضوك واغتابوك فأزدادوا غيبة الى الغيبة، وربما انتهوا الى الاستخفاف والشتم.

وثانيها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهو أصل من أصول الدين، فإن سكت عصيت الله تعالى، وان أنكرت تعرضت لأنواع من الضرر، وربما يجره طلب الخلاص منها الى معاصي هي أكثر مما نهى عنه ابتداء.

وثالثها: الرئاء. فهو الداء العضال الذي يعسر التحفظ على الأوتاد والأبدال، وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا. وأقل ما يلزم فيه النفاق، فأنك ان خالطت متعاديين ولم تلق كل واحد منهما بوجه توافقه صرت بغيضاً اليهما جميعاً، وان جاملتهما كنت شرار الناس. وأقل ما يجب في مخالطة الناس اظهار الشوق والمبالغة فيه، ولا يخلو ذلك عن كذب أما في الأصل أو في الزيادة، واظهار

الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك: كيف أنت وكيف أولادك وأنت فارغ القلب من هومهم، وذلك نفاق محض.

ورابعها: مسارقة الطبع لما يشاهد من أخلاق الناس وأعمالهم. فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين. ومن جالس فاسقاً مدة يرى في نفسه أنه لا يستثقل الفساد مثل استثقاله قبل ذلك، اذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع و يسقط استعظامه، فإذا طالت صحبته أوشك أن يتخلل القوة الرادعة و يذعن لطبع للميل اليه أو دونه، ومن طال مشاهدته للكبائر استحقر الصغائر من نفسه ثم أثم بالغا ما بلغ.

الثالثة: الخلاص عن الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها، وقلما تخلو البلاد عنها.

الرابعة: الخلاص من شر الناس من الغيبة وسوء الظن بك والتهمة عليك، والاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وربما يسيئون الظن بسبب توهمهم، قال المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

الخامسة: ان ينقطع طمع الناس عنك و ينقطع طمعك عنهم.

أما انقطاع طمعهم عنك ففيه كل الجدوى، لأن رضا الناس غاية لا تدرك، فأشتغال المرء بصلاح نفسه أولى، ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا.

وأما انقطاع طمعك عنهم: فان من نظر الى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى الخيبة في أكثر الأطماع فيتأذى به، ومهما اعتزل لم يشاهد ولم يشته ولم يطمع. ومن شاهد زينة الحياة الدنيا فأما أن يقوى دينه و يقينه فيصبر، والصبر أمر من الصبر، ويحتال في طلبها فيهلك في الدنيا بالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات، وفي الآخرة بايثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى.

السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقاء ومقاساة أخلاقهم فإن رؤية الثقيل هي العمى الأصغر. وأيضاً: في رؤية الثقيل خوف ارتكاب غيبته واستنكار ما هو صنع الله تعالى.

وفي العزلة أمان من جميع هذه الآفات.

المطلب الثالث

آفات العزلة

وهي سبع:

الأولى: التعليم والتعلم. وهما أعظم العبادات ولا يتصورا الا بالمخالطة، والعزلة قبل تعلم المفروض من العلم عصيان، فمن يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل غاية الخسران، ولذلك قال النخعي وغيره: تفقه ثم اعتزل. الا أن المراد ينبغي أن لا تكون اقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع، والتقدم على الأقران، والتقرب عند السلطان، وتولى الأعمال، واجتلاب الأموال، لأن هذه الأمور هلاك الدين.

وأيضاً: أن يتعلم علماً هو سبب لأثاره الخوف من الله، لا ما يتوصل به الى أفحام الأقران والمنافسة والمباهاة: كطلب الكلام الجدلي، والفقه الخلافي، والمواعظ المزخرفة، اذ العزلة خير من تعلم هذه. فإن صودف طالب لله ومتقرب الى الله، فالاعتزال عنه وكتمان العلم عنه أكبر الكبائر. الا أن مثل ذلك في بلد كبير في زماننا هذا واحد أو اثنين.

ولقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال: دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك، فليس لك منهم مال ولا جمال، اخوان العلانية أعداء السر، اذا لقوك تملقوك واذا غبت عنهم سلقوك، ومن أتاك منهم كان عليك رقيباً وإذا خرج كان عليك خطيباً، أهل نفاق وغيبة وغل وخديعة، فلا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم بل الجاه والمال، وان يتخذوك سلماً الى أوطارهم وحماراً

في حاجاتهم، ان قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك، ثم يعدون ترددهم عليك دالة عليك، و يرونه حقاً واجباً لديك، و يعرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك، فتعادي عدوهم وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم، وتنتهض لهم سفيهاً وقد كنت فقيهاً، وتكون لهم تابعاً خسيساً بعد أن كنت متبوعاً رئيساً.

وهذا كلام حق وصدق رحم الله من قاله، فأنك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد اليهم، فكأنه يهدي تحفة اليه فيرى حقه واجباً عليه، وربما لا يختلف اليه ما لم يتكفل له على مساعدة أغراضه الفاسدة الذميمة. ثم المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك و يبذل دينه وعرضه في أبواب الظلمة لأجل أغراضهم الذميمة، ومع ذلك نسبوه الى الحمق وقلة التميز والقصور عن درك مقادير الفضل، وسلقه السفهاء بألسنة حداد، وثاروا عليه ثوران الأساود والآساد، ومع هذا كله تمنيه نفسه بالأباطيل وتدليه بحبل الغرور، و يقول: انما أفعله مريداً وجه الله واذاعة شرع رسوله وناشراً دين الله، و يصير المسكين ضحكة الشيطان و يؤول سعيه وجده الى الخسران، وكيف لا وليس فساد الزمان الا بكثرة هؤلاء الفقهاء أولى الضلال الخذلان.

الثانية: النفع والانتفاع، لأن كلاً منهما بالمخالطة، فالمحتاج الى الكسب في جهاد المخالطة، وما كان معه ما يقنع به فالعزلة أفضل وأولى الا أن يريد التكسب ليتصدق، فهو أفضل من العزلة لأجل النوافل لا لأجل التحقق في معرفة الله تعالى ومعرفة علوم الشرع، ولا من العزلة للأقبال بكنه الهمة على الله والتجرد به للذكر. وأما النفع فأما بماله أو ببدنه، فيقوم بحاجات المسلمين حسبة لله على حدود الشرع، فهو أفضل من العزلة بنوافل الصلوات والأعمال البدنية. وأما الأعمال القلبية من المعارف فلا معادل لها أصلاً وقطعاً.

الثالثة: التأديب والتأدب. بكسر النفس، وقهر الشهوات بتحمل أذى الناس. وهو أفضل من العزلة لمن لم تتهذب بعد أخلاقه، كخدام المتصوفة في الزمان الأول، اذ هم اليوم توسلوا بالخدمة الى انتفاع المال والتكبر بالاستتباع. وأما التأديب فهو حال شيخ المتصوفة معهم فلا بد له من المخالطة، وحاله معهم

حال المعلم مع المتعلم وحكمه حكمه، و يتطرق اليه دقائق الآفات ما يتطرق الى نشر العلم كالرئاء، الا أنه أقل فيهم من غيرهم ولذلك قل أهله.

الرابعة: الاستئناس والايناس. وذلك قد يكون حراماً كمجالس الغيبة واللهو، وقد يكون مباحاً في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى. و يستحب اذا كان الغرض ترو يح القلب، فإن القلوب اذا أكرهت عميت، ومهما كان في الوحدة وحشة، وفي المجالسة ترو يح القلب فهي أولى اذا كان في بعض أوقات النهار. وربما يكون أفضل في حق البعض دون البعض، فليتفقد فيه أحوال القلب وتأمل أحوال الجليس ثم أجلس معه.

الخامسة: في نيل الثواب وانالته. أما النيل: فبحضور الجنائز وعيادة المرضى وحضور العيدين والجمعة والجماعات. وهؤلاء سيما حضور الجمعة والجماعات ــ واجب وليس في العزلة ما يعادله، اللهم الا نادراً. وأما الانالة فهي فتح بابه للتعزية والتهنئة أو العيادة وكذا الزيارة ان كان عالماً. في هذه الصور ينبغي أن يوزن ثواب هذه بآفاتها و يرجح ما ترجح.

السادسة: التواضع. فأنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه من الوحدة، وقد يكون الكبر أيضاً سبباً في اختيار العزلة، ومانعه عن المخالطة أن لا يوقر في المحافل ولا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأبقى لطراوة ذكره بين الناس. وقد يعتزل خوفاً من أن تظهر مقابحه فيتخذ من البيت ستراً عليها، وعلامة ذلك أن يحب أن يزار دون أن يزور، و يفرح بتقرب العوام والسلطان واجتماعهم على بابه وتقبيلهم يده على سبيل التبرك، فلا تكون عزلته للاشتغال بنفسه. وفي ذلك جهل من وجهين:

أحدهما: أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو كبير بعلمه أو دينه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتواضعون غاية التواضع.

وثانيها: أن الخلق لا يغنون من الله سيفاً وان ضرره ونفعه بيد الله، وان من طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضا الناس غاية لا تدرك.

السابعة: التجارب. اذ العقل الغريزي كاف بها في مصالح الدين والدنيا، فينبغي أن يتعلم أولا ويحصل ما يكفيه من التجارب ثم يعتزل. ومن جملة ذلك: الأخلاق الذميمة في النفس من الحقد والحسد والغضب ونحو ذلك، فأنها دفينة في النفس بما يسلم المعتزل عنها و يظن نفسه خالية عنها، وعند المخالطة تتحرك و يظهر خبثها فلها في أظهار الخبائث فائدة جليلة.

اذا عرفت فوائد العزلة وآفاتها، فينبغي أن ينظر الى الشخص وحاله، و يقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق و يتضح الأفضل. وما وقع في مدح العزلة أو مدح المخالطة من كلام الصوفية والحكماء فليس ذلك على اطلاقه، بل ذلك حكاية غالب أحواله، فلا تغتر بذلك، اذ لكل شخص حال ولكل حال حكم.

وأما آداب العزلة فهي: أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس أولاً، ثم طلب السلامة من الاشرار ثانياً، ثم الخلاص من آفات الاختلاط ثالثاً، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعاً، ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر، ليجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش عليه وقته، وليكف عن السؤال عن أخبارهم والأصغاء الى أراجيف البلد، فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب.

وبالجملة: يقطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله، وليقنع باليسير من المعيشة والا اضطره التوسع الى الناس، وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه اليه عن كد المواظبة في اليوم ساعة ففيه عون على بقية الساعات. ولا يتم له الصبر في العزلة الا بقطع الطمع عن الدنيا وما في أيدي أهلها، وطريق ذلك أن لا يقدر لنفسه عمراً طويلاً بل يصبح على أنه لا يمسي ويمسي على أنه لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم واحد، والا فلا يسهل عليه الصبر عشرين سنة أو قدر تراخي الأجل.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة،

وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، ومن أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه، اذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله تعالى عليه ورحمته، كما قال تعالى في الشهداء: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾[1]. وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت اذ الجهاد الأكبر جهاد النفس.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

الأصل السابع
في آداب السفر

اعلم: أن السفر أما ظاهر بالبدن أو باطن بالقلب عن أسفل السافلين الى ملكوت السموات. وهذا أشرف من الأول، لكن لما كان فيه خطب خطير وغموض السبيل لم يستغن فيه عن مرشد ودليل، و يتوقف أيضاً على القناعة بالعيش القليل عن الحظ الجليل ـــ اندرست مسالكه وانقطعت فيه الرفاق، وخلت عن الطائفين متنزهات الأنفس والآفاق، فنحن نذكر شروطه وآدابه في مطالب.

المطلب الأول
الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع

واعلم: أن للسفر فوائد وأقساماً:

القسم الأول: طلب العلم. وهو اما واجب أو نفل بحسب كون العلم واجباً أو نفلاً؛ وذلك أما بأمور دينية، وفي الخبر: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً الى الجنة»؛ وأما علم بأخلاقه في نفسه وذلك أيضاً مهم في سلوك طريق الآخرة. ولا يمكن الاطلاع على أسرار باطنه وخبائث صفاته مثل ما يطلع عليه بالسفر، حتى أنه يسمى بالسفر بأنه يسفر عن الأخلاق، وذلك لأن النفس فيما بين مألوفاتها لا تظهر خبائث أخلاقها فإذا فارقها انكشفت؛ وأما علم بآيات الله في أرضه اذ في مشاهدتها فوائد للمستبصر، وذلك لأنه ما من شيء الا وهو شاهد لله تعالى بالوحدانية ومسبح

له بلسان ذلق لا يدركه الا من ألقى السمع وهو شهيد، أما الجاحدون المغترون بظاهر زهرة الدنيا فهم عن السمع معزولون، وعن آيات ربهم محجوبون، يعلمون ظاهراً من الحياة وهم عن الآخرة غافلون؛ وما أريد بالسمع: السمع الظاهر، بل السمع الذي يسمع كلام الجدار من الوتد اذ قال الجدار: لم تشقني؟ قال الوتد: سل من يدقني فإن الحجر الذي ورائي لم يتركني ورائي. وما من ذرة في الأرض والسموات الا ولوحدانيتها شاهدات ولكن لا يفقهون تسبيحهم.

ومثل هذا السمع واستقراء الأسطر المكتوبة بالخطوط الالهية على صفحات الكائنات لا يحتاج الى السفر، بل يمكن وهو في بيته قعيد لمن ألقى السمع وهو به شهيد. فأعتبر هذا الملك بملك الدنيا فأنه يقل بالاضافة الى كثرة الخلق طلابه، ومهما عظم المطلوب قل المساعد، ثم الذي يهلك أكثر من الذي يملك.

قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ولا يتصدى لطلب الملك العاجز الجبان لعظم الخطر وطول التعب. قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك في الدين والدنيا الا في متن الخطر، قد يسمى الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحذر. قال الشاعر:

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

القسم الثاني: السفر لأجل العبادة: أما لجهاد أو حج، وقد ذكرنا آدابه. وقد يدخل فيه زيارة قبور الأنبياء والصحابة والتابعين والعلماء والأولياء، اذ كل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارة قبره بعد وجوه العلماء والصلحاء عبادة؛ وفيه أيضاً: تحريك الرغبة في الاقتداء بهم وفاته. ولزيارة الأحياء فوائد بركة الدعاء والنظر اليهم فإن النظر اليهم والتخلق بأخلاقهم

وآدابهم، مع ما يستفاد منهم من أنفاسهم وأفعالهم. وأما البقاع فالمساجد الثلاثة لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» وأيضاً الثغور للرباط بها لا غير.

القسم الثالث: أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين اذ الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين. ومما يجب الهرب منه: الولاية والجاه وكثرة العلائق والأسباب، اذ الدين لا يتم الا بقلب فارغ من غير الله، ولا يتصور الفراغ من المهمات والحاجات الضرورية ولكن يتصور تخفيفها، وقد نجا المخففون وهلك المثقلون، وهذه نعمة عظيمة من الله تعالى لعباده، وله الحمد حيث لم يجعل النجاة في الفراغ المطلق من جميع الأوزار والأعباء، بل قبل المخفف بفضله ورحمته، والمخفف الذي ليست الدنيا أكبر همته وكان لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علائقه، فلا بد له من العزلة والخمول وقطع العلائق التي له عنها بد حتى يروض نفسه مدة، الى أن يمن الله تعالى عليه حتى يستوي عنده الحضر والسفر والعلائق وعدمها، لكن ذلك مما يعز وجوده جداً.

ومنهم من هرب حذراً من الشهرة اذا قام في بلد، ومن المتوكلين من يختار السفر لأنه يرى في الاقامة اعتماداً على الأسباب ويراه قادحاً في التوكل.

القسم الرابع: الهرب مما يقدح في البدن كالطاعون أو في المال كغلاء السعر وما يجري مجراه، ولا حرج في ذلك اذ الفرار قد يجب وقد يستحب بحسب ما يترتب عليه من الفوائد، ولكن يستثنى عنه الطاعون لورود النهي في الهرب عنه، وستعرف حاله مفصلاً في قسم التوكل.

واذا عرفت أقسام الأسفار، فقد ظهر لك منه أن السفر: أما مذموم وهو قد يكون حراماً كالاباق وسفر العاق، وقد يكون مكروهاً كالخروج من بلد الطاعون، وأما محمود وهو قد يكون واجباً كالحج وطلب العلم، وقد يكون مندوباً كزيارة العلماء والمشاهد المتبركة، وأما مباح كطلب المال للتعفف عن السؤال واقامة المروءة في العيال.

فاعلم: فضيلة السفر وفضيلة الاقامة مثل حال العزلة والخلطة فتعرف أحوالها من حالها، والأفضل منها ما هو الا عون في الدين، والسفر لأجل التعلم محمود والاقامة لأجل العمل محمود، وأما السياحة على الأرض فمن المشوشات للقلب الا في حق الأقوياء، اذ الشغل بالحط والترحال مشوش الأحوال.

وأيضاً: يشغل قلبه بالخوف على النفس والمال، اللهم الا أن يطلب العلم، أو شيخاً يقتدى في سيرته، وان أمكن هذا بدون السفر فالسكون أولى، خصوصاً طلب شيخ التصوف فأنه في زماننا هذا يعز وجوده على بسيطة الأرض، اذ أكثرهم تلبسوا بالمرقعات، واتخذوا من الخانقاهات منزهات، وليسوا على الناس بما تلفقوا ألفاظاً مزخرفة من الطامات، فيظنون بأنفسهم خيراً و يتوهمون أن المشاركة في الظواهر توجب المساهمة في الحقائق، فهيهات ما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم.

وأما السائحون من غير مهم في الدين والدنيا لمحض التفرج في البلاد كالبهائم المترددة في الصحاري فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم، اذ لا بأس بأتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به و يعود اليه، فالفتوى تقتضي تسبيب العوام في المباحات.

المطلب الثاني

في آداب السفر من أول النهوض الى آخر الرجوع

وهي أحد عشر أدباً:

الأول: أن يبدأ برد المظالم والودائع وقضاء الديون واعداد النفقة له ولعياله من الحلال، وليأخذ قدراً يوسع به لرفقائه.

الثاني: أن يختار رفيقاً لما قيل: الرفيق ثم الطريق. وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين، فيذكره اذا نسي، و يعينه اذا ذكر، والمسافر وحده منهى عنه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الثلاثة نفر»؛ وقال: «خير الأصحاب

أربعة »؛ وقال: « اذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم ». وليؤمر أحسنهم أخلاقاً وأرفقهم للأصحاب وأسرعهم إلى الايثار وطلب الموافقة، وانما يحتاج الى الأمين لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر، ومهما كان المدبر واحداً انتظمت الأمور، وانما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد. و ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ﴾[1].

وخير الرفقاء الأربعة، لأن الرجل يحفظه آخر ويحتاج الى آخر عند التردد في الحاجة، ولا بد للتردد أيضاً من رفيق. وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة فلا ينعقد بينهم التوافق في الرفاقة الخاصة. وأما الرفاقة العامة فتحتاج الى الجماعة الكثيرة للأمن من المخاوف.

الثالث: أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء وليدع لهم، وليقل أني أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك؛ وأهله يقولون له: زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث توجهت.

الرابع: أن يصلي قبل السفر صلاة الاستخارة وقد عرفتها، ثم يصلي في بيته أربع ركعات ــ اذا شد عليه ثياب سفره ــ يقرأ فيهن بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد. ثم يقول: اللهم اني اقتربت اليك فأخلفني بهن في أهلي ومالي. فهي خليفة في أهله وماله وحرز حول داره حتى يرجع إلى أهله.

الخامس: اذا حصل على باب الدار فليقل: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، أعوذ بك من أن أضل أو أُضَل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يجهل علي.

فإذا مشى قال: اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت واليك توجهت؛ اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي، فأكفني ما أهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني، عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك؛ اللهم زودني التقوى وأغفر لي ذنبي ووجهني الى الخير أينما توجهت. وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٢٢.

فإذا ركب فليقل: بسم الله وبالله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون.

فإذا استوت الدابة تحته فليقل: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان في الأمور.

السادس: أن يرحل من المنزل بكرة، ويستحب أن يبتدىء بالخروج يوم الخميس. روى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وبكر وقال: اللهم بارك لأمتي في بكورها. وروى ابن كعب بن مالك عن أبيه قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج الى سفر الا يوم الخميس. روى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم السبت».

قال عبد الله بن العباس: اذا كان لك الى رجل حاجة فأطلبها اليه نهاراً ولا تطلبها ليلاً، وأطلبها بكرة فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بارك لأمتي في بكورها».

ولا ينبغي أن يسافر في بكرة يوم الجمعة فيكون عاصياً بترك الجمعة واليوم المنسوب اليها فكان أوله من أسباب وجوبها. والتشييع للوداع مستحب وهو سنة.

السابع: أن لا ينزل حتى يحمي النهار وهو السنة، ويكون أكثر سيره بالليل ــ قال صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار» ــ ومهما أشرف على المنزل فليقل: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه، أصرف عني شر شرارهم.

فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين، ثم ليقل: أعوذ بكلمات الله التامات

التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق.

فإذا جن عليه الليل فيقول: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن ساكن البلد ووالد وما ولد، له ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم.

ومهما علا شرفاً من الأرض في وقت السير يقول: اللهم ان لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال.

ومهما هبط سبح، ومهما خاف الوحشة في سفره قال: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت.

الثامن: أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفرداً عن القافلة لأنه ربما يغتال وينقطع عن القافلة، وأن يتحفظ بالليل عند النوم بأن يتناوب الرفقاء في الحراسة وهو السنة، فإذا نام آخر الليل نصب ذراعه وجعل رأسه في كفه لئلا يشتغل بالنوم فيفوته الصلاة.

واذا قصده عدو أو سبع فليقرأ آية الكرسي وشهد الله الآية والأخلاص والمعوذتين، وليقل: بسم الله ما شاء الله لا قوة الا بالله، حسبي الله توكلت على الله، ما شاء الله لا يأتي بالخير الا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز، تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحي الذي لا يموت، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا، اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وامائك برأفة ورحمة انك أنت أرحم الراحمين.

التاسع: أن يرفق بالدابة راكباً ولا يحملها ما لا تطيق، ولا يضرب في وجهها فأنه منهى عنه، ولا ينام عليها فإنه تتأذى به الدابة اذ يثقل بالنوم. ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية، وفيه فوائد: ترويح الدابة،

وادخال السرور على قلب المكاري، ورياضة البدن والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب. وينبغي أن يعرض كل ما يحمله على المكاري لئلا يثور بينهما نزاع فليتحرز عن اللجاج وكثرة الكلام مع المكاري.

العاشر: يستصحب ستة أشياء ــ بذلك وردت السنة: المرآة والسواك والمكحلة والمشط والقارورة والمقراض. وزاد الصوفية: الركوة لحمل الماء الطاهر، والحبل لنزع الماء وتجفيف الثوب المغسول، وزاد بعضهم الابرة بخيوطها؛ وبعضهم استغنوا عن الركوة بالتيمم وبالطهارة من الغدران ما لم يتيقنوا بنجاستها، وعن الحبل بالجبال والأرض فيفرشون الثياب المغسولة عليها.

الحادي عشر: في آداب الرجوع من السفر. كان صلى الله عليه وسلم اذا قفل من غزو أو حج أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات، ويقول: «لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

واذا أشرف على مدينته يقول: اللهم أجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً. ثم ليرسل الى أهله من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة فيرى ما يكره. ولا ينبغي أن يطرقهم ليلاً فقد ورد النهي عنه، وكان صلى الله عليه وسلم اذا قدم دخل المسجد وصلى ركعتين، ثم دخل البيت وقال: توبا توبا لربنا أوبا لا يغادر علينا حوبا.

والسنة: أن يحمل لأهل بيته ولأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر امكانه، لأن الأعين تمتد إلى القادم من السفر، والقلوب تفرح به، وبذلك يتأكد فرحهم.

المطلب الثالث
في الآداب الباطنة

وقد ذكر نبذ منها، وجملة ذلك: أن لا يسافر الا لزيارة أمر ديني، وينوي

في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها، ويجتهد أن يستفيد منهم أدباً أو كلمة ينتفع بها لا ليحكي ذلك عنهم، و يظهر أنه لقي المشايخ، ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام، الا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك، ولا يجالس في مدة الاقامة الا الفقراء والصادقين. وان زار أخاً له فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حد الضيافة الا اذا شق على أخيه مفارقته.

واذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة، ولا يشتغل بالعشرة فإن ذلك يقطع بركة سفره. وان كان الشيخ في بيته فلا يدق عليه بابه ولا يستأذن عليه الى أن يخرج، فإذا خرج تقدم اليه بأدب. ولا يتكلم بين يديه الا أن يسأله، فإن سأله، أجاب بقدر السؤال، ولا يسأله عن مسألة ما لم يستأذن أولاً.

وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأسخياءهم ولا أصدقاءه فيها، وليذكر مشايخها وفقراءها، ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين، و يلازم في الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لا يسمع غيره. واذا كلمه انسان فليسكت عند الذكر وليجبه ما دام يحدثه ثم ليرجع الى ما كان عليه. فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها فالبركة في مخالفة النفس. فإذا تيسرت خدمة قوم صالحين فلا ينبغي أن يسافر تبرماً لخدمة فذلك كفران نعمة، وان لم يحصل له في السفر زيادة في الدين فليرجع، اذ لو كان بحق لظهر أثره.

المطلب الرابع

في رخص المسافر وأدلة القبلة والأدوات

والرخص ست: رخصتان في الطهارة: المسح على الخف ثلاثة أيام ولياليها والتيمم؛ ورخصتان في التفل: أداؤه على الراحلة، وأداؤه ماشياً؛ ورخصة في الصلاة: وهو القصر؛ ورخصة في الصوم: وهو الفطر بنية القضاء في الفرض. وتفصيل ذلك في علم الفقه.

وأما أدلة القبلة فثلاثة: أرضية: كالاستدلال بالجبال والقرى والأنهار؛

أو هوائية: كالاستدلال بالرياح، وهما يختلفان فيصعب الاستدلال بها؛ وأما السماوية: فالشمس في النهار، فلا بد أن يراعي قبل السفر أن الشمس عند الزوال أين تقع منه اذا توجه الى القبلة: أهي على العين اليمنى أو اليسرى، أو على الجبين، وكذا بموقع الغروب وبالمشرق، ويعرف اختلاف هذه صيفاً وشتاء.

فإذا بعدت البلاد تتفاوت هذه الأمور، فينبغي أن يسأل من أهلها أو يجرب ذلك من مساجدها، فإن بان أنه أخطأ، فإن وافق الجهة فيها والا يعيد الصلاة. وأما مقابلة الجهة فبأن تقع الكعبة بين الخطين الخارجين من جهة المصلي على هيئة ساقي المثلث الى الأفق، فإن كانت الكعبة ههنا تصح الصلاة والا فلا. وأما أمر الأوقات ففي كتب الفقه مفصلاً فارجع اليها لعلك ترشد بها.

الأصل الأول
في آداب السماع والوجد

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في حله وحرمته

فقد نقل عن أبي حنيفة ومالك والشافعي وجماعة من العلماء. وأما الآثار فمختلفة في الحرمة والاباحة، ومهما تعارضت يبقى التقليد الى أحد الجانبين قصوراً، فينبغي أن يبحث عن مدارك الحظر والاباحة.

اعلم: أن أمر الحرمة لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع، أما بالنص وهو ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله، أو بالقياس. فإن لم يوجد فيه نص فلم يوجد فيه قياس بطل القول بتحريمه وبقي كسائر المباحات.

ثم نقول: وقد دل النص والقياس جميعاً على اباحته. أما القياس فهو: أن السماع سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك القلب، فالوصف الأعم انه صوت طيب. ثم هو اما موزون أو غيره، ثم الموزون اما مفهوم أو غيره.

فهذه درجات:

الدرجة الأولى: الصوت الطيب من حيث هو طيب، فلا يحرم بل حلال بالنص والقياس. أما القياس فهو: أنه يرجع الى تلذذ حاسة السمع بادراك ما

هو مخصوص به، وهي أما مستلذة كصوت البلابل، أو مستكرهة كنهيق الحمار، فكما لا حرمة في مستلذات سائر الحواس فكذا فيه، كالألوان الخضر في البصر والأطعمة الحلوة في الذائقة. وأما النص فقوله تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾(١)؛ قيل: هو حسن الصوت، وقدامتن بذلك. وفي الحديث: «ما بعث الله نبياً الا حسن الصوت».

الدرجة الثانية: النظر في الصوت الطيب الموزون، والوزن وراء الحسن، فهي أما أن تخرج من جماد كصوت القصب والأوتار، أو من حيوان كصوت العنادل والقمارى، أو من انسان كصوت النغمات من حنجرة الانسان، فسماع هذه يستحيل أن تحرم لكونها طيبة أو موزونة والا لحرم صوت العنادل، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان، فينبغي أن يقاس عليه أصوات الحلوق من الانسان وأصوات القصب والدف الا الملاهي والأوتار.

ولا شك أن حرمتها ليس للذتها والا لحرم كل ما يستلذه الانسان، بل لما حرمت الخمور اقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها، حتى انتهى الأمر في الابتداء الى كسر الدنان، فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب من الأوتار والمزامير فقط. وكان تحريمها من قبيل الاتباع: كتحريم الخلوة لكونها مقدمة للزنا، وكتحريم النظر الى الفخذ لئلا يتساهل في ذلك و يؤدي الى التساهل في السوأتين.

وحرم قليل الخمر وان لم يسكر لأنه يدعو الى الكثير، وما من حرام الا وله حريم يطيف به، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حمى للحرام أو وقاية حظاراً بما حوله.

فظهر أن الأوتار والمزامير حرمت لأجل تحريم الخمر لثلاث علل:

أحداها: أنه يدعو الى شرب الخمر، فإن اللذة الحاصلة بها انما تتم بالخمر، وبمثل هذه العلة حرم قليل الخمر.

---

(١) سورة فاطر، آية: ١.

وثانيتها: انها في قريب العهد يشرب الخمور تذكر بمجالس الانس، بالشرب فهو سبب الذكر، والذكر سبب انبعاث الشوق، وهو اذا قوى سبب الأقدام، فمن تذكر بها شرب الخمر فهو في حقه حرام وفي حق غيره مكروه.

وثالثها: الاجتماع لما أن صارت عادة أهل الفسق فيمنع التشبه بهم لأن من تشبه بقوم فهو منهم.

ولهذا حرمت الكوبة، وهي: طبل مستطيل رقيق الوسط واسع الطرفين، وضربها عادة المخنثين، ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحج والغزو.

ولهذا حرم المزمار العراقي والأوتار كلها: كالعود والرباب والبربط وغيرها؛ وما عداها فليس في معناها: كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطبالين وكالطبل والقصب، وكل آلة يستخرج منه صوت طيب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب.

بهذا تبين أنه ليس العلة في تحريمه مجرد الأصوات الطيبة بل القياس تحليل الطيبات كلها الا ما في تحليله فساد.

الدرجة الثالثة: الموزون المفهوم وهو الشعر. وذلك خارج من حنجرة الانسان فيقطع باباحته، وما زاد الا لكونه موزوناً. والكلام المفهوم غير حرام وكذا الصوت الطيب الموزون، فإذا لم يحرم الآحاد فلم يحرم المجموع الا أن يفهم منه أمر محظور، وذلك حرم نظمه ونثره، وحرم التصويت به سواء كان بألحان أولاً. والحق فيه قول الشافعي: الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح.

ومهما كان انشاد الشعر بغير صوت حسن حسناً فمع الالحان لا يحرم، اذ المباح لم يحرم فكيف ينكر انشاد الشعر، وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشد هو أيضاً، وكذا نقل عن الصحابة سيا علي بن أبي طالب، وعن التابعين والمجتهدين سيا الامام الشافعي.

الدرجة الرابعة: النظر فيه من حيث أنه محرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه، فأقول لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح، حتى أنها لتؤثر

فيها تأثير الفرح والحزن والضحك والطرب، حتى النوم، حتى قيل: من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج لا يقبل العلاج. وكيف لا والصبي في مهده يسكته الصوت الطيب، والجمل مع بلاده طبعه يتأثر بالحداء حتى تستخف معه الاحمال الثقيلة وتمد أعناقها الى جانب الصوت، و يترك الماء والعلف بين يديه مع شدة جوعه وعطشه، وربما تتلف نفسها في شدة السير. وقد نقل أن الطيور كانت تقف على رأس داود لاستماع صوته.

ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلوب، لم يجز أن يحكم مطلقاً باباحته وحرمته بل يختلف ذلك باختلاف أحوال القلب. قال أبو سليمان السماع: لا يجعل في القلب ما ليس فيه لكن يحرك ما هو فيه.

واذا عرفت هذا، فأعلم ان مواضع الغناء لا تخلو عن سبعة.

الأول: غناء الحجيج بالطبل والشاهين في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية، وهو يهيج الشوق الى حج البيت الحرام، واشتعاله ان كان ثمة شوق حاصل. والحج محمود، والشوق وما يبعثه من الطريق المباح محمود لا محالة. ومن هذا القبيل الأشعار التي ينشدها الواعظ للترغيب والترهيب.

الثاني: ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو. وذلك أيضاً مباح، لكن يخالف ألحان الحاج، لأن ذلك للترغيب والتشويق وهذا للتشجيع واستحقار النفس والمال. والأشعار المشجعة مثل قول المتنبي:

فإن لا تمت تحت السيوف مكرما ... تمت وتقاسى الذل غير مكرم

وقوله

يرى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة النفس اللئيم

وأمثال ذلك. فهذا أيضاً مباح في وقت يباح فيه الغزو، ومندوب اليه في وقت استحبابه.

الثالث: الرجزيات في اللقاء بالعدو. والغرض منه تشجيع النفس والأنصار، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة. وذلك اذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس. وذلك أما مباح أو مندوب اليه بحسب اباحة

القتال أو ندبه، ومحظور اذا كان في قتال المسلمين وأهل الذمة، وكل قتال محظور لأن الداعي الى المحظور محظور، وذلك منقول عن شجعان الصحابة كعلي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما. ولذلك يمنع من الضرب بالشاهين في معترك الغزاة، لأنه يحلل عقدة الشجاعة لكون صوته مرققاً محزناً، فمن فعله ليفتّر القوى عن القتال المندوب فهو عاص، وعن القتال الحرام فهو مطيع.

الرابع: أصوات النياحة ونغماتها المهيجة للحزن والبكاء، فذلك مذموم ان كان على الأموات للنهي عن التأسف على ما فات؛ وأما الحزن على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياه والتباكي والتحازن عليه ــ كما فعله داود عليه السلام ــ فمحمود، حتى كانت الجنائز تحمل من مجلس نياحته عليه السلام. ولهذا لم يحرم البكاء والتباكي على الذنوب من الوعاظ وأرباب التذكير.

الخامس: السماع في أوقات السرور تأكيداً له وتهييجاً له، وهو مباح ان كان السرور مباحاً: كالغناء في أيام العيد والعرس وقدوم الغائب وولادة الولد والوليمة والعقيقة وعند الختان وحفظ القرآن، اذ كان ما جاز السرور به جاز اثارة السرور فيه. ويدل على جوازه انشادهم بالدف والالحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

طلع البدر علينا، من ثنيات الوداع   وجب الشكر علينا، ما دعا لله داع

وقوله صلى الله عليه وسلم ــ عند منع أبي بكر جاريتين تدففان وتضربان عند النبي صلى الله عليه وسلم: دعهما أبا بكر فأنها أيام عيد. وكذا نظر عائشة الى الحبشة يلعبون في المسجد، والنبي صلى الله عليه وسلم عندها يسترها بردائه وغير ذلك. فهذه المقاييس والنصوص تدل على اباحة الغناء والرقص والضرب بالدف واللعب في أوقات السرور كلها قياساً على يوم العيد مما يجوز الفرح به شرعاً. ومنه: الفرح بزيارة الاخوان ولقائهم واجتماعهم على طعام أو كلام، فهو أيضاً مظنة السماع.

السادس: سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهييجاً للعشق وتسلية للنفس، فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة، وان كان مع المفارقة

فالغرض تهييج الشوق. والشوق وان كان المأ ففيه نوع لذة اذا انضاف اليه رجاء الوصول، وهذا حلال ان كان ممن يباح له الوصال، كمن يعشق زوجته أو سريته فيصغي الى غنائها لتتضاعف لذته في لقائها، وما الحياة الدنيا لا لعب ولهو وهذا منه.

وأما من يتمثل في نفسه صورة امرد أو امرأة لا يحل له النظر اليها، فهذا حرام لأنه محرك للفكر في الأفعال المحظورة، ومهيج للداعية الى ما لا يحل الوصول اليه، وهذا حال الفساق والسفهاء وكثير من الشبان، فالسماع ممنوع في حقهم لما فيه من تحريك الداء لا لأمر يرجع الى نفس السماع.

السماع: سماع من أحب الله سبحانه وعشقه واشتاق الى لقائه، فلا ينظر إلى شيء الا رآه فيه، ولا يقرع سمعه قارع الا سمعه منه أو فيه، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه، ومور زناد قلبه ومستخرج منه كمين حبه، ويحصل منه أحوال من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها، يعرفها من ذاقها و ينكرها من كل حسه عن ذواقها. وتسمى تلك الأحوال عندهم وجداً أخذاً من الوجود، لأنه صادف من نفسه أموراً لم يكن يصادفها قبل السماع، ثم تكون تلك الأمور والأحوال سبباً لروادف وتوابع تحرق القلب بنيرانها، وتنقيه من الكدورات كما ينقى الابريز من الخبث، فيحصل للقلب الصفاء والنقاء، ثم يتبع الصفاء مكاشفات ومشاهدات هي غاية المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها، فالمفضي اليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي والمباحات. وحصول هذه الأحوال بسبب السماع بسر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح، و يثمر لها شوقاً وفرحاً وانبساطاً وانقباضاً، ومعرفة السبب في ذلك من دقائق علوم المكاشفات.

وأما البليد الجامد الطبع، القاسي القلب، المحروم عن لذة السماع ربما ينكر ذلك و يتعجب من الالتذاذ والوجد، واضطراب الحال والشوق، وتعجب العنين من لذة المباشرة، وتعجب الصبي من لذة الجاه والرياسة، وتعجب الجاهل من معرفة الله وجلاله وعظمته وعجائب صنعته. وسبب ذلك أن اللذة نوع ادراك، فمن لم يكمل قوة ادراكه في حق الملتذذ به لا يدرك اللذة.

ثم **أعلم:** ان بعضاً من الجهال، بل بعضاً ممن تظنه عالماً وهو عالم في بعض الأمور وجاهل في باب معرفة الله ولم يقدر الله حق قدره ــ ربما ينكر محبة الله تعالى، وانت تقلده في ذلك، فوجب علينا كشف اللثام عن وجه المحبة والعشق والشوق الى الله عز وجل.

واعلم: أن المحبة ميل ينشأ من اعتقاد جمال المحبوب، فإذا قويت المحبة يسمى عشقاً. ثم ان الجمال: أمّا صوري: وقوة تناسب الخلقة وصفاء اللون المدرك بحاسة البصر؛ وأما معنوي: وهو كمال العظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات، وارادة الخيرات لكافة الخلق المدرك بحاسة القلب. وقد يحب الانسان لهذه الصفات الباطنة ــ وان لم ير صاحبها ــ كما يحب الانسان أبا حنيفة والشافعي لاعتقاد الكمال في العلم والدين والأخلاق فيهما، ومع ذلك لم يدرك بجمالها الصوري أصلاً، فظهر أنه يمكن معرفة الجمال المعنوي بدون رؤية الجمال الصوري.

ثم أن الجمال الحقيقي فهو الله، ولا جمال ولا محبوب في العالم الا وهو حسنة من حسناته، وآثار من آثار كرمه، وغرفة من بحر جوده، بل كل حسن وجمال في العالم من مبتدأ العالم الى منقرضه، ومن ذروة العلى الى منتهى الثرى، فهو ذرة من خزائن قدرته، ولمعة من أنوار حضرته، فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه، وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حداً لا يمكن اطلاق اسم العشق أيضاً لقصوره عن الأنباء عن فرط محبته، فسبحان من احتجب عن الظهور للأبصار لشدة ظهوره، واستتر عن العيون بأشراق نوره، ولولا احتجابه سبعين حجاباً من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار اللاحظين لجمال حضرته، ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول وذهبت القلوب، وتجاذبت القوى وتناثرت الأعضاء، ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادي أنوار تجليه دكاً، فأنى يطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش، بل محبة غير الله جهل وقصور لظنه أن فيهم شيئاً من الجمال، بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله، اذ ليس في الوجود تحقيقاً الا

الله وأفعاله، فكانت محبته مقصورة على الله غير مجاوزة الى سواه، فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة له.

نعم ان الناقص القريب في نقصانه من البهيمة قد لا يدرك لفظة العشق الا طلب الوصال، الذي هو عبارة عندهم عن تماس ظواهر الاجسام وقضاء شهوة الوقاع، فمثل هذا الحمار ينبغي أن لا يستعمل معه لفظ العشق والوصال والأنس، اذ الافهام الفاسدة السقيمة لا تدرك من الألفاظ الا ما يلائم طباعها، فأستعمل معه ما يوافق طبعه من لفظ الكمال والتلذذ بمعرفته وأمثال ذلك.

المطلب الثاني

في مواضع حرمة السماع وأنها خمس عوارض

الأولى: السماع من المحرم النظر اليها والأمرد، فيحرم السماع لا لنسبها بل لمجاورها.

والثانية: في الآلة، بأن تكون من شعائر الشرب أو المخنثين: كالمزامير والأوتار وطبل الكوبة، وما عدا ذلك يبقى على الاباحة: كالدف وان كان معه الجلاجل، وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات.

الثالثة: في نظم الصوت وهو الشعر؛ فإن كان من الخنا والفحش واللذب والهجو فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستمع شريك القائل، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها. وأما هجاء الكفار وأهل البدعة فذلك جائز، وقد فعله حسان في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما التشبيب وهو: النشيد بوصف الخدود والقدود والأصداع وسائر أوصاف النساء ففيه نظر، والصحيح جوازه ان لم ينزله على معينة ونزله على من تحل له من زوجته وجاريته، ومن نزله على أجنبية فهو عاص بهذا التنزيل، ومن هذا حاله ينبغي أن لا يحضر مجلس السماع.

وأما الذي يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلاً ظلمة الكفر، وبنضارة الخد نور الايمان، وبذكر الوصال لقاء الله، وبذكر الفراق الحجاب عن الله في زمرة المردين، وبذكر الرقيب المشوش قروح الوصال عوائق الدنيا وآفاقها المشوشة لدوام الأنس بالله، ولا يحتاج في تنزيل ذلك عليه الى استنباط وتفكر ومهلة، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب الى فهمه مع اللفظ، حتى ان ما فهمه ربما لا يوافق مراد الشاعر.

الرابعة: المستمع، أن يكون شاباً تكون الشهوة غالبة عليه، فالسماع حرام عليه، وان لم يكن فيه حب شخص معين.

الخامسة: أن يكون المستمع من العوام، ولم يغلب عليه حب الله فيكون السماع له محبوباً، ولا غلبت عليه الشهوة فيكون محظوراً، ولكنه أبيح كسائر اللذات المباحة، الا أنه بالمداومة يصير لهواً ترد شهادته، وبالأصرار يصير كبيرة. ونظير ذلك اللعب بالشطرنج عند الشافعية، لأن مداومته مكروهة كراهة شديدة وان كان أصله مباحاً، اذ كم من مباح يصير اكثاره حراماً، كالخبز المباح اكثاره حرام بأن يجاوز حد الشبع.

فأما ما ورد من الأخبار والآثار الدالة على حرمة الغناء: فأما لعوارض محرمة كما ذكرناه، أو يحمل على الهرب عن تمتع الدنيا، أو يحمل على حرمة الأوتار، أو على سماعه عند اشتغاله بما هو أولى منه من ذكر الله تعالى وذكر صفاته وأفعاله وأمثال ذلك.

وأكثر استعمال السلف الغناء في أصوات القيان من الجواري الحسان، ولذلك قال الجنيد: الغناء رقية الزنا. ومن أتقن ما ذكرناه من القواعد سهل عليه تأويل أمثال ذلك.

المطلب الثالث

في آداب السماع وثمراته

وفيها مقامات ثلاثة

المقام الأول في الفهم

وهو مختلف باختلاف أحوال المستمع، وهي أربعة:

أحدها: أن يكون سماعه لمجرد الطبع، لاحظ له الا استلذاذه الالحان والنغمات، هذا مباح لكنه أخس مراتب السماع اذ تشاركه فيه الأبل.

ثانيها: تنزيله على صورة مخلوق أما معين أو غير معين، وهذه الحالة أخس من أن يتكلم فيها الا ببيان خسيتها والنهي عنها.

وثالثها: أن ينزل على معاملته مع الله، وهذه سماع المريد، وربما يمكن حمل كلام واحد على معنيين متخالفين بحسب اختلاف حال المستمع.

الرابعة: سماع من جاوز الأحوال والمقامات، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود، كاللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام، و يعبرون عنه بالفناء عن نفسه. ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى، فكأنه فنى عن كل شيء الا عن الواحد المشهود، ولا خبر له عن فنائه أيضاً؛ مثلاً: قد يعلم الشيء وقد يعلم العلم به، في الثاني يكون معرضاً عن الشيء. ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوقين، وقد تطرأ في حق الخالق، الا أنه يكون كالبرق الخاطف، اذ لو دام لم تطقه القوة البشرية وربما تهلك فيه نفسه، فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد وهى أعلى الدرجات. الا أن فيه نوع قصوره.

وانما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وعن أحواله، فيسمع بالله ولله وفي الله ومن الله، وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق، وعبر ساحل الأحوال والأعمال، واتحد بصفاء التوحيد، وتحقق بمحض الأخلاص، فلم يبق فيه منه شيء أصلاً، بل خمدت بالكلية بشريته، وفنى التفاته الى صفات البشرية رأساً.

ولست أعني بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه، لا اللحم الصنوبري بل سر لطيف له الى القلب الظاهر نسبة خفية، ووراءها الروح الذي هو من أمر الله سبحانه، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها.

ولذلك السر وجود، وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه، فإذا فيه غيره فكأنه لا وجود الا للحاضر؛ ومثاله: المرآة الجلية، اذ ليس لها لون في نفسها بل لونها الحاضر فيها، وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان.

وهذا من مقامات علوم المكاشفة، منها نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد وقال: أنا الحق، وحولها يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت، أو تدرعها بها، أو حلولها فيها، على ما اختلف فيه عباراتهم، وهو خطأ محض يضاهي غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة، اذا ظهر فيها لون الحمرة من مقابلتها، واذا كان هذا غير لائق بعلم المعاملة رجعنا الى الغرض.

المقام الثاني الوجد

وهو عبارة عن حالة يثمرها السماع، وهو وارد جديد عقيبه يجده المستمع من نفسه. وتلك حالة لا تخلو من قسمين: فأنها أما أن ترجع الى مشاهدات ومكاشفات من قبيل العلوم والتنبيهات، أو أحوال أو تغييرات ليست من العلوم، بل كالخوف والشوق والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض.

فإن ضعف ولم يظهر في الظاهر لم يسم وجداً، وان ظهر على الظاهر سمي وجداً أما قوياً أو ضعيفاً. وقد لا يتغير الظاهر لقوة صاحبه، وقد يكون السماع سبباً لكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله، فإن الكشف يحصل بأسباب منها التنبيه، والسماع منبه.

ومنها: تغير الأحوال ومشاهدتها وادراكها، فإن ادراكها نوع علم يفيد ايضاح امور لم تكن معلومة قبل الورود.

ومنها: صفاء القلب، والسماع مؤثر في تصفية القلب، والصفاء سبب الكشف.

ومنها: انبعاث نشاط القلب بقوة السماع، فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته، بل القلب اذا صفا ربما تمثل له الحق في صورة مشاهدة، أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف اذا كان في اليقظة، وبالرؤيا اذا كان في المنام، وذلك جزء من النبوة. وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة.

وربما يشاهد بالبصيرة صورة الخضر عليه السلام، فأنه يتمثل لأرباب القلوب بصورة مختلفة، وتتمثل أيضاً الملائكة للأنبياء: أما على حقيقة صورها، وأما على مثال يحاكي صورتها بعض المحاكاة. وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبرئيل مرتين في صورته، وأخبر عنه بأنه سد الأفق. وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب، ويسمى التفرس. وفي الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فأنه ينظر بنور الله».

واعلم: ان في نفس الانسان مناسبة للعالم الأعلى، واللذات التي وعد بها في سدرة المنتهى والفراديس العلى. الا أنه لم يتخيل من هذه الأمور الا الصفات والأسماء، فالسماع يحركِ منه الشوق، والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه ومستقره الذي اليه حنينه، فيتقاضاه قلبه أمراً ليس يدري ما هو، فيدهش ويتحير ويضطرب، ويصير كالمخنق الذي لا يعرف طريق الخلاص.

ثم أن الوجد قد لا يكون بلا كلفة ويسمى الهاجم، وقد يكون بالكلفة ويسمى تواجداً. فمنه المذموم: وهو الذي يقصد به الرئاء،ومنه محمود: وهو التوصل الى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالجبلة؛ فإن للكسب مدخلاً في اجتلاب الأحوال، وهو المراد بقول بعضهم: العادة طبيعة خامسة. ولقد شوهد في العادات من تكلف حب شخص، وعشقه بدوام النظر اليه واكثار ذكره، حتى خرج آخراً عن حد اختياره، ثم طلب الخلاص ولم يكن له ذلك.

فإن قلت: اذا كان الوجد أمراً محموداً، فما بالهم يتواجدون بالأشعار، مع أن القرآن أحق بذلك؛ قلت: الوجد بالقرآن كان غالباً في النبي صلى الله عليه وسلم: منها قوله: «شيبتني سورة هود»، لأن الشيب من الخوف والحزن وهو وجد.

ومنها: ان ابن مسعود لما قرأ عليه وانتهى الى قوله تعالى: ﴿فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾[1] قال: «حسبك» وعيناه تذرفان بالدمع، والبكاء وجد؛ وأنه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل وهو من الوجد، وأمثال ذلك كثيرة.

ولذلك وقع الوجد بالقرآن من الصحابة والتابعين، يعرف ذلك من تتبع الأخبار؛ وكذا السلف كثيراً تواجدوا بالقرآن، حتى ان منهم من خر مغشياً عليه ومات.

وأما أهل زماننا هذا انما اختاروا الغناء والأشعار لأحد أمور سبعة:

الأول: أن جميع آيات القرآن لا تصلح لحال المستمع، فلا يمكن قراءة البعض وترك الباقي، ويمكن ذلك في الشعر. وأما الكاملون فيأخذون الوجد من كل آية بقوة الفهم، الا أن أهل زماننا قاصرون في العلم والحال، فناسب الأشعار حالهم.

الثاني: أن القرآن متكرر على القلوب والأسماع فيضعف أثره، ولما رأى الصديق اعراباً يسمعون القرآن و يبكون قال: كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا. ولا تظنن أن قلبه كان أقسى من قلوب اجلاف الأعراب، ولكن التكرر على قلبه أورث قلة التأثر به، ولذلك هم عمر أن يمنع الناس من كثرة الطواف.

الثالث: ان لوزن الكلام تأثيراً في القلب وذلك في الشعر.

الرابع: أن الشعر الموزون يؤثر في النفس بالألحان، وذلك بمد المقصور تارة

---

(١) سورة النساء، آية: ٤١.

وقصر الممدود أخرى، والقطع في أثناء الكلمات، ومثل هذا التصرف لا يحل في القرآن، وانما المأمور فيه الترتيل.

الخامس: ان الالحان الموزونة تؤكد بأصوات أُخر: كالدف والقضيب، والقرآن يصان عن هذا الشأن.

السادس: أن الكلام اذا لم يوافق حال المستمع يطلب تبديله الى كلام يوافق حاله ليحصل له الوجد، ولا يمكن ذلك في القرآن.

السابع: أن القرآن كلام الله ولا تطيقه القلوب لو سمعت حق السماع، فضلاً عن أن يحصل به الوجد للسامع. والأشعار توافق حال البشر وشأنه الأدنى لمشاكله المخلوق المخلوق، وأما القرآن فهو خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه، وهو لذلك معجز لا يدخل في قوة البشرية لعدم مشاكلته لطبعه، والله أعلم.

المقام الثالث

في آداب السماع ظاهراً وباطناً

وهو خمسة:

الأول: مراعاة أحد أمور ثلاثة:

الزمان: ومعناه خلو الوقت عما يشتغل به القلب من الصلاة والطعام ونحوهما؛

والمكان: بأن لا يكون كريه الصورة يشوش القلب؛

والأخوان: بأن لا يحضر متزهد منكر لأحوال القلوب، أو متواجد مراء يمزق الثوب باختياره، لأن مثل هذا مشوش للقلب، فترك السماع عند نقد شروطه أولى.

الثاني: وهو نظر للحاضرين، أن يحضر مريد يضره السماع، وذلك احد ثلاثة:

أقلهم درجة في الضرر: من رتبته الأعمال الظاهرة ولم يحصل له ذوق

السماع، فليس هو من أهل اللهو فيلهو ومن أهل الذوق فيتنعم، فهو تضييع لزمانه.

وأوسطهم ضرراً: من له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الحظوظ البشرية، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيصير ضرره أكثر من نفعه.

وأعلاهم درجة في حق الضرر: من انكسرت شهوته وأمنت غائلته وانفتحت بصيرته لكنه لم يحكم ظاهر العلم: فربما سمع لفظاً ونزل المسموع على ما لا يجوز في حقه تعالى فيكون ضرره ضرر الكفر، نعوذ بالله من ذلك ولذلك قال سهل: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

الثالث: أن يكون مصغياً الى القوّال حاضر القلب، قليل الالتفات الى ما يظهر عليهم من أحوال الوجد، مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله له من رحمته في سره، متحفظاً عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم، ويحترز عن التنحنح والتثاؤب، ويجلس مطرقاً مكانه مفكراً مستغرق القلب، متماسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات الى أن يغلبه الوجد ويحركه بلا اختيار. ومهما رجع الى الاختيار فليعد الى هدوئه وسكونه.

واعلم: أن الوجد تارة يؤثر في الظاهر وتارة لا يؤثر. وعدم التأثير أما لضعف الوارد من السماع فهو نقصان، وتارة لكمال القوة على ضبط الجوارح وهو كمال؛ وتارة يكون حال الوجد مصاحباً له في غالب الأحوال فلا تعيره طوارق الأحوال. ولعل مراد الصديق بقوله: قست قلوبنا، أن يكون معناه: قويت واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل الأحوال، فرب ساكن أتم وجداً من المضطرب.

الرابع: أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن ان رقص وتباكى لاستجلاب الحزن لا للرثاء فهو مباح. وأما تخريق الثوب فلا رخصة فيه عند الاختيار، وقد يكون بالارادة لكن يكون كالمكره، كاضطرار المريض الى الأنين باختياره، اذ لو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه اختياري. فليس كل فعل حصوله بالارادة يقدر الانسان على تركه:

كالتنفس والزعقة وتمزيق الثوب اذا كان على هذه الطريقة لا يوصف بالتحريم.

وأما تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد الفراغ من السماع وسكون الوجد، فأنهم يقطعونها قطعاً صغاراً و يفرقونها على القوم و يسمونها الخرقة، فذلك مباح اذا قطع خرقاً مربعة لترقيع الثياب والسجادات، اذ لا حرمة في قطع الكرباس الجديد اذا كانت فيه مصلحة، فإن الكرباس يقطع ثم يخاط منه القميص، وانما الذي يكره التمزيق المفسد للثوب.

الخامس: موافقة القوم في القيام اذا قام واحد منهم في وجد صادق، أو قام اختياراً بلا اظهار وجد، فذلك من أدب الصحبة. و بالجملة: يوافق أصحابه في كل بدعة لا تزاحم سنة مأمورة أو لم ينقل النهي عنه؛ مثلاً: القيام للداخل بدعة لم يفعله الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم، لكن لا بأس في بلاد جرت العادة فيها باكرام الداخل، وكذلك سائر أنواع المساعدة اذا قصد بها طيبة القلب واصطلح عليها جماعة.

فإن قلت: فما بال الطباع تنفر عن الرقص، و يسبق الى الأوهام أنه لهو باطل، فلا يراه ذو جد في الدين الا و ينكره؛ قلت: ان الجد لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينكر رقص الحبشة لكونه في وقت لائق به وهو العيد، ومن شخص لا يبعد منهم اللهو وهم الحبشة. فالمنكر أما منكر الاصرار وهو كذلك، أو ينكر من صدوره عن شخص لا يليق به اللهو وهذا أيضاً حق.

أما انكاره عن العوام أحياناً فذلك تقشف، اذ جوزه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات، فما باله ينكره مطلقاً.

وأما انكار صدوره عن شخص ذي علم ودين، وأهل شيبة ووقار لكن وقع منه بدون الاختيار فذلك من الجهل، اذ سقوط الاختيار لا يدخل تحت الأحكام التكليفية، يدل على جوازه من العلماء أيضاً في بعض الأحوال، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: «أنت مني وأنا منك» فحجل علي رضي

الله عنه؛ وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» فحجل جعفر؛ وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فحجل زيد. والحجل: بفتح المهملة ثم الجيم بمعنى الرقص، وقيل: ان يثب على احدى رجليه، وهو أيضاً نوع من الرقص.

فقد خرج من هذا التفصيل ان السماع قد يكون حراماً محضاً، وقد يكون مكروهاً.

أما الحرام: فهو لأكثر الناس من الشبان ممن غلبت عليهم شهوة النساء والغلمان.

والمكروه: هو الذي يجعله ديدنا ويتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو.

وأما المباح: فهو من لا تلذذ له الا بالصوت الحسن.

وأما المستحب: فهو لمن غلب عليه حب الله ولا يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة.

الأصل التاسع
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
المطلب الأول
في فضائله

و يدل على ذلك بعد اجماع الأمة عليه: الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فنها قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر﴾[١] وقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[٢].

ومن الأخبار: قوله صلى الله عليه وسلم: «كلام ابن آدم كله عليه لا له الا أمراً بمعروف ونهياً عن منكر أو ذكر الله». وفي الأخبار كثرة الا أن العبرة بقوة الدليل لا بكثرتها، ولهذا آثرنا الاختصار.

ومن الآثار: ما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، و يدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم، و ينتصرون فلا ينصرون، و يستغفرون فلا يغفر لهم. وعن حذيفة رضي الله عنه: يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب اليهم من مؤمن يأمرهم و ينهاهم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

المطلب الثاني
في أركانه وشرائطه

والأركان أربعة، ولكل منها شروط:

الركن الأول: المحتسب. وله شروط:

أولها: أن يكون مكلفاً اذ غير المكلف لا يلزمه أمر، هذا شرط الوجوب، وإلا فالصبي ان أراق الخمر وكسر الملاهي فلا يمنع عنه وله ثواب.

ثانيها: وهو الايمان. وذلك لأنه نوع نصرة للدين، ولا يكون من عدو له.

ثالثها: العدالة. وقد اعتبرها قوم للنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله، والحق ان للفاسق أن يحتسب، اذ لا عصمة لجميع الآمرين بالمعروف في السلف، ولم يخصوا منهم أحداً دون أحد.

وتحقيق ذلك: أن الحسبة اما وعظية و يشترط فيها العدالة، وأما قهرية ولا يشترط فيها ذلك، الا الذمي اذ ليس للكافرين على المؤمنين سبيل.

ورابعها: الأذن من جهة الامام والوالي. وقد شرطه قوم ولم يجوز الحسبة لآحاد الرعية، الا أنه شرط فاسد، اذ الآيات والأخبار تدل على وجوب ذلك على الكل، فالتخصيص تحكم لا أصل له. ومنع الكافرين على التسلط على المسلم ليس لأجل ذلته حتى يلزم منع الرعايا عنه أيضاً، بل ذلك لكفره.

وتفصيل ذلك ان الحسبة لها خمس مراتب:

الأولى: التعريف.

الثانية: الوعظ بالكلام اللطيف. وهما لا يحتاجان الى اذن الإمام.

والثالثة: السبب والتعنيف، لا السب بالفحش، بل بقوله: يا جاهل يا أحمق ألا تخاف من الله. وهذه وأمثال ذلك الكلام صدق قد يحتسب عند الامام فكيف يتوقف على أذنه.

الرابعة: المنع بالقهر بالمباشرة، ككسر الملاهي واراقة الخمر، ولا حاجة فيها الى الأذن اذ المسلمون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً.

الخامس: التهديد والتخويف بالضرب أو مباشرته، وهو الذي يحتاج فيها الى أذن الامام، والا ينجر الى القتال من الجانبين.

ثم أن في تفاصيل هذه الحسبة كلاماً؛ مثلاً: للولد الحسبة لوالده بالمرتبتين الأولين فقط، وليس الحسبة بالآخرين؛ وفي الثالثة ينظر الى قبح المنكر والى مقدار الأذى والسخط؛ فإن كان المنكر فاحشاً وسخطه قريباً كأراقة خمر من لا يشتد غضبه فالأمر ظاهر؛ وان كان المنكر قريباً والسخط شديداً، ككسر آنية بلور عليها صورة حيوان وفي كسرها عظيم خسران فيكتفي فيه بالمرتبتين الأولين.

وأما الرعية مع السلطان فيتعين فيه الرتبتان الأوليان، وأما الرتبة الثالثة فإلى اجتهاد المحتسب، اذ قد ورد النهي عنه، وورد النهي عن التعرض للسلطان، فينظر فيه الى تفاحش المنكر ومقدار ما يسقط من حشمة الامام بسبب الهجوم عليه، وذلك مما لا يمكن ضبطه.

وأما الأستاذ فأمره أظهر لأنه اذا لم يعمل بعلمه لا يجب على التلميذ احترامه.

وخامسها: كونه قادر، اذ العاجز حسبته بقلبه، والعجز انما بحسب لحوق المكروه لا العجز الحسي، وها هنا أربع أحوال:

أحداها: أن يعلم أنه لا ينفع كلامه ويضرب ان تكلم، فلا يجب عليه الحسبة، بل ربما تحرم في بعض المواضع. نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر حتى لا يشاهده.

ثانيتها: ان ينتفي عدم النفع والضرب معاً فيجب عليه الانكار.

وثالثتها: أن يعلم أنه لا يفيد ولا يخاف مكروهاً، فلا يجب بل يستحب اظهار شعائر الاسلام وتذكير الناس بأمر الدين.

ورابعتها: عكس هذا، فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب،

وانما الحرام تعريض النفس للهلاك من غير أثر، وانما يستحب اذا علم أن له أثراً، لكن ان علم أنه يضرب معه أصحابه وأقاربه ورفقاؤه فلا يجوز له الحسبة بل تحرم، لأنه دفع منكر يفضي الى منكر آخر أقوى منه، وليس ذلك قدرة في الحقيقة.

ولما كان كون بعض المنكر أقوى من آخر أمراً لا يهتدي له العوام، اشترط بعضهم اذن الوالي لينصب من هو أهل للحسبة.

ثم الظن كاف في اصابة المكروه، ثم التعويل في هذا الظن على اعتدال الطبع لأن ذلك الظن يقوى بالجبن و يضعف بالتهور، ثم المكروه المتوقع لا بد له من حد.

وتحقيقه: ان المطالب منحصرة في أربعة: في النفس بالعلم، وفي البدن بالصحة، وفي المال بالثروة، وفي القلوب بالجاه، ففوت كل من هذه مكروه. فالفوت أما متوقع أو بالفعل، وترك المتوقع في هذه الأربع لا يمنع الحسبة، وانما الضرب الحقيقي المانع مع الحسبة فوات الحاصل؛ مثل أن يكون جاهلاً بمهمات دينه بالحسبة ولم يجد الا معلماً واحداً ويقدر المحتسب عليه منع المعلم عن تعليمه، أو بفوت ازالة المرض الحاصل عنه، أو بقطع رزقه ولا توكل ويحتاج الى حرام أو مات جوعاً، أو يزول جاهه و يبتدىء أهل الشر بأذاه. فهذه أمور مستثناة عن الحسبة إذا ظهرت وقويت، لكن لا بد أن يزن ظن زواله بميزان الدين لا بموجب الطبع والهوى، فإن سكت بموجب الدين تسمى مداراة وهي جائزة، وان سكت بموجب الهوى تسمى مداهنة. فعليك بالنقد في سبب السكوت فإن الناقد بصير، وستجد كل نفس ما عملت من خير محضراً عند الله ولو في فلتة خاطر ولفتة ناظر، وما ربك بظالم للعبيد.

الركن الثاني: ما فيه الحسبة، وهو كل منكر موجود في الحال، ظاهر بلا تجسس، معلوم كونه، منكراً بلا اجتهاد، فله شروط أربعة:

الأول: كونه منكراً محظور الوقوع في الشرع، سواء كان معصية أو لا، كاراقة خمر يشربها الصبيان.

الثاني: أن يكون موجوداً في الحال، والا كمن يعزم على الشرب في ليلته فعليه الوعظ ان علم النفع، والا فلا وعظ أيضاً.

الثالث: أن يظهر بغير تجسس لأنه منهى عنه، ولا يجب عليه الاطلاع على ما في البيوت الا اذا ظهر، بأن سمع أصوات الملاهي من خارج فحينئذ يدخل ويغير. وقد أمرنا بأن نستر ما ستره الله، وننكر على من أبدى لنا صفحته، والابداء باحدى طرق الحواس، اذ المقصود العلم، ولا يجب عليه استعلام ما تحت الذيل لأنه تجسس، الا اذا كان خمراً رائحته فائحة، أو عوداً تحت شيء دقيق وعرف شكله ونحو ذلك.

الرابع: أن يعلم كونه منكراً بلا اجتهاد، فليس على الحنفي أن ينكر على الشافعي أكلاً متروك التسمية والضب والضبع، وبالعكس في شرب النبيذ الغير المسكر، وتوريث ذوي الأرحام، الى غير ذلك. وأما انكار المذاهب المبتدعة، كقول المعتزلي: ان الخير من الله دون الشر، وقوله: كلام الله مخلوق ــ فواجب، وذلك مهم بالنسبة الى انكار الاجتهادات، الا أن يكون في الأعراض تحريك فتنة بالمقاتلة، فإن الحسبة في أمثال هذا الى السلطان، اذ هو قادر على دفع الفتنة في أمثاله.

الركن الثالث: المحتسب عليه. وشرطه أن يكون الفعل في حقه منكراً بجهة كونه انساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً، لما عرفت أن الصبي يمنع عن الشرب، والمجنون عن الزنا. ولا يجب رد الحيوان عن افساد الزرع بحسب الحسبة اذا الحسبة للانسان لا للحيوان. نعم يجب عليه منع الحيوان أيضاً مهماً قدر عليه، من غير تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان في جاهه، الا أنه ليس بطريق الحسبة بل لكونه من حقوق المسلمين وهي كثيرة، وهذه أدناها.

الركن الرابع: نفس الاحتساب. وله درجات وآداب:

الدرجة الأولى: التعرف. وهو منهي عنه لأنه تجسس، وقد ذكرناه؛ مثل: أن يسترق السمع لصوت الملاهي، أو يستنشق لرائحة الخمر، أو يمس ما

في ثوبه ليعرف شكل المزمار، اللهم الا أن يخبر عدلان ابتداء من غير استخبار، فحينئذ له أن يدخل داره.

الدرجة الثانية: التعريف؛ مثل: أن يرى أن يصلي بلا تعديل لجهله، فعليه التعريف باللطف، والا فربما يترك أصل الصلاة، اذ الجهل أقبح من كل عيب لكونه عيب النفس، فلا يرضى الانسان بظهور جهله، فيتلطف و يقول: ان الانسان لم يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين بأمور الصلاة فعلمنا العلماء، ولعل قريتك كانت خالية من أهل العلم أو عالماً مقصراً في شرح الصلاة وايضاحها انما شرط الصلاة هكذا، و يعلم له ما أراد.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله، كمن هو عالم بكونه منكراً وأصر على ذلك بعد أن عرف كونه منكراً، فيوعظ له ويخوف بأخبار الوعيد، ويحكى له سيرة السلف، كل ذلك بلطف وشفقة من غير غضب، و يرحم عليه، و يرى ذلك مصيبة على نفسه، اذ المسلمون كنفس واحدة.

لكن يتحرز عند التعريف عن نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل، فإن هذه مصيبة في الوعظ والتذكير، وهذه غائلة هائلة، وغرور الشيطان يتدلى بحبله كل انسان، الا من عصمه الله وعرف عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته، وأما غير هؤلاء يغتالهم لذتان: دالة العلم، ودالة الأحكام والسلطنة، وهي الشهوة الخفية المتداعية الى الشرك الخفي، وله محك وعيار، وهو أن كفى غيره مؤونة الوعظ والنصح كان أحب عنده، اذ حصل الغرض ولم يتحمل نقل الوعظ على الغير، والا فليتعظ نفسه أولاً ليعظ الناس.

الدرجة الخامسة: التغيير باليد، ككسر الملاهي واراقة الخمر، وأن يجر برجله من الدار المغصوبة. و ينبغي أن لا يباشر باليد اذا امكن بدونه ولا يجر بلحيته اذا أمكن جره برجله، وأن لا يمزق ثوبه الحرير اذا أمكن حل أزراره ونحو ذلك.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف، كقوله: دع هذا والا لاضربن

رقبتك؛ أو: لأكسرن رأسك، وما أشبه ذلك. وينبغي أن لا يقدم التهديد على تحقيقه أن أمكن وأن يهدد بما يقدر على تحقيقه، فلا يقول: لأنهبن دارك، ولاسبين زوجتك، لأنه ان قال ذلك عن عزم فهو حرام، وان قاله على غير عزم فهو كذب؛ اللهم الا اذا عرف انه يردعه بالمبالغة فأنه حينئذ ليس من الكذب المحظور، وهذا بمنزلة اصلاح ذات البين وهو غير قبيح.

ومن هذا قال بعضهم: يجوز من الله تعالى أن يتوعد بما لا يفعل لأن الخلف في الوعيد كرم، وانما يقبح أن يعد بما لا يفعل. وهذا القول غير مرضي في حق الله عز وجل، فإن الكلام لا يتطرق اليه الخلف وعدا كان أو وعيداً، وانما ذكره يتصور في حق العباد، اذ الخلف في الوعيد ليس بحرام.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل بدون شهر سلاح، وان احتاج الى شهر سلاح فيجوز ذلك على المحتسب، كتخليص امرأة من فاسق اذا كان بينهما نهر حائل، فإن لم يخل فله الرمي لكن يقصد الساق والفخذ دون المقتل. وبالجملة: يرعى التدريج في الكل، وأما العامي فليس عليه شهر السلاح بحال أصلاً.

الدرجة الثامنة: الا يقدر بنفسه ويحتاج الى الأعوان، وربما يكون للفاسق أيضاً أعوان فيؤدي الى أن يتقاتل الصفان، ومثل هذا لا يجوز الا بإذن السلطان اذ ربما يؤدي إلى هيجان وخراب البلاد، والا فإن القياس جوازه للكل.

المطلب الثالث

آداب المحتسب

وهي ثلاثة:

أحدها: أن يعلم موانع الحسبة ومواقعها.

وثانيها: الورع، اذ ليس كل من علم عمل بعلمه.

وثالثها: حسن الخلق، اذ العلم والورع لا يكفيان في اللطف والرفق ما لم يكن لصاحبهما حسن الخلق.

ومن الآداب: تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه، و يقطع الطمع حتى تزول عنه المداهنة. ولنذكر ههنا شيئاً من الآداب المخصوصة.

منها: منكرات المساجد، يمنع من قصر في أمر الصلاة على مذهبه، ينبه على لحن قراءته سيما الفاتحة، وان كان قادراً فليتعلم والا فقدار ما قدر.

ومنها: تراسل المؤذنين وتغييرهم كلمات الأذان لرعاية الالحان، وكذا عدم رعايتهم الأوقات.

ومنها: لبس الخطيب ثوباً أسود فيه ابريسم، أو ممسكاً لسيف مذهب، والحرير حرام، وأحب الثياب البيض، والأسود ليس بحرام.

منها: الواعظ المبتدع، أو الذي يكثر الرجاء، اذ الخلق أحوج الى الخوف منهم الى الرجاء، وكذا حضور النساء مجلسه وهو شاب متزين كثير الأشعار والاشارات والحركات. ويمنع النساء من حضور المساجد للصلاة ولمجالس الذكر اذا خيف الفتنة.

ومنها: دخول المجانين والسكارى الا أن يعلم سكونهم وسكوتهم، ولا بأس بدخول الصبي اذا لم يلعب.

ومنها: منكرات الأسواق؛ كالكذب واخفاء العيب وبيع الملاهي والأواني المحرمة.

ومنها: منكرات الشوارع؛ نحو تضييق الطريق بالأبنية، ووضع الأحمال، وتنجيس الطريق، وترك مياه المطر والأوحال والثلوج.

ومنها: منكرات الحمامات، من صور الحيوانات، وكشف العورات، والانبطاح لتغميز الأفخاذ، وتنجيس الأواني والمياه، وترك الأحجار المزلقة أو جعلها مزلقة بغسل الثياب بالصابون، ونحوه.

ومنها: منكرات الضيافة؛ كالفرش المحرمة، والمبخرة المحرمة، والأشربة المحرمة، وستور عليها صور، وسماع الأوتار والقينات، ونظر النساء على الرجال الشبان، وحرمة الأطعمة، والاجتماع مع من يلبس الحرام ومع أهل البدع،

وان كان فيه مضحك بالفحش والكذب يجب منعه وان لم يقدر فلا يحضر، وأما المزح بلا فحش ولا كذب فهو مباح الا أن يتخذه صنعة وذلك مكروه، والكذب الذي لا يقصد به التلبيس ليس من المنكرات؛ كقولك: كلمتك اليوم مائة مرة، أو: أتيتك الف مرة، اذ ليس يقصد به التحقيق بل المبالغة، وذلك لا يقدح في العدالة، ولا ترد به الشهادة؛ وكالسرف في الطعام والبناء.

ومنها: صرف المال الى القينات والمغنيات واسراف جميع المال حرام، بحيث يبقى عياله بلا شيء سيما في المحرمات، الا اذا أنفق في وجوه البر وله قدم صدق في وجوه البر وله قدم صدق في التوكل.

ومنها: منكرات العامة؛ مثل أن يقعد في بيته ولا يصرف ما فضل عن فرض العين الى فروض الكفاية؛ كأن يخرج الى القرى المجاورة لبلده و يعلم أهلها أركان الصلاة وشرائط الطهارة وسائر الفرائض الا أن يفعله البعض، وانما يجب التبليغ على أهل العلم، وان علم مسألة واحدة فهو من أعلم العلم بها يجب تبليغها. والأثم في ذلك على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيه أظهر، لأن العلم يجب العلم به أولاً لنفسه، ثم لأهل بيته، ثم لأقاربه وجيرانه، ثم وثم حتى ينتهي الى أن يخرج الى السوق و يغير منكراتهم. وان قدر على تغيير البعض فلا يكون عدم تغيير الباقي عذراً في عدم الخروج، و يتعدى منهم الى أهل القرى، ثم أهل البادية، وهكذا الى أقصى العالم. فإن قام به الأدنى سقط عن الأ بعد، والا يأثم كل عالم على وجه الأ رض.

المطلب الرابع
في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

والجائر معهم الرتبتان الأوليان من درجات الحسبة، وهما: التعريف والوعظ. وأما تخشين القول والمنع بالقهر فيهيج الفتنة في حقهم فلا يجوز، الا اذا اختص الضرر بنفسه فقط، فعند ذلك يندب. قال صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»؛ وقال: «خير الشهداء حمزة بن

عبد المطلب، ثم رجل قام الى امام فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك».

ولذلك كانت الصحابة والتابعون اجترأوا على الملوك والسلاطين، ولم يبالوا ببلية وعذاب، وأخلصوا النية، فلهذا أثر كلامهم في الظلمة ولين قلوبهم القاسية كما هو مسطور في كتب التواريخ والأخبار. وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وان تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا الله قصدوا حق العلم لأفلحوا، ففساد الرعية بفساد الملوك، وفسادهم بفساد العلماء، وفسادهم باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل والصعاليك فكيف على الأكابر والملوك. اللهم أعصمنا من العلم بلا عمل، والميل الى الدنيا، ولا تخلط أعمالنا بالسمعة والرياء، انك أنت المستعان يا كريم يا منان، وتفضل علينا بالاحسان والانعام يا ذا الجلال والاكرام.

الأصل العاشر
في أخلاق النبوة

ليكون أنموذجاً لمن طلب تزكية الأخلاق، ونتيجة لما ذكر في هذه الأوراق. وكان صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله عز وجل أن يزينه بمكارم الأخلاق والآداب. وكان دائماً يقول: « اللهم حسن خلقي وخلقي » حتى استجاب الله دعوته وأنزل عليه القرآن، وعمل بما فيه حتى كان خلقه القرآن كما هو المأثور عن عائشة رضي الله عنها.

ثم رغب الناس في حسن الخلق، قال: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ». وبين للناس ان الله تعالى يحب مكارم الأخلاق و يبغض سفسافها.

كان صلى الله عليه وسلم حسن العشرة وكريم الصنيعة لين الجانب، وكان يحب بذل المعروف، واطعام الطعام، وافشاء السلام، وعيادة المريض المسلم براً كان أو فاجراً، وتشييع جنازة المسلم، وحسن الجوار لمن جاوره مسلماً كان أو كافراً، وتوقير ذي الشيبة المسلم، واجابة الدعوة للطعام، والدعاء عليه، والعفو والاصلاح بين الناس، والجود والكرم والسماحة، والابتداء بالسلام، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، واذهب بدين الاسلام اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها، وكل ذي وتر وكل دخل، والكذب والغيبة والبخل والشح والجفاء، والمكر والخديعة والنميمة وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والمدح، والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة، والبغي والعدوان والظلم.

وكانت وصيته: تقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحم اليتيم، ولين الكلام، و بذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الايمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح.

ونهى أن تسب حكيماً، أو تصدق كاذباً أو تكذب صادقاً، أو تطيع آثماً أو تعصى اماماً عادلاً أو تفسد أرضاً، وأوصاك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وان تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية.

ومن اخلاقه صلى الله عليه وسلم: أنه كان أحلم وأشجع وأعدل واعف، ولم تمس يده يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات رحم محرم، وكان أسخى لا يبيت عنده دينار ولا درهم، وان فضل ولم يجد من يعطيه لم يأو الى منزله حتى يبرأ منه الى من يحتاج اليه، لا يأخذ مما آتاه الله الا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير، و ينفق غيره في سبيل الله، لا يسأل شيئاً الا أعطاه وربما يؤثر من قوته.

وكان يخصف النعل و يرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله و يقطع اللحم معهن، وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد، يجيب دعوة الحر والعبد، و يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب، و يكافىء عليها و يأكلها، ولا يأكل الصدقة، ولا يستكبر عن اجابة الأمة والمسكين، يغضب لربه لا لنفسه، و ينفذ الحق وان أضر على نفسه.

وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، و يأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد براً أو شعيراً أو حلوى أو عسلاً أو لبناً، لا يأكل متكئاً ولا على خوان، منديله باطن قدمه، لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله، ايثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس.

وكان أحسن الناس بشراً وتواضعاً، وأبلغهم في غير تطويل، لا يهوله شيء من أمور الدنيا، و يلبس ما وجد شملة و برد حبرة يمانياً وجبة صوف، وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر، يردف خلفه عبده أو غيره، و يركب ما

أمكنه فرساً وبغلة وحماراً وبعيراً، أو يمشي راجلاً حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، يحب الطيب ويكره الرائحة الكريهة، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم، لا يجفو على أحد، يقبل المعذرة، ويمزح ولا يقول الا حقاً، يضحك من غير قهقهة، يرى اللعب المباح ولا ينكره ويسابق أهله، وترفع الأصوات عليه فيصبر.

وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها، وكان له عبيد واماء لا يرتفع عليهم في مأكل وملبس، يمضي أوقاته في عمل الله تعالى أو فيما لا بد له، يخرج الى بساتين أصحابه، لا يحقر مسكيناً ولا يهاب ملكاً يدعو كليهما الى الله دعاء واحداً.

قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في رعاية الغنم، يتيماً لا أب له ولا أم، فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة، وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا، ولزوم الواجب وترك الفضول. وفقنا الله لطاعته والتأسي به في فعله آمين يا رب العالمين.

ومن آدابه صلى الله عليه وسلم: ما شتم أحداً الا جعل له كفارة ورحمة، وما لعن أحداً، وكان يقول: «انما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً». وما يدعو على أحد كافراً أو مسلماً، وما ضرب بيده أحداً الا في سبيل الله، وما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله، وما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما الا أن تكون ثمة اثم أو قطيعة رحم، وما كان يأتيه حر أو عبد أو أمة الا قام معه في حاجته، وما قال لمن يخدمه: لم فعله، ولا لام أحداً الا قال: دعوه انما كان هذا بكتاب وقدر.

وربما يضطجع على الفراش وعلى الأرض ولا يأخذ أحد يده ولا يكلمه أحد الا يكون هو الذي يرسلها أو هو الذي ينصرف أولاً، وكان أكثر جلوسه الحبوة،

وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ويجلس مستقبل القبلة، وكان يؤثر الداخل بالوسادة التي تحته فإن أبى عزم عليه حتى يفعل، وكان يدعو أصحابه بل النساء والصبيان بكناهم، وكان أبعد الناس غضباً فأسرعهم رضا، وكان لا ترفع في مجلسه الأصوات، وكان إذا قام من مجلسه قال «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك» ثم يقول: «علمنيهن جبرئيل عليه السلام».

وأما كلامه وضحكه: كان أفصح الناس نطقاً وأحلاهم كلاماً، وكان لا يسرد الكلام، وكان أوجز كلاماً ويتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير، وكان بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه، وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ولا يقول في الرضا والغضب الا الحق، وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وربما ضحك حتى تبدو نواجذه، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له، وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة.

وكان اذا سر ورضي فهو أحسن الناس، وان وعظ وعظ بجد، وان غضب ــ ولم يكن يغضب الا لله ــ لم يقم لغضبه شيء، وكان اذا نزل به الأمر فوض الأمر وتبرأ من الحول والقوة.

أما آدابه في الأكل: فكان يأكل ما وجد، وكان يحب كثرة الأيدي على الطعام، وكان يجلس عند الأكل كما يجلس المصلي، الا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم، وكان لا يأكل الحار ويأكل مما يليه بأصابعه الثلاث، وربما استعان بالرابعة، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول؛ ويأكل القثاء بالرطب، يحب البطيخ والعنب، ويأكل البطيخ بالخبز وبالسكر وربما أكله بالرطب، ويستعين باليدين جميعاً.

وكان يحفظ نوى الرطب في يساره فعرض النوى بالشاة فجعلت تأكل في

يده اليسرى وهو صلى الله عليه وسلم يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة. وربما أكل العنب خرطاً يرى رؤاله على لحيته كحدر اللؤلؤ وهو الماء الذي يقطر منه. وكان أكثر طعامه التمر والماء، وكان يجمع التمر باللبن و يسميها الأطيبين، وكان أحب الطعام إليه اللحم و يقول هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، وكان يأكل الثريد باللحم والقرع، و يأكل الخبز والسمن، ويحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة، وقال: العجوة من الجنة وشفاء من السم والسحر.

كان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء، ولا يأكل الثوم والبصل والكراث، وكان يكره أكل الكليتين لمكانهما من البول، وكان يعاف القلب والطحال، وان عاف طعاماً تركه ولم يبغضه الى غيره، وكان يلعق الصفحة و يقول آخر الطعام أكثر بركة، وكان يلعق أصابعه حتى تحمر ثم يمسح بالمنديل و يغسل يديه من الخبز واللحم خاصة ثم يمسح بالماء على وجهه، وكان يمص الماء مصاً ولا يعب عباً، و يشرب في ثلاث دفعات فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات، وربما يشرب بنفس واحد، واذا تنفس ينحرف عن الاناء و يدفع فضل سؤره الى من على يمينه، فإن كان من عن يساره أجل رتبة قال للذي عن يمينه: السنة أن تعطي فإن أحببت آثرتهم.

وأتى باناء فيه عسل ولبن وقال: «شربتان في شربة وادامان في اناء واحد»؛ ثم قال: «لا أحرمه ولكني أكره الفخر، والحساب بفضول الدنيا غداً، وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه».

وكان في بيته أشد حياء من العاتق، لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم، وان أطعموه أكل، وما أعطوه قبل، وما سقوه شرب، وربما قام فأخذه بنفسه.

وأما لباسه: فما وجده من أزار أو رداء أو قميص أو جبة، و يعجبه الخضر، و يكثر لباس البياض، وكان يلبس القباء المحشو للحرب، وكانت ثيابه فوق الكعبين وازار فوق ذلك الى نصف الساق، وكان قميصه مشدود الازرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها.

وكان له ملحفة مصبوغة بالزعفران، وربما صلى بالناس فيها وحدها، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره، وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول: «أنا عبد ألبس كما يلبس العبد».

وكان له ثوبان لجمعته خاصة، وربما لبس الأزرار الواحد ليس عليه غيره، وكان يتختم وربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء، وكان يختم على الكتب، وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة، وربما نزع قلنسوة من رأسه فجعلها سترة في صلاته، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته، وكانت له عمامة تسمى السحاب وهبها من علي رضي الله عنه. وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً.

وكان له فراش من أدم، حشوه ليف، طوله ذراعان أو نحوه، وعرضه ذراع وشبراً ونحوه، وكانت له عباءة تفترش له حيث ينتقل تثنى طاقتين تحته، وكان ينام على حصير ليس تحته شيء غيره.

وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه؛ فكان اسم رايته العقاب؛ واسم سيفه ذو الفقار، وآخر المخذم، وآخر الرسوب، وآخر القضيب. وكانت قبيعة سيفه من الفضة، وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة؛ وكان اسم قوسه الكتوم؛ وجعبته الكافور؛ واسم فرسه المرتجز، وناقته القصوى، ويقال لها: العضباء؛ وبغلته الدلال؛ وحماره يعفور، وشاته التي يشرب لبنها عنبة.

وكان له مطهرة من فخار يتوضأ ويشرب منها، ويرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد ميزوا فيدخلون ويشربون منه، ويمسحون على وجوههم وأجسادهم يبتغون بذلك البركة.

وكان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع القدرة، وكان رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه ورضاه واذا أشتد وجده أكثر من مس لحيته. وكان أجود الناس وأسخاهم سيما في رمضان وما سئل شيئاً قط على الاسلام الا أعطاه، وكان أنجد الناس وأشجعهم، وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب، وكان أشد الناس تواضعاً في علو

منصبه، قال ابن عمر: رأيته صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة على ناقته صهباء لا ضرب ولا طرد ولا اليك اليك. وكان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة ومع ذلك كان يستردف.

وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك، وكان يسلم على الصبيان، وكان لا يأكل على خوان ولا على سكرجة حتى لحق بالله عز وجل، وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم الا قال: لبيك وأتى برجل فأرعد من هيبته، فقال له: «هون عليك فلست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد». وربما تكلم مع الناس في أمر الآخرة. وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه ويذكرون من أمر الجاهلية فيضحكون، وهو يبتسم رفقاً بهم وتواضعاً، ولا يزجرهم الا عن حرام.

وكان صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، وكان ينسب الى الربعة، وربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسبا الى الطول ونسب هو الى الربعة. كان أزهر اللون لم يكن بالآدم ولا الشديد البياض. وكان رجل الشعر حسنه ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان شعره يضرب منكبيه، وأكثر الرواية انه الى شحمة أذنيه، وربما جعله غدائر أربعاً يخرج كل اذن من بين غديرتين، وربما جعل شعره على أذنه فتبدو سوالفه تتلألأ، وكان شيبه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة فقط.

وكان واسع الجبهة ازج الحاجبين وأبلج ما بينهما، وعيناه نجلاوان ادعجهما مع مزج حمرة فيهما، وكان أهدب الأشفار تلتبس من كثرتها، وأقنى العرنين مفلج الأسنان، اذا ضحك افترعن سنا البرق اذا تلألأ، وكان من أحسن عباد الله شفتين والطفهم ختم فم، وكان سهل الخدين صلبهما لا بالطويل الوجه ولا المكلثم، كث اللحية، وكان يعفي لحيته ويأخذ من شاربه، وكان من أحسن الناس عنقاً لا ينسب الى الطول ولا الى القصر، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه ابريق فضة مشرب ذهباً يتلألأ في بياض الفضة وحمرة الذهب.

وكان عريض الصدر موصول ما بين لبته وسرته منقاداً كالقضيب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره، كانت له عكن ثلاث يغطي الأزار واحدة منها

وتظهر اثنتان. وكان عظيم المنكبين أشعرهما ضخم الكراديس، أي: رؤوس العظام من المرفقين والوركين. وكان واسع الظهر بين كتفيه خاتم النبوة، وهو مما يلي منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب الى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها عرف فرس. وكان عبل العضدين والذراعين طويل الزندين رحب الراحتين سائل الأطراف.

وكانت أصابعه قضبان الفضة وكفه ألين من الحرير، وكأن كفه كف عطار طيباً مسها أو لم يمسها، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه.

وكان عبل ما تحت الأزار من الفخذ والساق، وكان معتدل الخلق في سمن بدن في آخر زمانه، وكان لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السن، وكان يمشي كأنما ينقلع من صخر ويتحدر من صبب، يخطو تكيفاً ويمشي الهوينا بغير تبختر؛ والهوينا: تقارب الخطى.

وأما معجزاته وآياته فخارجة عن حد العد والاحصاء، سيما المعجزة الكبرى الباقية الى آخر الدهر تحدى بها بلغاء عدنان وفصحاء قحطان، وجزيرة العرب مملوءة بالآلاف منها، ونادى بين أظهرهم بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله أن شكوا فعجزوا عن ذلك عن آخرهم، حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم للسبي، فما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في حسنه وجزالته.

ثم انتشر ذلك بعده صلى الله عليه وسلم في أقطار العالم شرقاً وغرباً، قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر، فلم يقدر أحد على معارضته. فأعظم بحمق من رأى معجزاته وأخلاقه وآدابه، ثم في استمرار شرعه الى قريب من خمسين وتسعمائة، ثم في انتشاره في أقطار العالم واذعان ملوك الأرض في عصره وبعد عصره والمدة ما ذكر، ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه وخلود شرعه الى انقراض الدنيا. فنسأل الله أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأقوال والأفعال والأحوال، أنه الكريم ذو الجلال وهو العليم بكل الحال بمنه وجوده.

الشعبة الثالثة

في ربع المهلكات

الأصل الأول

شرح عجائب القلب

ولنذكر أولاً عدة ألفاظ نافعة في الباب:

أحدها القلب: وله معنيان؛ أحدهما: اللحم الصنوبري المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه دم أسود، وهو منبع الروح الحيواني، وهو من عالم الملك والشهادة؛ وثانيها: لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وهي حقيقة الانسان، وهي المدرك العالم العارف المخاطب والمعاتب والمعاقب والمطالب، وهذا من عالم الغيب وقد نهينا عن شرح حالها.

الثاني: لفظ الروح. وله أيضاً معنيان؛ أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف الجسم الصنوبري، وتنتشر بواسطة العروق الضوارب الى البدن، و يفيض بسببه قوة الحياة والحس والبصر والسمع والشم؛ وثانيها ثاني معنى القلب.

الثالث: لفظ النفس. وله أيضاً معنيان؛ أحدهما: الأمر الجامع لقوة الغضب والشهوة في الانسان وعلى أكثر اصطلاح المتصوفة، وثانيها: ثاني معنى القلب والروح.

الرابع: العقل. وله أيضاً معنيان؛ أحدهما: العلم بحقائق الأمور؛ وثانيهما: المدرك لحقائق الأمور، أعني: اللطيفة المذكورة.

بيان جنود القلب.

وهي ثلاثة أصناف: باعث اما الى جلب الموافق النافع كالشهوة، أو الى دفع الضار المنافي كالغضب. و يسمى هذا الباعث ارادة، ومحرك للأعضاء الى تحصيل هذه المقاصد مسمى بالقدرة، وهي أمور مبثوثة في سائر الأعضاء سيما العضلات منها والأوتار، ومدرك متعرف للأشياء كالجواسيس، وهي مبثوثة في مواضع معينة، كالحواس الظاهرة المستخدمة للأعضاء الظاهرة المركبة من اللحم والشحم والدم والعظم، وهذه من عالم الملك والشهادة، ولها حواس باطنة: من الحس المشترك والنخيل والتفكر والتذكر والحفظ، والذي يبحث عنه هي الحواس الباطنة.

ويمثل القلب مع جنوده الباطنة كالملك والوالي أعني الروح مع مملكته ومدنيته أعني البدن، وقوته العقلية وزيره العاقل، وشهوته كعبده السوء الجالب للميرة. فمتى انقاد للوزير خلص من مضرة العبد المكار والا هلك؛ وكذا الغضب صاحب شرطته، فإذا تبع رأى الوزير يأمن ضرره والا فات قانون العدل في المملكة.

ثم أن الإنسان في تركيبه أربع قوى، وهي: السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية. فهو من حيث سلط عليها احدى هذه الصفات تتولد أخلاق رديئة.

أما الأول: فكالعداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم؛

وأما الثاني: فكالشره والحرص والشبق؛

وأما الرابع: فكحب الاستيلاء والاستعلاء والتفرد بالرياسة، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع، وادعاء الاحاطة بجميع الحقائق، والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق: من أوصاف الربوبية؛ ومن حيث يختص عن البهائم بالتميز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية.

وبالجملة: اذا أتبعت قوة العلم على الشهوة والغضب صار شيطاناً في صورة انسان، والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ببصيرته، ويكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه وهو الخنزير، ويدفع ضرارة الكلب بتسليط الخنزير عليه، ويجعل الكل مقهوراً تحت سياسته فيحصل صفة العدل؛ والا فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير، ومع ذلك ينكر على عبدة الاصنام عبادتهم للحجارة ونفسه يعبد الكلب والخنزير، كما يراه المكاشفون تارة في النوم وتارة في اليقظة على عكوفه في عباده هذين.

فحصل له من طاعة خنزير الشهوة: الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرئاء والهتك والمجانة والعنت والحرص والجشع والملق والحسد والشماتة ونحوها؛ ومن طاعة كلب الغضب: صفة التهور والنذالة والبذخ والصلف والاستشاط والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وارادة الشر وشهوة الظلم ونحوها؛ ومن طاعة شيطان الشهوة والغضب والمكر والحيلة والخداع والدهاء والجربزة والتلبيس والتضريب والغش والخبث وأمثالها؛ ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت رياسة الصفة الربانية، استقر في القلب صفات ربانية: من العلم والحكمة والاحاطة بحقائق الأشياء كما هي، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة، ويحصل له من رد خنزير الشهوة الى الاعتدال صفات شريفة: من العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها، ومن كسر قوة الغضب وقهرها وردها الى حد الواجب: صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والشهامة والوقار وغيرها.

المطلب الثاني

واعلم: أن كل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق، لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف، وتلك الخاصية قد عبر الله عز وجل عنها بالأمانة التي حملها الانسان وأبت عن حملها السموات والأرض والجبال: لكن هناك أسباب مانعة من معرفة حقائق العلوم، وهي خمسة:

أحدها: نقصان في ذاته كقلب الصبي، ومثال ذلك في الحس: الحديد قبل أن يدور و يتشكل و يصقل.

وثانيها: كدورة المعاصي وخبث الشهوات، مثاله: صدأ الحديد وكدورته بعد تمام شكله.

وثالثها: كونه معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فإن القلب وان كان صافياً الا أن هم الطاعات البدنية أو تهيئة أساب المعيشة ربما يصرف فكره عن التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الالهية، فلا ينكشف له الا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وحقائق عيوب النفس أو مصالح المعيشة، مثاله: كون المرآة المصقولة معدولاً بها عن جانب الصورة.

ورابعها: أن يكون المطيع القاهر لشهواته المتجرد للتفكر في حقيقة من الحقائق لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد يسبق اليه من الصبا على سبيل التقليد والقبول لحسن الظن، وذلك يحول بينه وبين الحق، مثاله: الحجاب المرسل بين الصورة وبين المرآة الصقيلة المحاذية نحوها.

وخامسها: الجهل بالجهة التي منها يقع العثور على المطلوب، اذ لا بد لكل علم من علمين سابقين يأتلفان فيحصل من ازدواجهما علم ثالث؛ ومثاله: الجهل بالجهة التي فيها الصورة فلا يحاذي المرآة بها؛ مثلاً: أن أراد أن يبصر قفاه في المرآة فلا بد أولاً أن يعرف طريقه والا لا يحصل من جده طائل، فانه أن رفع المرآة حذاء وجهه لا يبصر قفاه وان رفعها وراء القفا لا يرى المرآة أصلاً، فينبغي أن يرفع مرآة وراء القفا وأخرى حذاء وجهه مقابلة للمرآة الأخرى، فتنتقش صورة القفا في مرآة تقابلها، ثم تنتقش منها الى المرآة المحاذية للمرآة الأولى ولوجه الرائي، فترتسم صورة القفا في المرآة الثانية فيرى قفاه، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها أزورارات وتحريفات أعجب مما ذكرنا في المرآة، ويعز على بسيطة الأرض من يهتدي الى كيفية الحيلة في تلك الأزورارات.

المطلب الثالث

العلوم أما عقلية: وهي التي تقضي بها غريزة العقل بلا أخذ من تقليد وسماع؛ وهي أما ضرورية: لا يدري من أين حصل وكيف حصل، وأما مكتسبة: وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال، وكلاهما قد تسمى عقلاً، والقلب جار مجرى العين، وغريزة العقل جارية مجرى قوة الأ بصار يتوقف على النور، كذلك قلب الصبي الى التميز والبلوغ، وفقد قوة العقل عمى. قال تعالى: ﴿ فأنها لا تعمى الأ بصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾[1].

ثم العلوم: أما دينية مأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء، أما بتعلم كتاب الله عز وجل، أو بتعلم سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. فالعلوم العقلية ــ وان كانت غير كافية في سلامة القلب ــ لكنها محتاج اليها في فهم العلوم الدينية، فلا غنى بالعقل عن السمع ولا بالسمع عن العقل، والداعي الى محض السمع مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور.

فاياك أن تكون من الفريقين وكن جامعاً بينهما، فالعلوم العقلية كالأغذية والشرعية كالدواء؛ من ظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن فهو ظن عن عمى عين بصيرته، نعوذ بالله من الجهل. وهذا القائل كيف يفعل فيما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض، فأما أن يعترف بنفع العلوم العقلية، أو يعتقد نقصاً في الدين و ينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين.

ثم العلوم العقلية؛ أما دنيوية: كالطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات؛ وأما أخروية: كعلم أحوال القلوب وآفات الأعمال والعلم بالله وصفاته وأفعاله، وهما ككفتي الميزان، وربما يقال: كالمشرق والمغرب، وربما يقال: كالضرتين أن أرضيت احداهما أسخطت الأخرى،

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

ولذلك ترى علماء الدين جهالاً في علوم الدنيا و بالعكس. والجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدين والدنيا لا يتيسر الا للمؤيدين بروح القدس، وهم الانبياء، بخلاف سائر الخلق، فأنها اذا شغلت بأحدهما انصرفت عن الآخر.

المطلب الرابع

وأعلم: أن للقلب بابين: مفتوح الى عالم الملكوت، وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة؛ وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسك بعالم الشهادة والملك. وطريق اكتسابه من الباب الثاني معلوم لكل أحد، وأما طريق اكتسابه من الملكوت: فهو أن القلب مستعد لأن يتجلى فيه جلية الحق في الأشياء كلها، وانما حيل بينه وبينها بالحجب الخمسة ـــ التي ذكرناها ـــ المسدلة بين القلب وبين اللوح المحفوظ، الذي يسطر فيه حقائق الأشياء وجميع ما قضى الله سبحانه الى يوم القيامة، كما يسطر المهندس صورة أبنية الدار في بياض ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة.

ثم أن الحجاب بينهما تارة يزول باليد وأخرى بهبوب رياح الألطاف، ويكون ذلك تارة في المنام فيظهر له ما سيكون في المستقبل، وتارة في اليقظة فيلمع غرائب العلوم، وتارة كالبرق الخاطف، وأخرى كالتوالي الى حد ما. ودوامه في غاية الندور، فالحجاب اذا انكشف باختيار العبد فهو الاكتساب، وإلا فالهام ونفث في الروع، وان شاهد معه الملك فهو الوحي.

وهذا الانكشاف ـــ وان لم يكن بالأختيار ـــ الا أن أسبابه البعيدة داخلة تحته، لأن ذلك بالزهد في الدنيا والتبرؤ من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها حتى يستوي عنده وجود كل شيء وعدمه، والأقبال بكنه الهمة، فمن كان لله كان الله له.

وينبغي أن لا يفرق فكره في مطالعة تفسير وحديث، بل يداوم أن يقول بلسانه: الله الله الى أن ينتهي الى درجة تكون الكلمة جارية على اللسان بلا قصد منه، ثم ينتهي الى أن يمحى أثره عن اللسان فيصادف قلبه مواظبا على الذكر، ثم يواظبه الى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة،

و يبق معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه، ثم يسلب عنه الاختيار في استجلاب رحمة الله فيبق منتظرا لما يفتحه الله عليه من نفحاته، فتلمع لوامع الحق في قلبه كالبرق الخاطف، ثم يعود يدوم زماناً.

المطلب الخامس

أعلم: أن أهل النظر لم ينكروا وجود هذا الطريق وامكانه وافضاءه الى المقصود، لكن استوعروه واستبطأوا ثمرته واستبعدوا اجتماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق الى هذا الحد كالمتعذر، وان حصل فثباته أبعد منه اذا دنا وسواس وخاطر يشوش القلب، وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، فالاشتغال بطرق التعلم أوثق وأقرب الى الغرض.

الا أن المفهوم من الآيات والأحاديث كون علم التصفية أفضل من العلم المكتسب؛ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾[1]، ما هذا الشرح، قال: «هو التوسعة، ان النور اذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح»؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «ولو وزن ايمان أبي بكر بإيمان العالم سوى النبيين والمرسلين لرجح»؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «ان من أمتي محدثين ومكلمين وان عمر منهم»؛ والمحدث: هو الملهم، والملهم: هو انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة، والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعليم.

وقال علي رضي الله عنه: ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم الينا، الا أن يؤتى الله سبحانه عبداً فهماً في كتابه، وليس هذا بالتعلم.

ثم ان الصواب لمن يريد طريق الآخرة: ان يقدم تعلم العلوم الدينية، ثم يبتدىء طريق التصفية، اذ ربما تتشبث بالقلب خيالات فاسدة، وربما يبقى

---

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

الصوفي في خيال واحد عشرين سنة و ينقضي عمره دون النجاح فيه، فلو كان قد أتقن العلم من قبل لأنفتح له وجه الصواب من ذلك الخيال في الحال. ومن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم الفقه وصار فقيهاً بالوحي والالهام فربما ينتهي بالرياضة اليه فقد ظلم نفسه وضيع عمره، فإن ذلك وان أمكن لغير النبي بعيد جداً فلا يغتر به.

المطلب السادس

أعلم: ان القلب ترد عليه الصورتان من الحواس الظاهرة وتارة من الحواس الباطنة، لأنه اذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منها أثر في القلب، ثم ينتقل بسبب الآثار الواردة عليه من حال الى حال دائماً، أعني: الأفكار والأذكار، وهذه تسمى الخواطر لخطورها عند غفلة القلب عنها. والخواطر محركة للرغبة، وهي تحرك العزم والنية، والنية تحرك الأعضاء.

فالخواطر مبدأ للأفعال وتنقسم الى: ما يدعو الى الشر، أي: يضر في العاقبة، والى ما يدعو الى الخير، أي: ينفع في الدار الآخرة. فالخاطر المحمود يسمى الهاماً، والخاطر المذموم يسمى وسوسة. ومن سنة الله تعالى ترتيب المسببات على أسبابها: فسبب الخاطر المحمود يسمى ملكاً، وسبب الخاطر المذموم يسمى شيطاناً؛ واللطف الذي به يتهيأ القلب لقبول الهام الملك يسمى توفيقاً، والذي يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى أغواء وخذلانا، والقلب متجاذب بين الملك والشيطان، وانما يترجح أحد الجانبين بالمجاهدة أو باتباع الهوى والشهوات التي هي سلاح الشيطان، فلا بد من معرفة سلاحه وكيفية دفعه.

وأما معرفة صفته وذاته وحقيقته وكذا صفة الملك وحقيقته فذلك من علوم المكاشفة. ومما ينبغي أن يعلم أن بعض الأمور مكايد الشيطان، و بعضها الهام الملك، و بعضها متردد بينهما، اذ الشيطان يعرض الشر في معرض الخير، والتميز بينهما غامض، و به يهلك أكثر العباد اذ لا يقدر على دعائهم الى صريح الشر فيصوره بصورة الخير. فحق على العبد أن يمعن فيه النظر بعين البصيرة لا بهوى

من الطبع، ولا يطلع عليه الا بنور التقوى وغزارة العلم، والا يتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر.

ولا ينجي من ذلك الا سد أبواب الخواطر والعزلة، وقطع العلائق، ودوام الذكر. ولا تنقطع هذه المجاهدة الى الموت، فأنه ما دام حياً فأبواب الشيطان مفتوحة الى قلبه لا تنغلق.

وباب الملك باب واحد، ومع ذلك قد التبس هذا الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة؛ مثلاً للعالم الواعظ: الناس موتى من الجهل هلكى من الغفلة، أمالك رحمة على عباد الله وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة، فكيف تفكر بنعمة الله وتتعرض لسخطه وتسكت عن اشاعة العلم ودعوة خلق الله الى الصراط المستقيم، الى أن يستجره بلطائف الحيل الى وعظ الناس، ثم يدعوه الى أن يتزين لهم في اللفظ واظهار الخير، حتى يحصل له لذة الجاه وقبول الخلق والتعزز بكثرة العلم والنظر الى الخلق بعين الاحتقار، فيهلك المسكين، وهو يرى أنه عند الله بمكان.

وأمثال هذا التلبيس انتشر الآن في البلاد والعباد حتى لم يبق من الخيرات الا رسمها.

ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص، اذ القلب أعماه حرصه وصمه، اذ يحسن له الشيطان كلما يوصله الى شهوته وان كان منكراً وفاحشاً.

ومنها: الغضب والشهوة، اذ الانسان اذا غضب لعب به الشيطان كما يلعب الصبي بالكرة.

ومنها: حب التزين بالثياب والأثاث والدار، فان الشيطان اذا رأى ذلك غالباً على قلب انسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يصرفه من عمارة الباطن الى عمارة الظاهر، ثم أن بعض ذلك يجره الى بعض، حتى يموت وهو في تصرف الشيطان، فيخشى عليه من سوء الخاتمة نعوذ بالله منه.

ومنها: الشبع بالطعام وان كان حلالاً صافياً، فان الشبع يقوي الشهوات وهي أسلحة الشيطان.

ومنها: الطمع في الناس، فإذا غلب هو على القلب لم يزل الشيطان يحسن التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرئاء والتلبيس، حتى يصير المطموع فيه كأنه معبود، و يدخل كل مدخل للوصول الى ذلك؛ وأقل أحواله: الثناء عليه بما ليس فيه، والمداهنة معه بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومنها: العجلة وترك التثبت في الأمور، اذ الواقع بعد التأمل يصير على وجه الصواب، و بالعجلة يمنع الشيطان ذلك و يروج شره من حيث لا يدري.

ومنها: الدنانير والدراهم وسائر الأموال، وذلك لأن من معه قوته فقط فهو فارغ القلب، فإذا وجد مائة دينار على الطريق انبعث من قلبه عشر تحتاج كل واحدة الى مائة دينار، مثلاً: يشتري بها داراً يعمرها وجارية وأثاثاً وثياباً فاخرة، وكل ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به، وذلك لا آخر له، فيقع في هاو ية آخرها الموت، وكان عندما حصل قوته فارغ القلب، ثم اذا وجد ديناراً يظن أنه صار غنياً بعد ما كان فقيراً وليس كذلك بل هو على عكس ذلك.

ومنها: البخل وخوف الفقر لأنها يمنعان من التصدق.

ومنها: التعصب للمذاهب والأهواء، وهو به فرح مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشيطان، حتى أن منهم من يطعن في مذهب الشافعي، ومنهم من يطعن في مذهب أبي حنيفة، وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان أهلك الله به كثيراً من العلماء.

ومنها: تحريض العوام على التفكر في ذات الله وصفاته، حتى يشككهم به في أصل الدين، أو يخيل اليهم في الله خيالات فاسدة يتعالى الله عز وجل منه، فيصير به كافراً أو مبتدعاً وهو به فرح ومسرور ومبتهج بما وقع في قلبه، و يظن أن ذلك هو المعرفة والبصيرة، وانكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله، وانما حق العوام أن يشتغلوا بعبادتهم ومعاشهم و يتركوا العلم الى العلماء.

ومنها: سوء الظن بالمسلمين، اذ عند ذلك بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك، أو يقصر عن القيام بحقوقه، أو يتوانى في اكرامه، أو ينظر اليه بعين الاحتقار و يرى نفسه خيراً منه، وكل ذلك من المهلكات. فهذا

بعض مداخل الشيطان الى القلب ولو أردنا استقصاء جميعه لم نقدر عليه، وفي هذا القدر ما ينبه على غيره.

ثم أن علاج ذلك سد هذه المداخل وذلك يطول ذكره، وسنذكره ان شاء الله تعالى.

ثم أن القلب اذا غلبت عليه الشهوات يستقر الشيطان فيه، ولا يتمكن الذكر من سويدائه بل يرجع الى حواشيه، وأما اذا صفا وخلا عن الشهوات ربما يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها عن الذكر، فإذا ذكر خنس الشيطان.

المطلب السابع
في أحوال الشيطان

صح بنور الاستبصار وشواهد الأخبار أن الشياطين جنود مجندة ولكل من المعاصي شيطان يخصه و يدعو اليه، ولا يمكن تفصيل ذلك. والدليل الأجمالي: أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب.

وأما الملائكة فكذا، ويختص كل واحد منهم بعمل، وسيجيء ذلك.

ثم أن الملك والشيطان لهما صورتان حقيقيتان لا يدرك ذلك الا بنور النبوة، كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبرئيل عليه السلام في صورته الحقيقية مرتين، وكان يراه في صورة دحية الكلبي غالباً وكان رجلاً حسن الوجه.

وأما الأولياء فانما يكاشف لهم في اليقظة مثل ما يراه النائم في نومه، وهم الذين انتهوا الى رتبة لا يمنعهم اشتغال الحواس بالدنيا عن مشاهدة قلبه عالم الملكوت، وهذا مثاله لا حقيقته.

وتحقيقه: ان عالم الشهادة كلها خيال، الا أن الخيال تارة يحصل من النظر

الى ظاهر عالم الشهادة بالحس فحينئذ يرى الصورة دون المعنى، ولهذا قد تخالف الصورة المعنى؛ كما اذا رأيت شخصاً جميل الصورة قبيح الباطن. ويحصل تارة من اشراق عالم الملكوت على باطن سر القلب فلا تكون الا محاكية للصفة وموافقة لها لأن الصورة في عالم الملكوت تابعة للصفة، فلا جرم يرى المعنى القبيح في صورة قبيحة، كرؤية الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيره؛ و يرى الملك في صورة جميلة، فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق، وبهذا الطريق يمكن تعبير الرؤيا.

المطلب الثامن

في القدر المعفو عنه من الوسوسة

وأعلم: أن لها مراتب أربع قبل العمل بالجوارح:

أولاها: الخاطر، وهو حديث النفس.

وثانيتها: الميل وحركة الشهوة التي في الطبع

وثالثتها: الاعتقاد والحكم بأن هذا ينبغي أن يفعل.

ورابعتها: الهم، وهو: العزم وجزم النية، فأما أن يندم فيترك، أو يغفل لعارض فلا يعمل، أو يعوقه عنه عائق.

والأولان من هذه الأربع لا يؤاخذ بها العبد لعدم دخولها تحت الاختيار، و يسميان: حديث النفس؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «عفى عن امتي ما حدثت به نفوسها».

وأما الثالث: فهو الاعتقاد ان كان اختيارنا يؤاخذ به والا فلا.

وأما الرابع: وهو الهم بالفعل، فأنه يؤاخذ به، الا أنه ان لم يفعل خوفاً من الله تعالى وندماً على همه كتبت له حسنة لأن ترك السيئة حسنة، لأن الهم على وفق الطبع لا يدل على تمام الغفلة عن الله، فجده في الامتناع عنه يدل على طاعته لله تعالى فكتبت له حسنة. وأما أن عاق عنه عائق أو تركه عذراً لا

خوفاً من الله عز وجل كتبت عليه سيئة، فإن همه فعل اختياري الا أن يكفره بحسنة.

المطلب التاسع
في بيان الوسواس هل ينقطع عند الذكر بالكلية أم لا

منهم من قال بانقطاعه؛ ومنهم من قال: لا ينقطع ولكن لا يؤثر؛ ومنهم من قال: لا ينقطع و يؤثر لكن على ضعف، ومنهم من قال: ينقطع بلحظة الذكر والوسوسة يتعاقبان؛ ومنهم من قال: لا ينقطعان في لحظة أصلاً بل القلب يكون مجرى لهما في كل حال.

والمذهب الصحيح: ان كل واحد من هذه الأقوال بالنظر الى صنف من أصناف الوسوسة وهي ثلاثة:

الصنف الأول: تلبيس الحق، مثلاً يقول: لا تترك اللذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات ألمه عظيم، فعند ذلك اذا قال العبد الصبر عن الشهوات شديد والصبر على النار أشد منه خنس الشيطان، اذ لا يستطيع أن يقول: ليس النار أشد منه، فأن ذلك أمر وجداني، ولا أن يقول: المعصية لا تفضي الى النار، فأن ايمانه بكتاب الله يدفعه؛

ومثلاً يقول للعجب: أي عبد يعرف الله كما تعرفه و يعبده كما تعبده، فما أعظم مكانك عند الله، فإذا تذكر العبد أن معرفته وقدرته وقلبه كلها من خلق الله فمن أين يعجب به خنس الشيطان، اذ لا يستطيع انكاره.

الصنف الثاني: أن يوسوس بتحريك الشهوة وتهييجها، فإن علم العبد أن ذلك معصية يجب تركها خنس عن تهييج يؤثر في التحريك دون أصل التهييج، وان ظن أنه معصية ربما يبقى مؤثراً أو يحتاج في دفعه الى مجاهدة.

الصنف الثالث: أن يوسوس بمجرد الخواطر، وتذكر الأحوال الغائبة، والتفكر في غير الصلاة مثلاً، فإذا ذكر الله تصور أن يندفع ساعة و يعود و يندفع

و يعود فيتعاقبان، و بعيد أن يندفع هذا الصنف بالكلية، وليس محالاً في القلب الذي استولى عليه حب الله عز وجل ولا يخطر بباله غير حديث محبوبه.

المطلب العاشر
بيان سرعة تقلب القلب

اعلم: أن القلب تكتنفه الصفات المهلكة، وتنصب اليه الآثار والأحوال من الأبواب التي ذكرناها، فإذا أثر فيه أحدهما أصابه من جانب آخر ما يضاده فيغير وصفه؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾[1]. ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؛ قيل: وتخاف يا رسول الله، قال: «ما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»؛ وكان يحلف و يقول: «لا ومقلب القلوب».

والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينها ثلاثة:

أحدها: قلب عمر بالتقوى وزكي بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق، تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت وتمده بجنود لا ترى، ويهدي به الى خيرات أخر حتى ينجز الخير الى الخير، وكذلك على الدوام لا يتناهى امداده بالترغيب في الخير وتيسير الأمر عليه.

وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية، حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء.

وثانيها: قلب المخذول المشحون بالهوى المدنس بالخبائث الملوث بالأخلاق الذميمة، و يكون عقله قد ألف خدمة الهوى واستمر على استنباط الحيل له فينشرح بالهوى، و يوحي القلب زخرفاً من القول غروراً فلا ينكشف بعقله

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٠.

أيضاً وجه الصواب، فيبقى في ظلمات بعضها فوق بعض. واليه يشير قوله تعالى: «أرأيت من اتخذ الهه هواه».. الى قوله تعالى: ﴿سبيلاً﴾[1].

وربما يكون قلبه الى بعض الأمور على التقوى والى بعضها على الهوى؛ كالذي يتورع عن بعض الأشياء ولكنه اذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه، واذهب عقله ولبه، وانفتحت له أبواب الجاه والرياسة والكبر؛ أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب.

وثالثها: قلب يبتدىء فيه خاطر الهوى فيدعوه الى الشر فيلحقه خاطر الايمان فيدعوه الى الخير، واذا نصحه العقل يرده الشيطان، فلا يزال القلب يتردد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين الى أن يغلب أحدهما: أما محاكم العقل ان غلب على القلب جند الصفات الملائكية، أو حاكم الشهوة أن غلب جند الصفات الشيطانية. وكل ذلك تابع لسابق القضاء: فمن خلق للجنة يسرت له الطاعات وأسبابها، ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعصية. ومع ذلك يقول له الشيطان: أن الله غفور رحيم فلا تبال، وان العمر طويل فأصبر حتى تتوب غداً ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غروراً﴾[2]. فكل ذلك بقضاء الله وقدره: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾[3]. فتعالى الله الملك الحق ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٤٣. (٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٥.

(٢) سورة النساء، آية: ١٢٠.

الأصل الثاني
رياضة النفس وتهذيب الأخلاق

وفيه مطالب.

المطلب الأول

اعلم: أن الخلق عبارة عن هيئة راسخة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير حاجة ولا روية، فان صدرت عنها الأفعال المحمودة عقلاً وشرعاً يسمى خلقاً حسناً، وان صدرت عنها الأفعال الذميمة عقلاً وشرعاً كذلك يسمى خلقاً سيئاً.

وأمهات الأخلاق السيئة أربع: اختلال قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل.

واعتدال هذه القوى هي الأخلاق الحسنة.

أما اختلال قوة العلم: أما بافراطها أو استعمالها في الأغراض الفاسدة ويسمى خبا وجربزة، أو بتفريطها ويسمى بلهاً. واعتدالها: هو الوسط الذي يسمى حكمة، وذلك بأن تصير النفس بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال، وهي المراد بقوله تعالى: «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً».

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٦٩.

واختلال القوة الغضبية: أما الى طرف الزيادة ويسمى تهوراً، أو الى طرف الضعف ويسمى جبناً وخوراً. واعتدالها: بأن يقتصر انقباضها وانبساطها على حد ما يقتضيه الحكمة والعقل ويسمى شجاعة.

واختلال القوة الشهوية: اما الى طرف الزيادة ويسمى شرهاً، أو الى طرف النقصان ويسمى خموداً. واعتدالها: ان تكون تحت اشارة الدين ويسمى عفة.

واختلال قوة العدل: وهو الجور وليس له الا ضد واحد، واعتدالها: ضبط قوة الغضب والشهوة تحت اشارة العقل والشرع.

والطرفان من كل من القوى المذكورة رذيلتان، وخير الأمور أوساطها. ومن اعتدال هذه الأمور الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها، ولم يبلغ كمال الاعتدال فيها الا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وللناس بعده درجات متفاوتة، فمن ازداد اعتدالاً يكون ملكاً مطاعاً بين الناس، ومن اتصف باضدادها يكون شيطاناً ذا وسواس نعوذ بالله منه.

المطلب الثاني

في قبول الأخلاق التغيير بطريقة الرياضة

وقد أنكر التغيير بعض من غلبت الشقوة والبطالة عليه، ولم تسمح نفسه بأن تجرب ذلك لقصوره ونقصه، واستدل عليه بوجهين:

أحدهما: أن الخلق الباطن بمنزلة الخلق الظاهر واذ لا يتغير هذا فلا يتغير ذاك.

وثانيها: أن الغضب مثلاً من مقتضى المزاج والطبع وكذا الشهوة، فكيف يتبدلان.

فنقول: لو لم تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولم يكن لقوله صلى الله عليه وسلم: «حسنوا أخلاقكم» معنى، واذا أمكن تغيير أخلاق البهائم فالانسان بذلك أولى.

وكشف الغطاء فيه: أن قمع الغضب والشهوة بالكلية غير ممكن أصلاً، وانما الذي يمكن لنا بالرياضة تعديلهما وصرفهما الى ما خلقا لأجله. نعم: الجبلات مختلفة بالسرعة والبطء في التغيير لأمرين:

أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود.

وثانيها: تأكده بكثرة العمل بمقتضاه ورؤيته مرضياً.

والناس فيه على أربع مراتب:

الأول: أن يخلو عن العلم بالقبيح والحسن وبقي على أصل فطرته، فهذا سريع القبول للعلاج، فان صادف مرشداً يحسن خلقه في أقرب زمان.

الثاني: أن يعرف القبيح وزين له سوء عمله ومع ذلك علم تقصيره، وهذا أصعب من الأول اذ تضاعفت فيه الوظيفة: بقلع ما رسخ فيه أولاً، وبغرس مواد الصلاح ثانياً.

الثالث: أن يعتقد الأخلاق القبيحة حقاً وجميلاً وتربى على ذلك، فهذا اعتقاد تمتنع معالجته، ولن يرجى صلاحه الا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

الرابع: أن يكون نشؤه على الرأي الفاسد ومع ذلك يرى الفضل فيه ويتباهى به. وهذا أصعب المراتب، وهو المراد بما قيل من التعذيب تهذيب الذيب. فالأول جاهل، والثاني جاهل وضال، والثالث جاهل وضال وفاسق، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير.

واذا عرفت هذا، فاعلم: أن ما قيل: ان الآدمي ما دام حياً لا تنقطع منه الشهوة والغضب فلا مطمع في استئصالها، فغلط طائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمعها بالكلية، وليس كذلك، بل المقصود تعديلها، وكيف يقمعان ولو انقطع عن الانسان شهوة الطعام لهلك جوعاً، أو شهوة الوقاع لأنقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يقدر على دفع المهلكات البدنية والدينية.

المطلب الثالث

ان الاعتدالات المذكورة؛ قد تكون فطرية: بأن يخلق انسان كامل الفطرة، وسلطان الشهوة والغضب فيه يصير منقاداً للعقل والشرع، كالأنبياء عليهم السلام؛ وقد تكون بالرياضة: بأن يؤمر بالبذل لمن في طبعه حب المال، وبالتواضع لمن فيه الكبر وحب الجاه، وغير ذلك؛ وهذه الرياضة الى أن يصير الخلق المحمود عنده سهلاً لا متكلفاً.

ولما كان بين القلب والجوارح علاقة عجيبة يظهر أثر كل منهما في الآخر، بأن يتصور القلب الخلق المحمود ويكلفها للبدن، ثم بمواظبة البدن على ذلك الخلق يتأدى أثره الى القلب، الى أن ينقلع عنه حب الدنيا ويترسخ فيه حب الله الذي هو أصل كل سعادة. ولكن تأثر القلب من الأفعال انما يكون اذا داوم البدن عليها، ولهذا قيل: أفضل الأعمال أدومها وان قل.

ثم أن الشيخ الذي يطيب نفوس المريدين لا بد أن يكون مثل طبيب الأبدان، فأنه ان عالج الكل بعلاج واحد أهلكهم، فكذا الشيخ ينبغي أن ينظر في مرض المريد وحاله وسنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة. فان كان المريد جاهلاً يعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وان كان له مال حرام يأمره بتركه، وان رأى فيه الرعونة وعز النفس يأمره بأن يخرج الى السوق للكدية والسؤال اذ لا ذل فوقهما، الى غير ذلك.

ومن لطائف الرياضة أن الخلق المذموم ــ اذا قوي ــ ينتقل الى خلق آخر مذموم، ثم يتركه تدريجاً؛ كمن يغسل الدم بالبول ثم يغسل البول بالماء اذا كان الماء لا يزيل الدم؛ مثلاً: يرغب الصبي أولا بالكرة والصولجان، ثم ينتقل من اللعب الى الزينة وفاخر الثياب، ثم منها الى الرياسة الدنيوية وطلب الجاه، ثم منها الى رياسة العلم، ثم منها الى رياسة الآخرة. وكل هذه الوسائل مذمومة لكن يختار للتدرج وسهولة تحصيل الكمال.

المطلب الرابع

اعلم: أن كـل عضو له فائدة، وفائدة القلب الحكم والمعرفة، واصل المعارف معرفة الله سبحانه وتعالى لأنه موجدها ومخترعها، وعلامة المعرفة المحبة، وعلامة المحبة أن لا يؤثر الدنيا عليها ولا غيرها من المحبوبات، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، فمن كان في قلبه حبها فليعرف أن قلبه مريض فليشتغل بعلاجه.

ثم معرفة كل مرض على الخصوص لا يمكن الا بأربع طرق:

الأول: أن يحكم شيخاً بصيراً بعيوب النفس مطلعاً على خفايا الآفات، وهذا قد عز وجوده في هذا الزمان.

الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، لو ينصبه رقيباً على نفسه لينبه على عيوبه الباطنة.

الثالث: أن يستفيد عيوب نفسه من لسان أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوي، والانتفاع بعدو مشاحن ربما يكون أكثر من الانتفاع بصديق مداهن.

الرابع: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم ينسبه الى نفسه فان المؤمن مرآة المؤمن فيتركه. قيل لعيسى عليه السلام: من أدبك، قال: ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل فجانبته.

ومجمل القول في باب الرياضة: أن يترك الانسان من أمور الدنيا ما لا يوجد في القدر الا بقدر الضرورة، لئلا تألفها النفس وتتمنى العود الى الدنيا، ومن يتمنى ذلك لا حظ له في الآخرة.

فالقلوب في الآخرة اربعة أنواع:

الأول: رجل استغرق قلبه ذكر الله فهو من الصديقين.

والثاني: من استغرق حب الدنيا قلبه فهو من الهالكين.

والثالث: اشتغل بالدنيا والدين والغالب عليه الدين فلا بد له من ورود

النار، الا أنه ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله عليه.

والرابع: اشتغل بهما جميعاً والغالب عليه الدنيا، فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها آخر.

فإن أخطرت بالبال: أن الدنيا مباح فليس فيها مباح، قلت: الكلام في حبها، والفاضل على قدر الحاجة لما لم يكن خالياً عن الحب ــ والا لما اقتناها ــ تمكنت فيه شهوة الحب أيضاً فمنعوه.

المطلب الخامس
في رياضة الصبيان

وأعلم: أن نفوسهم ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، فان عود الخير يصير سعيداً و يثاب والداه، وأن عود الشر يصير شريراً و يصير الوزر لوالديه.

فعلى الأب أن يحفظه من القرناء السوء، ولا يحبب اليه الزينة والرفاهية فيهلك هلاك الأبد اذا كبر، وترضعه امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال والا انعجنت طينته من الخبث.

واذا بلغ سن التميز: فان رأيت فيه الحياء عن القبائح، فذلك دليل قوة عقله و يدل على حسن أخلاقه. و يقبح عنده شره الطعام، وأن لا يأخذ الا بيمينه، و يسمى الله عند أكله، و يأكل مما يليه، ولا يبادر على الطعام قبل غيره، ولا يحد النظر الى الطعام والى من يأكل، ولا يسرع في الأكل، ويمضغ الطعام مضغاً جيداً ولا يوالي بين اللقم، و يعود الخبز حتى يصير بحيث لا يرى الادام حتماً، و يقبح عنده كثرة الأكل وأنه فعل البهائم، و يذم عنده الصبي الكثير الأكل، ويحبب عنده ايثار الطعام غيره وقلة المبالاة به.

ويحبب من الثياب البيض. و يذم من لبس الملون والابريسم، و يقرر عنده ان ذلك شأن النساء والمخنثين ويحفظه عن الصبيان المترفهين.

ثم يرسل الى المكتب و يعلم القرآن والحديث وأخبار الصالحين لينغرس في

قلبه حبهم، ويمنعه عن أشعار فيها عشق وأهله الذين يزعمون أن العشق من الظرف ورقة القلب، فان ذلك يغرس في قلوبهم بذر الفساد.

ثم اذا ظهر من الصبي خلق حسن ينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به، ويمدحه بين أظهر الناس. فإذا غفل عنه في وقت لا يهتك ستره بل يتغافل، فان عاد يعاتب عليه سراً و ينفره عن العودة والا يفتضح عند الناس، ولا يكثر عليه العتاب لئلا يعتاد الملامة ويمنع عن نوم النهار لأنه يؤديه الى الكسل، ولا يمنعه ليلاً، ولا يعوده الفرش الوطيئة حتى يتصلب أعضاؤه، و يعوده المشي والحركة حتى لا يغلب عليه الكسل.

و ينبغي أن يعوده أن لا يفتخر على أقرانه بمال والده أو ملابسه أو لوحه ودواته، و يعوده التواضع والاكرام والتلطف في الكلام، ويمنعه عن أن يأخذ شيئاً من أحد وأنه ذل ولؤم، وان الكرم والرفعة في العطاء، و يقبح له حب الذهب والفضة فان ذلك مهلك، و يعلمه أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضرب كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده فأنه علامة الكسل، ولا يستدبر غيره، ولا يكثر الكلام فأنه وقاحة وانه عادة أبناء اللئام، ويمنع اليمين ولو صدقا حتى لا يتعوده في الصغر، ولا يتكلم الا جواباً أو بقدر السؤال، و يستمع لمن يتكلم ممن هو أكبر سناً منه، وأن يقوم لمن فوقه و يوسع له في المكان ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب، ويمنعه من القرناء السوء.

و ينبغي أن لا يكثر الصراخ والاستشفاع اذا ضربه المعلم بل يصبر عليه، وان الصبر من دأب الشجعان والرجال وكثرة الصراخ من دأب المماليك والنسوان. و يترك بعد الفراغ من المكتب يلعب لعباً جميلاً ليستريح من تعب المكتب، ولا يدعه يتعب في اللعب، و يعلمه طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سناً، و ينظر اليهم بعين التعظيم ولا يلعب بين أيديهم.

ومهما بلغ سن التميز لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، و يأمر بالصوم في بعض الأيام في رمضان، و يعلم كل ما يحتاج اليه من حدود الشرع، ويخوف

من السرقة وأكل الحرام والكذب والخيانة والفحش.

فإذا قارب البلوغ يذكر أن الأطعمة أدوية في أن يتقوى الانسان بها عبادة الله تعالى، والنعيم كله ينقطع بالموت، وان الدنيا دار ممر لا دار مقر، وان العاقل من عمل للآخرة حتى يعظم عند الله درجته ويتسع في الجنان نعمته.

قال سهل التستري: كنت أشاهد قيام خالي محمد بن سوار في الليالي وأنا ابن ثلاث سنين، فقال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك، قلت: كيف أذكره، فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك من غير أن تحرك به لسانك ثلاث مرات: الله معي، الله ناظر الي، الله شاهدي، فقلت ذلك ليال، فقال: قل سبع مرات، فقلتها ليال، قال: قل احدى عشرة مرة، فقلتها، فوقع في قلبي حلاوة الذكر. وبعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه الى أن تدخل القبر، فأنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنتين، فوجدت حلاوته في سري؛ ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه وشاهده وناظراً اليه أيعصيه، اياك والمعصية. فكنت أخلو بنفسي حتى شرطت المعلم أن أذهب اليه ساعة فأتعلم ثم أرجع، حتى حفظت القرآن وأنا ابن ست أو سبع سنين. وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة حتى أتيت البصرة وسألت علماءها فلم يشق أحد عني شيئاً، فخرجت الى أبي حبيب حمزة بن عبد الله العباداني بعبادان فأجابني عنها، فأقمت عنده مدة انتفعت بكلامه وأدبه، ثم رجعت الى تستر، فجعلت أشتري فرقاً من الشعير بدرهم واكتفيت به سنة، ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم خمساً ثم سبعاً ثم خمساً وعشرين، ومرت عليَّ ذلك عشرون سنة، ثم خرجت أسيح في الأرضين سنين، ثم رجعت الى تستر فكنت أقوم الليل كله.

المطلب السادس
في شرائط السلوك

اعلم: أن المانع من الوصول عدم السلوك عدم الارادة. والمانع من الارادة عدم الايمان، والمانع من الايمان عدم الهداة المذكرين المنبهين على حقارة الدنيا وعظم الآخرة.

والسد بين الحق والمريد أربعة:

أولها: حجاب المال: ويرتفع ذلك بتفريقه الا قدر الضرورة، ومن له درهم واحد يلتفت اليه قلبه فهو محجوب عن الله تعالى.

وثانيها: حجاب الجاه. ورفعه بالبعد عن موضع الجاه، وبإيثار الخمول وأعمال تنفر الخلق.

وثالثها: حجاب التقليد. بأن يترك التعصب للمذاهب ويدفع كل معبود سوى الله سيما الهوى.

وبعد رفع هذه الحجب يتحصن بأمور أربعة:

أحدها: الجوع. فأنه ينقص دم القلب ويبيضه، وفي بياضه نوره، ويذهب شحم الفؤاد وفيه رقته، ورقته مفتاح المكاشفة. ومتى نقص دم القلب ضاق مسلك العدو.

وثانيها: السهر. فأنه يجلي القلب ويصفيه وينوره، واذا انضاف اليه صفاء الجوع يصير القلب كالكوكب الدري والمرآة المجلوة، فيلوح فيه جمال الحق ويشاهد فيه رفيع الدرجات. والسهر نتيجة الجوع فأنه مع الشبع غير ممكن، والنوم يقسي القلب ويميته، الا اذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب.

وثالثها: الصمت. ويسهله العزلة، ولا يتكلم الا بقدر الضرورة فان

الكلام يشغل القلب، وشر الكلام للقلب عظيم، وانه يستروح اليه و يستثقل التجرد للذكر والفكر.

ورابعها: الخلوة. وفائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر الا قدر الضرورة. واذا سدت الحواس تتفجّر ينابيع الغيب من حياض الملكوت و ينصب الى القلب، فلا بد في الجلوس في مكان مظلم، والا فليلف رأسه في الجيب فعند ذلك يسمع نداء الحق و يشاهد جلال حضرة الربوبية.

وبعد التحصن بهذه الأمور يشتغل بعده بسلوك الطريق، وذلك بقطع عقبات القلب التي سببها الالتفات الى الدنيا. واذا حصل قلبه مع الله وتجلى له الحق، وظهر له من لطائف رحمة الله ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط الوصف به أصلاً، فعند ذلك أعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصحاً، فليحذر منه فأنه من أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق، الا أن يكون محركه على ذلك هو الحق، فحينئذ ينبغي أن يعظم فرحه الا أنه عزيز الوجود جداً، فينبغي أن يكون المريد على حذر منه.

هذا الذي ذكرناه في هذين الأصلين معالجة كلية الى طريق تهذيب الأخلاق، وأما تفصيلها فيأتي في الأصول الباقية ان شاء الله تعالى.

الأصل الثالث

في كسر الشهوتين شهوة البطن والفرج

وفيه مطالب:

المطلب الأول

فضيلة الجوع

لا تخفى على أولى الأبصار وقد كثر ذكرها في الأخبار. قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه»؛ وقال: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت اذا كثر الماء»؛ وقال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، وحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فان كان لا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس».

ثم أن في الجوع عشر فوائد:

الأولى: صفاء القلب ونفاذ البصيرة، فان الشبع يورث البلادة بالأبخرة المتصاعدة الى الدماغ و يعمى القلب.

الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لأدراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر.

الثالثة: الانكسار والذل وزوال الفرح والبطر والأشر الذي هو مبتدأ الطغيان والغفلة عن الله، ولا تنكسر النفس ولا تذل كما تذل بالجوع، فأن عنده يتمسكن لربه ويخشع له، و يقف على عجزه وذله لما ضاقت حيلته بلقمة طعام فاتته وأظلمت عليه الدنيا بشربة ماء تأخرت عنه.

الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه فيتذكر عذاب الآخرة و بلاءها.

الخامسة: وهي أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصي، فان منشأ المعاصي كلها الشهوات، وتندفع به شهوة الكلام وآفاته: من الكذب والغيبة والفحش والنميمة، وشهوة الفرج والجوع يكفي شرها، وغير ذلك من الشهوات للأعضاء الخمسة الباقية من الأعضاء السبعة.

السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فان من شبع شرب كثيراً ومن كثر شربه كثر نومه، ومن كثر نومه ضاع عمره وتبلدت طبيعته وقسا قلبه.

السابعة: تيسر المواظبة على العبادة فان الأكل والمرض يمنع منها.

الثامنة: صحة البدن فان سبب الأمراض كثرة الأكل، والمرض ينغص العيش ويمنع من الذكر والفكر.

التاسعة: خفة المؤونة، لأن من تعود الشبع يتقاضاه بطنه فيقول: ماذا تأكل اليوم، فتدخل المداخل من الشبهات والحرام، أو يتعب في الحلال ويمد يد الطمع الى الخلق.

العاشرة: أن يتمكن به من الايثار والتصدق بما فضل من الأطعمة الى اليتامى والمساكين.

المطلب الثاني
طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

وللمريد فيه أربع وظائف:

الوظيفة الأولى: أن لا يأكل إلا حلالاً، اذ العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحر.

الوظيفة الثانية: أن يقلل الطعام على التدريج، اذ النقص دفعة ربما يؤدي الى اختلال المزاج، مثلاً: أن كان يأكل رغيفين، كل يوم ربع رغيف، وهو:

اما جزء من ثمانية وعشرين جزءاً أو من ثلاثين جزءاً، فيرجع الى رغيف في شهر ولا يتضرر به. **ثم في نقص القوت أربع درجات.**

الدرجة الأولى: أن يرد نفسه الى القدر الذي لا يبقى دونه، وهو عادة الصديقين. وهو اختيار سهل التستري، وقال: أستعبد الله الخلق بثلاث: بالحياة والعقل والقوة، فإن خاف العبد على الأولين أكل وأفطر ان كان صائماً، ويكلف الطلب أن كان فقيراً، وان خاف على القوة فقط فينبغي أن لا يبالي، ولو ضعف حتى صلى قاعداً ورأى صلاته قاعداً مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع قوة الأكل.

الدرجة الثانية: أن يرد الى نصف مد في اليوم والليلة، وهو رغيف وشيء مما يكون الأربعة منه منا، ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثر كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم، وهو فوق اللقيمات لأنها جمع قلة لما دون العشرة. وكان ذلك عادة عمر رضي الله عنه اذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم.

الدرجة الثالثة: أن يرد نفسه الى مقدار مد وهو رغيفان ونصف، وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين ويكاد ينتهي الى ثلثيه، ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر؛ وفي بعض الرواية: ثلث للذكر بدل النفس.

الدرجة الرابعة: أن يزيد على المد الى المن، ويشبه أن يكون ما وراء المن اسرافاً في حق الأكثرين.

وههنا طريق خامس: وهو أن يأكل اذا صدق جوعه، ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد، لكنه غلط اذ قد يشبه الشهوة الكاذبة بالصادقة لأن التميز بينهما مشكل.

وقد ذكر للجوع الصادق علاملات:

احداها: أن لا تطلب النفس اداما بل تأكل الخبز وحده بشهوة أي خبز كان، ومهما طلب خبزاً بعينه أو اداما فهو ليس بجوع صادق. وقيل: ان يبصق

فلا يقع عليه الذباب اذ لا يبقى فيه دهنية ودسومة، الا أن معرفة هذه العلامات مشكلة فالصواب للمريد أن يعمل بما ذكرناه من التقدير.

الوظيفة الثانية: في وقت الأكل ومقدار تأخيره، فيه أيضاً درجات:

الأولى: أن يطوي ثلاثة أيام فما فوقها، ومن المريدين من رد الرياضة الى الطي لا الى المقدار حتى انتهى بعضهم الى ثلاثين وأربعين يوماً، وقع ذلك عن كثير من السلف. وكان أبو بكر رضي الله عنه يطوي ستة أيام، وعبد الله بن الزبير سبعة أيام.

قال بعض العلماء: من طوى أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت، أي: كوشف ببعض الأسرار الالهية.

الدرجة الثالثة: أن يطوي يومين أو ثلاثة وهذا قريب الوصول وممكن الحصول.

الدرجة الرابعة: وهي أدناها، ان يقتصر على أكلة واحدة في اليوم والليلة وما جاوز ذلك اسراف مذموم. روى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا تغدى لم يتعش واذا تعشى لم يتغدى.

قيل: ومن اقتصر على أكلة واحدة في اليوم فيستحب أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر، فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح، فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام، وخلو القلب لفراغ المعدة، ورقة الفكر واجتماع الهم وسكون النفس الى المعلوم فلا تنازعه قبل وقته. فان كانت نفسه تنازعه بالطعام فيأكل نصفه بعد المغرب ونصفه بعد التهجد. ومن كان يصوم يوماً و يفطر يوماً فلا بأس أن يأكل يوم فطره وقت الظهر و يوم صومه وقت السحر.

الوظيفة الثالثة: في نوع الطعام ترك الادام. وأعلى الطعام: مخ البر، وان نخل فهو غاية الترفه، وأوسطه: شعير منخول، وأدناه: شعير لم ينخل. وأعلى الأدام: اللحم والحلاوة، وأدناه: الملح والخل، وأوسطه: المزورات بالأدهان من غير لحم.

وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الأدام على الدوام لئلا تأنس أنفسهم باللذات فيكرهوا الموت ولقاء الله.

و ينبغي أن يعلم ههنا أن ما ورد من مدح الجوع تارة والأمر بالاعتدال أخرى لا يتضادان، بل الطبع المعتدل الاليق به الجوع المفرط ليتعود الاعتدال، والا فالجوع المفرط في نفسه مذموم، وانما يمدح لترضي النفس بالاعتدال، وما وقع في الشرع من الاختلاف فبالنظر الى اختلاف الطبائع. ولهذا يأمر الشيخ المريد بالافراط في الجوع والاحتماء عن اللذائذ وهو الجوع و يتلذذ بالفواكه، ومما ينبغي أن يحترز عنه أن يشتهي شيئاً ويخفيه عن الناس، بل الأحب أن يظهرها، اذ الكذب مع الاخفاء كذبان فيكون مستحقاً لمقتين، ولا يرضى منه الا بتوبتين، ولذلك شدد أمر المنافقين لأن سره لكفره كفر آخر: استخف بنظر الله إلى قلبه، وعظم نظر المخلوقين. وأن يحترز أن يفرح بترك الشهوة و يشتهر بذلك، لأنه قد خالف شهوة الأكل وأطاع شهوة هي أشد منها وهي شهوة الجاه، وذلك كمن هرب عن عقرب الى حية، وشهوة الرياء بكثير من شهوة الطعام.

المطلب الثالث
في شهوة الفرج

ولها فائدتان:

احداهما: أن يقيس للذتها لذة الآخرة فيرغب فيها.

وثانيتها: بقاء النسل ودوام الوجود.

وفيها آفات ان لم تعتدل: أما افراطها بأن يجر الى اقتحام الفواحش، أو بأن يصرف همته التمتع بالنساء والجواري فيحرم عن سلوك طريق الآخرة. وقد ينتهي بطائفة الى تناول المقويات فيؤدي الى التنعم، وبطائفة أخرى الى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع، و يستسخر عقله لخدمة الشهوة وهو مخدوم لها لا خادم، والعشق مرض قلب فارغ لا همة له.

واذا عرفت ذلك: فينبغي للمريد في ابتداء أمره أن لا يشتغل نفسه بالتزويج ليأمن الآفات المذكورة، ولا يترخص بكثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، اذ لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى، وكيف لا وقد كان يخشى أحياناً أن يسري احتراق قلبه من حب الله تعالى الى قالبه، ويقول: «كلميني يا عائشة» لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه، كما أنه لا يطيق الصبر عن الله اذا جالس الخلق، وكان يقول اذا ضاق صدره لذلك: «ارحنا يا بلال».

وهذا الذي ذكرناه اذا لم تغلبه الشهوة، وان غلبته فليكسرها بالجوع الطويل، وان كان مع ذلك لا يقدر على حفظ العين ـــ وان قدر على حفظ الفرج ـــ فالنكاح له أولى، وكذا ان لم يقدر على حفظ النظر عن الصبيان، بل ذلك أكثر في الشر من النساء اذ يمكن استباحتهن دونهم، والنظر الى الأمرد حرام ما لم يحصل عدم الفرق بين نظر الأمرد ونظر الخضرة والأزهار في اللذة، اذ لو مال اليهم أكثر منها صار النظر للشهوة لا للحسن.

الأصل الرابع
في آفات اللسان

وفيه مطلب:

المطلب الأول
في آفات الكلام فيما لا يعنيك

وهو أن تتكلم بكل مالو سكت عنه لم تأثم ولم تتضرر في حال أو مآل، كما اذا حكيت قوماً اسفارك وما رأيت فيها من جبال وانهار ومشائخ البلاد وأحوالهم، فأنك في ذلك مضيع أوقاتك وأوقات المستمعين ومحاسب على عمل لسانك، وان مزحت بحكاياتك زيادة أو نقصان وتزكية نفس فأنت آثم وكذا صاحبك؛ مثلاً: اذا سألت رجلاً: أنت صائم، فان سكت تأذيت، وان قال: لا، كذب، وان قال: نعم، استبدل سراً عمله جهراً فدخل عليه الرياء.

ومن آفات فضول الكلام وهو أن يزيد على قدر الحاجة وهو أيضاً مذموم وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر.

ومن الآفات: الخوض في الباطل ــ وهو الكلام في المعاصي، كحكايات أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك وأحوالهم المذمومة، وكل ذلك حرام لا يحل الخوض فيه.

وأما الكلام فيما لا يعني، أو أكثر فيما يعني، فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه، الا أنه يكره اذ لا يؤمن عليه الخوض في الباطل؛ مثل حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ومحاربات الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم.

ومن الآفات: المراء والمجادلة. وذلك منهى عنه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لاتمار أخاك ولا تمازحه ولا تواعده موعداً فتخلفه». ونظائر ذلك كثيرة في الأخبار. والمراء: اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه؛ وتركه: الانكار والاعتراض؛ والخلل: أما في اللفظ أو في المعنى أو قصد المتكلم. فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدقه، وان كان باطلاً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فأسكت عنه. ثم الخلل في اللفظ تارة يكون من قصور المعرفة، وتارة بطغيان اللسان وكيفما كان فلا وجه لاظهار خلله؛ وأما في المعنى بأن يقول: أخطأت فيه؛ وأما في قصده بأن يقول: الكلام حق ولكن قصدك منه ليس بحق.

وهذا الجنس ان جرى في مسألة علمية خص باسم الجدال، وهو أيضاً مذموم يجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا المجادلة والعناد والعنف. وآية ذلك: أن يكون تنبهه للحق من جهة أخرى مكروهاً عنه، فالجواب: أن يسكت عن كل ما لا يأثم بتركه، والباعث على ذلك: اظهار الفضل، وهي من دعوى الغلو والكبرياء وتنقيص الغير، وهو مقتضى طبع السبعية. وأشد ذلك ما وقع في المذاهب والعقائد، اذ يظن عليه ثواباً فيتأكد الطبع بالشرع، وذلك خطأ محض. بل ينبغي للانسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، بل اللائق أن يتلطف في نصحه على خلوة، بل ربما تستمر البدعة في قلبه بالجدل اللهم الا أن يعرف ان النصح لا ينفعه أشتغل بنفسه وتركه.

ومن الآفات: الخصومة. وهي أيضاً مذمومة، وهو وراء المراء والجدال. فالمراء: طعن في كلام الغير لأظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكياسة؛ والجدال: عبارة عن مراء يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها؛ والخصومة: لجاج في الكلام يستوفي به مالا أو حقاً مقصوداً، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً.

والمراء لا يكون الا باعتراض على كلام سبق، اللهم الا أن يخاصم لاظهار الحق بالشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاجة على قدر الحاجة ففعله ليس

بحرام، لكن الأولى تركه ما وجد اليه سبيلاً، اذ الخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب وبقي الحقد بينهما. وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى في صلاته، وكذا الحال في المراء والجدال. ومن اقتصر على الواجب في خصومته سلم عن الأثم، الا أنه عسير جداً فلهذا تكون تارة كاللآلي.

ومن الآفات: التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه، وهو التكلف الممقوت، ومنه: التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة والاسجاع المتكلفة؛ وانما مقصود الكلام تفهيم الغرض ووراء ذلك تصنع مذموم، الا أن يقصد الوعظ وتأثير القلوب فيأتي بالألفاظ الرشيقة.

ومن الآفات: الفحش والسب وبذاءة اللسان، وهو منهى عنه ومذموم. ومصدره الخبث واللؤم، مثل الكناية فيما يقبح ذكره: كالوقاع واللمس، وكذا قضاء الحاجة في الكناية عن التغوط والبول، ونحو أن يذكر زوجته بأن يقول: قالت أم الأولاد كذا، أو قال من بالحجرة، أو من وراء الستر كذا، وكذا يقول: الداء الذي يشكوه، في الجذام والبرص ونحوهما.

ومن الآفات: اللعن أما لانسان أو لحيوان أو لجماد وكل ذلك مذموم. واللعن طرد وأبعاد عن رحمة الله، وذلك غير جائز الا على من يتصف بصفة تبعد من الله وهو الكفر والظلم، بأن يقول: ألا لعنة الله على الظالمين أو على الكافرين. وأمر اللعنة خطر، ثلاث مراتب:

الأولى: اللعن بالوصف الأعم: كاللعن على الكافرين والمبتدعة والفسقة.

والثانية: اللعن بأوصاف أخص منه: كاللعن على اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والخوارج والروافض والزناة وآكلي الربا والظلمة ونحو ذلك، وكل ذلك جائز، الا أن في المبتدعة نظر لأن معرفة البدعة غامضة.

والثالثة: اللعن على الشخص. وذلك لا يجوز الا من ثبتت لعنته شرعاً كفرعون وأبي جهل. وأما اللعن على يهودي معين بأن يقال لعنه الله أن مات على الكفر فجائز. وأما اللعن مطلقاً فذلك مردد بين التقييد المذكور وعدمه ففيه

خطر، لأنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله تعالى فلا يكون ملعوناً، ولا يقاس هذا بقولك: رحمه الله لمسلم، لأن معناه: ثبته الله على الاسلام الذي هو سبب الرحمة، ولا يمكن أن يقال: ثبت الله الكافر على الكفر الذي هو سبب اللعنة. واذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق وعمرو المبتدع أولى، الا أن يقع اللعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي جهل واضرابه. وعلى الجملة: ففي لعنة الأشخاص خطر فليجتنب. ولا خطر في السكوت عن لعنة ابليس فضلاً عن غيره.

وأما لعن يزيد فالأسلم عدمه، اذ لم يثبت أنه قتله أو أمر به أو رضي به أو فرح به، وان ثبت ذلك فلم يثبت انه مات بلا توبة، نعم: ان قال: قاتل حسين رضي الله عنه ان مات بلا توبة لعنه الله.

ومن الآفات: الشعر، لأنه كلام: حسنه حسن وقبيحه قبيح، الا أن التجرد له مذموم. نعم: انشاده ونظمه ليس بحرام ما لم يكن فيه كلام مكروه أو كذب. وأما المبالغة فمن صنعة الشعر، وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيه مبالغة.

ومن الآفات: المزاح. وأصله مذموم منهى عنه الا قدراً يسيراً يستثنى منه وهو المداومة، لأنها اشتغال باللعب والهزل، واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة. وأما الافراط فيه فأنه يوجب كثرة الضحك المميت للقلب، ويورث الضغينة أحياناً، ويسقط المهابة والوقار، فما يخلو عن هذه الأمور لا يذم، وهو الذي يقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال: «اني لأمزح ولا أقول الا حقاً». الا أن غيره ان فتح عليه الباب كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان فيذم.

ومن الآفات: السخرية والاستهزاء. وهذا محرم مهما كان مؤذياً، ومعناها: الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون بالمحاكاة في الفعل وفي القول، وقد يكون بالاشارة والايماء. واذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة، ومنها

الضحك على خطه وعلى كلامه وصنعته وصورته وخلقته، أما اذا كان المستهزأ به ممن جعل نفسه مسخرة لا يتأذى به بل يفرح يكون من قبيل المزاح وفي حكمه.

ومن الآفات: افشاء السر. وهو منهى عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء، وهو حرام اذا كان فيه أضرار، ولؤم اذا لم يكن فيه أضرار.

ومن الآفات: الوعد الكاذب. فإن اللسان سباق الى الوعد، والنفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً، وذلك من أمارات النفاق.

ومن الآفات: الكذب في القول واليمين. وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب الا فيا لا يمكن التوصل الى أمر محمود الا به، فان الكلام وسيلة الى المقاصد، فكل مقصود محمود أمكن التوصل اليه بالصدق والكذب معاً فالكذب فيه حرام، وان كان التوصل اليه بالكذب فقط فالكذب مباح ان كان المقصود مباحاً، وواجب ان كان واجباً؛ مثلاً: اذا كان في الصدق سفك دم مسلم مظلوم فالكذب واجب، وان لم يكن اصلاح ذات البين الا بالكذب فهو مباح. الا أنه لا يفتح هذا الباب الا بقدر الضرورة لئلا تتعود النفس بذلك، وأيضاً فيه غرور كثير، اذ قد يكون الباعث حظه وغرضه. فليعلم أن المقصود: هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا، وذلك غامض جداً، فالحزم في تركه الا أن لا يجد رخصة في تركه أصلاً.

ومن ذلك القبيل: خطأ من ظن جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب، وهذا خطأ عظيم، اذ هذا الغرض لا يقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن ذلك من أكبر الكبائر لا يقاومها شيء.

ثم أن السلف قالوا: ان في المعاريض مندوحة عن الكذب، روى ذلك عن ابن عباس وغيره، وكذا عن عمر رضي الله عنه ــ اذا دعاه حاجة، والا فلا يجوز التصريح والتعرض معاً. ولكن التعريض أهون كقولك: الله يعلم، ما قلت من ذلك من شيء، فكلمة ما عندك للابهام و يتوهمه المستمع حرف النفي.

وكان ابراهيم اذا طلبه في الدار من يكره قال للجارية: قولي له أطلبه في المسجد، وكان لا يقول: ليس هو ههنا كيلا يكون كاذباً.

وكان الشعبي يخط خطاً و يقول للجارية: ضعي اصبعك فيها وقولي: ليس هو ههنا. وهذا كله في موضع الحاجة والا فهو مكروه لأنه تفهيم الكذب.

الا أن الحاجة في المعارض خفيفة؛ كتطييب قلب الغير بالمزاح، كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الجنة عجوز وفي عين زوجك بياض»؛ «ونحملك على ابن البعير» وما أشبهه.

وأما صريح الكذب مطايبة فليس بفسق ولكنه يترك، كما يلاعب الناس الحمقاء بتغريرهم بأن امرأة رغبت في تزوجك فان كان فيه ضرر وايذاء قلب فهو حرام. ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق قولهم: طلبتك مائة مرة، اذ لا يريد تفهيم المرات بل الكثرة، فأن طلبه كثيراً لم يأثم. ومن ذلك القبيل قولهم: لا أشتهيه، اذا قيل له: كل الطعام، وهو حرام ان لم يكن فيه غرض صحيح.

ومن الآفات: الغيبة. وقد نص الله تعالى على ذمها وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، وقد ذمها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي: أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه؛ سواء ذكرت نقصاناً في بدنه أو في نسبه أو في خلقه أو في فعله وقوله، أو في دينه ودنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته. ثم إنها لا تقتصر على اللسان بل التعريض فيه كالتصريح، والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والرمز والغمز والحركة والكناية، وكل ما يفهم المقصود وكل ذلك حرام. ومن ذلك: ذكر المصنفين شخصاً معيناً وتهجين كلامه اللهم الا لعذر محوج الى ذلك.

ومن أخبث أنواعها قول القراء المرائين: الحمد لله الذي لم يبلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام عند ذكر شخص حاله كذلك؛ أو يقول نعوذ بالله من قلة الحياء فإن ذلك ذم الغير مع الرئاء؛ وكذلك ربما يقول: ما أحسن فلاناً لولا تقصيره في العبادات، ولكنه ابتلى بما ابتلينا، فيذم غيره ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين في ذم أنفسهم، فيغتاب و يرائي و يزكي نفسه؛

وكذلك يقول: ذلك المسكين قد ابتلى بكذا تاب الله عليه وعلينا، فيظهر الدعاء و يدعي الاغتمام.

وأسباب الغيبة أحد عشر:

أحدها: تشفي الغيظ بذكر مساوئه.

وثانيها: موافقة الأقران ومساعدتهم و يرى ذلك من حسن المعاشرة،

وثالثها: أن يستشعر من انسان أنه سيقصده و يطول لسانه فيه أو يقبح حاله عند محتشم فيبادره و يطعن فيه ليسقط أثر شهادته.

ورابعها: أن ينسب الى شيء فيذكر أن الذي فعله فلان وتبرأ منه، مع أن البترؤ يحصل بأن لا يذكر الغير بشخصه.

وخامسها: أن ينسب النقص الى غيره و يقصد بذلك اثبات فضل نفسه.

وسادسها: أن يقدح عند من يحب ذلك الشخص حسداً لأكرامهم ومحبتهم.

وسابعها: أن يقصد اللعب والهزل والمطايبة و يضحك الناس عليه.

وثامنها: السخرية والاستهزاء استحقاراً له في الغيبة.

وتاسعها: أن يتعجب من فعله المنكر، وهذا من الدين لكن أدى الى الغيبة بذكر أسمه فصار مغتاباً من حيث لا يدري.

وعاشرها: أن يغتم لسبب ما يبتلى به فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلى به، وغمه ورحمته خير لكن ساقه الى شر وهو الغيبة من حيث لا يدري.

والحادي عشر منها: الغضب لله على منكر قارفه انسان فيظهر غضبه و يذكر اسمه، وكان الواجب أن يظهر غضبه على فاعله ولا يظهر على غيره بل يستر اسمه.

وهذه الأسباب الثلاثة الأخيرة مما يغمض على العلماء فضلاً عن العوام.

اذا عرفت أسباب الغيبة، فأعلم أن علاجه على الجملة أن يتذكر مضرة الغيبة، وأنها تحط حسناته وتثقل حسنات غيره، وتنقل اليه من سيئاته فيدخل النار، وهذا بعد المطالبة والسؤال والحساب.

وعلاجه على التفصيل: أن ينظر في أسبابها و يعالجه بما مر من معالجات الأخلاق الذميمة: من الغضب والحسد والرئاء وغير ذلك.

وأعلم: أن من أنواع الغيبة الغيبة بالقلب، وهي سوء الظن، أي: عقد القلب والحكم بالسوء وذلك حرام. وأما الخواطر وحديث النفس بل الشك فعفو عنه أيضاً. وامارة سوء الظن وتمييزها عن حديث النفس: ان يتغير القلب معه عما كان، فينفر عنه نفوراً و يستقله، و يفتر عن مراعاته واكرامه. ومن ثمرات سوء الظن: التجسس، فيطلب التحقيق وهو منهى عنه.

واعلم: أن للغيبة اعذاراً مرخصة وهي ستة:

الأول: التظلم. وذلك لا يمكن بدون ذكر مساوىء من ظلمه.

الثاني: الاستغاثة لتغيير المنكر ورد العاصي الى منهج الحق.

الثالث: الاستفتاء حيث يقول: ظلمني فلان وما حكمه، الا أن الأولى أن يقول: ما تقول فيمن ظلم أحداً بكذا وكذا.

الرابع: تحذير المسلمين من شر أحد فلا بد من ذكره باسمه.

الخامس: أن يكون اسمه يعرب عن أبيه، كالأعرج والأعمش، فلا أثم على من يقول. نعم: لو أمكنه التعريف بغير ذلك فهو أولى، وربما يقولون للأعمى البصير عدولاً به عن اسم النقص.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق ولا يستنكف عن ذكره ولا يكره ذلك فلا اثم في ذكره بذلك.

وأما كفارة الغيبة: أن يندم و يتوب و يتأسف على ما فعله، ثم يستحل

المغتاب ليحله فيخرج عن مظلمته، و ينبغي أن يتحلله وهو حزين متأسف نادم على فعله. وأما الذي يستحل بلا ندم فهو مراء وذلك معصية أخرى، وما قيل: العرض لا عوض له كالمال، فلا يجب الاستحلال كلام ضعيف، اذا وجب في العرض حد القذف. ثم المراد بتحليل الغيبة: العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحلال حراماً كما ظن وقيل: ان التحليل غير ممكن.

ومن آفات اللسان: النميمة. وهي: أن ينم قول الغير الى المقول فيه؛ وقيل: كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه، أو كرهه ثالث؛ وسواء كان الكشف بالقول أو بالكنية أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأفعال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاناً في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة: افشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه بل كل ما يراه الانسان من أحوال الناس فينبغي أن يسكت عنه الا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، فإن كان ما ينم نقصاناً وعيباً في المحكى عنه فهو غيبة ونميمة معاً.

والباعث على النميمة: أما ارادة السوء بالمحكى عنه، أو اظهار الحب للمحكى له، أو التفرج بالحديث، أو الخوض في الفضول، ونحو ذلك.

وأما الذي نم اليه فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه لأنه فاسق وهو مردود الشهادة.
الثاني: أن ينهاه عن ذلك و ينصحه.
الثالث: أن يبغضه في الله لأنه بغيض عند الله فلا يحب من أبغضه الله.
الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب سوءاً.
الخامس: أن لا يحملك كلامه على التجسس والبحث.
السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت عنه النمام فلا تحكي نميمته.

ومن آفات الكلام: كلام ذي اللسانين: الذي يتكلم لكل من المتعادين بكلام يوافقه، وذلك عين النفاق، وان نقل كلام واحد الى الآخر

فهو نمام، وان نقل كلام كل منهما الى الآخر فهو ذو اللسانين، وكذلك اذ وعد كل واحد منهما بأن ينصره أو اثنى على كل واحد في معاداته، وكذلك اذا أثنى على أحدهما وكان اذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين، بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحمود و يثني في حضوره وغيبته و بين يدي عدوه.

ومن الآفات: المدح. وله ست آفات: أربع في المادح واثنتان في الممدوح.

الأولى: قد يفرط فينتهي به الى الكذب.

الثانية: أنه قد يدخله الرئاء اذ لا يكون قلبه كذلك.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه.

الرابعة: أنه قد يمدح الظالم والفاسق.

الخامسة: أن يحدث في الممدوح كبراً واعجاباً وهما مهلكان.

السادسة: إن أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه، فيقل تشمره للعمل لأنه يظن أنه قد أدرك النهاية.

ومن آفات الكلام: الغفلة عن دقائق الكلام، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته، كقولك: ما شاء الله وشئت، والصواب: ما شاء الله ثم شئت، لأن الواو تفيد التسوية بين الله تعالى وعبده؛ وكقولك: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، والصواب: ومن يعص الله ورسوله، ضمير التثنية تسوية وجمع، ونحو ذلك.

ومن الآفات: سؤال العوام عن الله تعالى وصفاته لأنه يؤدي الى الكفر، وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادة والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسول، من غير بحث، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب يستحقون به المقت و يتعرضون لخطر الكفر.

الأصل الخامس
في ذم الغضب والحقد والحسد

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في الغضب

وقد ذمه الله تعالى ورسوله والصحابة والتابعون. وحقيقته: أن الله تعالى لما خلق الحروان معرضاً (للفساد ــ ١) والموتان، أنعم عليه بما يحميه من الفساد ويدفع عنه الهلاك الى أجل مسمى. ثم الفساد: أما من الداخل، وهو: أن في داخله حرارة ورطوبة؛ والحرارة تفني الرطوبة، فأمد الله تعالى الرطوبة بالأطعمة فخلق لأجلها شهوة الطعام؛ وأما من خارج: كالسيف والسنان وسائر المهلكات، فخلق الله لدفعها الغضب من النار وعجنه بطينته، واذا اشتعلت نار الغضب وثار ثورانا يغلي بها دم القلب وينشر في العروق ويرفع الى أعالي البدن، ثم ينصب الى الوجه فيحمر الوجه والعين، والبشرة بصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم. هذا اذا غضب على من دونه وقدر عليه.

أما إذا غضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى باطن القلب وصار حزناً، وبذلك يصفر اللون.

وان كان على نظير يشك فيه تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط، فيحمر ويصفر ويضطرب، ويسمى فوت مقتضى هذه القوة الانتقام.

ثم الناس في هذه القوة على درجات ثلاث، لأنه: أما مفرط وذلك مذموم ويقال فيه أنه لا حمية له، وقد وصف الله تعالى الصحابة بالشدة والرحمة وقال

سبحانه: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[1]، وقال الشافعي من استغضب فلم يغضب فهو حمار؛ وأما مفرط: وهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعتها، وذلك قد يكون طبيعية وقد تكون مكتسبة، بأن يخالط قوماً يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، وانما الاعتدال ــ وهو أحسن الدرجات: أن ينتظر اشارة العقل والدين، فينبعث حيث يجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم، وهو الوسط الذي كلف الله عباده به، وهو الصراط المستقيم، وهو أدق من الشعر وأحد من السيف. فان عجز فليطلب القرب منه اذ بعض الشر أهون من بعض، وبعض الخير أرفع من بعض.

واثر هذا الغضب في البصيرة: أنه يعمى صاحبه ويصم عن كل موعظة بل زاد بالموعظة، ويتصاعد دخان مظلم الى دماغه بل الى معادن الحس فتظلم عينه وتسود عليه الدنيا بأسرها، وربما تقوى نار الغضب فتنفى الرطوبة التي بها الحياة فيموت صاحبه غيظاً.

وأما أثره في الصورة: تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف واضطراب الحركة، والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنفتح المناخر، ولو رأى الغضبان قبح صورته لسكن غضبه حياء منه.

وأما اثره في اللسان: فالشتم والفحش وقبائح الكلام الذي يستحي منه ذوو العقول بل قائله أيضاً عند فتور غضبه.

وأما أثره على الأعضاء: فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، وان عجز عن التشفي ربما يمزق ثوب نفسه ويلطم وجهه ويعتريه مثل الجنة، وربما يضرب الجمادات والحيوانات.

وأما أثره في القلب: فالحقد والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساءة وغير ذلك. هذه آثار الغضب.

وأما آثار عدم الحمية: قلة الأنفة من التعرض للحرم، واحتمال الذل من الاختباء، وصغر النفس، ونحو ذلك.

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٩.

المطلب الثاني
في علاج الغضب

واعلم: ما هو ضروري للكافة، وهو القوت والمسكن والملبس الانسان ثلاثة:

الأول: ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق؛ كالجاه والمال الكثير والغلمان وصحة البدن، كما قال صلى الله عليه وسلم: «من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها». والغضب على من يتعرض هذا جائز لأنها ضرورته.

الثاني: أن الغضب لأخذ محبوبه أو لقصد مكروه له. ومحبوب والدواب، فان هذه صارت محبوبة بالعادة أو الجهل بمقاصد الأمور فالغضب على هذا ليس بضروري لأن حبه ليس بضروري، الا أن الجهال يحبون هذه و يتألمون لفوتها فإذا استكثارهم من الغم والحزن، اذ الدنيا معرض الآفات.

الثالث: ما يكون ضرورياً للبعض دون الآخرين؛ كالكتاب للعالم اذ هو مضطر اليه فيحبه و يغضب على من يخرقه و يغرقه، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب، فإن ما هو وسيلة الى القوت الضروري فلا يمنع من الغيظ استغناء غيره عنه.

وإنما الكلام في القسم الثاني، اذ يجب اخراج حبه عن قلبه بأن الدنيا معبر يعبر عليها و يتزود منها قدر الضرورة، وما وراء ذلك و بال عليه في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا و ينمحي حبها عن قلبه.

فإن قلت: لا يلزم من كون القسم الأول ضرورياً جواز الغضب عليه، بل يكتفي بالتألم ولا يغضب، والتألم غيره، كالفصد يتألم به ولا يغضب على الفصاد، وأيضاً: من غلب عليه التوحيد ورأى الأشياء كلها من الله لا يغضب على أحد من خلقه؛ مثلاً اذا وقع الملك بضرب رقبة أحد وهو لا يغضب على القلم الذي وقع الملك به، وكذا يندفع بأن الله لا يقدر له الا ما فيه الخيرة.

قلت: ما ذكره من الاكتفاء بالتألم حسن جداً، لكن الكلام في أن الغضب هناك معفو عنه وصاحبه معذور. وأما غلبة التوحيد فذلك كالبرق الخاطف ثم يرجع القلب الى الوسائط، وكذا الكلام في أن الخير ما قدر له.

المطلب الثالث

في معرفة أسباب الغضب ليعالج بأزالتها

وأسبابه: الزهو والعجب والفخر والمزح والهزل والتعبير والمماراة والمضارة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة يجب ازالة كل منها بما ذكرناه في مواضعها.

وأما معالجة الغضب بعد وقوعه بستة أمور:

الأول: ملاحظة الأخبار الواردة في فضيلة كظم الغيظ.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله سبحانه و يقول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الانسان.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمر العدو لمقاتلته، والسعي في هدم أغراضه، والسماح لمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب. وبالجملة: يسلط قوة الشهوة على قوة الغضب.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند غضبه ومشابهته للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادىء بالأنبياء والحكماء والعلماء.

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الأمور على وفق مراد الله تعالى، فكيف يقول: مرادي أولى من مراد الله.

ثم معالجة الغضب بطريق العمل أن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتقول: اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأرحمني، وأذهب غيظ قلبي وأرني من مضلات الفتن. هكذا علم النبي صلى الله عليه وسلم عائشة عند غضبها. وان لم يزل بذلك فليجلس ان كان قائماً، أو يضطجع ان كان جالساً،

ويقرب من الأرض التي منها خلق ليعرف بذلك ذل نفسه. وأطلب بالاضطجاع والجلوس السكون، فان سبب الغضب الحرارة، وسبب الحرارة الحركة، وان لم يزل فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فان النار لا يطفئها الا الماء ــ كذا ورد في الحديث.

ثم **الناس في الغضب أربعة:** بعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود، وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو أجودهم ما لم ينته الى فتور الحمية والغيرة، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهو شرهم.

المطلب الرابع
في الحقد والعفو والرفق

اعلم: أن الغضب اذا عجز صاحبه عن التشفي في الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً، ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة والنفار منه، وأن يدوم ذلك و يبقى. **والحقد يثمر ثمانية أمور:**

الأول: الحسد. وهو أن يحملك الحقد أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة ان أصابها وتسر بمصيبة ان نزلت به، وهذا من فعل المنافقين، وستعرف ذمه.

الثاني: أن تزيد في اضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تقطعه وتصارمه وان أقبل عليك.

الرابع: وهو دونه: ان تعرض عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر أو هتك ستر وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

السابع: ايذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقه من صلة رحم أو قضاء دين أو رد مظلمة، وكل ذلك حرام.

ثم للحقود ثلاثة أحوال عند القدرة:

أحدها: أن يستوفى حقه الذي يستحقه من غير زيادة ونقصان، وهو العدل، وهو اختيار الصالحين.

ثانيها: أن يحسن اليه بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل واختيار الصديقين.

وثالثها: أن يظلمه بما لا يستحقه، وهو اختيار الاراذل.

ثم إن العفو: هو أن تستحق حقاً فتسقطه وتتبرأ عنه، من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم. وكظم الغيظ فضيلته لا تخفى على أحد، سيما وقد ورد في مدحه الآثار والأخبار حتى مدحه الشعراء والحكماء بل المتقيدون بحكم الطبيعة، وبالجملة: لم ينكر فضيلته أحد من الطوائف.

وأما الرفق: فهو نتيجة حسن الخلق والسلاسة، كما أن ضده هو العنف، والحدة نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق نتيجة اعتدال قوة الشهوة والغضب. ولذلك ورد في الحديث: «يا عائشة من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة». ثم أن الرفق هو التوسط بين العنف واللين، ثم إن المشكل تميز موضع العنف عن موضع الرفق، واذا لم يقدر أحد على التميز فليكن ميله الى الرفق فإن النجح معه في الأكثر.

المطلب الخامس

في الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم: أن الحسد فرع الحقد، وهو فرع الغضب. وليس الحسد الا على نعمة: فأما أن تريد زوالها عن المنعم عليه وهو حرام، الا نعمة لفاسق أو ظالم

جعلها آلة للشر، لكن لا تريد زوالها من حيث أنها نعمة بل من حيث أنها آلة الفساد؛ أو لا تريد زوالها ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذا يسمى غبطة وهذه ليست بحرام، بل ربما تكون واجبة كما في نعمة العلم، أو مندوبة كما في نعمة التصدق، أو مباحة كما في النعم المباحة.

ومذمة الحسد في الآثار والإخبار بل في الطباع شهيرة لا تحتاج على تفصيلها. **وأما مراتبه فأربع:**

أحداها: أن يحب زوال النعمة عنه وان كانت لا تنتقل اليه، وهو غاية الخبث، وأنه مذموم محض.

وثانيتها: أن يحب زوال النعمة اليه فرغبته في تلك النعمة مثل رغبته في دار حسنة أو ولاية نافذة، وهذا أيضاً مذموم.

وثالثها: أن لا يشتهي عينها بل يشتهي لنفسه مثلها، فان عجز عن مثلها أحب زوالها، وهذا أيضاً مذموم الا أنه أخف من الثاني.

ورابعتها: أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم يحصل فلا يحب زوالها منه وهذا هو المعفو عنه ان كان في الدنيا، والمندوب اليه ان كان في الدين.

ثم أن للحسد أسباباً:

الأول: العداوة والبغضاء، وهذه أشد أسبابه.

الثاني: التعزز؛ وهو أن يثقل عليه أن يرتفع عليه غيره، ولا يريد التكبر بل غرضه أن يدفع كبره، وهذا اذا نال بعض أقرانه ولاية أو علماً أو مالاً وهو لا تحتمل نفسه صلفه وتفاخره فيتعزز عليه.

الثالث: أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه و يستصغره و يستخدمه و يتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف ألا يحتمل تكبره

و يترفع عن متابعته، أو ربما يتشرف على مساواته، أو الى أن يترفع عليه فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه.

الرابع: التعجب؛ كما أخبر الله تعالى عن الأمم الماضية اذ: ﴿قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا﴾[1]، فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله بشر مثلهم، فسحدوهم وأحبوا زوال النعمة عنهم، جزعاً عن أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة وأسباب أُخر.

الخامس: الخوف من فوت المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود؛ واحد، وذلك مثل الضرات عند زوجهن والتلامذة عند الأستاذ.

السادس: حب الرياسة وطلب الجاه نفسه من غير توصل به الى مقصود؛ وذلك كتحاسد العلماء، فإن واحداً منهم لو سمع نظيره في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته وزوال نعمته من غير عداوة ولا تعزز ولا تكبر بينهما ولا خوف ما فوات مقصود.

السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله. واذا وصف له اضطراب أمور الناس وادبارهم وفوات مقاصدهم فرح به، فهو أبداً يحب الأدبار لغيره و يبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذونها من ملكه وخزانته، ويختص مثله باسم الشحيح.

وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد لذلك، والأكثر اجتماع الأسباب وقلما ينفرد واحد منها.

ولما كان الحسد اقتضى سابقة الارتباط بين الشخصين كثر بين الأمثال والأقران والأخوة وبني العم والأقارب دون شخصين في بلدتين متباعدتين. ثم لما اشترط في الحسد التزاحم حسد العالم العالم دون التاجر، والشجاع الشجاع دون الاسكاف، ونحو ذلك. نعم: من أحب الصيت ربما يزاحمه من في أقصى

---

(١) سورة يس، آية: ١٥.

العالم في هذا دون الغرض فيحسده، وأما أبناء الآخرة فلا يقع بينهم التحاسد اذ لا مزاحمة بينهم ولا ضيق فيها، وكذا العلم اذا المعلوم الواحد يعرفه ألف انسان.

المطلب السادس

دواء الحسد

وهو: أن تعرف أولاً أنه ضرر عليك في الدين والدنيا، ولا ضرر به على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما جميعاً. **أما ضرره في الدين:** لأنه سخط لقضاء الله وكراهة لنعمه، وهذا قذى في عين الايمان، وانضم اليه غش المسلم وترك نصحه ومشاركة ابليس، وهذه خبائث في القلب تأكل الحسنات وتمحوها.

وأما في الدنيا: فهو أنه الألم الحاضر والعذاب الدائم، وأنت تريد الألم لعدوك فتنجزت في الحال.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح، لأن النعمة لا تزول بحسدك.

وأما منفعته في الدنيا: فهو أن أهم مقاصد أبناء الدنيا ايصال الهم الى أعدائهم وهو حاصل بالحسد، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، فأنت عدو لنفسك وصديق لعدوك، ومع هذا كله قد أدخلت السرور في ابليس وهو أعدى عدوك.

وإذا عرفت: فعليك أن تكلف نفسك نقيض الحسد، اذ كل مرض يعالج بضده؛ مثلاً يكلف لسانه بمدحه وثنائه، و يتكلف التواضع له والاعتذار اليه، و يلزم نفسه الانعام عليه ان قدر، وهذه الأفعال تطيب قلب المحسود ويحب الحاسد، ومهما ظهر حبه أحبه الحاسد و يتولد منه الموافقة، و يصير ما يتكلفه أولاً طبعاً آخر. ولا يصدنك عن ذلك قول الشيطان: ان هذا عجز ونفاق وخوف، لأن ذلك من خدع الشيطان ومكايده، وهنا دواء الحسد الا أنه مر،

فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء.

ثم أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال:

أحدها: أن تحب مساءتهم بطبعك وتكره حبك لذلك وميل قلبك اليه بعقلك، وتمقت نفسك عليه وتود لو كان لك حيلة في ازالة ذلك الميل منك، وهذا معفو عنه لأنه لا يدخل تحت الأختيار أكثر منه.

الثاني: أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك، فهذا هو الحسد المحظور.

الثالث: وهو بين الطرفين: ان تحسد بالقلب من غير مقتك لنفسك على حسدك، ومن غير انكار منك على قلبك، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد، وهذا محل الخلاف: والظاهر أنه لا يخلو عن اثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه، والله المستعان.

الأصل السادس
في ذم الدنيا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
على أن مذمة الدنيا لا تخفى على أولى الألباب

وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف النفس عنها، وكذا ما في الأحاديث والآثار كثير لا يخفى على أولى الألباب، وحقيقة الدنيا وقسمتها الى المذمة وغير المذمة.

واعلم: أن لقلبك حالتين؛ فالقريب الداني منها وهي ما قبل الموت وتسمى دنيا، والمتأخر المتراخي وهو ما بعد الموت و يسمى آخرة.

ثم أن الدنيا ثلاثة أقسام:

الأول: يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت؛ كالعلم الذي هو لذة دنيوية عاجلة، وكذا العبادة لمن يلتذ بها، وهما مع ذلك ليسا من الدنيا اذ ينفعان في الآخرة.

الثاني: كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة؛ كالتلذذ بالمعاصي والمباحات.

الثالث؛ وهو متوسط بينهما: كل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة؛

كالقوت من الطعام وما يستر العورة و يقي من الحر والبرد من اللباس ونحوهما، وهذا متردد بين القسمين، لأنه ان جعله وسيلة الى الثاني صار من أعمال الدنيا. ولا يبقى مع العبد بعد الموت الا صفاء القلب وطهارته، وذلك بالكف عن الشهوات والانس بالله، وذلك لكثرة ذكر الله والمحبة لله، وذلك لا يحصل الا بالمعرفة وهي تتولد من الفكر.

واعلم: ان الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، للانسان فيها حظ، وله في اصلاحها شغل **فهذه ثلاثة أمور:**

أما الأعيان: فهي الأرض وما عليها من المعادن والنبات والحيوان؛ أما المعادن: فللآلات والأواني كالنحاس والرصاص، أو للنقد كالذهب والفضة وغير ذلك؛ وأما النبات: فللباس وللتداوي والغذاء؛ وأما الحيوان: فللأكل والركوب والزينة، وأما الإنسان: فللخدمة كالغلمان، وللاستمتاع كالجواري والنسوان، وأيضاً: لطلب قلوب الآدميين للعز والجاه. ومجموع هذه هي الدنيا.

ثم ان للعبد معها علاقتين:

علاقته بالقلب: وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه اليها حتى يصير قلبه كالعبد، و يتفرع عن هذه العلاقة: الأخلاق الذميمة؛ كالكبر والحسد والرئاء والسمعة وحب الثناء والتكاثر والتفاخر.

وعلاقته بالبدن: وهو اشتغال باصلاح هذه الأعيان، وهي جملة الصناعات والحرف التي شغل بها الخلق.

وتفصيله: أن الانسان مضطر الى ثلاث: القوت والمسكن والملبس. فالقوت للغذاء ولبقاء النوع، والملبس لستر العورة ولدفع الحر والبرد والمسكن لدفع الحر والبرد ودفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال.

فحدثت الحاجة الى خمس صناعات هي الأصول: الفلاحة لتحصيل النبات، والرعاية لحفظ الحيوانات واستنتاجها، والاقتناص لتحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب، والحياكة وما يحصلها من الغزل، والخياطة فللملبس.

ثم هذه الصناعات تفتقر الى أدوات وآلات، وهي: أما أن تؤخذ من النبات وهي الأخشاب، أو من المعادن كالرصاص والحديد، أو من جلود الحيوانات.

فأحتيج الى ثلاثة أنواع من الصناعات: النجارة وهي العمل في الخشب، والحدادة وهي العمل في المعدن، والخرز وهي العمل في جلود الحيوانات. فهذه هي أمهات الصناعات.

ثم لما كان الانسان مدنياً بالطبع أحتاج الى معاشرة الزوجية لبقاء النسل، والى المعاونة في الصناعات اذ لا يتولاها واحد من الناس، والا لبطلت المصالح، اذ الطعام يحتاج الى حراث وطحان وخباز، واللباس الى حراثة القطن والغزل والنسج وهكذا.

وحدثت من هذا الاجتماع صناعات أخر، منها: صناعة الحكم وفصل الخصومة بالعدل، ومنها: صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم، ومنها: الحاجة الى الفقه وهو معرفة حدود الله تعالى.

ثم أن أهل الحرب لو اشتغلوا بطلب القوت فاتهم حراسة الملك، فست الحاجة الى امدادهم بالأموال كمال الجزية والخراج، فاحتيج الى من يدبر تلك الأموال الى الجباة والخزان والكتاب والعمال والحساب، ثم هؤلاء أيضاً يحتاجون الى معيشة فأحتيج الى صرفهم من مال الخراج شيئاً يكفيهم فصاروا فرعاً لأهل الحرب.

فانحصر الناس في صنائعهم في ثلاث:

الأولى: الفلاحون والرعاة والمتحرفون.

الثانية: الجندية الحماة لهم بالسيوف.

والثالثة: المترددون بين الطائفتين في الأخذ والأعطاء، وهم العمال والجباة وأمثالهم.

فأنظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والمسكن والملبس والى ماذا انتهى، وهكذا أمور الدنيا لا ينفتح منها باب الا و ينفتح بسببه أبواب الى ما لا يتناهى، كأنها هاو ية لا قعر لها، من وقع في مهواة منها سقط منها الى أخرى، وهكذا على التوالي.

هذه هي الأصول، ولا يتم كل منها الا بفروع لا تحصى كثرة؛ كالبقر آلة للحرث، والفرس آلة الحرب، الى غير ذلك من الآلات. ولما كان بين الناس مظالم بحكم النفس الامارة احتاجوا الى حاكم عدل يصلح بينهم لئلا يختل النظام بسبب المنازعات الواقعة بينهم.

المطلب الثاني

في الحرف الجارية بين الناس باحتيالهم

منها: اللصوص والطرار والسلال وأنواع ذلك كثيرة.

ومنها: المكدي، وهم لحبهم البطالة يتكلفون العمى والعرج ونحوهما و يتكففون الناس.

ومنها: أرباب السخرية والمحاكاة، وأصحاب الشعوذة والأفعال المضحكة، وصاحب الأشعار، وأصحاب القرعة والفال، ونحو ذلك. وكلهم استنبطوا الحيل بدقيق الفكر لأجل معاشهم ولكن ضيعوا أنفسهم.

ثم أن فهم الناس في تصور الكمال على طبقات:

فطائفة: غلبهم الجهل والغفلة فيأكلون ليكسبون و يكسبون ليأكلون؛ كما هو حال الفلاحين والمتحرفين. وليس لهم التنعم لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل يتعبون نهاراً ليأكلوا ليلاً، و يأكل ليلاً ليتعب نهاراً. ومثاله سير السواني، فهو سفر لا ينقطع الا بالموت.

وطائفة أخرى: زعموا أن الكمال قضاء الوطر من الشهوات، كشهوة البطن والفرج، فيصرفون هممهم الى اتباع النسوان وجمع لذائذ الأطعمة، يأكلون كما يأكل الأنعام، و بذلك شغلوا عن الله واليوم الآخر.

وطائفة: ظنوا أن الكمال في جمع المال، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في جمعه، و يتعبون في الأسفار و يترددون في الأخطار طول الليل والنهار، ولا يأكلون الا قدر الضرورة شحاً و بخلاً عليها أن تنقص، الى أن يدركه الموت وهو كذلك، وكنوزه تحت الأرض أو في يد من يصرفه و يسرفه في الشهوات، وعليه تعبها و وبالها وللآكل لذتها.

وطائفة: ظنوا أن السعادة في حسن الأسم وكثرة الثناء عليه والمدح بالتجمل والمروءة، فهؤلاء يتعبون في الكسب، و يضيقون على أنفسهم في المطعم والملبس، و يصرفون مالهم الى الثياب الفاخرة والدواب النفيسة، و يزخرفون أبواب دورهم وما يقع عليه أبصار الناس حتى يقال: أنه غني وذو ثروة، فهمتهم في تعهد موقع نظر الناس.

وطائفة: ظنوا أن السعادة في الجاه وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير لهم، فيطلبون الولايات وتقلد الأعمال السلطانية، و يرون أنهم بذلك سعدوا سعادة عظيمة، وان ذلك غاية المطلب.

وهذه الطوائف ووراءها طوائف لا يمكن حصرها ــ تزيد على نيف وسبعين طائفة، كلهم ضلوا وأضلوا، لكثرة الاشغال وتداعى البعض الى البعض فيهلك في أودية الدنيا، ولو اكتفى بالقدر الضروري اندفعت أشغاله وفرغ قلبه وغلب عليه ذكر الآخرة.

ثم أن طائفة تنبهت لهذه الآفات، فظن بعضهم أن الدنيا دار البلاء وأن الآخرة دار السعادة سواء تعبد فيها أولاً، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا، واليه ذهب طائفة من أهل الهند، حتى أنهم يتهجمون على النار و يقتلون أنفسهم بالاحراق، و يظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا.

و بعضهم ظن أن القتل لا يخلص، بل لا بد أولاً من أمانة الصفات البشرية وقلعها عن النفس بالكلية، فأقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة، و بعضهم فسد عقله، و بعضهم مرض

وانسدت عليه طرق العبادة، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية، وأنه محال، فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له، فوقع في الألحاد.

وبعضهم ظن أن هذا التعب كله لله، وأنه مستغن عن عبادتنا لا ينقصه العصيان ولا يزيده العبادة، فسلكوا مسلك الاباحة وطووا بساط الشرع.

وبعضهم ظن أن المقصود معرفة الله والعبادة وسيلة اليها، وبعد الوصول يستغنى عنه، فتركوا السعي والعبادة وانما التكليف على العوام، ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول احصاؤها الى أن تبلغ نيفاً وسبعين فرقة، والناجي منها ما عليه الصحابة وهم أهل السنة والجماعة، وهم على المنهج القصد والصراط المستقيم.

الفصل السابع

في ذم المال وكراهية حبه وذم البخل

وفيه مطالب:

المطلب الأول

اعلم: أن الله تعالى ذم المال في مواضع كثيرة، ومدحه في بعض المواضع وسماه خيراً وقال: ﴿أن ترك خيراً﴾[1]؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم المال الصالح». فلا بد من التوفيق بينهما، ولا يمكن ذلك الا ببيان آفات المال وفوائده.

اعلم: أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فمن عرف فوائدها وغوائلها أمكنه أن يحترز من شرها و يستدر منها خيرها.

أما الفوائد: فأما دنيوية يعرفها كل أحد ولهذا يتهالكون عليها، وأما الدينية فثلاثة أنواع.

الأول: ما ينفقه على نفسه؛ أما في العبادة: كالحج والجهاد وهما من أمهات القربات؛ أو في الاستعانة على العبادة: كالمطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة، وما لا يتوصل الى العبادة الا به فهو عبادة؛ وأما حظوظ الدنيا: ما يزيد عليها من التنعم والتلذذ.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٠.

الثاني: ما يصرفه الى الناس، وهي أربعة:

أحدها: الصدقة وقد عرفت ثوابها.

وثانيها: المروءة؛ كالضيافة والهدية والاعانة، وهذا أيضاً من الفوائد الدينية اذ به يكتسب الاخوان والأصدقاء وصفة السخاء والجود والمروءة والفتوة، ففيها مثوبات أيضاً.

وثالثها: وقاية العرض؛ كدفع هجو الشاعر وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم، وفائدتها دينية وأخروية، لأن وقاية العرض صدقة، لأن فيها منع المغتاب ودفع آفة الانتقام بينهما.

ورابعها: الاستخدام؛ اذ الانسان اذا تولى جميع مصالحه لضاعت أوقاته؛ كشراء الطعام وطبخه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج اليه، فلا بد له من مال يدفع أمثال هذه الحوائج.

النوع الثالث: الخير للعامة؛ كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودار المرضى ونصب الجباب في الطرق وأمثال ذلك، وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين وناهيك به خيراً.

وهذه هي الفوائد الدينية، مع ما في المال من الحظوظ العاجلة: من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر، والوصول الى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الأخوان والأعوان، والكرامة والوقار ونحو ذلك.

وأما الآفات؛ فأما دينية، وهي ثلاث:

الأولى: أن الانسان اذا استشعر من نفسه القدرة على المعصية انبعث داعية المعاصي، فان اقتحم ذلك هلك وان صبر وقع في شدة.

الثانية: أن يجر الى التنعم في المباحات ثم يألفه، ثم يجر البعض الى البعض، حتى لا يفيه المال الحلال فيقتحم الشبهات، ويتبعه ان يصانع الناس بالرئاء والمداهنة والكذب والنفاق، لأن حاجة الناس تؤدي الى هذه الأخلاق.

الثالثة: وهو الذي لا ينفك عنه أحد، وهو أنه يلهيه عن ذكر الله تعالى، وأنه خسران عظيم وهو الداء العضال.

وأما آفاته الدنيوية: فالخوف والحزن والهم والغم، والتعب في دفع الحساد، وتجشم المصاعب في حفظ الأموال وكسبها.

فإذا ترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقي في الخيرات، وما عداه سموم وآفات.

المطلب الثاني
في الحرص والطمع ومدح القناعة

واعلم: أن الانسان اذا تشوف الى ما فوق القوت فاته عز القناعة، وتدنس بذل الحرص، وجره ذلك الى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات، فلا بد من علاج الحرص والطمع وملكة القناعة، وذلك مركب من خمسة أمور:

الأول؛ وهو العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق في الأنفاق، ويرد نفسه الى ما لا بد له منه، ويطلب الاقتصاد في نفسه وفي عياله.

الثاني: أن لا يضطرب للاستقبال ويثق بوعد الله سبحانه، ويعرف أن شدة الحرص ليست سبب الرزق، ولا يبالي بما يعده الشيطان من الفقر: بأنك ربما تمرض وتعجز وتحتاج الى ذل السؤال، وتقاسي ذل التعب في الحال لتوهم الذل في الاستقبال مع الغفلة عن الله تعالى.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الطمع والحرص من الذل، وليس في القناعة الا ألم الصبر عن الفضول والشهوات، وهذا الألم لا يطلع عليه أحد وفيه ثواب الآخرة؛ وأما الطمع فألم لا نهاية له مع الوبال والمأثم، وربما تلزمه المداهنة ويهلك دينه.

الرابع: أن يتأمل في عيش أعداء الله من اليهود والنصارى وارذال الناس،

والى أحوال الأنبياء والأولياء وعامة الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الآفات، مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة خمسمائة عام.

المطلب الثالث

في السخاء

اعلم: أن المال ان كان مفقوداً فينبغي أن يقنع ولا يحرص، وان كان موجوداً فينبغي أن يختار الايثار والسخاء والتباعد مع الشح والبخل، فان السخاء من أخلاق الأنبياء، سيما الايثار فأنه أرفع درجات السخاء، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه؛ كما أن أعلى البخل أن يبخل على نفسه مع احتياجه اليه، وليس بعد الايثار درجة في السخاء. وقد أثنى الله تعالى على الصحابة قال: ﴿و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1].

وأما البخل، فقيل: هو منع الواجب، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل، وهذا غير كاف، فان من رد الخبز الى الخباز لنقصان حبة أو نصفها فأنه يعد بخيلاً بالاتفاق؛ وقيل: هو الذي يستصعب العطية، وهذا أيضاً قاصر اذ كم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها، وان أراد بعض العطية فما من جواد الا و يستصعب بعضها.

وأما الجود، فقيل: عطاء بلا من، واسعاف بلا رؤية؛ وقيل: على رؤية أن المال لله والعبد لله، فيعطي عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر؛ وقيل: من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه الأقل فهو صاحب جود، ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب ايثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل.

فاعلم: أن هذه التفاسير لا تفي بالمقصود، بل نقول: المال خلق لحكمة

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

ومقصود، فأمساكه في محل البذل بخل، وبذله في محل الامساك تبذير، والوسط المحمود فالسخاء، والجود عبارة عنه، ولكن يشترط أن يكون ذلك بطيب القلب.

ثم تمييز قدر الواجب عسير جداً. وجملة الكلام فيه أنه قسمان: واجب بالشرع، وواجب بالمروءة والعادة. فمن منع واجباً منها فهو بخيل، ومانع واجب الشرع أبخل، كمانع أداء الزكاة أو نفقة العيال أو يؤديها بمشقة وكلفة؛ وواجب المروءة: كتقتير نفقة أولاده وأهله، وله مراتب: اذ لا يقبح من الفقير ما يقبح من الغني، ويستقبح مع الأقارب ما لا يستقبح مع الأجانب، ويستقبح مع الجار ما لا يستقبح مع الأباعد، ونحو ذلك.

فمن أدى واجب الشرع والمروءة فقد تبرأ من البخل، ولكن لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك، ولكن بشرط أن يكون عن طيبة نفس ولا عن مطمع ورجاء، مكافأة أو شكر أو ثناء أو خوف من الهجاء أو ملامة الخلق، لأن من أعطى لما ذكر من الأحوال معتاض لا جواد، وانما الجود: البذل من غير عوض، ولهذا لا يوجد الجود الا في حق الله تعالى، وفي الآدمي مجاز، نعم: من فعله لغرض الثواب وتطهير النفس عن رذالة البخل يسمى جواداً في بني آدم.

المطلب الرابع
في علاج البخل

اعلم: أن البخل سببه حب المال، وحب المال له سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا يتوصل اليها الا بالمال مع طول الأمل، وان كان قصير الأمل قام الأولاد مقام طول الأمل، فإذا انضاف الى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

وثانيها: أن يحب عين المال حتى لا يخرج زكاته ولا يداوي نفسه عند

المرض، بل يحب المال و يلتذ بوجوده، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه سيما في كبر السن.

وإذا عرفت هذا، فاعلم: أن علاجه بضادة سببه، فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، و يعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران، و يعالج الالتفات الى الولد بأن الذي خلقه خلق رزقه، وكم من ولد حسن حاله ولم يرث شيئاً، وكم من ولد ورث مالاً عظيماً وهو في شدة، و يعلم أنه يترك ولده بخير وهو ينقلب الى ربه بشر، وأن ولده ان كان تقياً فيكفيه الله وان كان فاسقاً يعين بماله على فسقه و يرجع مظلمته اليه.

و يعالج أيضاً بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل وفي قبائح البخلاء.

ومن علاجه: أن يخدع نفسه بحسن الأسم والشهرة بالسخاء، فيبذل رئاء حتى يكون البذل طبعاً، وبعد ذلك يبدله الى الأخلاص والاعتدال. والصفات الذميمة قد يسلط بعضها على بعض و يكسر سورة بعض ببعض.

المطلب الخامس
في وظائف العبد في ماله

وهي خمس:

الأولى: أن يعرف مقصود المال حتى لا يحفظ إلا قدر الحاجة.

الثانية: أن يراعي جهة الدخل فيجتنب الحرام وما يقدح في المروءة.

الثالثة: أن لا يستكثر على القدر الواجب، وقد عرفته، و يراعي القصد في الواجب أيضاً.

الرابعة: أن يراعي جهة الخروج و يقتصد في الانفاق و يضعه في محله.

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ والترك والانفاق والامساك، ولذلك قال

علي رضي الله عنه: لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فهو زاهد، ولو ترك الجميع ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد.

قال بعضهم: ان أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة فإذا كان قصدك بهما التهيؤ للعبادة صار ذلك عبادة.

المطلب السادس
مدح الفقر وذم الغنى

اختلفوا في ذلك وقال بعضهم: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، وعكس البعض. الا أن المختار عند المحققين: الفقير الصابر أفضل، سيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يدخل صعاليك المهاجرين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام».

واعلم: ان الكلام في هذا المقام طويل لا يمكن حصره في هذا النزر الحقير، فليطلب في مواضع أخر، وانما جعل غرضنا في هذا الكتاب التجافي عن دار الغرور، وذلك في جانب الفقر أولى، قال الشاعر:

ولست بنظار الى جانب الغنى   اذا كانت العليا في جانب الفقر

وأيضاً: من راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم، وما ورد من آثارهم وأخبارهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وان صرف الى الخيرات، والله المستعان وعليه التكلان.

الأصل الثامن
في ذم الجاه والرئاء

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في أن حب الجاه أشد من حب المال

وذلك لأن كلا منها للتوصل الى المطالب، الا أن المال لما أن لم يأمن عن الآفات من السرقة والغصب وطمع الظلمة، وكان الجاه الذي هو تسخير القلوب وتعظيمها له وطاعتها له مأموناً عن الآفات المذكورة، صار الجاه أحب عند الناس؛ وأيضاً: لما كان التوصل بالمال أصعب من التوصل بالجاه الى المال صار الجاه أحب عنده؛ وأيضاً: أن ملك القلوب يسري و ينمو و يتزايد من غير حاجة الى تعب ومقاساة بخلاف المال.

فإن قلت: النفوس مجبولة على حب الجاه اذ لا يتوصل الى المحبوب الا به، كاتساع الجاه وانتشار الصيت؛ قلت: هذا الحب له سببان:

أحدهما: وهو الجلي: ان الانسان وان كان مكفياً في الحال فأنه طويل الأمل، والمال في معرض الآفات، وفي الجاه أمن عن هذا الخوف.

وثانيها، وهو الخفي الأقوى: أن الروح أمر رباني به وصفه الله تعالى وقال: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾[1]، ولذلك كان محباً بطبعه التفرد بالكمال، ولما فيه

(١) سورة الاسراء، آية: ٨٥.

من الأمر الرباني صار طبعه على حب صفات الربوبية: من الكبر والعز والتجبر والاستعلاء، الا أنه لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهي محبة ومشتهية له. ثم أن الكمال الحقيقي للموجود أن يكون وجود غيره منه، وان لم يكن كذلك فلا أقل من أن يكون مستولياً عليه لأنه نوع كمال. ولما كان الموجود منقسماً الى ما لا يدخل تحت اختيار الانسان: كالأفلاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين، وكالجبال والبحار وما تحتها، والى ما يدخل تحتها كالأرض وما عليها من المعادن والنبات والحيوان وقلوب نوع الانسان، وكان طبع الانسان الاستيلاء على الكل، أحب أن يستولي على القسم الأول بالعلم والاطلاع على أسرارها فان ذلك نوع استيلاء، اذ المعلوم محاط والعالم محيط به، فكذلك أحب أن يعرف الله والملائكة والأفلاك والكواكب، وجميع عجائب السموات وعجائب البحار والجبال وغيرها.

وأما القسم الثاني: فأحب أن يستولي عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد. وهي قسمان:

أجساد: كالدراهم والدنانير وما في حكمها، فيحب أن يتصرف فيها كيف يشاء، لأن محبوب النفس صفات الربوبية وما ذكر من التصرف منها، فكذلك أحب الدراهم والدنانير، ولذلك أيضاً أحب استرقاق العبيد واستعباد الأحرار.

والقسم الآخر: أرواح؛ كنفوس الآدميين وقلوبهم، وهي أنفس ما على الأرض، فيحب الاستيلاء عليها تحقيقاً لما في طبعه من محبة صفات الربوبية لما فيه من الأمر الرباني.

ثم أعلم: ان الكمال الحقيقي لله تعالى وما عدا هذا الكمال وهمي لا حقيقة له، وذلك من وجوه ثلاثة:

أحدها: من حيث كثرة المعلومات اذ لا نهاية لها.

وثانيها: من حيث كون معلوماته مكشوفة له تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه.

ثالثها: من حيث بقاء العلم أبد الآباد مصوناً عن التغير، والعبد متى كان علمه بمعلومات كثيرة أو منكشفة أو باقية كان أقرب الى الله تعالى.

ثم المعلومات: أما متغيرات وهي التي يمكن انقلابها، وأما أزلية وهي جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، فإن هذه معلومات أبدية أزلية ثابتة. ومن هذا القبيل: معرفة الله، وما يجب له، وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله، وحكمته، في ملكوت السماء والأرض، وترتيب الدنيا والآخرة. وهذا القسم هو الكمال الحقيقي، يقرب من يتصف به من الله تعالى، و يبقى كمالاً للنفس بعد الموت، و يكون نوراً يسعى بين أيديهم و بايمانهم يقولون ربنا اتمم لنا نورنا، و ينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات لأنها من أفعاله تعالى. وهذه الكمالات وان كانت كمالات في رتبة الانسانية ليست كمالات حقيقية بالنسبة الى علمه تعالى لما عرفت، وكذا القدرة، فليس فيها كمال حقيقي وليس له قدرة حقيقية، وانما القدرة الحقيقية لله تعالى، وما يحدث من الأشياء عقيب قدرته وارادته وحركته فهي حادثة بأحداث الله تعالى.

وكمال العلم يبقى للعبد بعد الموت و يوصله الى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا. نعم: له كمال من جهة قدرته على أسباب العلم: كسلامة أطرافه وحواسه، لكن في الحال، و بالاضافة الى الجهال؛ وانما الكمال الحقيقي للعبد القرب من الله تعالى ومن ملائكته، وهو: اما بالعلم وقد ذكرناه، أو بالحرية وهي: الخلاص عن أسر الشهوات وغموم الدنيا، والاستيلاء عليها بالقهر تشبهاً بالملائكة، فإذا الكمالات ثلاثة: العلم والقدرة والحرية، وان كمال القدرة بالمال والجاه ظني لا أصل له الا قدر ما يصل الى الكمال.

المطلب الثاني

ما يحمد من حب الجاه وما يذم منه

اعلم: أنه كما يلزم للانسان من أدنى مال يتوصل به الى الآخرة كذلك لا بد له من أدنى جاه يتوصل به اليها؛ كخادم يعينه، وأستاذ يرشده و يعلمه،

وسلطان يدفع عنه الشر، وحبه قدراً من الجاه الذي يتوسل به الى هذه الأمور الثلاثة ضروري لا يذم عليه. وأما الذي يذم: أن يجعل القصد الأصلي هذا الجاه، ويجعل ما يتوسل بالجاه اليه وسيلة اليه؛ كحب نفس المال وجعل العلم والدين وسيلة اليه، وهو حرام واليه يؤول حرمة الرئاء.

ثم الجاه في الأمور المذكورة: اما باعتقادهم صفة هي موجودة فيه، كقول يوسف عليه السلام: ﴿أجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم﴾[1]؛ أو باخفاء عيب من عيوبه أو معصية من معاصيه، وذلك جائز لأنه ليس بتلبيس، بل سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به، كمن يخفى أنه يشرب الخمر ولكن لا يظهر أنه ورع، لأن الأخفاء جائز وأما اظهار الورع رئاء، أو بأن يدعي صفة ليست هي فيه: بأن يظهر أنه عالم أو ورع أو علوى، وذلك حرام قطعاً لأنه رئاء محض.

المطلب الثالث

في أسباب حب المدح والثناء وبغض الذم والنفرة منه

وهي أربعة: الأول، وهو الأقوى: شعور النفس بكمالها، فان كان ذلك الكمال جلياً ظاهراً كانت اللذة أضعف، كطول القامة وبياض اللون؛ وان كان خفياً مشكوكاً فيه كانت اللذة أعظم، كالعلم والورع، سيما اذا صدر الثناء بهذا الكمال ممن هو خبير بذلك لا يجازف في القول، كثناء الأستاذ على تلميذه. ويعرف من لذة المدح بغض الذم عند الانسان.

الثاني: أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح ومسخر تحت مشيئته، ولهذا يتألم القلب من ذم الأكابر.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٥٥.

الثالث: أن المدح سبب لأصطياد القلوب سيما اذا كان ممن يعتد بشأنه، ولهذا يعظم اللذة في مدح الأكابر في الجمع الكثير و يعظم التألم من الذم في الملأ.

الرابع: المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء عليه أما عن طوع أو عن قهر، وهذه اللذة تحصل وان كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به، ولكن يتلذذ به القلب لما فيه من الاستيلاء والقهر.

ثم أن هذه الأسباب كلاً أو بعضاً ربما تجتمع في مدح مادح واحد فلا لذة فوقه.

وأما علاج هذه الأسباب؛ أما الأول: فبأن يعلم أنه غير صادق في مدحه فتزول لذته وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه؛ ثم إن علم أن المادح لا يعتقد ما يقوله بطلب اللذة الثانية، وتبقى لذة الاستيلاء بالحشمة على الاضطرار، فان اعتقد أن ذلك عن خوفه وأنه يلعب به بطلت اللذات كلها.

المطلب الرابع
في علاج حب الجاه

أعلم: أن من غلب على طبعه حب الجاه، وكان مقصور الهم على مراعاة الخلق والمراياة لأجلهم، ولا يزال ملتفتاً الى ما يعظم جاهه عنده، ويجر ذلك الى التساهل في العبادات ومراعاة القلوب.

وعلاج الجاه من حيث العلم: أن الجاه وان صفا وسلم لك لكن آخره الموت، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق الى المغرب فإلى خمسين سنة أو ستين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، فلا ينبغي أن يترك له الدين الذي هو الحياة الأ بدية.

وأما من حيث العمل: فيمباشرة فعل يسقط جاهه به عند الناس، حتى أن بعضاً من الملامتية اقتحموا صور الفواحش كذلك، لكنه لا يجوز لمن يقتدى

به. والأسلم: أن يسقط في صورة المباح كالأكل الكثير ان عرف بقلة الأكل، وكالدوران في الأسواق ان عرف بالعزلة، الى غير ذلك. وهذا وأمثاله وان كان ممنوعاً في الفقه، لكن أرباب القلوب يعالجون قلوبهم تارة بالمكروهات وتارة بالمحرمات ليسلموا مما هو أشد منه، لأن بعض الشر أهون من بعض، ثم يتداركون ذلك بعلاج آخر.

ثم **أن ههنا موضع غرور:** وهو أن الانسان ربما يعتزل و يزعم أنه يترك الجاه، ولكن غرضه تحصيل الجاه بذلك وهو لا يعرفه. فعليه أن يمتحن نفسه بذلك أولاً، فان جزع فليتدارك ذلك بالعلاج، ولا يمكن أن لا يطلب المنزلة عند الناس ما طمع في الناس، فعليه أن يدفع الطمع أولاً بما بيناه في موضعه.

المطلب الخامس

في وجه العلاج في حب المدح و بغض الذم

أعلم: أن أكثر الخلق هلكوا لرجائهم من الناس المدح وتوقيهم عن ذمهم، فلا بد من معالجة ذلك المرض.

ولنقدم أولاً أسبابه، ثم لنبين علاجه:

والسبب الأول: استشعار الكمال بسبب قول المادح. وعلاجه: ان صفة المدح ان لم تكن في الممدوح فالفرح بها من غاية الجهل، وان كانت فيه: فأما أن يكون من قبيل الجاه والأغراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض. قال القائل:

أشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالاً

وان جاز الفرح بها لا ينبغي الفرح بالمدح بهابل بوجودها، والمدح ليس هو سبب وجودها؛ وان كانت مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع، فينبغي أن لا يفرح بها أيضاً لأن الخاتمة غير معلومة.

السبب الثاني: دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير

قلب آخر، وذلك راجع الى حب الجاه وقد عرفت علاجه.

السبب الثالث: الحشمة التي اضطرت المادح الى المدح، فهو أيضاً راجع الى قدرة عارضة لا ثبات لها، سيا وآفة المدح على الممدوح عظيمة.

وأما علاج كراهية الذم، قد سبق أن العلة فيها ضد العلة في حب المدح، فعلاجه يفهم منه.

وحاصله؛ ان من ذم: أما أن يكون صادقاً وقصد به النصح فينبغي أن تتقلد منته؛ وأما أن يكون صادقاً وقصد الأذى والتعنت فأنت قد انتفعت بقوله، اذ أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلاً أو ذكرك عيبك ان كنت غافلاً، وقصده التعنت جناية على دينه ولا عليك من ذلك؛ وأما أن يفترى عليك بما أنت بريء منه عند الله، فعليك أن تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: إن خلوت من ذلك فلا تخلو عن أمثاله وما يستر الله من عيوبك أكثر.

وثانيها: أن ذلك كفارة لبقية مساويك وذنوبك، فكأنه رماك بذنب وطهرك عن ذنوب.

وثالثها: اذ المسكين جنى على نفسه ودينه وتعرض لعقاب الله، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عز وجل، فتشمت الشيطان به وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم أرحمه.

ومن جملة ما يهون عليه المذمة قطع الطمع فان من استغنى عنه لا يعظم عنده الذم والمدح.

المطلب السادس

في أحوال الناس في المدح والذم

وهي أربع:

الأولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم ويحقد على الذام، وهي غاية درجات المعصية.

الثانية: أن يمتعض ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته، وهذا ناقص في نفسه كامل بالاضافة الى ما قبله.

الثالثة؛ وهو أول درجات الكمال: أن يستوى عنده ذامه ومادحه، الا أن ههنا موضع غرور وهو أن بعضهم يظنه من نفسه، فعليه أن يمتحن: هل يستثقل جلوس الذام عنده أكثر مما يجده في المادح، وهل يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حوائج الذام، وهل يكون موت المادح المطرى له أشد نكاية في قلبه من موت الذام، وهل يكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام، فمن استويا عنده في هذه الأمور فقد نال تلك الرتبة والا فقد أبعد عنها غاية البعد.

الرابعة؛ وهو الصدق في العبادة: أن يكره المدح ويمقت المادح اذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر، والذام مهد اليه عيبه ومرشد الى مهمه.

ثم أن درجات المدح: هو أن من الناس من يتمنى المدحة فيتوصل الى نيلها بكل ممكن حتى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمقارفة المحظورات، وهذا من الهالكين؛ ومنهم من يريد ذلك لكن يطلبه بالمباحات، وهذا على شفا جرف هار اذ يوشك أن يقع فيما لا يحل؛ ومنهم من لا يريد المدحة ولا يطلبها أصلاً ولكن اذا مدح سبق السرور الى قلبه، وان جاهد ازالته فهو في خطر المجاهدة، فتارة يكون له وأخرى عليه؛ ومنهم من لا يسر به ولا يغتم، وهذا على خير ان قارنه الاخلاص؛ ومنهم من يكره المدح اذا سمعه لكن لا ينتهي به الى الغضب على المادح، و ينكر عليه، لكن بشرط الصدق في غضبه والا صار نفاقاً، وهذه أفضل الدرجات.

المطلب السابع
في الرئاء

اعلم: ان الرئاء حرام والمرائي عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والآثار والأخبار.

وأما حقيقته: فهي أن الرئاء مشتق من الرؤية والسمعة من السماع، وانما

الرئاء أصله: طلب المنزلة في قلوب الناس برؤيتهم خصال الخير، ويخص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات واظهارها.

وحاصله: ارادة العبادة بطاعة الله. وذلك خمسة أقسام:

الأول: الرئاء في الدين من جهة البدن؛ كاظهار النحول والصفار ليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على السهر ودوام الحزن؛ وكشعث الرأس ليدل على استغراق الهم بالدين؛ وكخفض الصوت وغؤور العينين وذبول الشفتين ليدل على الصوم.

الثاني: الرئاء بالزي والهيئة: كشعث الرأس وحلق الشارب وغلظ الثياب وقصر الأكمام، ليظهر من نفسه اتباع السنة واقتداء بعباد الله الصالحين. ثم منهم من يرى لبس الخشن والمرقعات ليظهر الزهد عند الصلحاء، ومنهم من يريد الجمع بين قبول الصلحاء وقبول الملوك، ولا يلبسون الثياب الفاخرة لئلا يراهم الصلحاء، ولا الخرقة لئلا يراهم الملوك، بل يلبسون الأكسية الرفيعة من الأصواف والمرقعات المصبوغة، وقيمة ثوبهم ثوب الأغنياء.

الثالث: الرئاء بالقول؛ كالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لاظهار غزارة العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، واظهار الغضب للمنكرات، وترقيق الصوت بقراءة القرآن، واظهار الحزن والخوف، واظهار أنه محدث حتى ينكر على من يبدل لفظاً بمرادفه، وهذا باب لا تنحصر جزئياته.

الرابع: الرئاء بالعمل؛ كطول وتطويل الركوع والسجود واطراق الرأس، وكذلك سائر العبادات، حتى أنه يرائي في مشيه أيضاً من اطراق الرأس والخشوع في حركته.

والخامس: المراياه بالأصحاب والزائرين والمخالطين؛ كاستزارة العلماء والزهاد والملوك وعمال السلاطين ليقال انهم يعظمونه ويتبركون به لعظم رتبته في الدين.

ثم أن من أرباب الرئاء من لا يطلب من الناس المال بل يقنع منهم بحسن الاعتقاد، كالرهبان الساكنين في الجبال، فان الجاه أمر لذيذ في نفسه كما عرفت؛ ومنهم من يريد مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد؛ ومنهم من يريد الصيت في العالم ليكثر الرحلة إليه؛ ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته ليقوم له به جاه عند العامة، ومنهم من يتوسل به الى جمع حطام الدنيا ولو من الأوقاف، وهؤلاء أشر طبقات المرائين.

ثم **أعلم:** ان الرئاء، منها ما هو مباح؛ كطلب قليل من الجاه ليسلم به من الآفات، بشرط أن لا يرتكب المحظور في تحصيله، وأما الجاه الكثير الواسع من غير حرص مذل على طلبه، ومن غير اغتمام بزواله ان زال فلا ضرر فيه اذ لا أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين؛ ومنها ما هو مكروه: كطلب الجاه بالمباحات، اذا احتمل ان يباشر به مباشرة ما لا يجوز؛ ومنها ما هو حرام: كطلب الجاه بالعبادات وجعلها وسائل الى الدنيا، وسيجيء تفصيله آنفاً.

ثم **أن الرئاء بالعبادات:** أما بأن يقصد الرئاء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادته لأن الأعمال بالنيات، بل يعصى بذلك و يأثم، بل هذا من كبائر المهلكات، وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر.

ووجه ذلك: أن الغرض من الركوع والسجود تعظيم الله تعالى، حتى لو فعلها لغيره تعالى صار مشركاً شركاً جلياً، واذا فعلها لله صورة ــ وأراد بهما تعظيم الخلق لقصده التقرب اليهم ــ كان معظماً لغير الله تعالى صورة، فيصير شركاً خفياً، أي: شركاً لم يطلع عليه أحد ولم تجر عليه أحكام الكفر، وكيف والغرض من العبادة طاعة القلب، والبدن وسيلة اليه. وكون عبادة البدن لغير الله تعالى كفراً، انما هو لكونه عنواناً ودليلاً على حال القلب لا أن حاله بانفراده معتبر في نفسه، فهذا حال الرئاء وهو أصعب المعاصي، ولا يخلو قلب عنها الا الأقلين من عباد الله المخلصين. ومع كثرته فعلاجه أصعب من علاج سائر المعاصي.

ربنا لا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، انك أنت التواب الرحيم. والآيات والأخبار في شأن الرئاء أشهر من أن تذكر.

المطلب الثامن

في درجات الرئاء

وهي أربع:

الأولى؛ وهي أغلظها: ان لا يكون مراده الثواب أصلاً فهو الممقوت عند الله عز وجل.

الثانية: أن يقصد الثواب قصداً ضعيفاً بحيث لو كان في الخلوة لا يفعله، فهذا قريب مما قبله، وشائبة قصد الثواب لا ينفي عنه الأثم والمقت.

الثالثة: أن يكون قصد الثواب والرئاء متساويين، بحيث لو خلا كل منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل، ولما اجتمعا انبعثت الرغبة فيرجى أن يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه، وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم.

الرابعة: أن يكون اطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه، ولو لم يكن لكان لم يترك العبادة، ولو كان قصد الرئاء وحده لما أقدم على العمل، فالذي يظن والعلم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكن ينقص منه، أو يعاقب على مقدار قصد الرئاء ويثاب على مقدار قصد الثواب.

المطلب التاسع

في الرئاء بأصول العبادات وأوصافها

وفيه درجات:

الأولى؛ وهو أغلظ: الرئاء بأصل الايمان، نعوذ بالله من ذلك. وصاحبه مخلد في النار، والمراد بالمنافقين المذكورين في القرآن هو هذا.

الثانية: أصول العبادات بعد الايمان. وهذا أيضاً عظيم عند الله ولكنه

دون الأول؛ كمن يترك العبادة كسلاً و ينشط عند اطلاع الخلق، وما أجدر صاحبه بالمقت وان كان غير منسل عن أصل الايمان.

الثالثة: أن يرائي بالنوافل والسنن، بأن يكسل عنها في الخلوة و يبعثه الرئاء على فعلها، خوفاً من المذمة أو طلباً للمحمدة، وهذا أيضاً عظيم لكنه دون ما قبله. وهذا هو الرئاء بأصول العبادات.

وأما الرئاء بأوصافها فعلى ثلاث درجات أيضاً:

الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة؛ كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة، فإذا رآه الناس أحسن هذا، فهذا أيضاً محظور لأن فيه أيضاً تقديم الخلق على الخالق.

الثانية: أن يراعي بما لا نقصان أن تركه بل فعله للتكملة أو التتمية؛ كمد القيام، وتحسين الهيئة في رفع اليدين، والمبادرة الى التكبيرة الأولى.

الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً؛ كحضور الجماعة قبل القوم، وقصده الصف الأول، وتوجهه الى يمين الامام، ونحو ذلك. وهذا دون ما قبله الا أنه مذموم أيضاً.

المطلب العاشر
في المرايا الاجلة

وله أيضاً درجات ثلاث:

الأولى؛ وهي أشدها وأعظمها: أن يكون مقصوده بالتقوى والورع والامتناع عن الشهوات التمكن من المعصية؛ كالقضاء وتولية الأوقاف. ومنهم من يظهر زي التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة وقصده التحبب الى امرأة أو غلام، وهؤلاء أبغض المرائين الى الله عز وجل اذ جعلوا طاعة ربهم سلماً الى فسقهم وشهواتهم.

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا، من مال مباح أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة أو بنت عالم أو عابد، فهذا محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا، ولكن دون الأول فان المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الثالثة: أن يظهر عبادته خيفة ان لا يعد من الخاصة والزهاد، كمن يظهر الصوم واذا غلب عليه العطش يقول: أفطرت تطييباً لقلب فلان، أو يقول: ان أمي ضعيفة القلب مشفقة علي تظن اني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أن أصوم. وأما المخلص فلا يبالي كيف نظر الخلق اليه.

المطلب الحادي عشر

في بيان الرئاء الذي هو أخفى من دبيب النمل

وأعلم: أن الرئاء أما جلي كما عرفت، وأما خفي: وهو لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل والتخفيف، ولكنه يسر باطلاع الناس عليه و يرتاح له و يروح عن قلبه شدة العبادة. وهذا السرور يدل على رئاء خفي في القلب مستكن استكنان النار في الحجر، فإن لم يقابل ذلك السرور بكراهية يصير ذلك قوة وغذاء للعرق الخفي من الرئاء، حتى يتحرك حركة خفية، حتى يتكلف أن يطلع عليه الناس بالتعريض دون التصريح. وقد يخفى فلا يدعو إلى التعريض بل الى الاظهار بالشمائل؛ كاظهار النحول والصفار، وخفض الصوت، وجفاف الريق، وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك: أن لا يريد اطلاع أحد عليه ولا يسر بذلك، لكن يحب أن يبدأ بالسلام والبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه و ينشطوا لقضاء حوائجه، وأن يوسعوا له في المكان، كأنه نفسه يتقاضى منه الاحترام على الطاعة التى أخفاها حتى لو لم تسبق منه طاعة لما استبعد نفسه تقصير الناس في حقه.

فلم يزل المخلصون على خطر عظيم من الرئاء الخفي، حتى كان بعضهم يحرص على اخفاء أعماله الصالحة اخفاء الناس فواحشهم خوفاً من الرئاء

الخفي، اذ لا يجازي الله تعالى بالأعمال الا اذا خلص له تعالى.

وأعلم: أن السرور الحاصل من ظهور العبادة ربما يكون محموداً. وهو أربعة:

الأول: أن يعرف ان الله تعالى أظهر طاعاته وأخفى معاصيه، وهذا لطف عظيم من الله عز وجل على عباده، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس.

الثاني: أن يستدل باظهار الله الجميل وبستره القبيح عليه في الدنيا أنه يفعل كذلك في الآخرة.

الثالث: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره: أجر العلانية بما ظهر آخراً وأجر الستر بما قصده أولاً.

الرابع: أن يحمده المطلعون على طاعته، فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم ومحبتهم للمطيع، وبميل قلوبهم الى الطاعة، فهذا فرح بحسن ايمان عباد الله. وعلامة اخلاصه في هذا النوع أن يكون فرحه بمدحهم غيره مثل فرحه بحمدهم اياه.

المطلب الثاني عشر

بيان ما يحبط العمل من الرئاء الخفي أو الجلي وما لا يحبط.

واعلم: أن العمل أما أن ينعقد على الأخلاص ثم ورد وارد الرئاء أو ينعقد على الرئاء. والأول أما أن يرد الرئاء بعد الفراغ أو قبله، والأول سرور مجرد بالظهور دون الاظهار فهذا لا يحبط الأعمال، اذ العمل قد تم على نعت الأخلاص، فما يطرأ بعده نرجو أن لا ينعطف عليه أثره، لاسيما إذا لم يتكلف اظهاره ولم يتمن ذلك.

نعم: لو ظهرت له رغبة في الاظهار بعد تمام العمل على الاخلاص فهذا مخوف، وفي الأخبار والآثار ما يدل على أنه محبط، لكن القياس أن يثاب على عمله و يعاقب على مراياته بعد ذلك.

وأما اذا ورد الرئاء قبل الفراغ؛ فأما أن يكون مسروراً لا يؤثر في العمل، أو يكون باعثاً على العمل. والأول لا يفسد العمل اذا لم ينعدم أصل نيته، فان تم عليه فلا خلاف أنه يعصى، وان ندم عليه في أثناء صلاته واستغفر ورجع قبل التمام، ففيما يلزمه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن صلاته لم تنعقد فليستأنف.

وثانيها: أن التحريمة عقد والرئاء خاطر في القلب لا يفسد العقد، فليستأنف الركوع والسجود وسائر الأفعال.

وثالثها: لا يلزمه الاعادة أصلاً بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الاخلاص، والختم على الأخلاص كالابتداء عليه.

واعلم: أن مذهب الفريقين الأخيرين خارج عن قياس الفقه. وانما القياس أن يقال: ان كان الباعث في ابتداء العقد مجرد الرئاء لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده، اذ النية اجابة باعث الدين وههنا لا باعث ولا اجابة، وأما اذا كان باعث الدين ثم تجدد له الرغبة لأجل الناس فهاهنا باعثان، فهذا اما أن يكون في صدقة أو قراءة، وما ليس فيه تحريم وتحليل يثاب بباعث الدين ويعاقب بقصده الفاسد، ولا يحبط أحدهما الآخر.

وان كان في صلاة أو حج يقبل الفساد بتطرق وخلل الى النية، فإن كان نفلاً فحكمه حكم الصدقة، وأما أن كان فرضاً وانبعث بمجموع الباعثين فهذا لا يسقط عنه الواجب، لأن الايجاب لم ينتهض بمجرده باعثاً، ويحتمل أنه صلى لوجه الله تعالى وقد اقترن غيره به، فلما وجد الأول سقط عنه الفرض، واقتران غيره به لا يمنعه كالصلاة في الأرضّ المغصوبة.

وأما إن كان الرئاء في المبادرة دون أصل الغرض بأنه ان خلا كان يصلي ولكن في آخر الوقت أو وسطه، فهذا مما يقطع بصحة صلاته، لأن أصل الصلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت. هذا كله في رئاء يكون باعثاً على العمل، فأما مجرد السرور بظهور العمل فبعيد بأن يفسد الصلاة،

والمسألة غامضة: اذ الفقهاء لم يتعرضوا لها أصلاً، والذين تعرضوا لها حكموا ببطلان الصلاة بأدنى خاطر، ولعل القصد ما ذكر.

المطلب الثالث عشر
في بيان دواء الرئاء

لأنه من كبائر المهلكات، وأنه قد انغرس في قلبه وهو في الصبا، لأنه يرى في الناس التصنع فيغلب عليه حب ذلك. **وفي علاجه طريقان:**

الأول: قلع عروقه واستئصال أصوله، وأصله حب المنزلة والجاه، وأصله ثلاثة: حب لذة المحمدة، والفرار من ألم المذمة، والطمع فيما في أيدي الناس. واصلاح كل هذه قد مر، ولكنا نذكر الآن ما يخص الرئاء: وهو أن رغبة العاقل في شيء لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ حالاً ومآلاً، فان علم أنه لذيذ حالاً وضار الأسهل عليه قطع الرغبة عنه؛ كما اذا علم أن في العسل سما.

ولا يخفى أن في الرئاء آفة عظيمة مآلاً، لأنه يحرم في الدنيا من التوفيق وفي الأخرى من المنزلة عند الله، بل يستحق البغض والمقت عند الله، ولو لم يكن فيه الا احباط طاعة واحدة كان كافياً في معرفة ضرره عند العاقل، مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب رضا الناس، مع أنه غاية لا تدرك، اذ كل ما يرضى به فريق يسخط به فريق، مع أن الله تعالى مسخر لقلوبهم بالمنع والاعطاء، اذ لا رازق الا الله، على أن في الطمع ذلاً لا يتناهى لا يفي حاصله بذله. على أنه أي خير لك في مدحهم وأنت عند الله مذموم، وأي شر لك في ذمهم وأنت عند الله محمود. هذه هي الأدوية العلمية.

وأما الأدوية العملية: فهو أن يعود نفسه اخفاء العبادات واغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله

واطلاعه على عبادته ولا تنازعه النفس الى طلب علم غير الله به.

ثم أن الرئاء اذا عرض في أثناء العبادة فطريق دفعه مجموع ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة، والأباء. مثلاً: يجب أن تعرف أن الله تعالى اذا كان عالماً بحالك فأي فائدة في علم غيره، فتثمر هذه المعرفة اذا رسخت في قلبه كراهة الرئاء بسبب تفكره في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم، فتنازع هذه الكراهة الشهوة الكامنة في القلب من حب المدح وبغض الذم، ثم تثمر هذه الكراهة اذا رسخت في القلب الآباء عن الرئاء. وأصل ذلك كله حب الدنيا وهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب.

فان نازع طبعه بعد تحقق الكراهة والآباء في قلبه الى حب الرئاء ومال طبعه اليه، فذلك لا يكون من المرائين لأن الطبع لا يدخل تحت الاختيار، ولم يكلف الله عبداً الا ما في وسعه، وهذا كله حال المتوسطين.

وأما المخلصون عن الرئاء فلهم في دفع خواطر الرئاء أربعة طرق:

أحدها: أن يطيل الجدال مع الشيطان، وذلك في الحقيقة نقصان: في السلوك.

وثانيها: أن يقتصر على تكذيبه ودفعه وهذا وقفة في الطريق.

ثالثها: أن يقرر في قلبه كراهة الرئاء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه.

ورابعها: أن يعزم أنه مهما نزع الشيطان الى أسباب الرئاء زاد فيما هو فيه من الأخلاص والأشغال بالله تعالى واخفائه الصدقة والعبادة، وذلك هو الذي يغيظ الشيطان.

ثم اعلم: أن أرباب القلوب اختلفوا في طريق دفع مكايد الشيطان فلا حاجة بهم الى الحذر. ومنهم من قال ــ وهم أهل الشام: ان التصرف بالنفع والضر انما هو لله تعالى لا شريك له في تدبيره، وان الشيطان ليس اليه أمر فاليقين بالواحدانية يغنيه عن الحذر.

ومنهم من قال ــ من أهل العلم: لا بد من الحذر من الشيطان وقد أمرنا

الله تعالى به، ولا يسلم أحد من الشيطان وما ذكره البصريون من استغنائهم عن الحذر فهو غرور، اذ الانبياء لم تسلم من نزعات الشيطان فكيف غيرهم؛ قال تعالى: ﴿ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾[1].

ثم **المشتغلون بالحذر فرقتان:** فرقة تقول: لا أهم علينا منه فلا نشتغل الا به؛ وفرقة تقول: اشتغال الهم كله بالحذر منه هو مراد الشيطان ليصدنا بذلك عن ذكر الله، بل لا بد من الجمع بين الأمرين.

وقال المحققون: كلا الفريقين غلطا؛ أما الأولى: فلأنه نسي ذكر الله تعالى وانما أمرنا بالحذر لئلا يصدنا عن ذكر الله، ثم يؤدي ذلك الى خلو القلب عن النور ومن خلا عن النور لا يمكنه الحذر عن الشيطان أصلاً.

وأما الفرقة الثانية: فقد جمع بين ذكر الله وذكر الشيطان، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله تعالى، وقد أمر الله تعالى الخلق بذكره ونسيان ما عداه: ابليس أو غيره.

والتحقيق: أن يقرر الانسان أولاً عداوة الشيطان ووجوب الحذر منه، ثم يشتغل بذكر الله عز وجل و يكب عليه بكل الهمة، ولا يخطر بباله أمر الشيطان بعد ذلك، لأن هذا يستكن في قلبه فيتنبه في أثناء الذكر فيشغل به عن ذكر الله، لأن الانسان اذا استكن في قلبه أن يتيقظ في وقت الصبح لأجل مهم له ربما يتنبه أثناء نومه مرات وهو غافل عنه بالنوم، ولا يخفى أن ذكر الله يحيي قلبه بنور العلم والعقل ويميت الهوى والشهوات، فكفاه ذلك أمر الحذر من الشيطان.

---

(١) سورة الحج، آية: ٥٢.

المطلب الرابع عشر
في الرخصة في أظهار الطاعات

كما أن في الأسرار فائدة الأخلاص كذلك في الأظهار فائدة الاقتداء. **وآفة الرئاء والأظهار قسمان:**

أحدهما: اظهار نفس العمل؛ كالتصدق في الملأ لترغيب الناس في الصدقة، وكذا سائر الأعمال كالصلاة والحج، لكن بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرئاء، وبشرط أن لا يؤذي اظهاره الخلق كما هو الأكثر في التصدق.

ثم الناس اختلفوا ــ بعد اتفاقهم على جواز الاظهار للقدوة وعدم جواز الاظهار بدون قدوة ــ أن السر أفضل أم الاظهار للقدوة. والحق ان الاظهار ليقتدي به أفضل ما لم يشبه الرئاء، واذا خاف من شوب الرئاء فالأسرار أفضل.

ثم من يظهر العمل له وظيفتان:

احداهما: أن الأظهار بنية انما يصح فيمن يقتدى به الناس كالعلماء دون غيرهم.

ثانيتها: أن يراقب قلبه حتى لا تظهر نية أن يقتدى به، انما شهوته التجمل بالعمل وبكونه مقتدى به، وهذه حال كل من تظهر أعماله، الا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. والتفطن لذلك غامض، ومحك ذلك: ان تعرض على نفسك أن تخفي العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك، ويكون لك في ذلك مثل أجر الأعلان، فإن مال قلبه الى أن يكون المظهر نفسه فباعثه الرئاء.

وثانيها: الأخبار عن العمل. والخطر فيه أشد، لأن النطق يخف على اللسان، وربما يزيد اظهاراً للدعوى لأن لذة النفس فيه عظيمة.

وأما من جهة أن الرئاء الثاني لا يفسد العمل السابق فهو أهون، الا أن من قوي قلبه واستوى عنده مدح الناس وقدحهم وصفت النية وسلمت من جميع

الآفات يجوز حكاية أعماله، لأنه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير. قال بعض العارفين: ينبغي أن لا يسد باب اظهار الأعمال لأن ذلك سبب لأتباع الناس واقتدائهم بمن يظهرها اذ لم يعرفوا رئاه، ففي ذلك خير كثير للناس وان كان شراً للمرائي، وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

المطلب الخامس عشر
في الرخصة في كتمان الذنوب

اعلم: أن كتم الذنوب ليس برئاء، بل اظهار الورع والتقوى حتى يجوز الاغتمام باطلاع الناس عليه من ثمانية وجوه:

الأول: أن يفرح بستر الله عليه، واذا افتضح اغتم وخاف أن يهتك ستره في القيامة، وهذا غم ينشأ من قوة الايمان.

الثاني: أنه قد علم ان الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها، كما قال صلى الله عليه وسلم: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله». وهذا أيضاً من قوة الايمان.

الثالث: أن يكره ذم الناس له لأنه يشغل القلب عن الطاعة، كما أن الحمد يكره أيضاً لأنه أيضاً يشغله عن الله، وهذا أيضاً من حب الطاعة لله تعالى.

الرابع: أن يكره ذم الناس لتألم قلبه، وتألم القلب بالذم ليس بحرام ولا انسان به عاص، وانما يعصى اذا جزعت نفسه ودعته الى ما لا يجوز حذراً من ذمهم. نعم: كمال الصدق في أن يستوي ذامه ومادحه لعلمه أن العباد كلهم عاجزون، وذلك قليل جداً، الا أن بعضاً من الذم يجب التألم به؛ كما اذا صدر من أهل البصيرة، فأنهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله فكيف لا نغتم به. وانما المذموم: الغم بالذم بفوات الورع، كأنه يحب أن يحمد بالورع فيرجع الى الرئاء. وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم، فله الستر حذراً من ذلك.

الخامس: أن يكره الذم من حيث أن الذم قد عصى الله به، وهذا من الايمان.

السادس: أن يستر ذلك كي لا يقصد بشر اذا عرف ذنبه، وهذا وراء ألم الذم.

السابع: مجرد الحياء فأنه نوع ألم وراء ألم الذم، وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل، فيستحي من القبائح وهو وصف محمود؛ وفي الحديث: «الحياء خير كله»؛ وفيه: «الحياء شعبة من الايمان». ثم ان الحياء قد يعقبه الرئاء؛ كمن لا يريد اقراض أخيه ولكن يستحيي من رده، فحينئذ إن أعطاه لينتشر اسمه بالسخاء أو لا ينسبوه الى البخل فقد أعقب الحياء الرئاء، وان أعطاه للثواب في الأقراض أو لأدخال السرور على قلب أخيه فقد أعقبه الاخلاص، وان أعطاه لا لأجل المحمدة ولا خوف المذمة ولا رجاء للثواب فقد أعطاه لمجرد الحياء، و يعلم بأنه لو طلبه بالمراسلة لمنعه.

الثامن: أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره و يقتدى به، وبهذه العلة ينبغي أن يخفي العاصي معصيته عن أهله وولده لئلا ـ يتعلمونه منه.

واعلم: أن حبك محبة الناس لك قد يحمد اذا أردت حبهم على حجك وغزوك وصلاتك، فأنه طلب عوض على طاعة الله عاجلاً، وقد يباح اذا أردت أن يحبوك بصفات محمودة سوى الطاعات.

المطلب السادس عشر
ترك الطاعات خوفاً من الآفات

وهذه أقسام:

الأول: الطاعات اللازمة للبدن الذي لا يتعلق بالغير ولا لذة في عينها؛ كالصلاة والحج والغزو، فخطرات الرئاء فيها ثلاث:

أحدها: الرئاء الباعث على العمل، فينبغي أن يترك العمل عند ذلك أو يدفع الرئاء.

وثانيها: أن يعقد العبادة على الاخلاص ثم يعرض الرئاء، فينبغي أن يدوم على العمل، ويجاهد في دفع الرئاء ولا يترك العمل.

ثالثها: أن يعقد على الاخلاص في أولها و يعرض الرئاء في أثنائها، فيدوم على العمل أيضاً، ولكن يجاهد في أن يرجع الى الاخلاص. وربما قال الشيطان: لا فائدة لك في هذا العمل واتركه. وهذا غرور منه لأن ما لا يدرك كله لا يترك كله، وترك العمل لأجل ذلك يجر الى البطالة، وما نقل عن السلف من ترك العمل للرئاء فذلك محمول على النوافل أو العلاج لأنفسهم بخلاف الأفضل، لشدة الخوف.

القسم الثاني: ما يتعلق بالخلق. وتعظم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم انفاق المال.

أما الخلافة والأمارة: فهي من أفضل العبادات اذا كانت مع العدل والأخلاص، مع ما فيها من عظيم الخطر، اذ يغلب فيه على النفس حب الجاه ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا. ولهذا ورد في الأخبار والآثار الترغيب فيها والتنفير عنها. فيجب أن لا يمنع منها الخواص والأقوياء، وهم الذين لا تميلهم الدنيا ولا يستفزهم الطمع ولا يأخذهم في الله لومة لائم وسقط الخلق من أعينهم.

ولكن لا يدور حولها الضعفاء فيهلكون لأنهم وان صبروا عن الحق كافة أنفسهم عن الشهوات في غير الولاية، لكن لا أمن لهم من أن يتغير اذا ذاقوا لذة الولاية، وأن يستحلوا لذة الولاية ونفاذ الأمر، وأن يكرهوا العزل فيداهنوا خيفة من العزل. ولهذا تمنع الضعفاء من تقلد الولاية عند الأكثرين. قال بعضهم: يجوز التقلد اذا أمن في الحال عن اتباع الهوى. ولا يمنعه عنه الخوف عن أمر في المستقبل.

والصحيح: القول الأول وهو عدم التقلد، لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلا يعتمد عليها. ثم ان الامتناع عن قبول الولاية أهون عند النفس من العزل، لأنه كما قيل: طلاق الرجل، والنفس لا تسمح به، فيميل الى المداهنة واهمال الحق فهوى به في قعر جهنم، الا أن يعزل قهراً ففيه عذاب عاجل.

وأما القضاء: ففيه ثواب عظيم مع اتباع الحق وعقاب أليم مع العدول عنه، فهو كالأمارة والولاية وفي معناهما وان كان في الحكم دونها. فينبغي أن يتركه من يخاف عن العزل ولا يفرح بدونه، اذ يلتزم خوفاً من العزل اتباع الهوى فهوى مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار.

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه و يعظم به القدر: فآفته أيضاً عظيمة مثل آفة الولايات. فان قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلوم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق؛ قلت: أما النهي فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، مع ما في عدم السلطنة والامارة من الفتن والفساد ما لا يخفى، ومع ذلك النهي لم تتعطل تلك الولايات لكون النفوس مجبولة على حب الرياسة، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس، فعلى هذا تعدد الواعظ في البلد، فليس في النهي الا امتناع البعض، اذ ترك الكل لذة الرياسة في حد الامتناع، ولو انحصر في واحد وكان وعظه نافعاً للناس فلا نمنعه وان قال: لا أملك نفسي، لأنه لو ترك أهلك الناس بل يقال له: أشتغل وجاهد أيضاً لو كان غرضه الجاه، وفي الاشتغال يهلك هو وحده، وفي الترك يهلك الناس كلهم فنجعله فداء للقوم، فيدخل فيمن قاله النبي صلى الله عليه وسلم: «ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم».

ثم أن الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة و يزهد في الدنيا بكلامه و بظاهر سيرته، وأما ما أحدثه الوعاظ من الكلمات المزخرفة والمسجعة المقرونة بالأشعار، فأنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان يجب اخلاء البلاد منهم.

وبالجملة: فضل العلم عظيم الا أن خطره كثير، وذلك ليس لنفس العلم بل لأظهاره والتوسل به الى الرئاء، فالأحب أن لا يترك لآفته بل يحصله و يدفع الآفات بالمجاهدة.

ثم في الواعظ علامات يعرف بها صدقه واخلاصه:

أحدها: أنه لو ظهر عالم هو أغزر منه علماً والناس أشد له قبولاً يفرح به ولم يحسده، وان فعل فالغبطة.

وثانيها: أن لا يتغير كلامه اذا حضروا مجلسه.

وثالثها: أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق.

ومما ينبغي أن يعلم: أن العبد ربما يقع بين أظهر قوم يقومون للتهجد فيوافقهم، ففيه أمران:

أحدهما: أن موافقته لهم إن كان بسبب رفع الثقلة بمشاهدة عبادتهم ودفع الأشغال الواقعة في بيته، أو لمفارقته النوم لأستنكاره الموضع أو لسبب آخر فيغتنم زوال النوم، فهذا وأمثاله من الأسباب ليس من الرئاء بل هو تجدد النشاط. وأما اذا فعل ذلك لأجل رؤيتهم وخوفاً من مذمتهم، لا سيما اذا اعتقد أنهم يظنونه يقوم بالليل، فليتركه فأنه من الرئاء. وربما يكون فعله لباعث الدين مقروناً بحب الحمد فلا يترك أيضاً، ويمتحن نفسه بأنه لو لم يروه هل يترك العمل أو يستثقله أم لا، فان كان الأول فهو من الرئاء، والا فلا.

وأصل العلاج في هذا الباب: القناعة بعلم الله تعالى في جميع طاعاته، واذا خطر جانب العباد: يتذكر عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامها أبد الآباد، وعظم غضب الله ومقته. إلا أنه لا ينبغي أن ييأس بأن يقول: لا ينجو من الرئاء الا الأقوياء، فيترك المجاهدة في الأخلاص، اذ اليأس عن صفاء الماء بعد كدره من الجهل بحقيقة الماء وخلو جوهره عن المكدرات وصفائها عن الملوثات؛ ومثال النفس مثال الماء.

واعلم: أن الله تعالى كريم رحيم، لو شاء لأغنى عباده عن التعب

والنصب، ولكن أراد أن يبلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم أنه لا يضيع سعي الراجي ولا يخيب أمل المحب، وقد قال: «من تقرب الي شبرا تقربت اليه ذراعاً، ومن تقرب الي ذراعاً تقريب اليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»؛ وقال: «لقد طال شوق الأبرار الى لقائي وأنا الى لقائهم أشد شوقاً». فليظهر العبد جده وصدقه وأخلاصه فلا يعوزه ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

الأصل التاسع
في ذم الكبر والعجب

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في ذم الكبر والاختيال وفضيلة التواضع

واعلم: أن الله تعالى ذم الكبر والاختيال، ومدح التواضع في مواضع كثيرة من كتابه بحيث لا يخفى على أحد ذلك. وكذلك وقع في الأحاديث ما يوافق القرآن أخبار كثيرة لا يمكن حصرها مع شيوعها عند الناس.

واعلم: أن الكبر صفة في النفس وما في الظاهر من أماراتها، وهو أن يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال فيحصل في قلبه اعزاز وهزة وفرح وركون الى رؤية نفسه؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بك من نفخة الكبر».

وأما العجب: فلا يشترط فيه رؤية الغير، بل لو خلق وحده يحصل العجب.

وأما الكبر: فيشترط فيه ذلك. وأما الآثار الظاهرة منه ــ ويسمى تكبراً ــ أن يحقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، وربما يشتد الكبر فيستنكف عن خدمته أيضاً بل عن خدمة عتبته، وأدنى مراتبه أن يأنف عن مساواته؛ فيأنف أن يرد عليه أن ناظره. ثم أنه ربما ينظر الى العامة كأنهم الحمير ويستحقرهم، الى غير ذلك من الأحوال القبيحة، قلما أن ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن العوام.

المطلب الثاني

في أقسام الكبر باعتبار المتكبر عليه

وهي ثلاثة:

الأول: التكبر على الله؛ كما فعله نمرود وفرعون، وهو من أفحش أنواع الكبر وأقبحها والعياذ بالله.

الثاني: التكبر على الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه من حيث ترفعه عن الانقياد لبشر، وذلك تارة مع الجهل بحقيقته حيث يصرف الكبر عن الفكر فيه، وتارة يعرف حقيقته ولكن لا تطاوعه نفسه بالأنقياد.

الثالث: التكبر على العباد بأن يترفع عليهم و يستصغرهم و يزدريهم. وهذا وان كان دون الأول لكنه عظيم أيضاً من وجهين:

أحدهما: أن العز والكبر لا يليق الا بالملك القادر والعبد بمعزل عن ذلك.

ثانيهما: أنه يدعو الى مخالفة الله عز وجل، لأنه ربما يسمع الحق من عبد فيأنف عن قبوله و يتشمر لجحده، كما تشاهده في المناظرين في مسائل الدين، كما فعله ابليس حيث جره كبره الى مخالفة أمر الله تعالى.

المطلب الثالث

في أقسام ما به الكبر

وهي سبعة:

الأول: العلم. وما أسرع الكبر الى العلماء، لأنهم يرون أنفسهم كمال العلم وجماله، فيستعظمون أنفسهم و يستحقرون من عداهم، و يتوقعون منهم الخدمة و يسخرونهم في حوائجهم بمنزلة عبيدهم. هذا أمر الدنيا. وأما في الآخرة: فيرون أنفسهم عند الله خيراً منهم، فيرجون لأنفسهم أكثر مما يرجون لهم، ويخافون عليهم أكثر مما يخافون على أنفسهم، مع العلم الحقيقي أن يعرف

الانسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة، وان حجة الله على العلماء أعظم من حجته على الجاهل، وذلك يقتضي أن يرى كل أحد خيراً منه.

والكبر في العالم: أما باشتغاله بما ليس هو يعلم؛ كالطب والحساب واللغة والشعر والنحو وطريق فصل الخصومات والمجادلات، وهذه صناعات، وانما العلم الحقيقي ما يورث الخشية والتواضع؛ وأما بأن يشتغل بالعلم لكن هو خبيث الدخلة رديء النفس سيء الأخلاق، لأنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه، فإذا خاض في العلم ــ أي علم ــ كان صادف من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم تطب ثمرته، ولم يظهر في الخير أثره، وانما العلم كالغيث تشربه الأشجار فيزيد المر مرارة والحلو حلاوة، وكذا العلم يزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً.

وما أعز على بسيط الأرض عالماً لم يحركه عز العلم، ولو عرفنا ذلك بأقصى الصين لسعينا اليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري الينا سيرته وسجيته، ولكنه هيهات أنى يسمح آخر الزمان بمثلهم.

الثاني: العمل والعبادة؛ بأن يروا غيرهم بزيارتهم أولى من أنفسهم بزيارة غيرهم، و يتوقعون قيام الناس بحوائجهم، وتوقيرهم والتوسيع لهم في المحافل، وذكرهم بالورع والتقوى، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق؛ وكذا في الدين: يرى الناس هالكين و يرى نفسه ناجياً الا أنه هو الهالك تحقيقاً.

وان منهم من يظن أنه أكرم على الله من الأنبياء حيث انتقم له من أعدائه اذا أصابهم مكروه، و يزعم ان ذلك من كراماته، وكثير من أعداء الأنبياء أمهلهم الله في الدنيا وربما أسلم فسلم في الآخرة أيضاً.

ثم الكبر في العلماء: أما أن يستكن في قلبه و يتواضع ظاهراً، أو يظهر على أفعاله أيضاً، وأشد منهما من يظهر في أقواله، بأن يدعي بالمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأعمال والمقدمات، والتبشر بغلبة في العلم والعمل.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب. وذلك عرق دفين في النفس قلما ينفك عنه نسيب وان كان عاقلاً وصالحاً الا أنه يطفىء ذلك بنور بصيرته.

الرابع: التفاخر بالجمال. وأكثر ما يجري ذلك بين النساء، و يدعو ذلك الى الغيبة وذكر عيوب الناس.

الخامس: الكبر بالمال. وذلك يجري بين الملوك في الخزائن، والتجار في بضائعهم، بين الدهاقين في أراضيهم، و بين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، وكل ذلك جهل منه بآفة الغنى وفضل الفقر.

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان والعشيرة والأقارب والبنين. ومن ذلك: المكاثرة بالمستفيدين بين العلماء والجنود بين الملوك.

المطلب الرابع
في أسباب الكبر

وهي أربعة:

أحدها: العجب. وأنه يورث الكبر الباطن، وهو يثمر التكبر.

ثانيها: الحقد. لأنه اذا رسخ في القلب تأنف النفس أن تطاوع ذلك وأن تتواضع له، فكم من رذيل لا تطاوع نفسه أن يتواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه.

وثالثها: الحسد. وهو أيضاً يبعثه على أن يعامله بأخلاق الكبر وان لم ير نفسه فوقه في باطنه.

ورابعها: الرئاء. فان كثيراً من الناس يتكبر على آخر ولا يستفيد منه العلم لئلا يقول الناس انه أفضل منه.

وأما آثار المتكبر في الشمائل: صفر الوجه، والنظر شزراً، واطراق الرأس، والجلوس متربعاً ومتكئاً، وفي أقواله تغير في صوته ونغمته وصيغته في الايراد. وربما يظهر في مشيه وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، الى غير ذلك.

وربما يجتمع الكل في شخص، وربما يتكبر شخص في بعضها و يتواضع في غير ذلك.

المطلب الخامس
في طريق معالجة الكبر

وهي اما باستئصاله أو دفع العارض منه.

أما الأول؛ فأما علمي: وهو أن يعرف نفسه وربه، اذ عند ذلك يعرف أن له الذل ولربه الكبرياء، و يعرف أن بدنه من أي شيء خلق والى أي شيء سيؤول في القبر وعند الحشر وأهواله، ثم هو إمّا الى الجنة وإمّا الى النار.

وإمّا عملي: وهو التواضع لله ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، و يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد».

وأما الثاني: فبدفع الأسباب السبعة المذكورة.

وأما الكبر بالنسب: فيدفعه بأنه الاعتزاز بكمال غيره، وان النسب الحقيقي نطفة قذرة، وجده البعيد تراب ذليل، فمن أين جاءت الرفعة لولده وأصله توطأ بالأقدام وفضله يغسل عنه الأ بدان.

فأما الكبر بالجمال: فبأن ينظر الى ما في بطنه من الأقذار والنجاسات، وجريانه أولاً من الذكر، ثم قراره في الرحم، ثم خروجه من مجرى القذر.

وأما علاج الكبر بالقوة: فبأن ينظر الى ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق من بدنه لصار أعجز من كل عاجز، وان دخلت بقة في أنفه أو نملة في أذنه قتلته، وان شوكة لو دخلت في رجله لأعرجته، وان الحمار والثور والجمل يفوقك في هذا فأي فضل لك فيها.

وأما علاج الكبر بالغنى والمال والأتباع والأنصار: فعلاجه ان هذه الأمور في معرض الآفات ولو زالت عنك لبقيت وحدك، فأي فخر لك في ذلك.

وأما علاج الكبر بالعلم: فن أصعب الأمور وأشدها لأن قدره عظيم عند الله وعند الناس، **ففيه طريقان:**

أحدهما: أن يعرف أن حجة الله تعالى على العالم أوكد، لأن عصيانه أفحش من عصيان الجاهل.

وثانيها: أن يعلم أن الكبر لا يليق الا بالله عز وجل، وانه اذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً. قال تعالى للعالم: «ان لك عندنا قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندنا».

وأيضاً: أن العالم اذا تكبر فهو جاهل، فكيف يتكبر بالعلم وهو جاهل، فلا بد أن يصغر نفسه حتى يعظم عند الله. فإذا أنه نظر الى جاهل يقول: أنه قد عصى الله بجهل وقد عصيته بعلم فهو خير مني؛ وان نظر الى عالم يقول: أنه يعلم ما لا أعلم؛ وان نظر الى كبير يقول: هو أكبر مني سناً وأطاع الله قبلي؛ وان نظر الى صغير يقول: انه عصى الله بعدي؛ وان نظر الى مبتدع أو كافر يقول: ما يدريني لعل الله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن.

ولكن ينبغي أن لا يؤدي هذا التواضع الى مداهنة الفساق واطفاء نور الغضب لله، اذ عليك عند غضبك لله ملاحظة ما سبق من ذنوبك، وتميزك عنه بالعلم والعمل انما هو نعمة من الله تعالى، وملاحظة ابهام عاقبتك، فبملاحظة هذه الأمور لا يؤدي الغضب لله الى الكبر، فيجتمع عند ذلك مع التواضع، فيكون باعث الغضب رضا مولاك لا نفسك بأن ترى نفسك ناجياً وذلك هالكاً.

وأما علاج التكبر بالورع والعبادة: فطريقه طريق معالجة الكبر بالعلم. ولا ينافي ذلك فضل العابد على الفاسق عند الله، لأنه وان كان كذلك عند الله لكن لا شعور له بالختم على العبادة والورع، فلا يتكبر على الفاسق فضلاً عن المستور.

ثم أن معرفة الكبر من النفس قد يصعب، اذ قد يستكن في القلب فلا يشعر به صاحبه، فله امتحانات:

أولها: أن يذعن للحق ان ظهر في واحد من أقرانه، و يشكر له على تنبيهه للحق، والا ففيه الكبر. وعلاجه أن يذكر خسة نفسه وان الكبر لا يليق الا بالله عز وجل، وأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق و يشكره على الاستفادة منه، و يقول: جزاك الله خيراً قد كنت غافلاً عنه. وان لم يثقل ذلك في الخلوة بل في الملأ ففيه رئاء فليعالجه، وان ثقل فيهما معاً ففيه الكبر والرئاء جميعاً.

وثانيها: أن يقدم الأقران على نفسه في المحافل، فليواظب عليه أن ثقل ذلك عليه حتى يسقط ثقله و يذهب كبره، الا أن هاهنا مكيدة الشيطان وهو أن يقدم أقرانه ويجلس هو في صف النعال، أو يجعل بينه وبين أقرانه بعض الأرذال، وليس هذا تواضعاً بل هو عين الكبر، اذ يوهم بذلك أنه ترك مكانه تفضيلاً فيكون تكبراً في صورة التواضع بل التواضع حقيقة أن يجلس تحت أقرانه ولا ينحط عنهم الى طَلَف النعال أيضاً.

وثالثها: أن يجيب دعوة الفقير ويمر في حاجات الرفقاء والأقارب الى السوق، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر. وعلاجه ما مر من المواظبة على دفعه مع المعارف التي تزيل داء الكبر.

ورابعها: أن يحمل حاجة نفسه وأهله وأقاربه ورفقائه من السوق الى البيت، فان أبت نفسه فهو كبر ان خلا الطريق ورئاء عند مشاهدة الناس يجب علاج كل منهما بما مر. وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد، مع أن الأجساد تفنى البتة والقلوب لا تدرك السعادة الا بالسلامة عن الآفات.

وخامسها: أن يلبس ثياباً بذلة، فان نفر عنها في الملأ فرئاء، وفي الخلاء فكبر، وقد يجتمعان. فأعرف الأمراض أولا حتى تمكن مداواتها.

ثم اعلم: التواضع واسطة بين الكبر والمذلة، وهما مذمومان، وخير الأمور أوساطها. فمن يتقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن يتأخر عن اسكاف مثلاً وأجلسه مجلسه، ثم سوى نعله وعدا الى باب الدار خلفه فهو تذلل وتخسيس، بل

يكيفه البشر في الكلام والتعظيم بالقيام والرفق في السؤال واجابة دعوته وغير ذلك. وليحذر عن الطرفين وليطلب الوسط مهما أمكن.

المطلب السادس

في العجب

وذمه مثل ذم الكبر، وقد كثر ذمه في الآيات والأحاديث. وقد ذكرنا حقيقته والفرق بينه وبين الكبر، ولنذكر آفاته وهي كثيرة، لأنه يدعو الى الكبر، وآفاته قد مرت.

ومن آفاتها: أنه ينسى ذنوبه ويظن أنه يستغني عن تفقدها، ويستصغرها ولا يتداركها، وربما يظن أنها تغفر له. وأيضاً: يستعظم عباداته ويمن بها على الله تعالى، وينسى نعمة الله تعالى بالتوفيق والتمكين منها، ويعمى عن آفاتها، ويغتر بنفسه وربه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، ويخرجه العجب الى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، فيستبد برأيه وان كان خطأ، ويستنكف عن سؤال من هو أعلم منه، ولا يستمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر غيره بعين الاستجهال. وان كان خطأه في أصول العقائد يهلك أبداً.

واعلم: أن الانسان ان كان خائفاً على زوال نعمه من علم ومال فهذا ليس بمعجب؛ وان كان خائفاً من زواله، لكن يكون فرحاً به من حيث أنه نعمة من الله سبحانه عليه لا من حيث اضافته لنفسه، وهذا أيضاً ليس بمعجب؛ وان كان غير خائف عليه، بل يكون فرحاً به مطمئناً اليه، ويكون فرحه من حيث أنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث أنه عطية من الله تعالى ونعمة، وبالجملة: يكون فرحه من حيث نسبته الى نفسه لا الى الله تعالى فهو عجب لا محالة، وان انضاف الى ذلك أنه مستحق لهذه الكرامة في الدنيا لأن له على الله تعالى حقاً، حتى استبعد أن يجري عليه مكروه، وسمي هذا ادلالاً بالعمل فكأنه يرى نفسه على الله دالة؛ وأيضاً أن أعطى غيره شيئاً فاستعظمه ومن عليه يكون معجباً؛ وان استخدمه واقترح عليه الاقتراحات

واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه، فالادلال وراء العجب، فلا يدل الا وهو معجب، ورب معجب لا يدل، فان توقع اجابة الله دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلاً بعمله، وهو من مقدمات الكبر.

المطلب السابع
في علاج العجب

والعجب جهل وعلاجه المعرفة؛ مثلاً: الورع انما يعجب به من حيث أنه محله ومجراه، أو من حيث أنه منه ولقدرته وقوته. والعجب بالأول جهل محض اذ لا فخر بما ليس أمره اليه، وبالثاني أيضاً كذلك. فيتأمل في قدرته وارادته وسائر الأسباب التي بها يتم علمه أنه من أين كان له ذلك، فان كان جميع ذلك من نعمة من الله، من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون أعجابه بجود الله وكرمه وفضله، فكل كمال وعلم وجمال من فضل الله، وانما هو محل لفيضان فضله وجوده، والمحل أيضاً من جوده وفضله.

فان ادعيت ان كل ذلك اعمالي حتى أرجو لها ثواباً، فأعلم: أنك وقدرتك وارادتك وحركتك كل ذلك من خلق الله واختراعه، فما عملت اذ عملت؛ كما قال تعالى: ﴿ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ﴾(١). هذا هو الحق الصريح الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من أبصار العين.

وأما كيفية الثواب فسيجيء في كتاب الشكر.

وأيضاً مفاتيح الأعمال: القدرة والارادة والعلم، وهذه بيد الله تعالى لا محالة، فتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب ليس شيء اليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن اليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في ايثاره اياك على الفساق من عباده. وسيأتي ما يستبين به أنه لا فاعل الا هو ولا خالق سواه، ومن غفل عن ذلك ربما يقول: يا رب لم

---

(١) سورة الأنفال، آية ـ ٧.

أفقرتني وأنا العاقل؛ لكنه كلام جاهل غافل، اذ لو جمع بينهما لقال الفقير الجاهل: يا رب لم جمعته بينهما وحرمتني عنهما. فإذا اقتضت الحكمة أن العلم متى ازداد نقص من المال اللهم الا نادراً، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثم أن أقسام العجب أقسام الكبر بعينها، وعلاجها علاجها، فاعتبر كل ذلك هاهنا، والأمر ظاهر لمن له بصيرة تامة، والله أعلم بالصواب.

الأصل العاشر

في ذم الغرور

وفيه مطالب:

المطلب الأول

قد ذم الله تعالى ورسوله الغرور بحيث لا حاجة الى ذكرها.

وأما حقيقته: فهو من أنواع الجهل، وهو: سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل الى الطبع من شبهة وخدعة من الشيطان، ومن اعتقد أنه على خير عاجلاً أو آجلاً من شبهة أو مخيلة فاسدة فهو مغرور. فأكثر الناس اذا مغرورون وان اختلفت أصنافهم ودرجاتهم؛ مثل أن يقال: الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد خير من النسيئة؛ وأن يقال: لذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا يترك اليقين بالشك. وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس في قوله أنا خير منه، ولا يخفى فساد هذه الأقيسة اذ النقد خير من نسيئة هي مثله، واليقين خير من شك هو مثله لا مطلقاً. وأيضاً: الآخرة ليست شكاً بل هي يقين عند المؤمنين. هذا غرور الكفار.

وأما غرور العصاة من المؤمنين، فقولهم: أن الله كريم نرجو عفوه، و يسمون تمنيهم هذا رجاء، وأنه محمود في الدين، وان رحمة الله واسعة للمؤمنين، وانا مؤمنون موحدون. الا أنه قياس مموه، اذ الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله، وما ذكروه هو التمني غير الشيطان اسمه الى الرجاء وخدع به الجهال.

وأيضاً: ربما يتمنون بصلاح الآباء كاغترار العلو ية، الا أن آباءهم مع غاية

الورع والتقوى خائفين، فما بالهم يأمنون مع فجورهم وفسقهم، فكأنهم أكرم على الله من آبائهم فيغرهم الشيطان، و يقولون: من أحب انساناً أحب أولاده، مع أن نبينا صلى الله عليه وسلم أذن له في زيارة قبر أمه ولم يؤذن له في الاستغفار، فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها. والتقوى فرض عين على كل أحد فلا يجزى والد فيه عن ولده شيئاً، وكل ذلك غرور باطل.

وانما موضع الرجاء: من تاب من المعاصي ورجا قبول التوبه، و يتذكر ان الله كريم يقبل التوبة عن عباده؛ ومن اقتصر بالفرائض من الأعمال ورجا نعيم الآخرة وما وعد الله به الصالحين، فالواجب ملاحظة ان الله غافر الذنب شديد العقاب وأنه الغفور والمنتقم. وأيضاً: هو المبتلي عباده في الدنيا بأنواع المحن والآلام مع أنه قادر على ازالتها. فإذا كانت سنة الله تعالى على هذا المنوال فكيف يغتر به عباده، فالرجاء والخوف قائدان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور وتمن باطل.

المطلب الثاني
في أصناف المغترين

منهم: العلماء. وهم ستة أصناف:

الأول: من أحكم العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها، وأهملوا محافظة الجوارح عن المعاصي والزامها الأعمال الصالحة، وظنوا أنهم بعلمهم عند الله بمكان. وهم مغرورون، لأن العلم: أما علم مكاشفة و يسمونه علم المعرفة وعلم التصفية، وهم بمعزل عنها؛ وأما علم المعاملة الذي سموه علم الشرائع، فذلك لأجل العمل، فلو لم يعمل به لم يكن له قيمة لا عند الله ولا عند الخواص، اذ العلم بالدواء لا يزيل المرض ما لم يستعمله.

الثاني: الذين أحكموا العلم والعمل وتركوا المعاصي الا أنهم لم يفتقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة: من الكبر والحسد والرئاء وطلب الجاه ونحوها. وهؤلاء أيضاً مغرورون، اذ لا ينجو في الآخرة الا من أتى الله بقلب سليم.

الثالث: الذين علموا مذمومية هذه الأخلاق، الا أنهم لعجبهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وانما يبتلي به العوام، وربما يعتذر من كبره و يقول: ان هذا طلب عز الدين واظهار شرف العلم. وهؤلاء أيضاً مغرورون، اذ العجب من أشد الصفات المهلكات، وأيضاً يداخل السلاطين و يقول: غرضي نفع المسلمين، واذا أخذ من أموالهم يقول: مال لا مالك له وأنا امام المسلمين وعالمهم ويحل لي الأخذ بقدر الحاجة. **وفي ذلك غروران:**

أحدهما: انه لا مالك له وكيف لا أنهم يأخذون اموال المسلمين وهم، أو ورثتهم أحياء وخلطها بالحلال لا يجعله حلالاً.

وثانيها: قوله: أنا امام وكيف لا، ومن انتهى جرأته في أخذ الحرام الى هذه الرتبة فهو دجال الدين وقوام مذهب الشياطين.

الرابع: الذين أظهروا العلوم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات، وجاهدوا أنفسهم في التبري من ذمائم الأخلاق، الا أنهم مغرورون، اذ بقيت في زوايا القلب خفايا من مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس، فتراه يسهر ليله و يتعب نهاره في التصانيف حرصاً على اظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعثه الخفي طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف وكثرة الرحلة اليه من الأكناف، وهذا المسكين لو تغيرت عليه للقلوب فعساه يتشوّش عليه قلبه وتختلط أوراده ووظائفه.

الخامس: الذين اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وخصصوا علم الفقه بها، وضيعوا الأعمال الظاهرة والباطنة، ولم يمنعوا ألسنتهم عن الغيبة، و بطونهم عن الحرام، ورجليهم عن المشي الى السلاطين، ولم يزكوا قلوبهم عن الكبر والرئاء والحسد وأمثال ذلك. فهؤلاء مغرورون؛ أما من حيث العمل: فأنه اشتغل بفرض الكفاية ان صحت نيته قبل الفراغ من فرض العين، لأنه اشتغل بالفتاوى ــ وهي فرض كفاية ــ وترك فرض العين وهو اصلاح نفسه؛ واما من حيث العلم: فأنه ظن علم الفتاوى علم الدين وترك

علم كتاب الله وسنة رسوله، وربما طعن على المحدثين بأنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون.

السادس: الذين اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، واعتقدوا ان العمل لا يصح الا بالايمان، والايمان لا يصح الا بمناظراتهم ومجادلاتهم. ثم أنهم اما ضالة وهم الذين يدعون الى غير السنة، وأما محقة وهم أهل السنة والجماعة. وكلهم مغرورون.

أما الأولى: فلضلالهم ورؤيتهم الشبهة دليلاً.

وأما الثانية: فلظنهم الجدال من أفضل القربات في الدين.

وأما من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير فليس بمؤمن ولا بكامل الايمان ولا بمقرب عند الله.

إلا أنهم لا لتذاذهم بالغلبة والأفحام والانتماء الى الذب عن الدين عميت بصيرتهم، فلم يلتفتوا الى القرن الأول، حيث أرشدوا الضال وهجروا المصرين على الضلال ورأوا من الدين ترك الجدال. ثم الأكياس قالوا: انا نهينا عن الجدال ولم ننته عنه فلا ينفعنا يوم القيامة، مع أن المبتدع لا يترك بدعته بالجدال بل يزيده التعصب والخصومة.

فالأولى بنا أن نتفقد أنفسنا ونتنزه عما يبغضه الله من الصفات ونتمسك بما يحبه.

ومنهم: الوعاظ. وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب: من الخوف والرجاء والصبر والشكر والاخلاص والصدق ونظائر ذلك. وهم مغرورون بأن من تكلم بهذه الصفات يصير موصوفاً بها، وأنهم ما تبحروا في علم المحبة الا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص الا وهم مخلصون.

والمسكين يرى أنه خائف من الله وهو آمن، و يرى أنه من الراجين وهو من المفترين، و يرى أنه من المخلصين وهو من المرائين، وهم يحسنون بأنفسهم

الظنون، فإذا كشف عنهم الغطاء يفتضحون، بل تندلق أقتابهم في النار فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى ــ كما ورد به الخبر.

وانما سبب غرورهم مصادفتهم في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني؛ من حب الله والخوف منه والرضا بفعله، فظنوا أنهم اتصفوا بها، فهيهات هيهات، ولا يخلو عن القدر أحد من المؤمنين الصالحين وانما الكمال أمر آخر يعرفه أهله.

وصنف منهم عدلوا عن المنهاج الواجب الى الشطح والطامات وتلفيق كلمات مخالفة للشرع للأغراب. وصنف آخر منهم شغفوا بتسجيع الألفاظ وذكر الفراق والوصال، ليكثّر في مجلسهم التواجد والزعقات، فهؤلاء شياطين الأنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فيزيد كلامهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا، لا سيما اذا تزين بالثياب والخيول. وصنف منهم حفظوا كلام الزهاد في ذم الدنيا، و يؤدونها في المساجد والمنابر، و يظنون أنهم قد أفلحوا بهذا وصاروا آمنين من عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره و باطنه عن الآثام.

وصنف منهم استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث وطلب الأسانيد الغريبة العالية، ولهم غرور من وجوه:

أحدها: أنهم حملة الأسفار يظنون ان ذلك يكفيهم.

وثانيها: اذا لم يفهموها لم يعملوا بها.

وثالثها: أنهم يتركون ما هو فرض عين وهو معالجة القلب.

ورابعها: انهم لا يراعون شروط السماع أيضاً: وهي السماع، ثم التفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر والبيان. وهم يقتصرون على السماع، و يقصرون في السماع أيضاً، اذ ربما يحضر الصبي والشيخ، والصبي يلعب والشيخ ينام، والبالغ الحاضر ربما يغفل ولا يصغي، ثم يكتب الشيخ اسم الكل في الأجازة، و يتصدى كل منهم لرواية كل ما قاله الشيخ ولم يسمع بعضه، الا أن للمحدثين في ذلك جاهاً فخاف المساكين ان اشترطوا ذلك أن يقل جمعهم.

ومنهم: المشتغلون باللغة وغريبها والشعر والنحو، وأغتروا به وزعموا انهم علماء الأمة، اذ قوام الكتاب والسنة بما ذكر، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وغرائب اللغة. وفي حكمهم من ضيع العمر في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه، لأنهم اتخذوا القشر مقصوداً فأغتروا به.

ومنهم: المغرورون بوضع الحيل في الأحكام الشرعية في دفع الحقوق وتأويل الألفاظ المبهمة، واغتروا بالظواهر واخطأوا فيها، وهذا غرور لا يجدي في الآخرة يوم الفصل والقضاء.

ومنهم: من أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى غلبت عليهم الوسوسة في الطهارة وفي نية الصلاة، ويظنون انهم على خير عند ربهم. وربما يغلب عليه الوسوسة في اخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها؛ كالفرق بين الضاد والظاء، والاحتياط في التشديدات حتى لا يفكر في الصلاة الا فيما ذكر. وربما يوسوس أحدهم في ختم القرآن في اليوم والليلة مرة، فألسنتهم تجري وقلوبهم في أودية الأماني. وهو مغرور به، اذ يظن أن المقصود من التلاوة الهمهمة بالقرآن، مع الغفلة عن الانزجار بزواجره والاتعاظ بمواعظه والاعتبار بمواضع الأعتبار فيه الى غير ذلك. وربما يكون له صوت طيب ويلتذ به وهو يظن بغروره أنه يلتذ بمناجاة الله تعالى وسماع كلامه.

ومنهم: المغترون بصوم الدهر، أو صوم الأيام الشريفة، وربما يصلي في اليوم والليلة مائة ركعة أو ألف ركعة، ويفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل ونحو ذلك، مع أن ألسنتهم في الغيبة، وخواطرهم في الرئاء، وأفطارهم من الحرام، وذلك غاية الغرور ومكيدة الشيطان.

ومنهم: المغترون بالحج: مع مال حرام، ومع الرفث والخصام وترك الصلاة والصيام، ومع عدم دفع المظالم واسترضاء الوالدين، وأمثال ذلك. وربما يغترون بمجاورة مكة مع تلوث ظاهرهم وباطنهم بالقبائح، وقلبه معلق ببلاده ولكنه يختاره ليقال انه قد جاور بمكة سنين كثيرة.

ومنهم: المغترون بالحسبة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يأمر الناس بالبر و ينسى نفسه، و يطلب الرياسة و يغلظ في القول و ينكر من خالفه للرياسة والعز. وربما يغتر بعضهم بأن يقال له: مؤذن المسجد الفلاني، أو امام الجامع الفلاني.

ومنهم: من زهد في المال و يسكن في المساجد ليظن أنه أدرك رتبة الزهاد، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه: أما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد، وترك المال وهو أهون وأخذ أطم الأمرين، أعني: الجاه، حتى أنه ربما يتطاول على الأغنياء و ينظر اليهم بعين الاستحقار، و يرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، و يعجب بعمله. وربما لا يقبل المال خوفاً من أن يقال بطل زهده. وكل ذلك غرور وخدعة من الشيطان.

ومنهم: متصوفة أهل الزمان، اغتروا بالزي والهيئة والمنطق من الألفاظ والاصطلاحات، وفي أحوالهم: من الطهارة والصلاة والرقص والسماع، وادخال الرأس في الجيب، وخفض الصوت وتنفس الصعداء، الى غير ذلك، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة ومراقبة القلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، بل تراهم يتكالبون على الحرام والشبهات، و يتحاسدون على النقير والقطمير. وغرور هؤلاء أظهر من أن يخفى.

و بعض منهم من يغير الزي: لا الى الخشن ولا الى الخز والابريسم، بل الى المرقعات النفسية والسجادات المصبوغة، ولباس هو أرفع قيمة من الخز والابريسم. وهؤلاء أشد شراً من الأولين، اذ يظهرون أن التصوف يجتمع مع شهوات النفس، وربما يقتدى بهم العوام فيعتدي شرهم اليهم.

ومنهم: من يدعي علم المعرفة ومشاهد الحق والوصول الى القرب والملازمة في عين الشهود ولا يدري هذه الأمور الا بالأسامي، وهو ينظر الى العباد بعين الأزراء، و يقول للعباد: انهم أجراء متعوبون، وللعلماء: أنهم بالعلم لمحجوبون، حتى أن منهم من وقع في الاباحة وطوى بساط الشرع، و يقولون: أعمال الجوارح وسيلة الى محبة الله تعالى، ونحن والهون في حبه

عاكفون في حضرة الربوبية فلا حاجة بنا اليها. وهؤلاء مغرورون حرموا الاغتنام بخدمة شيخ صالح عالم فوقعوا في حزب الشيطان، وأمثال هؤلاء كثيرة.

ثم أن بعضاً من هؤلاء تجاوزوا حدهم، وأحسنوا الأعمال وطلبوا الحلال واشتغلوا بتفقد القلب، وصارت تدعى المقامات: من الزهد والتوكل والرضا والحب، من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها. وان منهم من يخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر، فيدعي حب الله قبل معرفته.

ومنهم: من يخوض في البراري من غير زاد لتصحيح التوكل وذلك بدعة، اذ السلف كانوا يأخذون الزاد و يتوكلون. و بعض هؤلاء ضيقوا على أنفسهم في أمر القوت وأهملوا تفقد القلب والجوارح.

وفرقة أخرى ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة، فتصدوا لخدمة الصوفية، فجمعوا قوماً وتكفلوا بخدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال حتى من السلاطين.

وأخرى منهم اشتغلوا بتهذيب الأخلاق والفحص عن عيوب النفس وآفاتها، و يقولون: هذه عيب، والغفلة عن كونه عيباً عيب، والالتفات الى كونه عيباً عيب، و يشتغلون بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها. ومثاله: من فاته الحج لأشتغاله بعوائقه وآفاته.

وفرقة تجاوزوا عن حد هؤلاء، انفتح لهم باب المعرفة فتعجبوا منها وفرحوا بها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات اليها والتفكر في كيفية انفتاح بابها عليهم، فيحرم بذلك عن المقصد.

وفرقة أخرى جاوزوا حد هؤلاء حتى قاربوا أو وصلوا الى حد القربة، فظنوا أنهم وصلوا الى الله عز وجل، فوقفوا وغلطوا، فان لله سبعين حجاباً من نور لا يصل السالك الى واحد منها الا و يظن أنه وصل الى المقصد وهذا غرور عظيم.

ومنهم المغترون من أرباب الأموال؛ كأن بعضاً منهم يبنون المساجد والرباطات ليتخلد ذكرهم. **الا أن لهم غرورين:**

أحدهما: بناؤهم من المال الحرام أو الشبهات.

وثانيها: أنهم يظنون الأخلاص وليس كذلك، اذ لا يرضى بانفاق دينار اذا لم يذكر اسمه، وربما ينفق الحلال لكن يطلب الثناء والرئاء، ولذلك يصرف الى المساجد لأن بانيها مذكور عند الناس. وأيضاً يزخرفها و يزينها بالنقوش الشاغلة لقلوب المصلين، وهو مع ذلك يغتر به و يرى أنه من الخيرات، و يرى المنكر معروفاً.

وان بعضاً منهم ينفقون الأموال على الفقير لكن في المحافل ليذكر وليشكر به الناس، وبعض من الأغنياء يمسكون الأموال عن مصارفها، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها الى نفقة، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، ولو قلعوا صفة البخل عنهم وهم اليه أحوج لكان خيراً لهم. ومن قبائحهم: الحيل في الزكاة والتوسل بها الى الأغراض الفاسدة.

ومنهم: غرور العوام من الأغنياء والفقراء بحضورهم مجالس الذكر وأنه يغنيهم و يكفيهم من غير عمل واتعاظ، مريض يحضر مجالس الأطباء ولا يتداوى، وهذا أيضاً من الغرور.

المطلب الثالث

اعلم أن مداخل الغرور اذا عرفتها فلعلك تستحيل الخلاص عنها وتحكم باستحاله، لكن لا يخفى عليك أن الانسان اذا فترت همته في شيء أظهر اليأس منه، واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وأما اذا صح منه الجد وقوي العزم اهتدى بالحيل الى مطلوبه، حتى أنه يقتنص الوحوش المنطلقة في البراري، و يستخرج الحيتان من البحار والذهب والفضة من تحت الجبال، و يستسخر الفيلة، و يعبث بالأفاعي و يستخرج منها الترياق، و يعرف مقادير الكواكب

وعرضها وطولها وهو على الأرض، الى غير ذلك، فلا يصعب عليه اصلاح قلبه ان كان همه هذا الهم فقط.

واذا عرفت هذا، فأعلم: أن اسباب الخلاص من الغرور ثلاثة:

أحدها: العقل. وهو الفطرة الغريزية وصفاؤه، وهذا نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة، فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها. والعقل أصل كل خير ولا يرجى بدونه الخير أصلاً، شهدت بذلك الأخبار والآثار.

الثاني: المعرفة؛ أعني: معرفة أربعة أمور: يعرف نفسه بالعبودية والذل، واجنبيا عن هذه الشهوات، وانما يوافق طبعه معرفة الله والنظر الى وجهه الكريم، ويعرف ربه ولا يمكن ذلك الا بمعرفة نفسه. ولقد أسلفنا ما يبعثك الى هذه. ويعرف الدنيا والآخرة بما في كتاب ذم الدنيا وفي كتاب ذكر الموت.

ثم أن العبد ــ بعد ما وقع عن نفسه شوائب الغرور، بأن يهذب أخلاقه، وراقب القلب حتى صفا عن جميع الكدورات، واستوى على الصراط المستقيم، وضوت الدنيا في عينه، ولم يبق الا هم واحد وهو الله تعالى ــ ربما يخاف عليه أن يأتيه الشيطان من جهة الدين، ويدعوه الى الرحمة الى خلق الله، فيراهم في دينهم سكارى وفي أمورهم حيارى، صما عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون، فقدوا مع ذلك الطبيب وأشرفوا على العطب ــ انبعث من ذاته الاشتغال بنصحهم، ثم يدعوه الى الرياسة دعاء خفياً أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد.

فلم يزل ذلك دأبه حتى دعاه الى التصنع والتزين بتحسين الألفاظ والنغمات، والتصنع في الزي والهيئة، حتى أقبل الناس يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه مثل الملوك بل أزيد، اذا رأوا شافياً لدائهم من غير طمع، فصار أحب اليهم من آبائهم وأمهاتهم، وصاروا له حولا كالخدم والعبيد، وحكموه على السلاطين، فعند ذلك ارتاحت نفسه وذاقت لذة يا لها من لذة، حتى يغضب على من يرد عليه خطأه، ثم يخيل اليه الشيطان ان ذلك غضب لله تعالى وربما

يقع في الوقيعة فيمن رد عليه، وهكذا يسوقه الشيطان و يوقعه فيما هرب عنه قليلاً قليلاً وهو لا يشعر.

وأما علامة صدقه في النصح للناس: أن يود أن يوجد أحد يهتدون به، ولا يطمع في ثنائهم وأموالهم، واستوى عنده مدحهم وذمهم اذ لا ينفعه مدحهم اذا لم يحمد الله ولا يضره ذمهم اذا اقترن به حمد الله، و ينظر الى الناس كما ينظر الى السادات من حيث يرى كلهم خيراً من نفسه، وكما ينظر الى البهائم من حيث قطع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم.

فإن قلت: من بلغ هذه الرتبة في الخلق أعز من الكبريت الأحمر، فإذا منع الناس عن الوعظ لأنسد باب النصح؛ قلت: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذم باب الدنيا ولم يمتنع الناس عنها لشدة الدنيا في قلوبهم محبة وميلاً، وكذا رياسة الوعظ ليست أمراً يتركها الناس بهذا القدر من التقبيح، فان الله عز وجل يصلح خلقاً كثيراً بافساد شخص واحد وأشخاص، وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر و بأقوام لا خلاق لهم.

فان قلت: اذا فعل ما ذكرت من الأمور، وترك النصح أو فعله، وراعى طريق الصدق والأخلاص يبقى بين يديه أخطار الاغترار، قلت: نعم، قول الشيطان: قد أعجزتني وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء، وما أعظم عند الله محلك اذ قواك على قهري؛ فعند ذلك يعجب بنفسه من فراره من الغرور كله، والعجب أعظم من كل ذنب.

فإن قلت: فإذا خلص من العجب المذكور فأي شيء يخاف عليه؟ قلت: يخاف عليه من الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل و يأمن مكر الله، والأمن من مكره تعالى خسران عظيم، بل اللائق أن يرى الكل من فضل الله، ولا يأمن من مكر الله، ولا يغفل عن خطر الخاتمة، وهذا خطر لا محيص عنه، وخوف لا نجاة منه الا بعد مجاوزة الصراط، فنسأل الله حسن الخاتمة فأن الأمور بخواتمها والسلام.

الشعبة الرابعة

في ربع المنجيات

وفيها عشرة أصول أيضاً

الأصل الأول

في التوبة

وفيه مطالب:

المطلب الأول

في التوبة ووجوبها

أعلم: أن التوبة: مجموع أمور ثلاثة:

أحدها: معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب.

وثانيها: الحال؛ وذلك معرفة فوات المحبوب تورث ألماً للقلب، والألم على الماضي يسمى ندماً، ثم ينبعث منه حالة أخرى تسمى ارادة وقصداً.

وثالثها: الفعل؛ وذلك لأن الندم المثمر للإرادة على الفعل: أما في الحال فبترك الذنب، أو بالأستقبال فبالعزم على الترك، أو بالماضي فبتلافي ما فات.

ثم هذه الأمور الثلاثة؛ أعني المعرفة والندم والعزم تسمى توبة. ثم ما ذكر في حد التوبة أكثرها قاصر عن الاشارة الى هذه الأمور، فالحد الجامع ما يجمع هذه الأمور.

ثم فضيلة التوبة لا تخفى على أحد، وما ذكر في فضلها من الأخبار والآثار فأكثر من أن يحصى وأشهر من أن يخفى.

وأما كيفية وجوبها: فهي أنه لا مبعد عن الله الا اتباع الشهوات، ولا مقرب اليه تعالى الا انقطاع عن الذنوب، ولا يمكن الانقطاع عنه الا بالمعرفة والندم والعزم المعبر عن مجموعها بالتوبة.

فإن قلت: مرجع التوبة الى الألم وهو لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؛ قلت: سبب الألم الحاصل من الندم، وهو المعرفة التي لها أسباب اختيارية.

فان قلت: أليس للعبد اختيار في الفعل والترك؛ قلت: نعم للعبد اختيار، مع أن الكل مخلوق له تعالى، وذلك لأن الله تعالى لا يخلق حركة اليد بكتابة ما لم يخلق فيها صفة القدرة والحياة والارادة، والارادة المجزومة متفرعة على الداعية، وهي على العلم، وله أيضاً أسباب أخر مترتبة، وكل هذا من اختراع الله تعالى. ولكن بعض هذه شرط للبعض، والعبد يجري تحت هذه الحوادث المترتبة في قضاء الله الذي هو واحد كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير، إنما ظهورها على التفصيل مقدرة بقدر.

فإذا ظهرت من باطن الملكوت الأمور المذكورة على جسم عبد مسخر تحت قهر لتدبير سبق، أهل عالم الملك والشهادة الى أن العبد قد تحرك، فحينئذ ينادي من وراء سرادقات الملكوت أيها العبد: «ما رميت اذ رميت ولكن الله رمى». وعند هذا تحير عقولهم. فمن واحد قال بالجبر، ومن آخر قال بالأختراع، ومن متوسط بينهما مائل الى الكسب. الا أنهم لو نظروا الى عالم الغيب والملكوت، لظهر لهم أن كل واحد من الطرائق المذكورة صادق في مذهبه الا أنه لم يحط علمه بجوانبه، الا أن القاصرين يفهمون من هذا الكلام صدق الأقوال المتضادة و يقولون أنه باطل جزماً. الا أن تحقيق هذا المقام يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها ولسنا نتكلم فيها ههنا.

المطلب الثاني

في وجوب التوبة على الفور

واعلم: أن الإيمان أما بعلوم المكاشفة؛ كمعرفة الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله، أو بعلوم المعاملة؛ كمعرفة الطاعات والمعاصي، فمن فقد هذا الايمان ربما ينفي عنه اسم الايمان، كقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني مؤمن»؛ أي: ينفي عنه الايمان بكون الزنا مبعداً عن الله تعالى، والا لما فعله العاقل، لا أن الايمان بعلوم المكاشفة منفي عنه. فالعاصي بالضرورة ناقص الايمان، بمعنى عدم التصديق بعلوم المعاملة، والا لما فعل ذلك الفعل، ومع ذلك فهو قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه عند مقدمة قدوم ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة.

واذا كانت المعاصي بمنزلة السموم المهلكة وكان العاقل يتجنبها في الحال، كذلك يجب على العاقل أن يتجنب عن المعاصي على الفور، بل ذلك أولى لأنها هلاك الأبد. ولا يخفى ان وجود الأصل وان لم يتوقف على وجود الفرع لكن ربما يتوقف بقاؤه عليه، فلا ينبغي الأهمال شأن الأعمال أيضاً.

ثم أن عموم الناس محتاجون الى التوبة، اذ الشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، وبينهما قتال دائماً، الا أن قوة جنود العقل بعد الأربعين، والى زمان قوته تقوى جنود الشياطين.

واذا قوي جنود العقل يكون أول عملهم قمع الجنود الشيطانية، وليس ذلك الا بالتوبة الواجبة لكل آدمي نبياً كان أو غبياً، بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الأنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الالهية التي لا مطمع في تبديلها. ولما لم يخل كل انسان عن الخطأ والنسيان في كل وقت وآن وجبت عليه المواظبة على التوبة في كل زمان، اذ لا يتم حاله بعدم الذنب في الاستقبال بل عليه أن يزيل آثار المعاصي في الزمان الماضي، فليس ذلك الا بالمواظبة على التوبة.

وأما وجوبها: فليس بمعنى الوجوب الشرعي ــ أي: الواجب في فتوى الشرع، بل الوصول الى المقام المحمود في جوار رب العالمين واجب لكل عاقل بحكم التقوى والتوبة، فما لا يتم ذلك الا به فيكون واجباً؛ نظير ذلك وجوب الطهارة لمن يريد صلاة التطوع فأنه لا يوصل اليها الا بها وأما من رضي بالنقصان والحرمان فلا يجب عليه لأجلها.

فمن يريد التوبة فعليه بأمرين: أحدهما أن يعجل حتى لا تصير المعاصي رينا وطبعاً لا يقبل المحو؛ والثاني: يعاجله قبل مبادرة الموت أو المرض.

المطلب الثالث

في أن التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة لا محالة

لا يشك فيه أرباب البصائر، لأنهم علموا بنور البصيرة ان كل قلب خلق سليماً ثم أغبر بالذنوب، وعلموا أيضاً ان ماء الدموع وحرقة الندم يزيل وسخ القلب، وان كل قلب طاهر زكي مقبول لا محالة. فمن توهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن توهم ان الشمس تطلع والظلام لا يزول، وهذا كلام مقبول عند ذوي البصائر مع ما يعضده من الآيات والأخبار والآثار ما بلغت كلها حد الشهرة، ولكن ليس هذا الوجوب ما يقوله المعتزلة من الوجوب على الله، بل ما ذكرناه وجوب بموجب ما يقوله المعتزلة من الوجوب على الله، بل ما ذكرناه وجوب بموجب ارادته ومقتضى تقديره. وأما الشك في قبول التوبة فلا ينافي وجوب القبول لأن ذلك شك في استجماعه الشرائط.

المطلب الرابع

في أقسام الذنوب

وتنحصر أصولها في أربع صفات: ربوبية وشيطانية وبهيمية وسبعية، وقد مر تفصيلها. وأيضاً: الذنوب أما بين العبد وبين الله، أو بين العباد.

والأول: أما شرك أو غيره. والشرك لا يغفر، وكذا ما بين العباد. وأما غيره فيرجى أن يغفر. وأيضاً: الذنوب أما كبائر أو صغائر، واختلف في

حدودها وعدد الكبائر اختلافاً شديداً. والحق ان ذلك مما لا يعلم الا من جهة الشرع ولم يرد فيه حد الكبيرة وعددها فلا مطمع في معرفتها. وربما قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها، سيما اذا لم يتعلق به حكم الدنيا بل يعلم حكمها في الأخرى، فيجوز أن يتطرق اليه الابهام ـــ الا حدوداً عينها بأساميها: من الزنا والسرقة وشرب الخمر ونحو ذلك من الحدود.

المطلب الخامس

في كيفية توزع الدركات والدرجات في الآخرة الى السيئات والحسنات في الدنيا

واعلم: أن الدنيا من عالم الملك والشهادة، والآخرة من عالم الملكوت والغيب. وعالم الملك نوم بالاضافة الى عالم الملكوت، ولذلك لم يتكلم الأنبياء مع الخلق الا بضرب الأمثال اذ النائم لا ينكشف له أمر الا بمثل. ومن التكلم بطريق المثل: أصابع الرحمن وصورته وأمثال ذلك، فيوصلون المعاني الى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفاً لعباده وتيسيراً لأدراكه.

واذا عرفت هذا. فاعلم: أن تعريف توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن الا بضرب مثال، وذلك ان الملك اذا استولى على اقليم يقتل من يجحد في أصل ملكه ويخلي من لا يجحده، ولا يخدم ويخلع من ينصره ويخدمه. والنعم أيضاً متفاوتة بتفاوت درجات خدمتهم. فكذلك الناس في الآخرة: أما هالكون أو معذبون، أما سنة أو ألف سنة الى سبعة آلاف سنة، وذلك آخر من يخرج من النار، أو ناجون منها أو فائزون، أما الى جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس، **وهذه أربع رتب:**

أولها: الهالكون، وهم الآيسون من رحمة الله؛ كالجاحدين والمكذبين بالله ورسوله وكتبه والمتجردين للدنيا. وأعظم العذاب عند أهل البصائر نار الحجاب من الله تعالى، وهي أحر مِن نار الجحيم. ولا بعد في ذلك، اذ الصبي ربما يعد البعد عن السلطان أهون من البعد عن الكرة والصولجان.

وثانيتها: رتبة المعذبين، وهم الموحدون القاصرون. فلهم ناران: نار الفراق عن الكمال الذي قصروا عنه، ونار جهنم. و يتفاوت لهم العذاب شدة وخفة وطولاً وقصراً، بحسب قوة الايمان وضعفه، وكثرة اتباع الهوى وقلته. وأضعف درجات العذاب: المناقشة في الحساب، وفوقه الورود على النار كبرق خاطف، ثم اللحظة، الى أن يبلغ سبعة آلاف سنة، وههنا درجات لا تتناهى. ولا يخرج من النار الا موحد؛ وهو من لا يرى الأمور كلها الا من الله. وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق، اذ لا يرى الوسائط وانما يرى مسبب الأسباب. وهذا التوحيد له مراتب أمثال الجبال والمثقال والخردلة والذرة.

وثالثتها: رتبة الناجين من العذاب فقط؛ كالصبيان والمجانين والبله، ومن ليس لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية، فهم ينزلون في منزلة بين المنزلتين وهي الأعراف. الا أن كون الصبيان من أهلها شك، ولا يعلم يقيناً الا من مشكاة النبوة، والأخبار فيهم متعارضة.

ورابعتها: الفائزون، وهم المقربون السابقون. ولا يمكن التعبير عن حالهم ومقامهم؛ قال تعالى: «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين»؛ وقوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وهم لا يقنعون بالحور والقصور واللبن والعسل ونحو ذلك، ولا يظلبون الا لذة النظر الى وجهه الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات.

المطلب السادس
فيما تعظم من الصغائر

منها: الاصرار والمواظبة؛ كالقطرة تؤثر في الحجر ان دام ولا يؤثر السيل، كما أن خير الأعمال أدومها وان قل. وأيضاً: الكبائر قلما تقع من غير سوابق ومقدمات من الصغائر؛ مثلاً: الزاني يقدم الزنا على المراودة والقبلة والمس ونحوها، ولو وقعت الكبيرة بغتة لربما يرجى عفوه اذ هو حينئذ بالخطأ أشبه.

ومنها: أن يستصغر الذنب، اذ الذنب كلما استعظم أصغر عند الله وكلما

استصغر عظم عند الله، لأن استعظامه لنفور القلب واستصغاره لألف القلب به.

ومنها: السرور بالصغيرة، وذلك كثير؛ كقول بعضهم: أما رأيتني كيف مزقت عرضه وكيف فضحته، ونحو ذلك.

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله له، ولا يدري أنه يمهل مقتاً ليزداد اثماً، فيأمن مكر الله ويجهل مكامن الغرور بالله.

ومنها: أن يظهره بأن يذكره بعد اتيانه، أو يأتيه بمشهد غيره، فان ذلك جناية على ستر الله الذي أسبله عليه، وتحريك للشر فيمن أسمعه أو أشهده، سيما اذا رغب الغير فيه.

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به؛ كلبس العالم الابريسم ودخوله على السلاطين، واشتغاله بعلوم يقصد بها الجاه؛ كالجدل والمناظرة، فإذا ذنب العالم ضعف، كما أن عبادتهم ضعف بسبب اقتداء الغير بهم.

المطلب السابع
في تمام التوبة وشروطها وآدابها

أما العلم: فمن أسباب التوبة وستعرفه.

وأما الندم: فعلامته طول الحسرة والحزن والدمع الدائم، وان تتمكن مرارة الذنب من قلبه بدلاً عن حلاوتها؛ كمن علم ان عسلاً فيه سم كيف يكرهه بعد أن كان مشتهي عنده بل يكره كل عسل بعد ذلك، فكذا التائب يدوم ندمه على كل ذنب.

وأما القصد الذي ينبعث منه فيوجب ترك كل محظور وهو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال، و يتدارك ما فرط بالمستقبل، وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت.

وشرط صحته في الماضي: ان يتأمل في كل طاعة تركها أو قصر فيها

فيقضيها في الحال، وان شك في قدره فيأخذ بغالب ظنه، وكذا يتأمل في كل معصية فعلها في ساعات عمره فيتوب عنها بالندم والتحسر عليها، ويحسب عددها و يعمل مكان كل سيئة حسنة لتمحوها، لكن حسنة من جنسها وتضادها. وكذا في مظالم العباد يفعل في مكان ظلم منها حسنة لصاحبها؛ كالاعتاق مكان القتل، والغيبة بالثناء له ونحو ذلك.

وأما القصاص: وحد القذف فيعمل فيهما بحكومة عدل، وان كان مظلمة مال يرده على صاحبه، وان لم يمكن وجدانه يستكثر من الحسنات حتى يقتص منه، أو يتصدق مقدار ذلك المال. و يستحل من مظالم العرض صاحبه، وان لم يجد فيكثر من الحسنات لتكون عوضاً، ومن وجده فليذكر خصوص جنايته ولا يبهم لأن الأبهام لا يكفي، وان لم يقدر على بيانه؛ كزناه بجاريته أو أهله، فليستحله مبهماً ثم يجبر بالحسنات.

وأما العزم بأن لا يعود أصلاً الى الذنوب ولا الى أمثالها، ولا يتم ذلك الا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم واحراز قوت حلال.

وأما الندم والتوبة على بعض الذنوب ــ وان أفاد علة الذنوب ــ لكن لا يبلغه رتبة التائبين ما لم يتب عن جميع الذنوب.

أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فممكن ذلك، اذ الصغائر أقرب الى العفو، وكذا يمكن التوبة عن بعض الكبار لغلظتها بالنسبة الى آخر وقد يندم على صغيرة أو صغائر دون الكبائر لغلبة شهوته هناك على خوف من الله تعالى.

فان قلت: نسيان التائب ذنبه أفضل أم المجاهدة فيه، أو سكون نفسه عن النزوع اليه أفضل أم المجاهدة فيه؟ قلت: اختلف فيه، فمنهم من رجح الأولين ومنهم من رجح الآخرين. الا أن الحق أن السكون والنسيان ان كانا من التأدب بأدب الشرع فهما أفضل، وان كانا من الطبع فالمجاهدة أفضل.

المطلب الثامن
في طبقات التائبين

وهي أربع:

الأولى: الذين يستقيمون على التوبة الى آخر العمر، ولا تحدث نفسه بالعود الى ذنوبه، الا الزلات التي لا ينفك عنها البشر عادة سوى الأنبياء ومن يقرب من رتبتهم. وهذه هي التوبة النصوح، وهذه النفس هي النفس المطمئنة. ولهؤلاء أيضاً رتب: من حيث النزوع الى الشهوات كثرة وقلة، وطول زمان وقصره.

الثانية: الذين سلكوا طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش كلها الا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وصمد وتجديد قصد، بل كلما أقدم عليها لام نفسه وجدد عزمه على أسباب الاحتراز. وهذه النفس اللوامة. وهذه أيضاً رتبة عالية وان كانت دون الأولى وهي أغلب أحوال التائبين.

الثالثة: أن يستمر على الاستقامة مدة ثم تختطفه الشهوة المعينة لعجزه عن قهرها، إلا أنه مواظب على الطاعات ومجتنب عن الشهوات الباقية، وهو مع ذلك يندم على فعلها ويجاهد في قهر نفسها، لكنه تسوف نفسه توبته مرة بعد أخرى و يوماً بعد يوم. وهذه تسمى النفس المسولة وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليه. وعاقبته مخطرة لأحتمال أن يخطف بالتسويف قبل التوبة. و يقع أمره في المشيئة: فإن تداركه الله بفضله وجبره بكسره التحق بالسابقين، وان غلبت شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل. على أن كل نفس فهو خاتمة اذ يمكن اتصال الموت، فليراقب ذلك وليداركه بالتوبة والا دامت الحسرات.

الرابعة: أن يستقيم مدة ثم يعود الى مقارفة الذنوب، من غير أن يحدث

نفسه بالتوبة، ومن غير ان يتأسف على فعله. وهذه هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير، ويخاف عليها سوء الخاتمة. وأمره في مشيئة الله: فان ختم له بالسوء يشق شقاء الأ بد، وان ختم له بالحسنى وهو التوحيد يرجى له الخلاص ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه.

إلا أن العجب كل العجب من يقول: الله كريم، و يتقاعد عن كسب فضائل الأعمال؛ ثم اذا قيل: الله كريم فأقعد عن كسب المال، يحمق من يقوله و يقول: سنة الله تعالى أن يرزق بالكسب، ولا يدري هذا الأحمق الغافل أن رب الدنيا والآخرة واحد وسنته فيهما واحدة، فما باله يغتر بكرمه في الآخرة دون الدنيا، فما هذا الا انتكاس على أم الرأس، وفي ظلمات الجهل انغماس، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والارتياب الى سوء المنقلب وعسر المآب.

المطلب التاسع

في تدارك التائب إذا جرى عليه ذنب أما عن قصد أو باتفاق

واعلم: أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنه تضادها، فان لم تساعده نفسه على العزم على الترك فقد فاته أحد الواجبين، فلا ينبغي أن يفوته الواجب الآخر وهو محوها بالحسنة، ليكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وتلك الحسنات أما بالقلب: فالتضرع الى الله تعالى وطلب العفو والمغفرة، و يتذلل تذلل العبد الآبق بحيث تظهر ذلته لسائر العباد؛ وأما باللسان: وهو الاعتراف بالظلم والاستغفار، لكن لا باللسان فقط فأنه توبة الكذابين بل بالقلب، وقد مر في كتاب الدعوات كيفية الاستغفار؛ وأما بالجوارح: فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات.

وذكر في الآثار ثمانية أعمال يرجى بها العفو؛ أربعة للقلب: وهي التوبة والعزم على الترك، وحب الاقلاع عنه، وخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له؛ وأربعة من أعمال الجوارح: وهي أن يصلي عقب الذنب ركعتين، يستغفر الله بعده سبعين مرة و يقول: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم يتصدق

بصدقة، ثم يصوم يوماً. وفي بعض الآثار يسبغ الوضوء و يدخل المسجد و يصلي ركعتين. وفي بعض الأخبار أربع ركعات.

المطلب العاشر

في طريق حل الاصرار على الذنوب من القلب

وله علاجان:

أحدهما: العلم بأن الذنوب مضر يجب تركها. وذلك أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر انذارات القرآن والأخبار للعصاة.

الثاني: حكايات الأنبياء والسلف وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم.

الثالث: خوف تعجيل العقوبة في الدنيا ــ ونفوس العوام أكثر انزجاراً بعقوبة الدنيا ــ حتى أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وكذلك الفقر والمرض.

الرابع: أن ينهي كل صنف من الذنب بنوع من العقوبة، من العلماء أطباء الأرواح، فعليهم أن يخوفوا كل ذنب بنوع عقوبة، و يوصيهم بنوع وصية تكون سبباً لزوالها.

ثانيها: الصبر. وذلك لأن الذنب أما بسبب الغفلة وطريق علاجه العلم وقد ذكرناه، أو بسبب غلبة الشهوة وطريق علاجه الصبر وقد ذكرناه في رياضة النفس. فترك الذنب بالصبر، وهو بمعرفة الخوف، والخوف لا يحصل إلا بالعلم بضرر الذنب، فأصل الكل العلم. **واعلم أن سبب وقوع الذنب أمور:**

أحداها: إن العقاب الموعود غيب وليس بحاضر. والنفس تأثرها بالحاضر قوي والموعود ضعيف.

الثاني: إن الشهوات لذاتها ناجزة، والنزوع عن لذة العاجل لخوف الآجل شديد على النفس.

الثالث: أنه ما من مسلم مذنب إلا وهو عازم على التوبة غالباً، إلا أن النفس تسوف بما يغلب على طبعه من طول الأمل.

الرابع: أنه ما من مؤمن إلا وهو معتقد أن الذنب لا يوجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب و ينتظر العفو اتكالا على فضل الله تعالى.

وهناك قسم خاص لكنه كفر وهو الشك في صدق الرسل.

إذا عرفت هذه الأسباب، فاعلم: أن علاج السبب الأول بأن يلاحظ ان كل ما هو آت آت، وأن الموت أقرب من شراك نعله.

وعلاج التسويف التذكر بأن أكثر صياح أهل النار من التسويف، ولعله لا يبقى الى الغد وان بقي لعله لا يقدر اذ عجزه في الحال لغلبة الشهوة، والشهوة لا تفارقه غداً بل تتأكد بالاعتياد، وان الأيام متشابهة في مشقة ترك الشهوات.

وأما علاج الانتظار الى رحمة الله تعالى ان كان بعد العمل فحسن، وان كان بلا عمل فحمق، وهو كمن لا يلقى البذر ينتظر الزرع، وهذا وان كان ممكناً لكنه لكونه خرقا للعادة يعد حمقاً وخرقاً، اذ الاعتماد على أمر ممكن خارق للعادة في مثل هذا الأمر الخطير العظيم الذي لا يمكن تداركه ثانياً مما لا يقبله العقلاء.

وأما علاج الخامس وهو الكفر فما عرفته من أسباب صدق الرسل، ولكن هذا أمر الزامي يكفي في دفعه، وهو أن رجلاً قد جربت كذبه مراراً اذا أخبرك بأن هذا الطعام قد ولغ فيه الحية وألقى فيه سمها، فلعلك تقول: هذا الرجل وان كان كاذباً أكثرياً لكن الكذوب قد يصدق، وعلى الجملة: فالشك حاصل في خبره هذا، واني ان تركت هذا الطعام ليس لي الا الصبر عن شهوة الطعام، وان أكلت ذلك فالهلاك محتمل، فالفرار عن الشهوة الحقيرة لأجل الهلاك الموهوم أحسن. ثم انك كيف لا تذهب هذا التعليل في أخبار الأنبياء لم تجرب كذبهم بل جربت صدقهم مراراً، لكن لا تدعك عصبيتك الى الأذعان بالحق والله يهدي من يشاء و يضل من يشاءو أنه هو القادر على كل شيء. قال علي بن أبي طالب في بعض من كان شاكاً: أن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً، والا فقد تخلصنا وهلكت.

وقال أبو العلاء المعري

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تحشر الموتى فقلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما

ثم اعلم: ان ما ذكر من الأمور وان كانت جلية لكن النفس لا تتفكر فيها لأمرين:

أحدهما: ان فكرها يؤلم القلب وفكر الدنيا لها فتميل اليه.

وثانيها: ان هذا الفكر يمنعه عن لذائذ الدنيا اذ الانسان لا يخلو عن شهوات الدنيا ساعة أصلاً.

فعلاج الأمر الأول فأنت تتألم من ملاحظته، فكيف الألم اذا وقع وأنت عاجز عن تداركه.

والأمر الثاني: أن يتذكر عظم ثواب الآخرة، وحقارة لذات الدنيا وسرعة زوالها، وترك العظيم والباقي لأجل الحقير والزائل لا يصدر عن عاقل.

الأصل الثاني
في الصبر والشكر

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في فضيلة الصبر وحقيقته

أما فضيلته: فقد وردت في الآيات والأخبار والآثار بحيث لا يحتاج الى ذكرها.

وأما حقيقته ومعناه: فهو مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين. وذلك معرفة تتبعها حالة ثم تثمر كلاهما المسمى بالصبر عملاً.

وتفصيل ذلك: أن للبهائم شهوة بلا عقل، وللملائكة عقل بلا شهوة، وللانسان كلاهما معاً، والصبر مقاومة العقل الشهوة فهو مخصوص بالانسان دون البهائم لنقصانها، ودون الملائكة لكمالهم، فالصبر ثبات القوة المضادة للشهوة في مقاومتها. ثم ان الصبر نصف الايمان، لأن التصديق بالمعارف والأعمال هو الايمان، وحاصل التصديق بالمعارف اليقين، وحاصل التصديق بالأعمال الصبر، اذ لا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر، فهو نصف الايمان بهذا الاعتبار.

أيضاً: ربما يطلق الايمان على الأحوال المثمرة للأعمال لا المعارف؛ والأعمال أما ضار في الدنيا والآخرة أو نافع فيها، وله الصبر في الأول والشكر

في الثاني. ولهذا قال ابن مسعود: الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر، وقد يرفع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً: لما كان الصبر مقاومة بواعث الهوى، وكان الهوى قسمين: الشهوة والغضب، وصار الصوم دافعاً للشهوة دون الغضب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصوم نصف الصبر»، فيكون الصوم ربع الايمان. فهكذا ينبغي أن يفهم تقديرات الشرع لحدود الأعمال، والحدود ليس تلك التقديرات مما يرمي به جزافاً كما توهمه الجهلة أرباب الضلال.

ثم أن الصبر يسمى بأسماء مختلفة، فيظن الجهال أشياء متغايرة؛ مثلاً: الصبر عن شهوة الفرج يسمى عفة؛ وعن مصيبة يخص باسم الصبر ويضاده الجزع والهلع؛ وعن الغنى يسمى ضبط النفس ويضاده البطر؛ وعن القتال والحرب يسمى شجاعة ويضاده الجبن؛ وعن الغضب حلماً ويضاده التكبر؛ وعن افشاء الكلام يسمى كتمان السر؛ وعن فضول العيش يسمى زهداً ويضاده الحرص؛ وعن العيش اليسير يسمى قناعة ويضاده الشره.

فأكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الايمان: «هو الصبر»، وذلك لأنه أكثر أعماله وأعزها، وقد جمع الله تعالى هذه الأقسام وسماها صبراً فقال: ﴿والصابرين في البأساء﴾ أي: المصيبة «والضراء» أي: الفقر «وحين البأس»؛ أي: المحاربة ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[1].

المطلب الثاني

في أقسام الصبر بحسب القوة والضعف

وهي ثلاثة:

أحدها: أن يقهر داعي الهوى ويسقط بالكلية منازعة باعث الدين فتسلم نفسه الى جند الشيطان، وهؤلاء هم الغافلون، وهم الذين غلبت عليهم شقوتهم

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

واسترقتهم شهواتهم. وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني وهو غاية الحمق.

وثالثها: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين، فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين لا من الفائزين، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وأقسامه باعتبار عدد ما يصبر عنه ثلاثة أيضاً: لأنه اما أن يغلب جميع الشهوات، أو بعضها دون بعض، أو لا يغلب شيئاً منها وهذا كالأنعام بل هم أضل.

وأقسامه باعتبار اليسر والعسر: الى ما يشق على النفس ولا يمكن الدوام عليه الا بجهد جهيد وتعب شديد و يسمى تصبراً، والى خلاف ما ذكر يسمى صبراً. قال بعض العارفين: أهل الصبر ثلاث مقامات؛ أولها: ترك الشكوى وهذه درجة التائبين، والثانية؛ الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين، والثالثة: المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين.

وأيضاً: الصبر أما فرض كالصبر عن المحرم، ونفل كالصبر عن المكاره، ومكروه وهو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع، ومحرم كالصبر على الأذى المحظور.

المطلب الثالث

في أن العبد لا يستغنى عن الصبر في كل حال

وذلك لأن الصبر: أما على ما يوافق الهوى، وهو الصحة والمال والجاه واتساع الأسباب وكثرة الاتباع والأنصار، وما أحوج العبد الى الصبر على هذه الأمور، اذ لو أرسل نفسه الى الملاذ المباحة أخرجه ذلك الى البطر والطغيان؛ وأما على ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك: أما مختار للعبد كالمعاصي والطاعات، أو ليس مختاراً له كالمصائب والنوائب، أو لا يكون أوله مختاراً ولكن يقدر على ازالته كالتشفي بالانتقام.

والضرب الأول: ان كان طاعة يحتاج العبد الى الصبر عليها، لأن النفس تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، حتى قيل: ما من نفس الا وهي مضمرة ما أظهره فرعون الا أنه لا يجد مجالاً وقبولاً.

ثم الصبر على الطاعة: أما قبلها، وذلك في تصحيح النية وتحصيل الأخلاص، وذلك من أشد الصبر؛ وأما حالة العمل؛ فيلازم الصبر عن دواعي الفتور وعن كونها لغير الله؛ وأما بعد الفراغ عن العمل؛ بأن يصبر عن افشائه والعجب.

ثم الطاعات أما فرض أو نفل ويحتاج الى الصبر عليها.

والضرب الثاني: المعاصي، وما أحوج العبد الى الصبر عنها سيما التي صارت مألوفة بالعادة.

والضرب الثالث: ما لا يكون هجومه باختياره ولكن له اختيار دفعه؛ كما لو أوذي فصبر عليه، وهذا الصبر يكون واجباً تارة وفضيلة أخرى.

والضرب الرابع: ما لا يدخل تحت الاختيار أوله وآخره؛ مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض والعمى، فالصبر على هذه الأمور من أعلى المقامات. الا أن الصبر على المصائب بترك الجزع وشق الجيوب وضرب الخدود واظهار الكآبة والمبالغة في الشكوى، وهذه داخلة تحت اختياره. ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب وفيضان العين بالدمع فان ذلك مقتضى البشرية. فظهر مما ذكر أن الانسان لا يخلو عن الصبر في حال من أحواله.

المطلب الرابع
في معالجات مؤدية الى الصبر

ولنورد مثالين، ثم قس بواقيها عليها؛ مثلاً باعث الجماع يعالج بأمور ثلاثة: قطع مادتها كالأغذية المهيجة لشهوة الوقاع فيتركها سيما اللحم؛ وثانيها: قلع أسبابه المهيجة له في الحال كالنظر الى الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية؛ وثالثها: تسلية النفس بالمباح الذي تشتهيه كالنكاح وملك اليمين.

وأيضاً: من أشد أنواع الشهوات حديث النفس ووسواس الشيطان، وانما يشتد ذلك على من تفرغ لقطعه، ولا علاج له البتة الا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً بالاعتزال الى زاوية بعد احراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة، ثم لا يمكن له ذلك الا بأن يجعل هومه هماً واحداً وهو الله. ومع ذلك اذا غلب على القلب لا يكفي ما ذكر ملكه الفكر والسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله وسائر أبواب معرفة الله. وان لم يكن له سير في الباطن فلا ينجيه الا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة، والاذكار والصلوات. ويحتاج الى تكلف القلب الحضور، واذا انتظم كل ذلك لا يسلم له من الأوقات الا بعضها.

المطلب الخامس
في الشكر

وفضيلته في الآيات والأخبار والآثار لا تخفى على أولى الأبصار.

وأما حقيقته: فتعلم من علم يورث حالاً وحال يورث عملاً.

أما العلم: فبمعرفة النعمة والمنعم عليه، هذا في غير الله تعالى. وأما في حقه تعالى فلا يتم الا بأن يعرف أن النعم كلها من الله والوسائط مسخرون من جهته، وهذه المعرفة تتبع التوحيد اذ لا موجود الا منه تعالى، فتنحصر النعمة فيه أيضاً، كما ان التوحيد يتبع التقديس اذ لا مقدس الا واحد ولا مقدس غيره. وعن هذه الأمور عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «من قال: سبحان الله فله عشر حسنات، ومن قال: لا اله الا الله فله عشرين حسنة، ومن قال: الحمد لله فله ثلاثون حسنة». الا أن المراد تأثير هذه الكلمات بالقلب لا مجرد تحريك اللسان بها.

ثم أن المعرفة المذكورة تستثمر حالاً وهو الفرح بالمنعم، مع هيئة الخضوع والتواضع وهو شكر. كما أن المعرفة شكر، لكن كونه شكراً مشروط بأن يكون

الفرح بالمنعم لا بالنعمة والاحسان والانعام. وبالجملة: الفرح بالنعمة من حيث أنها مال ليس من الشكر أصلاً، والفرح بها من حيث يستدل به على عناية المنعم ونيل المحل والقبول عنده، وهذا شكر الصالحين الذين يعبدون الله تعالى و يشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه.

وأما الفرح بالنعمة من حيث ان له محلاً عند الملك، لكن لا يقنع بهذا القدر بل يفرح من حيث يتدرج به الى القرب منه، و يكون محل نظر المنعم، و يتوسل بذلك الى النظر الى وجه المنعم والنزول في جواره، فهي الرتبة العليا للشكر. وامارته: أن يفرح من الدنيا لكونها مزرعة للآخرة، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله.

ثم الفرح المذكور له عمل بموجبه، وذلك العمل: اما بالقلب وهو قصد الخير واضماره لكافة الخلق، واما باللسان فاظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه، واما بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته. حتى أن شكر العينين أن يستر كل عيب يراه لمسلم، وشكر الأذنين ان يستر كل عيب يسمعه، والشكر باللسان اظهار الرضا عن الله وهو مأمور به، وهكذا في كل عضو. فهذه هي حقيقة الشكر.

وأما الحدود الواقعة فيه فأكثرها قاصر عن أداء مجموعه؛ مثلاً: قول من قال: الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه ــ نظر الى فعل اللسان ــ وبعض أحوال القلب؛ وقول حمدون القصار: شكر النعمة ان ترى نفسك فيها طفيلياً اشارة الى أن المعرفة معنى من معاني الشكر فقط؛ وقول الجنيد: أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة، اشارة الى حال من أحوال القلب على الخصوص.

والحد الأقرب الى جمع أكثر المعاني قول القائل: الشكر الاعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة، وانما يشذ من ذلك عمل اللسان فقط.

المطلب السادس
في الشكر في حق الله

قال بعضهم: الشكر محال في حقه تعالى لوجهين:

أحدهما: أنه منزه عن الحظوظ والأغراض، مقدس عن الحاجة الى الخدمة والثناء وتكثير سواد الخدم من الراكعين والساجدين.

وثانيها: أن جميع ما نتعاطاه باختيارنا من جوارحنا وقدرتنا وارادتنا وداعيتنا وسائر أسباب حركاتنا من خلق الله ونعمته، فكيف نشكر نعمة بنعمة. واذا كان طريق الشكر نعمة أخرى تحتاج الى شكر آخر، واذا احتاج الشكر الى شكر في كل مرتبة تؤدي الى أن يكون الشكر محالاً في حق الله من هذين الوجهين.

وقد خطر هذا الخاطر لداود وموسى عليهما السلام، فقال كل منهما: يا رب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك؛ وفي لفظ آخر: وشكري لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك. فأوحى الله عز وجل إليه: «إذا عرفت هذا فقد شكرتني»؛ وفي خبر آخر: «إذا عرفت أن النعم مني رضيت منك بذلك شكراً».

إذا عرفت ذلك: لعلك تفهم استحالة الشكر لله عز وجل، وتعجز عن درك كون العلم باستحالة الشكر شكراً. ان من نظر بعين التوحيد المحض يعرف أنه الشاكر والمشكور والمحب والمحبوب، ونظر من لم يبلغ هذه الرتبة، وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا الا وجود أنفسهم فأنكروا أن يكون لهم رب يعبد، وهؤلاء العميان المنكوسون وهؤلاء جاحدون؛ وقسم ليس بهم عمى ولكن بهم عور، يبصرون باحدى العينين وجود الموجود الحق، ولا يرى بأخراها فناء ما سواه. وبالحقيقة: هذا مشرك اذ أثبت موجوداً يماثل وجود الحق. لكن لما الأول بأنه رب والآخر بأنه عبد دخل بهذا التفاوت في حد التوحيد لكن لا تخلو عينه عن عمش، لكن ان كحل بصره بأنوار الحق يظهر له نقصان ما

عداه، وهكذا تتفاوت الدرجات الى أن يرى ما سواه فانياً ولا يرى في الوجود الا الله تعالى.

ثم هذا قد يلوح لبعضهم كالبرق الخاطف، ومنهم من يثبت له ذلك، ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز.

وكل الى شأو العلى حركاته ولكن عزيز في الرجال ثباته

ولما أمر صلى الله عليه وسلم بطلب القرب، فقيل له: «واسجد واقترب» قال في سجوده: «أعوذ بعفوك من عقابك» حيث لم ير الا الله وأفعاله، واستعاذ بفعله من فعله؛ ثم اقترب وقال: «أعوذ برضاك من سخطك» حيث ترقى من مشاهدة الافعال الى مشاهدة الصفات؛ ثم اقترب وقال: «أعوذ بك منك» حيث ترقى من مشاهدة الصفات الى الفرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة، لكنه رأى نفسه، ثم اقترب حتى فني عن مشاهدة نفسه، اذ رأى ذلك نقصاناً؛ واقترب فقال: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

فقوله: لا أحصي ثناء عليك، تعبير عن فناء نفسه؛ وقوله: أنت كما أثنيت على نفسك، بيان أنه المثني والمثنى عليه، وان الكل منه بدأ واليه يعود، وان كل شيء هالك الا وجهه، فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين، ومع ذلك كان يرى كل مرتبة بعداً بالقياس الى ما بعده، ولذلك قال أنه ليغان على قلبه، وكان أول أمر الله آخر مقامات الموحدين. هذا نظر التوحيد.

وأما نظر غيره: ففيه الشاكر والمشكور والشكر. ثم ان نعم الله تعالى آلات ان استعملها في الطاعة شكر لموافقته محبة مولاه، وان لم يستعملها في الطاعة واستعملها في المعصية كفر للنعمة للتضييع، وكل ما في الدنيا خلق آلة للعبد يتوصل به الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله، فالمعصية والطاعة تشتملها المشيئة ولكن لا تشتملها المحبة والكراهة، بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه.

واذا عرفت هذه المقامات: فقد ظهر لك توجيه الاشكالين المذكورين،

وذلك لأن المراد بالشكر ليس الا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله، فإذا انصرفت في جهة المحبة بفعل العبد لفعل الله فقد حصل المراد، وفعلك عطاء من الله.

ومن حيث انه فعله فقد اثنى عليك، وثناؤه نعمة أخرى منه اليك، فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى، وصار أحد فعليه سبباً لأنصراف فعله الثاني الى جهة محبة الله، فله الشكر على كل حال.

وأنت موصوف بأنك عالم وعارف ولا بمعنى انك خالق علم وموجد بل بمعنى أنك محل له، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك، فوصفك بأنك شاكر اثبات مشيئة. فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعملوا وكل ميسر لما خلق له» يريد به: أن الخلق مجاري قدر الله ومحل أفعاله وان كانوا هم أيضاً من أفعاله، ولكن بعض أفعاله محل لبعض؛ وقوله: اعملوا، وان كان جارياً على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو فعل من أفعال الله عز وجل، وهو سبب لعلم الخلق بأن العمل نافع وان علمهم فعل من أفعال الله.

والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة الى الحركة بالطاعة، وانبعاث الداعية أيضاً من فعل الله، وهو سبب لحركة الأعضاء، وهي أيضاً من أفعال الله، ولكن بعض أفعاله كان سبباً لبعض أفعاله، أي الأول شرط للثاني، أي أنه لا يستعد لقبول العلم الا ذو حياة ولا لقبول الارادة الا ذو علم، فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى لا بمعنى ان بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره. وهذا اذا حقق يرتقي الى درجة التوحيد الذي ذكرناه.

واعلم: ان هذا التمهيد مما لا تجده في كتب أحد فلا تغفل عن تحصيله واذعانه. ثم انك اذا عرفت ذلك لعلك تتبع شيطان الوهم، وتقول: واذا لم يكن الينا شيء بل رجع الكل الى الله فلا نذم أصلاً فلا حاجة الى الطاعة.

فنقول: اعلم ان قول الله تعالى: «أعملوا» سبب لحصول اعتقاد فينا بوجوب العمل، وذلك سبب لهيجان الخوف، وهو سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول الى جوار الله، والله مسبب

الأسباب ومرتبها. فمن سبق له في الأزل السعادة يسرت له هذه الأسباب حتى تقوده بسلسلتها الى الجنة. ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له، ومن لم يسبق من الله له الحسنى بعد سماع كلام الله وكلام رسوله وكلام العلماء، فإذا لم يسمع لم يعلم، واذا لم يعلم، لم يخف، واذا لم يخف لم يترك الركون الى الدنيا، واذا لم يترك الركون الى الدنيا بقي في حزب الشيطان وان جهنم لموعدهم أجمعين.

واذا عرفت هذا: تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل، فما من أحد الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه، وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والامن والغرور عليه. فالمتقون يساقون الى الجنة قهراً، والمجرمون يقادون الى النار قهراً، ولا قاهر الا الواحد القهار، ولا قادر الا الملك الجبار. وعند معاينة هذا يسمع نداء: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، وذلك كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص، ولكن الغافلين لا يسمعونه الا ذلك اليوم على الخصوص. نعوذ بالله من الجهل والعمى فأنه أصل أسباب الهلاك والعياذ بالله.

المطلب السابع

واعلم: أنه لا بد في تحصيل الشكر من معرفة ما خلق كل شيء له، وطريقة الآيات والأخبار، وذلك ظاهر؛ وأما النظر بعين الاعتبار وهذا عسير جداً، ولهذا احتيج الى ارسال الرسل.

مثلاً: كل شيء في العالم له حكمة؛ أما جلية كالضياء من الشمس والمطر من الغيم؛ أو دقيقة كالحكمة من الكواكب السيارة وغيرها. ثم كل ذرة لا تخلو عن حكم كثيرة من واحد الى عشر بل الى ألف.

فمن استعمل شيئاً فيما خلق له من الحكمة صار شكراً والا صار كفراً؛ مثلاً: اليد خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد، وكذا لو استنجى باليمين فقد كفر ما خلقت له اليمين من استعمالها في أشرف الأمور، وكذا البصر مثلاً انها خلقت

العينان لينظر بها ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بها ما يضره فيها، فمن نظر الى وجه غير المحرم فقد استعملها في غير ما أريدتا له فكفر نعمة الأبصار، وهكذا في سائر الأعضاء.

فان قلت: اذا كان الكل راجعاً الى فعل الله فكيف يكون العبد موصوفاً بالشكر والكفران. فاعلم: ان تمام تحقيق هذا المقام لا يعرفه الا من علم منطق الطير، ولا يجهله الا من عجز عن الإيضاع في السير.

واجمال هذا هو: أن صفات الله تعالى أجل وأعلى من أن يلحقها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم، فاستعاروا من حضيض البشرية أموراً لها مناسبة معها تناسباً ضعيفاً جداً فاستعاروا لها اسم القدرة مثلاً، وكذا المشيئة، مع قصور اللفظين عن كنه جلال ذينك الوصفين.

ثم الأفعال الصادرة عن القدرة: اما أن ينساق إلى غاية حكمتها أو يقف دونها. ثم ان هذين من حيث نسبة المشيئة الى الأول يسمى محبوباً، والى الثاني مكروهاً. ثم تعلق صفة المشيئة في الأزل الى بلوغ شخص نهاية حكمته بتسليط دواعيه عليه قهراً يسمى رضى، وتعلقها في الأزل الى وقوفه دون نهايتها باستيقاف دواعيه عن ذلك قهراً يسمى غضباً.

ثم اذا ظهر هذا التقدير الأزلي في الشخص اما في الأول فيسمى الشكر ويردفه بالثناء، واما في الثاني فيسمى بالكفران ويتبعه نقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال. فحاصله: أن أعطى الجمال فأثنى عليه، وأعطى النكال فقبحه؛ كملك أعطى لمملوكه الثياب النفيسة وكسى هواياه، ثم وصفه الملك بالجمال، وكذا في ضده، فهو المثني والمثنى عليه بكل حال، فكأنه أثنى على نفسه من حيث المعنى وليس العبد الا حرف الثناء من حيث الظاهر. والصورة هكذا تسلسلت الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب.

ولما لم يكن ذلك عن اتفاق وبحث، بل عن ارادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء فهو كلمح البصر، ثم استعير لترتيب آحاد

المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر؛ فالقضاء اجمال وأمر واحد كلي والقدر تفصيل ذلك.

وأما اذا خطر ببالك ان القسمة لماذا يكون على هذا فتلجم عنه ذلك لسانك بلجام المنع، و يقال لكم: اسكتوا لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. و يقال: اذا ذكر القدر فأمسكوا وتأدبوا بأدب الله عز وجل فان للحيطان آذاناً.

وغاية خطاك انك تقول: فعلي، وأضفت ذلك الى نفسك، بل هو الذي صرف داعيتك، ثم جعله على وجه العدل حيث خص الفعلة المحبوبة بالشخص المحبوب والمكروه بالمكروه، انما مثلك مثل صبي يرى المشعوذ، فيرى حركة الصور في الليل المظلم من الصور لا من المشعوذ.

وظهر بما مر ان أشكر العباد أحبهم، وذلك كالملائكة في السماء والأنبياء في الأرض. وأعلى الملائكة اسرافيل، وأعلى الأنبياء محمد صلوات الله عليهم أجمعين، اذ أعطى له الدين والملك والسلطنة ولم يعط هذه كلها الا له صلى الله عليه وسلم. وأيضاً أكمل الله الدين به وختم به التبيين. و يليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فأنهم صلحوا وصلح بهم الناس. ثم يليهم السلاطين بالعدل لأن صلاح الدنيا بهم، كما أن صلاح الآخرة بالعلماء. ثم يليهم الذين أصلحوا أنفسهم فقط من الصلحاء غير العلماء. ومن عدا هؤلاء الطوائف فهمج رعاع.

واعلم: ان السلطان لكونه قوام الدين والدنيا لا ينبغي أن يستحقر وان كان ظالماً فاسقاً؛ وفي الحديث: «سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر، فان أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وان أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر». قال سهل: من أنكر امامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل.

المطلب الثامن
في حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم: ان كل لذة وخير وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر نعمة وسعادة. وان

كانت نافعة في الدارين فهي النعمة حقيقة؛ كالعلم وحسن الخلق، وان كان ضاراً فيها فهو البلاء تحقيقاً؛ كالجهل وسوء الخلق. وان كان نافعاً في الحال ضاراً في المآل فهو البلاء عند ذوي الأبصار والنعمة عند ذوي الجهل؛ كالشهوات. وان كان بالعكس فبالعكس؛ كمخالفة الشهوات.

ثم أن الأمور الدنيوية: أما نفعه أكثر من ضره؛ كقدر الكفاية من المال، أو بالعكس؛ كالمال الكثير والجاه الواسع؛ وأما ضرره يكافىء نفعه، وهذا يختلف بالأشخاص، اذ رب انسان لا يتضرر بالأموال العظيمة وبعض منهم يتضرر بأقل منها.

واعلم: أن الخيرات أما أن تؤثر لذاتها أو لغيرها أولهما معاً. والأول: النظر الى وجه الله تعالى؛ والثاني: كالدراهم والدنانير فأنها وسائل فقط، والا فهي والحصى سواء؛ الثالث: كالصحة والسلامة.

واعلم أيضاً: ان الخيرات اما نافعة أو جميلة أو لذيذة، فاللذائذ تستحسن في سائر الأحوال. وكذا الشرور: اما ضار أو قبيح أو مؤلم.

ثم أنه قد تجتمع هذه الأوصاف اما في الخير؛ فكالعلم والحكمة فأنها نافعة ولذيذة وجميلة عند أهلها؛ وكذا ضده وهو الجهل في جميع الأوصاف الثلاثة للشر فأنه ضار ومؤلم وقبيح.

وقد يجتمع بعض هذه مع بعض كقطع الأصبع المتآكلة والسلعة الخارجة من البدن، فان هذا نافع، مؤلم.

وقد يكون شيء نافعاً من وجه وضاراً من وجه آخر؛ كالقاء المال في البحر لنجاة صاحبه. وأيضاً: النافع أما ضروري؛ كالايمان وحسن الخلق، أو غير ضروري؛ كالسكنجبين في تسكين الصفراء، اذ ربما يقوم غيره مقامه.

ثم أن اللذة: أما عقلية؛ كلذة العلم والحكمة وهي أشرف اللذات عند من يعرفها ــ كما عرفت عند ذكرنا فضيلة العلم والحكمة، وأظهر شرفها أنه الباقي في أبد الآباد، ولا يمتد اليها أيدي الغاصبين ولا ينالها السن السلاطين بالعزل؛

وأما بدنية: وهي أما مشتركة مع بعض الحيوانات؛ كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر وغيرهما، أو مع جميعها، كلذة البطن والفرج، وهذا أكثرها وأخسها ولذلك شارك الكل فيها.

ثم شره البطن والفرج مما يقوى عليه الصالحون، وشهوة الرياسة لا يقوى على قهرها الصديقون، حتى قيل: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين الرياسة. فقمع شهوة الرياسة بالكلية لا يقع، وان وقع ففي بعض الأحوال عند غلبة لذة معرفة الله تعالى.

ثم اعلم: أن القلوب أربعة:

قلب لا يحب الا الله تعالى وهذا في غاية الندرة؛
وقلب لا يلتذ الا بالرياسة والشهوات ولا يدري غيرها وهذا كثير؛
وقلب يغلب عليه التلذذ بالصفات البشرية؛
وقلب يغلب عليه التلذذ بمعرفة الله تعالى.

وهذان في غاية الندور، ومع ندرتها تتفاوت قلة وكثرة، لأن ذلك يقل اذا بعدت الأعصار عن عصر النبوة، و يزداد قلة الى أن تقرب الساعة و يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وسبب قلة هذا القلب أن عالم الشهادة مرآة لعالم الغيب وتابع له، كما ان الصورة في المرآة تابعة للشخص وثانية له في رتبة الوجود، الا أنها متقدمة عليه في المعرفة. كذلك عالم الشهادة متقدم على عالم الغيب في المعرفة وان كان تابعاً له في الوجود. فلذلك كان أكثر الناس مقصور النظر على ما هو مقدم في المعرفة وقريباً منه، أعني: عالم الشهادة، وقليل منهم يعبر منه الى عالم الغيب و يستدل بالصورة على الأصل، وهذا الذي يسمى عبرة عند العلماء.

واعلم: أن النعمة تنقسم أيضاً الى: نعمة هي غاية الغايات، وذلك سعادة الآخرة، وهي أربع: بقاء لا فناء له، وسرور بلا غم، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر معه، وهي الحقيقية؛ **والى وسائل هي أربعة أنواع:**

أحدها: الأقرب والأخص؛ كالفضائل النفسانية وهي: الايمان وحسن

الخلق. والآول علوم المكاشفة والثاني علوم المعاملة. وهي: أما ترك مقتضى الشهوة والغضب واسمه الفقه، واما مراعاة العدل في الكف عن الشهوات حتى لا يخسر الميزان ولا تطغى فيه واسمه العفة. فهذه أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة، وعدالة.

وثانيها: الفضائل البدنية، وهي متممة للنوع الأول. وهي أيضاً أربع: الصحة والقوة والجمال وطول العمر.

وثالثها: وهي النعم الخارجة عن البدن. وهي أيضاً أربع ومتممة للنوع الثاني: المال والأهل والجاه وكرم العشيرة.

ورابعها: الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة. وهي أربعة أيضاً: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده.

ثم أنك قد عرفت فوائد المال والأهل فيما مر، وكذا العز والجاه يمكن أن تستعان به النفس الى طريق الآخرة، اذ يدفع عن الانسان الظلم والضيم الشاغلين عن المعرفة. ولذلك كان علماء الدين طلبوا الجاه قدر ما يستعان به في أمره ومطلبه.

وأما ذم المال والجاه في الأحاديث والأخبار فلا ينافي ما ذكر، اذ الحية فيها ترياق وسم، فكذا المال والجاه. ولعلك قد نبهت على التمييز بين القدر النافع والقدر الضار فيما سبق. وكذا كرم العشيرة، ولذلك جعلت الأئمة من قريش، لكن المراد عشيرة الأنبياء والعلماء والصلحاء لا عشيرة الملوك والظلمة. وكذلك لا خفاء في الحاجة الى الصحة والقوة وطول العمر.

وأما الجمال: فانه أقرب الى الاجابة وجاهه في الصدور أوسع، فصار بمنزلة الجاه والمال، وأيضاً الجمال في الأكثر دال على فضيلة النفس لأن نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن، فالمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان، وعلى هذا يبتنى علم الفراسة.

وأما التوفيق: فلا يستغني عنه أحد، لأنه عبارة عن التأليف بين ارادة

العبد و بين قضاء الله وقدره من حيث وصوله الى السعادة له:

اذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

وأما الهداية: فلا سبيل لأحد الى طلب السعادة الا بها، اذ الانسان لا يقدر على تميز الصلاح من الفساد الا بالهداية.

وهي ثلاث مراتب:

الأولى: معرفة طريق الخير والشر، قال تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾(١).

وقد أنعم الله تعالى بهذه الهداية على كافة عباده بالعقل تارة وبالسمع أخرى.

الثانية: التي يمد الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال وهي ثمرة المجاهدة، قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾(٢).

الثالثة التي وراء الثانية: وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة، فيهتدي به الى ما يهتدى اليه بالعقل وهو الهدي المطلق.

وأما الرشد: فنعني به العناية الألهية التي تتعين للإنسان عند توجهه إلى مقاصده، فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن. فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة لكن بشرط أن تحرك داعيته إليها، ولو اهتدى إلى تلك الجهة ولم يتحرك إليها يسمى مهدياً لا رشيداً، فالرشد أكمل من مجرد الهداية، وذلك نعمة عظيمة.

وأما التسديد: فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب، وتيسيرها عليه ليتسدد في صوب الصواب في أسرع وقت، فان الرشد أيضاً لا يكفي، بل لا بد من تيسير الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد. فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية ليتحرك، والتسديد عناية ونصرة تتحرك الأعضاء في صوب السداد.

---

(١) سورة البلد، آية: ١٠.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

وأما التأييد: فكأنه جامع للكل. وهو عبارة عن تقوية أمره بالتبصرة من داخل، وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج، وهو المراد بقوله عز وجل: ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾[1].

ويقرب منه العصمة: وهي عبارة عن وجود الهي يسنح في الباطن يقوى به الانسان على تحري الخير ويجتنب الشر، حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس. وهي المراد بالبرهان في قوله عز وجل: ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾[2].

فهذه هي مجامع النعم، ولن يستبد بها الا من خوله الله من الفهم الصافي الثاقب، والسمع الواعي، والقلب البصير المتواضع المراعى والمعلم الناصح، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته، والعز الذي يصونه عن سفلة السفهاء وظلم الأعداء. وتستدعي كل واحدة من هذه الأسباب الى ستة عشر سبباً، وتستدعي تلك الأسباب أسباباً، الى أن ينتهي بالآخرة الى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين، وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب.

ولو أردت أن تستقصي أسباب نعمة واحدة من النعم: كنعمة الأكل مثلاً، وكسرت عليها المجلدات، لبقي ذهنك في حيز الحيرة حسيراً، لأنها تتوقف على معرفة قوة الشهوة والغضب المتوقفتين على الآلات البدنية، لا يفي بذكر شمة منها ومقدار ما يمكن أن يحيط العقول بها كثير من المجلدات.

وكذا كيفية تولد البدن عن المني في رحم الأم، وأطوار خلقه الجنين هناك لا تفي لذكرها المجلدات. وكذا كيفية تكون الأغذية النباتية والحيوانية، وترتيبها بالآباء العلوية والأمهات السفلية لا تتم في عدة مجلدات. وكذا كيفية طبعها واصلاحها واحتياجها الى آلات من الحديد والحطب والنار، واحتياج هذه

---

(١) سورة البقرة، آية: ٨٧.

(٢) سورة يوسف، آية: ٢٤

الآلات الى الصناع المحتاجين الى آلات أخر لا تتناهى، لا يمكن ذكر شمة منها الا في كثير من المجلدات. وكذا مضغ الأطعمة، وكيفية تولد الريق المعين لازلاق اللقمة المتولد من تحت اللسان، وكيفية جذب المعدة ذلك، ثم طبخها في المعدة ثم في الكبد، ثم وصولها الى البدن وانقسام فضلاتها الى طريق آخر، لا يمكن تفصيلها في مجلدات.

ولو ارتقيت الى معرفة الحواس المعينة، الى معرفة مضار الأطعمة ومنافعها وكيفية تحصيلها. ومن جملتها البصر، وان جرمها الذي هو مقدار جوزة عشر طبقات مركبة، بعضها رطوبات وبعضها أغشية، وبعض تلك الأغشية كالمشيمة، وبعضها كأنها نسج العنكبوت، وبعض تلك الرطوبات كأنها بياض البيض، وبعضها كأنه الجمد. وكذا أحوال سائر الحواس، بحيث لا يمكن للعقل احاطة جملها، ولا للسان بيان قدر ما أحاط منها كما هو حقها، ولا للبنان كتابة ما جرى منها على اللسان.

وهكذا يتوقف على أسباب وأسباب، الى حيث يعجز العقل عن ضبط أنواع أسباب فعل واحد؛ عن الأكل، فضلاً عن ضبط أفرادها وأسباب سائر الأفعال، وعند ذلك تفهم معنى قوله عز وجل: ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (١).

ألا انك أيها المسكين لا تعرف من النعم الا نفس الأكل وهو أخسها، ثم لا تعرف منها الا أنك تجوع فتأكل، وتتعب وتنام، ثم تشتهي وتجامع وتستريح. وهذا أيضاً حال الحمار وأنت في رتبتها. فلا تغفل أيها المسكين عن النظر في ملكوت الله سبحانه وعجائب صنعه وحكمة تصنيفه، لأن العالم كله من تصنيفه، بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده، الا أنك تغفل غفلة البهائم مع أنك من زمرة الملائكة، لكن ألق الى هذه الرتبة جهلك وحمقك وعجزك. فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان جل جلال وعم نواله. ولنترك استقصاء هذا الباب فأنه طمع في غير طمع.

---

(١) سورة ابراهيم، آية: ٣٤.

المطلب التاسع
في السبب الصارف عن الشكر وعلاجه

واعلم: أن سببه الجهل والغفلة عن معرفة النعم، وأن عرفها فيظن أن شكرها أن تقول بلسانك: الحمد لله الشكر لله. وأيضاً: سببه ــ بعد معرفتها ــ غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب:

أحدها: عموم النعمة للخلق كافة كأنهم لا يعدونها نعمة، ألا تراهم لا يشكرون الهواء مثلاً وهو من أعظم النعم اذ لا يمكن التعيش بدونها ولو ساعة، وهذا جهل عظيم، حيث لا يعدون النعمة الدائمة نعمة و يعدون ما ينقطع ساعة ثم يعود نعمة، مع أن الدائم أحق بالشكر من المنقطع أحياناً.

وطريق معرفة النعمة فرض انقطاعها، فحينئذ يظهر لأهل الغفلة حالها. روى أن ابن السماك قال لبعض الخلفاء ــ وفي يده ماء يشربه وقال عظني ــ لو لم تعط هذه الشربة الا بنصف ملكك فهل تبذله، قال: نعم، قال: وان لم تخرج من بدنك بعد شربها هل تترك نصفه الآخر، قال: نعم، قال: فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء ولا دفعها عن بدنك. وبهذا تبين أن شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كله.

على أن كل أحد يظن أنه يخص من بين الناس بعقل لا يشاركه فيه الناس، و يظن أنه على خلق كريم لا يشوبه العيب بخلاف سائر الناس، وأيضاً يعتقد فيه علماً امتاز به عن الناس. ثم ان كان هذا الظن واقعاً في نفسه يلزمه الشكر لا محالة، وان لم يكن واقعاً الا ان الله تعالى ستر قبيحه عن الناس وأظهر لهم الجميل من العقل والخلق والعلم فكذلك يلزمه الشكر.

ثم نقول: ان كل أحد رزقه الله تعالى أموراً لو أعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به: من صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته، أو أهله أو ولده، أو مسكنه، أو بلده، أو رفيقه أو أقاربه، أو عزه أو جاهه أو سائر محابه،

فإذا لله عليه نعمة ليست على أحد من عباده سواه، فينبغي أن يشكرها.

وأيضاً: من النعم ما فيه عموم ولكن لو تبدلت بأضدادها لم يرض بها؛ مثل: أن جعله مؤمناً لا كافراً، وحيا لا جماداً، وانساناً لا بهيمة، وذكراً لا أنثى، وصحيحاً لا مريضاً، وسليماً لا معيباً.

وأيضاً: عدد المغبوطين عنده أقل من غيره بكثير، فكيف لا ينظر من هو دونه حتى لا يزدري نعم الله، كما أنه ينظر الى من دونه في الدين و يتعذر بكثرة الفساق مع أن دنياه لا تساوي دينه.

فعليك أن تتأمل كلام أفصح من نطق بالضاد حيث قال صلى الله عليه وسلم: «من أصبح معافى في بدنه آمناً في سربه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»؛ سيما زمرة العلماء، فان نعمة العلم أعظم النعم، حتى أن بعضاً منهم لو بدل نصف علمه بل عشر أعشار علمه بملك الأرض من الشرق الى الغرب لأنف من ذلك وأنكر على قائلها.

ولا تظنن أن المعرض عن الدنيا في ألم الصبر عنها فان ذلك ليس بأكثر من ألم الصبر عليها، فان آلام الأغنياء أضعاف ألم الفقراء ولكن لا يشعرون بسبب خدر حاصل في طبيعتهم، فإذا زال ذلك بالموت يشعرون ذلك لكن حين لا ينفعهم العلم.

ثم أن علاج القلوب الفاقدة للشكر؛ فان كان بصيراً فعلاجه التأمل فيما ذكرناه من أصناف النعم، وان كان غير ذلك فبالنظر الى من دونه. وكان بعضهم يحضر كل يوم دار المرضى ليعرف نعمة الصحة، ويحضر المقابر ليعرف قدر الحياة، ويحضر موضع العقوبات ليعرف قدر العصمة من الجنايات.

ومما ينبغي أن يعالج به القلوب غير الشاكرة أن تعرف أن النعمة اذا لم تشكر زالت ولم تعد. قال عز وجل: ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1]. وفي الخبر: «ما عظمت نعمة الله على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه، فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال». قال الفضيل: عليكم

---

(١) سورة الرعد، آية: ١١.

بمداومة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم. وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدوها بالشكر.

المطلب العاشر

فيما يشترك فيه الصبر والشكر

اعلم: أن الله تعالى في كل شيء نعمة يجب عليها الشكر، وكذا في كل شيء بلاء اذ البلاء فقد النعمة.

ثم أن النعمة: أما مطلقة، وهي في الآخرة سعادة العبد بالنزول في جوار الله، وفي الدنيا الايمان وحسن الخلق وما يعين عليهما؛ وأما مقيدة وهي نعمة من وجه دون وجه؛ كالفقر والخوف والمرض، فإنها نعمة ديناً وبلاء في الدنيا.

وكذا البلاء: إما مطلق؛ كالكفر والمعاصي، واما مقيد، كالفقر والمرض كما ذكر. فالشكر للنعم واجب.

وأما الصبر فعلى البلاء المقيد، وأما البلاء المطلق فلا يجوز الصبر عليه بل يجب ازالته مهما أمكن، وانما الصبر على ألم ليس للعبد ازالته؛ مثلاً: لو تألم بطول العطش حتى عظم ألمه لا يصبر عليه بل يزيله ان قدر.

ثم ان النعمة يجوز أن تصير بلاء وبالعكس، ولهذا يمكن أن يجتمع الصبر والشكر في مادة واحدة؛ مثلاً: الفقر نعمة في حق من اذا استغنى وكثر ماله بطر وطغى، مع أنه بلاء أيضاً في نفسه، فيشكر من حيث كونه نعمة ويصبر من حيث كونه بلاء.

ثم أن المعرفة التي هي نعمة مطلقة يمكن أن تكون بلاء في حق بعض الناس، فتكون النعمة في ضدها؛ مثلاً: معرفة الانسان أجله بلاء ينغص عيشه ويطيل غمه، فيكون جهله به نعمة؛ وكذلك معرفة أحوال قلوب الناس بلاء، اذ لو رفع الستر لطال أمله وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام بسبب اطلاعه على ما يضمره الخلق، فيكون الجهل بها نعمة؛ وكذلك جهله بالخصال المحمودة في غير نعمة، اذ ربما يضطر الى ايذائه واهانته، وفعل ذلك بعد المعرفة اثم عظيم؛

ومنها الجهل بالقيامة وليلة القدر وساعة الجمعة وبعض الكبائر، لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد. وهذه وجوه نعم الله في الجهل فكيف في العلم.

وان أخطرت ببالك ان جمع الصبر والشكر جمع بين الضدين، اذ الأول يستلزم الفرح والثاني الشكر وهما ضدان، يجوز جمع الفرح والغم من وجهين؛ اذ في كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا أمور خمسة يجب الفرح بها عند العاقل: عدم كونها زائداً على ما وقع، وعدم كونها في الدين، وتعجيل عقوبتك في الدنيا فلا تعاقب في الآخرة ثانياً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ان العبد اذا أذنب ذنباً فأصابته شدة أو بلاء فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً». وأيضاً: هذه العقوبة كانت مكتوبة في أم الكتاب فقد وقعت وانقضت وهذه أيضاً نعمة. وأيضاً: ان ثوابها في الآخرة أكثر من هذه العقوبة في الدنيا.

ثم انك بعد ما سمعت فضل البلاء فاياك أن تجوز طلب البلاء، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وقال: «سلوا الله العافية فما أعطى عبد أفضل من العافية الا اليقين»؛ وأشار باليقين الى عافية القلب من مرض الجهل والشك، فعافية القلب أعلى من عافية البدن. ونظير ذلك في الأحاديث والآثار أكثر من أن يحصى.

أما ما صدر من أهل المحبة، لأن من شرب من كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة لها، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولكن لا يعول عليه. ويحكى ان فاختة قالت لزوجها: ما الذي يمنعك عني ولو أردت أن أقلب قصر سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك، فسمعه سليمان وعاتبه، فقال: يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى، وهو كما قال.

المطلب الحادي عشر

قال بعضهم: الصبر أفضل من الشكر، وقال بعضهم بالعكس، وقال آخرون: هماسيان، وقال آخرون: يختلف باختلاف الأحوال.

واعلم: أن المفهوم من الأحاديث والأخبار والآثار فضيلة الصبر على الشكر، لأن الصبر حال الفقر والشكر حال الغنى، وفي ذلك مقنع للناس كافة. **الا أن أهل التحقيق منهم ربما يكشفون حقيقة الحال بتفصيل ذلك.**

وهو: أن العلوم الظاهرة تراد للأحوال، والأحوال للأعمال. وأما العلوم الباطنة فانما تراد الأحوال لأجلها، والأعمال لأجل الأحوال. فأفضل الكل معرفة الله تعالى وانما يتوسل اليها بأحوال القلب في تصفيته عن المكدرات.

ثم الأعمال اما أن تجلب ظلمة القلب وهي المعاصي، أو صفاءها وهي الطاعات. ثم أن المعاصي والطاعات متفاوتة ومختلفة بحسب اختلاف الأحوال؛ مثلاً: من غلبه الشح فليس له صوم النافلة بل اخراج درهم واحد له أفضل من صوم النافلة، وكذا من غلبته شهوة البطن فله الصوم دون اخراج المال. وأما ما ورد في الشرع من فضل الصدقة على الأطلاق وفضل الصوم على الاطلاق، فذلك لأنه لو قيل: الصدقة لمن ابتلي بمرض الشح، والصوم لمن ابتلي بمرض الشهوة البطنية أو الفرجية لربما قالت النفس: ليس في هذا المرض؛ لأن شأن النفس انكار أمراضها فيترك معالجتها فتهلك. أنظر الى رحمة الشارع على العباد، وحذاقتها في معالجة أمراض قلوبهم.

ثم أن الصبر والشكر قد يجتمعان في محل واحد كما بيناه، فهناك لا يتصور فضيلة أحدهما على الآخر. وأما اذا تغاير محلها: فان كانت النعمة ضرورية؛ كالعينين مثلاً، فمن فقدهما فصبره بأن لا يظهر الشكوى و يضمر الرضا بقضاء الله تعالى. والبصير أما أن يستعملها في طاعة الله تعالى فقد شكر وصبر أيضاً على الطاعة، وكذا ان كفهما عن الحرام فقد شكر وصبر أيضاً عن الحرام. ولا يخفى أن الأعمى فيه فضيلة الصبر فقط، وفي البصير المتقي عن الحرام أو المستعمل في الطاعة فضيلة الصبر والشكر معاً. فالبصير المذكور أفضل من الأعمى المذكور، والأعمى المذكور أفضل من البصير الغير الغاض بصره عن الحرام.

وان كانت النعمة غير ضرورية ولم تكن فاضلة على الحاجة، في الصبر عن

الزيادة مجاهدة، وهذا الصبر أتم وأقوى من صبر الغنى على الاقتصار على المباح ويمسك ماله على الفقراء. وأما الغني الذي يصرف ماله الى الخيرات ولا يستعملها في المعصية ففيه الشكر والصبر، ولا يخفى ان مجموع الأمرين افضل من أحدهما، وان كان صبر الفقر أفضل من جهة صبر هذا الغني أيضاً. وبالجملة: الفقير الصابر أفضل من الغني الصابر فقط ومن الغني الشاكر فقط، وان كان الغني الصابر الشاكر أفضل من الفقير الصابر فقط. وما قيل: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، فذلك لعدم انفكاك الشكر عن الصبر.

وما ورد في الأخبار من فضيلة الصبر على الشكر فانما فضيلته على الشكر بحسب متفاهم عرف العامة، وهو أن النعمة عندهم المال فقط، والمتبادر من الشكر عندهم قولهم: الحمد لله الشكر لله، الا أن التفصيل الكاشف للشبهة هو ما ذكرناه والله أعلم.

الأصل الثالث
في الرجاء والخوف

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في حقيقة الرجاء

واعلم: ان كل ما يلاقيك من مكروه أو محبوب أما موجود في الحال أو في الماضي أو في الاستقبال. فاذا خطر ببالك الأول سمي ذكراً، واذا خطر الثاني يسمى وجداً أو ذوقاً أو ادراكاً، وانما سمي وجداً لوجودها في نفسه، واذا خطر الثالث وغلب على قلبك يسمى انتظاراً أو توقعاً. ثم ان كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم يسمى خوفاً واشفاقاً، وان كان محبوباً حصل منه شوق يسمى رجاء ان كان انتظاره لأجل حصول اكثر أسبابه، وغروراً ان كان مع انخرام أسبابه، وغروراً ان كان مع انخرام أسبابه واضطرابها وان لم يعلم وجود أسبابها وانتفائها يسمى تمنياً.

فاسم الرجاء والخوف لا يطلق الا على ما يتردد فيه، اذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها، بل: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

واذا عرفت هذا، فاعلم: ان انتظار المغفرة انما سمي رجاء اذا تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد: من بث بذر الايمان، وسقيه بماء الطاعات، وتطهير القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى الثبات

عليه الى الموت، وحسن الخاتمة عند الموت ان كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه. وان خالف ما ذكر من الشرائط ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور.

المطلب الثاني
في فضيلة الرجاء

قال الله تعالى: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾[1]؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن ما شاء»؛ وقال: «لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله». وغير ذلك من الآيات والأخبار والآثار.

واعلم: أن الرجل أما أن يغلب عليه اليأس فترك العبادة، أو غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر نفسه، فهما مائلان الى طرفي الافراط والتفريط فيحتاجان الى دواء. وأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الأعراض عن العبادة فأدوية الرجاء في حقه سموم مهلكة، بل لا يبرئه من مرضه الا أدوية الخوف.

فمن كان واعظاً ينبغي أن يراعي الأمراض المذكورة، ويدبر علاجها بحسب الأمراض، وألا يؤدي الى الاهلاك. وعليه أن يقتدى كتاب الله وسنة رسوله حيث اشتملا على الرجاء والخوف جميعاً.

وبالجملة: الجمع بينهما هو الوسط وهو الجادة، فمن مال عنها يرد الى الجادة لا الى الطرف الآخر.

ثم ان طريق العلاج: إما استقراء الآيات والأخبار: وذلك معلوم عند المسلمين، كما قال صلى الله عليه وسلم: «ان الله كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق أن رحمتي تغلب غضبي»؛ وفي الحديث: «لو لم تذنبوا لخلق الله

---

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

تعالى خلقاً يذنبون فيغفر لهم »؛ وفي الخبر: « ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ما خطر قط على قلب أحد حتى أن ابليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه ». ونحو ذلك من الأخبار والآثار.

واما اعتبار العقل: وذلك ان من أعد للانسان كل ما هو ضروري له في دوام وجوده؛ كآلات الغذاء، وما هو محتاج اليه؛ كالأظفار والأصابع، وما هو زينة له؛ كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين، ونحو ذلك مما لا ينثلم بفقده غرض مقصود وانما يفوت به مزيد جمال، فما ظنك باعداد ما هو أهم الأمور عنده وغاية الغايات وأصل كل السعادات، أعني: سعادة الآخرة. فالعناية الالهية اذا لم ترض لعباده بفوات أمثال هذه فكيف ترضى بسياقتهم الى الهلاك المؤبد.

واذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليها الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلاً، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم.

وأيضاً: من نظر في حكمة الشريعة ووجه الرحمة بها على العباد، حتى أنزل آية طويلة لبيان المداينة ليهتدي بها الى حفظ دينه، فمن هداهم طريق حفظ دينهم فكيف لا يحفظ لهم طرق دينهم الذي لا عوض لهم منه.

المطلب الثالث
في الخوف

وقد عرفت حقيقته: وهي تألم القلب بسبب توقع مكروه في الاستقبال. فالخوف من الله تارة يكون بمعرفة الله ومعرفة صفاته، وانه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع؛ وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد؛ وتارة يكون بهما جميعاً. فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: « أنا أخوفكم لله »؛ وقال الله تعالى: ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾(١).

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٨.

ثم اذا كملت المعرفة أورثت حال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثره على البدن والجوارح والصفات.

أما في البدن: فالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء، وقد تنفتق به المرارة فيفضي الى الموت، أو يصعد الى الدماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس.

وأما في الجوارح: فيكفها عن المعاصي و يقيدها بالطاعات.

وأما في الصفات: فيقمع الشهوات و يكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذل والخشوع، و يفارقه الكبر والحسد والحقد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، ولا يكون له شغل الا المراقبة والمحاسبة، والضنة بالأنفاس والخطوات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات. وهذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمنع. من المحظورات و يسمى ورعاً، فان زادت قوته حتى كف عما لا يتيقن حرمته يسمى تقوى؛ وهو أن يترك ما يريبه الى ما لا يريبه، وقد يزاد عليه فيترك ما لابأس به مخافة ما به بأس فهو الصدق في التقوى، فإذا انضم اليه التجرد في الخدمة بأن لا يصرف الى غير الله أصلاً فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً، والصديق يتضمن التقوى والورع والعفة.

ثم أن الخوف ليس كلما كان أقوى كان أحمد قدر ما يسوق العبد الى العلم والعمل. وأما ما خرج الى حد اليأس فيسمى القنوط لا الخوف، وقد يخرج الى المرض والضعف والوله والدهشة وزوال العقل بل الموت، وكل ذلك مذموم.

وأيضاً: الخوف القاصر الذي يعقبه الغفلة قليل الجدوى ضعيف النفع؛ كمن يسمع آية ويخاف منها و يرق رقة النساء ثم يعود الى الغفلة، ومثل ذلك يسمى حديث النفس دون الخوف.

فان قلت: من مات من الخوف يكون شهيداً فكيف يذم، قلت: محمودية الشهادة بالاضافة الى أن لو مات بلا شهادة، واما بالاضافة الى مالو عمر وصل بواسطة الخوف المحمود درجات الولاية فكلا، بل له في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء.

ثم الخوف اما من المكروه لذاته؛ كنفس النار، أو لغيره؛ كالموت قبل التوبة، أو خوف نقض التوبة وزوال الرقة من القلب، أو خوف أن يكله الله إلى حسناته، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم، أو خوف الخاتمة وإن كان حال العارفين خوف السابقة لأن الخاتمة تبع لها. وهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد منها طريق الحذر.

وأيضاً: الخوف أما من المعصية وهذا خوف الصالحين، أو من الله تعالى وهذا خوف الموحدين والصديقين، لأن هذا الخوف لا يزول عند الطاعة أيضاً، لأن من عرف أن الطاعة والمعصية كلاهما بقضاء الله وقدره، وأنه تعالى خلق هؤلاء للجنة ولا يبالي وخلق هؤلاء للنار ولا يبالي، وهو الذي خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة للمطيع وللعاصي، ولم يعرف ما الذي أوجب تخصيص هذا بأرادة الطاعات، وتخصيص ذاك بتسليط دواعي المعصية عليه، ولم يعرف كيفية احالة ذلك على العبد، فإذا كانت الحوالة ترجع الى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة، فالخوف ممن يقضي بما شاء ويحكم ما يريد جزم على كل حال، هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز افشاؤه.

ثم أن الخوائف من نفس المكروه: من أحوال الموت والقبر، وأهوال المطلع والحشر، والوقوف بين يدي الله، والخوف من السؤال والصراط والميزان، والخوف من الحرمان عن الجنان، ونحو ذلك. وهذا خوف العابدين والزاهدين. وأعلى ما ذكر من المخاوف هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين.

المطلب الرابع

اعلم: أن فضيلة الخوف ثابتة بالنقل والعقل. أما النقل، فمن حيث أنه تعالى جمع للخائفين مجامع مقامات أهل الجنان: الهدى والرحمة والعلم

والرضوان. قال عز وجل: ﴿هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾[1]؛ وقال تعالى: ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فوصفهم بالعلم لخشيتهم؛ وقال عز وجل: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾[2].

وروى أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية الفضيل، وقيل: هو موقوف على الفضيل: «من خاف الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء».

وأما العقل: فلأن فضيلة الشيء بقدر اعانته في الافضاء الى سعادة لقاء الله عز وجل، ولا شيء أنفع في الوصول الى هذه السعادة الا بمحبته تعالى والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة الا بالمعرفة، ولا تحصل هي الا بدوام الفكر. وأيضاً: حصول الأنس بالمحبة ودوام الذكر، ولا يمكن المواظبة على الذكر والفكر الا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك الا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات الا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف، فإذا هو أصل لأسباب السعادة. وأيضاً كل ما ورد في مذمة الأمن فهو فضيلة الخوف.

واعلم: أن الناس اختلفوا في أن الأفضل غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو مساواتها؟ والجواب الحق فيه: أن الخوف والرجاء دواء، وفضل الدواء بحسب الداء الموجود، فان كان الغالب داء الأمن فالخوف أفضل في حقه، وان كان الغالب هو اليأس فالرجاء أفضل، وكذلك ان كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل؛ وأما العبد التقي الذي ترك ظاهر الأثم وباطنه خفيه وجليه، فالأصلح له أن يعتدل خوفه ورجاؤه.

ويمكن أن يقال: الخوف أفضل مطلقاً لكن بتأويل ان مرض المعصية والاغترار في... غلب في الناس الرجاء وأما ان نظر الى أن مطلع الخوف بحر الغضب ومطلع الرجاء بحر الرحمة، يقال: الرجاء أفضل، لأن من نظر الى

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٤.

(٢) سورة البينة، آية: ٨.

صفات الرحمة واللطف يعقبه المحبة التي هي منتهى المقامات، ولا كذلك النظر الى صفات القهر والغضب.

ولكن لا تتوهم من ذلك أن الأفضل غلبة الرجاء للعبد، اذ لا يلزم من فضل الرجاء في نفسه فضيلته للعباد المبتلين بالأمراض، بل اللائق بهم الخوف لئلا يقعوا في الغرور فيهلكوا، إذ الرجاء للعصاة غرور. وأما الصالحون وإن كان ظاهر حالهم الرجاء، لكن دقائق الصفات الذميمة الدفينة في القلب وجهالة حال العاقبة يعارض ظاهر أحوالهم، فيتساوى لهم الخوف والرجاء. فالخوف غالب للعصاة، والخوف والرجاء متساويان للصالحين، ولا يمكن غلبة الرجاء بحال أصلاً إلا عند الموت، إذ لا حاجة له إلى سوط يبعثه على العمل لانقطاع احتمال العمل عنه، وأيضاً: لا يطيق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، فإذا يضره دواء الخوف، بل الدواء له الرجاء، فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، لأن غاية السعادة أن يموت العبد وهو محب لله تعالى.

المطلب الخامس

في دواء يستجلب الخوف

واعلم: أن أول مقامات الدين اليقين، وهذا يهيج خوف النار ورجاء الجنة، وهما يقويان على الصبر، فان الجنة حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها الا بقوة الرجاء، والنار حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها الا بقوة الخوف. ثم يؤدي الصبر المستفاد من الخوف والرجاء الى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله والفكر فيه على الدوام، ويؤدي دوام الذكر الى الأنس، ودوام الفكر الى كمال المعرفة، ويؤدي كمال المعرفة والأنس الى المحبة، ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات.

ثم **أن الخوف يحصل بطريقين؛ أضعفهما:** الخوف من النار ورجاء الجنة بالايمان التقليدي، ولا يدري وجه الخوف والرجاء؛ **واعلاهما:** أن يخاف البعد والحجاب عن الله عز وجل ويرجو القرب منه. وهذا الخوف هو خوف العلماء وأرباب القلوب.

وقد تقدم كيفية الخوف من الله تعالى بأن الله سبحانه خلق للعذاب أسباباً وللثواب أسباباً، وخلق لك أهلا يسوقهم القدر والمفرع عن القضاء: الجزم الالهي، الى ما خلقوا له وسخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا. فهذه مخاوف العارفين بسر القدر. وكان خوف نبينا صلى الله عليه وسلم أكثر من غيره، وهو سيد الأولين والآخرين.

وأيضاً: حكايات الصحابة في باب الخوف مذكورة في كتب المناقب، حتى أن بعضاً منهم صاح صيحة ومرض مدة، وبعضاً منهم شهق شهقة حتى مات.

ثم أن أكثر خوف العارفين من سوء الخاتمة، وأن سببه أمور مقدمة: منها البدع، ومنها المعاصي، ومنها النفاق، ومتى يخلو العبد عن جملة ذلك. وان ظن أنه قد خلا عن ذلك فهو نفاق اذ قيل: من أمن النفاق فهو منافق.

أما سوء الخاتمة فلها رتبتان:

أحداهما؛ وهي الأصل، وهو أعظمها: ان يغلب على القلب عند سكرات الموت أما الشك واما الجحود، فتقبض الروح في تلك الحال، فيكون حجاباً بينه وبين الله أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

وثانيتها: أن يغلب عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، ويستغرق قلبه ولا يبقى متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحالة، فيكون قلبه به منكساً رأسه الى الدنيا وصارفاً وجهه اليها، فيحصل له الحجاب، فينزل عليه العذاب، اذ لا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه، اذ لا تصرف في القلوب الا بأعمال الجوارح، وقد بطلت الجوارح بالموت، فلا مطمع في عمل ولا في رجوع الى الدنيا ليتدارك، وعند ذلك تعظم الحسرة.

الا أن أصل الايمان وحب الله اذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة؛ وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة، فأنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت. فان كان ايمانه قوياً يخرجه من النار في زمان أقرب، وان كان أقل

من ذلك طال مكثه، وان كان مثقال حبة فلا بد أن يخرجه ولو بعد آلاف سنين..

ثم ان هذا العذاب لا يؤخر الى الحشر بل يعذب في القبر، بما هو مذكور في الأخبار، ثم في الحشر وعند السؤال وعند الصراط، الى غير ذلك. وأما محل الايمان فهو الروح، لا يفنى فيعاد اليه الأجزاء الأصلية للبدن، ثم يحشر و يعذب الى أن يغلب عنده الايمان.

ثم أنهم حصروا أسباب سوء الخاتمة في نوعين:

أحدهما: الختم على الشك والجحود وان كانت أعماله صالحة، وذلك نوعان:

أحدهما: أما بأن يعتقد بدعة أما بعقله القاصر وأما بتقليد مبتدع، فاذا وقع سكرات الموت بدا له بطلان اعتقاده، وربما ظن أن جميع عقائده باطلة أو مشكوك فيها، فان ختم قبل أن يتثبت و يعود الى أصل الايمان ختم بالسوء والعياذ بالله.

ولهذا منع السلف من البحث والنظر في علم الكلام. والبله بمعزل عن هذا الخطر، ولهذا قيل: ان أكثر أهل الجنة البله، لأن البحث عن الصفات عظيم وعقباتها كؤودة ومسالكها وعرة، والعقول عن درك جلال الله متحيرة. وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطربة ومتعارضة، سيما في هذا الزمان قد استرخى العنان وفشا الهذيان، واكتفى كل أحد بظن وحسبان، و يعتقد أن ذلك علم واستيقان، وانه صفو الايمان، و يظن أن ما قنع به من حدس وتخمين هو علم اليقين، ولتعلمن نبأه بعد حين. و ينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء قول الشاعر:

أحسنت ظنك بالأيام اذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي واغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وثانيها: ضعف الايمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب، اذ يورث ذلك الانهماك في الشهوات حتى يظلم القلب و يسود و يقسو، ولا يزال

يطفو نور الايمان حتى يصير طبعاً ويناً، فاذا جاء الموت واستشعر فراق الدنيا وهي المحبوب الأغلب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا و يرى ذلك من الله، فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهته من حيث أنه من الله، فيخشى أن يثور من باطنه بغض الله بدل الحب، فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً، فالسبب في ذلك حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال الذي عم أصناف الخلق من الجهال.

النوع الثاني

من أنواع سوء الخاتمة

الذي هو دون الأول وليست مقتضية للخلود في النار، فلها أيضاً سببان: أحدهما كثرة المعاصي وان قوي الايمان، والآخر: ضعف الايمان وان قلت المعاصي. وذلك لأن القلب الى مألوفه أميل، فان كان مألوفه المعاصي يتقيد بذلك و يصير محجوباً عن الله تعالى: وهذا الميل يتفاوت بقلة المعاصي وكثرتها، وبتواتر المعاصي ساعة فساعة، و يفصلها بزمان كثير.

وقد ظهر لك بهذا ان الأمن من سوء الخاتمة: بأن يرى الأشياء كما هي عليه من غير جهل، و يزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية. ومع ذلك فأعمال العمر كلها ضائعة ان لم تسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، فان سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكل جداً. فاشتغل بالاستعداد لذلك، وواظب على ذكر الله، وأخرج من قلبك حب الدنيا، وأحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك، واحترز من مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك.

وإياك أن تسوف وتقول: سأستعد له اذا جاءت الخاتمة، فان كل نفس خاتمتك يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك في كل تطريفة، واذا نمت فاياك أن تنام الا على طهارة الظاهر والباطن، وان يغلبك النوم الا بعد غلبة

ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك، فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر.

واعلم: أنه لا يغلب على قلبك عند النوم الا ما كان غالباً قبله، ولا يغلب في النوم الا ما كان غالباً عنده، فالموت والبعث شبه النوم واليقظة، ولا يموت المرء الا على ما عاش عليه، ولا يحشر الا على ما مات عليه، فإياك أن تغفل عن الله طرفة عين، وانت اذا غفلت عنه ساعة في خطر عظيم، فكيف اذا غفلت عنه يوماً أو أياماً. ولا يمكن ذلك الا بأن تكتفي من الدنيا بقدر الضرورة، وتترك الفضول من المآكل والملابس والمساكن. نسأل الله أن يتوب علينا ويختم لنا بالخير و يقينا سوء الخاتمة انه كريم رحيم.

الأصل الرابع

في الفقر والزهد

وفيه مطالب :

المطلب الأول

في حقيقة الفقر

اعلم: أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج اليه، وأما فقد ما لا حاجة اليه فلا يسمى فقراً. وان كان المحتاج اليه مقدوراً عليه موجوداً لم يكن المحتاج فقيراً. واذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج اليه في دوام الوجود في ثاني الحال: ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾[1] الا أن المبحوث عنه في هذا الباب هو الفقر في المال.

واعلم: ان فاقة المال له خمسة أحوال.

أحدها: الزهد. وهو أن يتأذى بوجود المال ويهرب من أخذه، يبغضه و يتحرز من شغله.

وثانيها: الرضاء. لا يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى به، ولكن يزيد فيه لو آتاه.

وثالثها: القناعة. وهي أن لا ينهض لطلبه، وان أتاه عفواً صفواً أخذه ولو بالتعب.

---

(١) سورة محمد، آية: ٣٨.

ورابعها: الحرص. وهو أن يرغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً الى طلبه لطلبه ولو بالتعب.

خامسها: الاضطرار. وهو أن يكون مضطرأ الى ما فقده من المال؛ كالجائع الفاقد للخبز، وقلما ينفك هذا عن الرغبة أما الضعيفة أو القوية.

وأعلى هذه الدرجات الزهد، سيما اذا انضم اليه الاضطرار فهو أقصى الدرجات. ووراء هذه الدرجات مرتبة أعلى من جميعها ويخص باسم المستغني، وهو الغني عن دخول المال في يده، وعن بقائه في يده، وعن خروجه من يده، فانه ليس يتأذى به ليحتاج الى اخراجه، وليس فاقداً له ليحتاج الى الدخول في يده، فهو الى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب.

ولا نسميه غنياً بل مستغنياً، اذ الغنى المطلق هو الغنى عن كل شيء وهو يختص بالله سبحانه وتعالى، وأما هذا العبد فانما يستغني عن المال وجوداً وعدماً، لا عن أشياء أُخر سيما توفيق الله الذي زين هذا في قلبه. وهكذا كانت حال عائشة رضي الله عنها، اذ أتاها مائة الف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها في يومها، فقالت لها خادمتها: لو أشتريت لنا لحماً بدرهم، فقالت: لو ذكرتني لفعلت. فمن هذا حاله لو كانت الدنيا في يده وخزانته لم تضره، اذ هو يرى الأموال في خزائن الله لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن يكون في يد نفسه أو في يد غيره.

الا أنه ينبغي أن لا ينظر الى الدنيا أصلاً لا بنظر المحبة، وذلك ظاهر اذ لا يجتمع في القلب محبتان، ولا بنظر البغض لأن ذلك أيضاً التفات عن المحبوب الى غيره، بل الكمال أن لا يلتفت الى غيره بغضاً وحباً، فانه كما لا يجتمع حبان في قلب واحد كذلك لا يجتمع حب وبغض، اذ المشغول ببغض الدنيا غافل عن الله تعالى كالمشغول بحبها، وانما الفرق أن الغافل بحبها سالك طريق البعد والغافل ببغضها سالك طريق القرب، اذ يمكن أن يتوسل بذلك الى أن تتبدل هذه الغفلة بالشهود.

وانما الكمال في أمر المال: أن يستوي عندك الماء والمال، اذ لا يؤذيك

كثرة الماء في جوارك بأن تكون على شاطىء البحر، ولا قلته الا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج اليه كالماء. فلا يكن قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء وتبغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر حاجتي، واسقي منه عباد الله بقدر حاجتهم ولا أبخل به على أحد.

واذا عرفت الله عز وجل ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حياً، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء وأنت لا تضطرب للماء، فلأي شيء تضطرب للقوت مع أن المدبر في كليهما واحد.

ثم **أنك لعلك تقول:** أن مذمة الدنيا في الآيات والأخبار توجب البغض والفرار لمن يخاف عليه أن يخدعه المال ويدعوه الى الشهوات، كما هو حال الضعفاء وهم الأكثرون، والا فالأقوياء لا يلزمهم الفرار ولا يجب عليهم البغض، فمن يكون أقوى من النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا، ولم يكن عندهم حبها ولا الأشتغال ببغضها، وانما استوى عندهم الماء والمال والذهب والحجر.

وما ينقل من الفرار عن الأقوياء فانما ذلك لئلا يقتدى في الأخذ الضعفاء فيهلكوا.

فظهر مما سبق أن المراتب ست، وان أعلاها المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص. وأما المضطر فيتصور في حقه أيضاً الزهد والرضا والقناعة، ودرجته مختلفة باختلاف هذه الأحوال.

المطلب الثاني
في فضيلة الفقر

أما بالآيات والأخبار فأكثر من أن يحصى.

وأما فضيلته على الغنى مطلقاً فقد لا يستريب في ذلك أحد ممن قرأ الأخبار والآثار، لكن لا بد فيه من تفصيل:

وهو: ان الشك ههنا في مقامين:

أحدها: فقير صابر قانع، وغني منفق ماله في الخيرات ليس حريصاً على امساك ماله. واما الغني المتمتع بالمباحات فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع أصلاً.

ثم الناس اختلفوا وقال بعضهم: ان الغني أفضل لأنهما متساو يان في ضعف الحرص، و يفضل الغني بالخيرات. وقال آخرون: الفقير أفضل لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، والعبد بقدر استئناسه بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، مهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافي القلب عن الدنيا وزهرتها الى محبة الله تعالى، اذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود الا الله عز وجل وغيره، فيكون اقبال القلب الى أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقر به من أحدهما بحسب بعده عن الآخر، فإذا المانع عن محبة الله تعالى هو محبة الدنيا.

والمحبة قد تكون مع وجودها كما في محبة الغني الدنيا، وقد تكون مع فقدها كما في محبة الفقير الدنيا. فإذا الفقر قد يكون من الشواغل اذ قد يطلبها و يشتغل بطلبها، كما أن الغنى من الشواغل لأجل طلبها.

فاذا ان فرضت فارغين عن حب المال أحدهما فاقد والآخر واجد فهما متساو يان، اذ كل واحد غير متمتع الا بقدر الحاجة. الا أن هذا المفروض نادر في الوجود، وانما الأكثر افتتان الفقر بالضراء والغنى بالسراء.

فقد ذكر المحققون: أن الفقر ابعد عن الخطر، اذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، وقالوا: ان من العصمة أن لا يقدر. ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك الفاذ النادر زجر عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه.

فإذا عرفت ان الفضل بينهما بحسب تعلق القلب بالمال وعدمه، حتى ان تساو يا فيه تساوت درجتهما، فاعلم: ان ههنا مزلة قدم وموضع غرور، وهو أن

الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن حب المال و يكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، فليجرب نفسه بتفريقه أو اذا سرق منه، فان وجد لقلبه اليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً، وهذا حال كل الأغنياء سوى الأنبياء والأولياء. فظهر منه أن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل، ولهذا ورد فضل الفقر في الأخبار والآثار وكلمات المشايخ.

المقام الثاني: في نسبة الفقير الحريص إلى الغني الحريص؛ فإن كان مطلوبها قدر الحاجة في أن يستعين بذلك على طريق الدين فحال الواجد أفضل، لأن الفقد يشغله بالطلب؛ وإن كان مطلوبها فوق الحاجة، أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على طريق الدين، فحالة الفقر أفضل وأصلح، لأنهما وإن استويا في الحرص وحب المال، وفي عدم الاستعانة على الدين، وفي عدم التعرض للمعاصي بسبب الفقر والغنى، ولكن افترقا في أن الواجد يأنس بما وجه فيتأكد حبه في قلبه و يطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا، وتكون الدنيا عنده مثل السجن الذي ينبغي الخلاص منه. وأنس الواجد أكثر من أنس الفاقدين وإن حريصاً، فإذا الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق، إلا بمثل عائشة رضي الله عنها حيث استوى عندها الغني والعدم، وإلا للفقير عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفراً.

المطلب الثالث

في آداب الفقير في فقره

أما باطناً: فأن لا يكره الفقر من حيث أنه فعل الله، وان كان يكره الفقر كمن يكره الحجامة و يتقلد على الحجام منة على فعله. وأرفع من هذا أن لا يكره الفقر أيضاً. وأرفع منه أن يطلبه و يفرح به لعلمه بغوائل الغنى، و يتوكل في باطنه على الله واثقاً في قدر ضرورته، وأنه يأتيه لا محالة و يكره الزيادة على الكفاف.

وأما ظاهراً: فأن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر بل

يستر فقره و يستر أنه يستره؛ قال تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾[1]. وأن لا يتواضع لغني لغناه بل يتكبر عليه، ولا يخالط الأغنياء، ولا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء، وأن لا يفتر بسبب فقره عن عبادته، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فان ذلك جهد المقل وهو أفضل من صدقة عن ظهر غنى، وأن لا يدخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي.

وفي الادخار ثلاث درجات: درجة الصديقين؛ ان لا يدخر الا ليومه وليلته؛ ودرجة المتقين: وهي أن يدخر لأربعين يوماً وما زاد عليه داخل في طول الأمل، وقد فهموا ذلك من ميعاد موسى عليه السلام حيث فهموا الرخصة في أمل أصل الحياة أربعين يوماً؛ ودرجة الصالحين: وهو أن يدخر لسنة، ومن زاد في الادخار على السنة فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية.

وأما آدابه في قبول المال بغير سؤال: فأما في نفس المال؛ فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات، وأما في المعطي، فان كان غرضه تطييب قلبه وهي الهدية، أو طلب الثواب وهي الصدقة أو الزكاة أو الذكر والرئاء والسمعة، أما مجرداً أو ممزوجاً ببقية الأغراض. أما الهدية فلا بأس بقبولها فان ذلك سنة، الا أن يكون فيها أو في بعضها منة فيترك ذلك أو قدر ما فيه منة.

وأما الثواب: فان كان زكاة فلينظر أنه مستحق لذلك أم لا، وفية شبهة، وقد مر أحكامه في كتاب الزكاة؛ وان كان صدقة و يعطيها المتصدق لدينه فلينظر أن فيه أمراً خفي لو علمه المتصدق لنفر عنه فهذا حرام أخذه، وأما الرئاء والسمعة فينبغي أن يرده عليه.

وأما آدابه في الأخذ: فبأن ينظر أنه محتاج اليه، فالأفضل له الأخذ ان سلم من الآفات المذكورة في المعطي أو زائد على قدر حاجته. فان كان الآخذ مشتغلاً بنفسه فلا وجه لأخذه وامساكه ان كان طالباً لطريق الآخرة فان ذلك

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

محض اتباع الهوى. ثم هو أما أن يأخذ علانية و يرد سراً وهذا مقام الصديقين، وهو شاق على النفس لا يطبق الا من اطمأنت نفسه بالرياضة؛ واما أن يترك ولا يأخذ لصرفه صاحبه الى من هو أحق منه، و يأخذ و يوصله الى من هو أحوج منه. ثم هو اما أن يفعل كلاهما في السر وفي العلانية، وقد ذكرنا الأفضل من هذه الأقسام في كتاب أسرار الزكاة. فالامتناع عن القبول هو الزهد. وأخذه وصرفه الى محتاج هو غاية الزهد ولا يقدر عليه الا الصديقون.

وأما ان تعهدت جماعة من الفقراء فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زائد على حاجة الفقراء، و بادر الى الصرف اليهم ولا تمسكه ولو ليلة واحدة، اذ ربما تستحليه فتمسكه أزماناً كثيرة الى أن تؤدي الى فتنة عظيمة. وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة وتوسلوا بها الى التنعم في المطاعم والمشارب، وذلك هو الهلاك. ويجوز لهم الاستقراض للفقراء طلباً للثواب، لكن لا على اعتماد أموال السلاطين الظلمة بل على حسن الظن بالله تعالى، فان مات قبل القضاء قضى عنه وأرضى غرماءه، ولكن بشرط أن يكشف حاله عند المقرض لئلا يغره ويخدعه بالمواعيد، ودين مثل هذا الرجل يجب أن يقضي من بيت المال أو من الزكوات.

المطلب الرابع
في تحريم السؤال من غير ضرورة

وقد وردت الأخبار في تحريمه وجوازه. والتوفيق بينهما أنه حرام في الأصل مباح للضرورة أو لأمر قريب منها.

أما حرمته فلأمور: اظهار الشكوى من الله تعالى بالسؤال لأنه اظهار القصور نعمة الله تعالى عنه، وأيضاً: هو اذلال النفس لغير الله وليس للمؤمن أن يذل نفسه وذلك في الذلة لغير مولاه، وأما هي فعزة حقيقة، وأيضاً: فيه ايذاء المسؤول غالباً وهو حرام، اذ ربما لا تسمح نفسه بما يبذله عن طيبة قلب، وان بذله رئاء أو حياء فأخذه حرام عليه.

وأما وجه اباحته أما اضطرار؛ كسؤال الجائع الخائف عن الموت أو المرض، وسؤال العاري وليس معه ما يواري بدنه، وأما احتياجه حاجة مهمة لا تبلغ حد الاضطرار؛ كمن له جبة لكنه يتأذى بالبرد، وكمن يريد الكراء وهو قادر على المشي لكن بتعب، وهذا المحتاج يحل له السؤال أيضاً ولا يكره.

وأما الحاجة الخفيفة؛ كمن يريد ثوباً على ثيابه يريد ستر خروقها عن أعين الناس، وكمن يسأل الرجل الادم وله خبز، وكمن يكتري الفرس وهو واجد كراء حمار. وهذه ان أظهر حاجة غير هذه فهو حرام، والا فالسؤال مباح مع الكراهة، بشرط أن لايصحبه المحذورات الثلاث من الشكوى او الذل أو الايذاء، وان صحبته هذه الأمور فيحرم لأن المصلحة المذكورة لا يباح بها هذه المحذورات.

فان قلت: هل يمكن الخلو عن هذه المحذورات؟ قلت: يمكن؛ اما عن الشكوى: بأن يظهر الشكر لله و يقول: أنا مستغن حقيقة لكن رعونة النفس تطالبني بثوب فوق ثيابي هذه، وهو فضلة عن الحاجة؛ أما الذل: فبأن يسأل قريبه أو صديقه أو كريما يفرح بمثل هذا و يتقلد منة لقبوله؛ وأما الايذاء: فبأن يلقي الكلام عرضاً أو يسأل من لا يستحيي فان الحياء مما يؤذي، حتى ان علم أنه أعطاه لأجل الحياء فذلك المال حرام بل بمنزلة الأخذ بالضرب، لأن سوء الباطن الحياء وخوف الملام، وهذا أشد نكاية من ضرب الظاهر بالسياط ورضا الظاهر، وان كان عذراً في القضاء لعدم امكان الاطلاع على البواطن، وأما الذي يكون القلوب عنده كالألسنة وهو أحكم الحاكمين فلا يفيد الظاهر عنده شيئاً — ويجب رده على صاحبه عنده. فلا تنظر في مثل هذا الا الى قلبك وان أفتوك وأفتوك، ولكن حال القلب خفياً تورع عن السؤال المتقون إلا إذا بلغ حداً يحل فيه الخنزير والميتة.

ومنهم من يثق ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال، فيأخذون من بعض دون بعض. ومنهم من لا يأخذ الا من أصدقائه، أو عند بلوغ الحال حد الاضطرار.

وبالجملة: الأخذ بالرضا بأن يعلم أن المسؤول لو علم لابتدأ بالعطاء، فلا يكون منك الا أعلام حاجتك فهو حلال، والأخذ بالحياء حرام، وبينهما أمور مشتبهات، فاستفت فيها قلبك.

واعلم: ان مقدار الغنى المحرم للسؤال يتوقف على تفصيل وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لاحق لابن آدم الا في ثلاث: طعام يقيم به صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يسكنه فما زاد فهو حساب». **هذه أجناسها.**

وأما أقدارها: فالثوب مثلاً يراعي فيه ما يليق بذوي الدين، وهو ثوب واحد: قميص ومنديل وسراويل ومداس. وكذا أثاث البيت لا يطلب كون الأواني من النحاس والصفر فيما يكفي في الخزف، فيقتصر العدد على واحد، ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة. وأما الطعام فقدره في اليوم مد وهو ما قدره الشرع، ونوعه ما يقتات ولو الشعير، والأدم على الدوام فضلة، وقطعه بالكلية اضرار، وفي طلبه في بعض الأحوال رخصة. وأما المسكن فأقله ما يجزي من حيث المقدار وذلك من غير زينة.

ثم هذه الأمور مما يحتاج اليه حقيقة. ثم الحاجة اليها: أما في الحال، من طعام يوم وليلة، أو ثوب يلبسه، أو مأوى يسكنه، فلا شك في حل السؤال له؛ وأما في المستقبل فثلاث درجات: أما ما يحتاج اليه في غد أو بعد أربعين يوماً أو خمسين أو بعد سنة، فالسائل الذي له ولعياله قوت سنةو فسؤاله حرام لأن ذلك غاية الغنى. وأما ما دون السنة فلا يحل له السؤال أن كان غنياً في الحال، الا أن يخاف فوت الفرصة في الاستقبال بأن لا يجد من يعطيه اذا أخر، لأن البقاء سنة ممكن عادة. وان كان خوف العجز في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهة.

وبالحقيقة: جانب ترك السؤال أعلى، لأن السؤال من ضعف اليقين، والاصغاء الى تخويف الشيطان. وحال من يسأل الحاجة وراء يومه، وحال من ملك مالاً موروثاً وادخره لحاجة وراء السنة سيان في كونهما حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله، وان كانا مباحين في الفتوى الظاهرة والله أعلم.

المطلب الخامس
في حقيقة الزاهد وفضيلته

وهو انصراف الرغبة عن الشيء الى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فحاله بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهداً، وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة وحباً، فلا بد في الزهد من مرغوب عنه ومرغوب فيه. ويشترط أن يكون المرغوب عنه مرغوباً فيه بوجه من الوجوه؛ فتارك التراب والحجر مثلاً لا يسمى زاهداً، وبشرط أن يكون المرغوب فيه خيراً من المرغوب عنه عنده فالمشترى خير من المبيع عنده.

فكل من باع الدنيا بالآخرة وبالعكس فهو زاهد في وضع اللسان، الا أن العرف جرى بتخصيصه بالأول. والذي يرغب عن كل ما سوى الله فهو زاهد مطلق، والذي يرغب عن الدنيا بل طمع في الحور والقصور فهو زاهد أيضاً ولكنه دون الأول، والذي يترك بعضاً من حظوظ الدنيا ــ كأن يترك المال دون الجاه ــ فلا يستحق اسم الزهد مطلقاً وان جاز اطلاقه عليه، كما أن اطلاق التوبة على من يتوب عن بعض المعاصي وان كانت توبة، لكن التائب مطلقاً من يتركها كلها. ثم ان المقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً بل العرف خصه بترك المباحات.

فظهر من هذا كله: أن الزهد رغبة عن الدنيا الى الآخرة، وعن غير الله الى الله عز وجل، وهي الدرجة العليا.

ثم أنه يشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، كما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده. ولذلك قيل لأبن المبارك: يا زاهد، فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففيما ذا زهدت؟

هذا الذي ذكرناه هو الحال المسمى بالزهد. وان هناك علماً مثمراً لهذه الحال، وعملاً يثمره الحال.

أما العلم: فهو معرفة كون المتروك حقيراً بالاضافة الى المأخوذ، ولا شك

ان ما عند الله باق، وان الآخرة هي خير وأبقى. وهذه المعرفة وان كانت كافية في نفسها في كونها مثمرة للزهد، لكن قد لا تثمره، أما الضعف عمله وبقيته أو لاستيلاء الدنيا والشهوة عليه في الحال بكونه مقهوراً في يد الشيطان، وأما لأغتراره بالتسويف يوماً فيوماً.

وأما العمل الصادر عن الزهد: فهو ترك وأخذ واستبدال الذي خير بالذي هو أدنى. وأما اذا لم تقدر على الدنيا لم يتصور منك الزهد، لأن الترك بعد القدرة. الا أن الشيطان ربما يخيل اليك أنك زاهد وتارك للدنيا اذا أتاك، وهذا غرور باطل فلا تثق بالقدرة قبل التجربة. ثم أن الزاهد تركها لحقارتها لا لأجل السخاء واستمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، لأن هذه من محاسن العادات ولا مدخل لها في العبادات.

بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة عفواً صفواً وهو قادر على التنعم بها ــ من غير نقصان جاه وقبح اسم وفوات حظ آخر للنفس ــ فتركها خوفاً من أن يأنس بها فيكون مشركاً في حب الله، أو تركها طمعاً في ثواب الآخرة، فترك التمتع بملاذ الدنيا طمعاً في طيبات الجنة، لئلا يقال له: ﴿اذهبتكم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾[1]... الآية.

وأما فضيلة الزهد: فمذكورة في الآيات والأخبار والآثار لا يحتاج الى تفصيلها، بل كل فطرة سليمة تحكم بفضيلتها اذا خليت ونفسها.

المطلب السادس
في درجات الزاهد وأقسامه

أما درجاته فثلاث:

السفلى منها للمتزهدين: وهو أن يزهد في الدنيا وقلبه مشته لها، ولكنه يجاهدها ويكفها. وهذا على خطر، اذ ربما تغلبه نفسه فيستريح اليها في قليل أو كثير.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٠.

والعليا منها: أن يزهد طوعاً و يزهد في زهده فلا يرى زهده، اذ لا يرى أنه ترك شيئاً، والدنيا بالاضافة الى الآخرة أخس من الخنفساء بالاضافة الى الجوهرة؛ ومثل ذلك بأن ألقي لقمة الى كلب منعه عن الدخول الى باب الملك وشغله بها، ودخل ونال القرب عنده، والدنيا أقل من لقمة عند الله فكيف لا تلقيها الى شيطان يمنعك عن القرب الى الله تعالى.

وأما الدرجة الوسطى: فهي أن يرى الدنيا شيئاً ولكن يحتقرها بالاضافة الى الآخرة و يتركها لأجلها، كالذي يترك الدرهم لدرهمين وان كان منتظراً انتظاراً قليلاً. وهذا الزاهد يرى زهده و يلتفت اليه، و يظن نفسه أنه ترك ماله قدراً لما هو أعظم قدراً منه، وهذا أيضاً نقصان.

ثم أن للزهد درجات ثلاث بالاضافة الى المرغوب فيه أيضاً:

الأولى، وهي السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر الأهوال، وهذا زهد الخائفين.

والثانية: أن يرغب في الثواب والنعيم، وهذا زهد الراجين.

والثالثة؛ وهي العليا: أن يرغب في الله تعالى وفي لقائه، ولا يلتفت الى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا الى اللذات ليقصد نيلها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى، وهو الذي أصبح وهمه هم واحد، وهو الموحد الذي لا يطلب غير الله. وهذا زهد المحبين والعارفين.

وأما أقسامه باعتبار المرغوب عنه فأربعة:

أحدها: أن يزهد عن كل ما سوى الله حتى عن نفسه.

وثانيها: أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة: من الشهوة والغضب والكبر والجاه ونحوها.

وثالثها: أن يزهد في المال والجاه وأسبابها لأنهما مرجع جميع الحظوظ.

ورابعها: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم، لأن الدينار والدرهم يجمعان جميع الأموال.

وهذا اجمال. **وتفصيله مما يفوقه الحصر.** وقد ذكر الله تعالى سبعة منها في آية واحدة فقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا.﴾(١)؛ ثم ردها الى خمسة في آية أخرى فقال: ﴿أعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾(٢)؛ ثم ردها الى اثنين في آية أخرى فقال: ﴿وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو﴾(٣)؛ ثم رد ذلك كله الى واحد في موضع آخر فقال: ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾(٤) لأن الهوى يجمع الكل.

ولا يذهب عليك ان لا مخالفة بين هذه التفاصيل بل البعض داخل في البعض، ولذلك اختلفت فيه عبارات السلف، اذ كل منهم ذكر ما عنده في الحال. ولا أجمع مما ذكره أبو سليمان الداراني اذ قال: الزهد ترك كل شغل يشغلك عن الله تعالى.

وأما أقسام الزهد بالاضافة الى أحكامه: أما فرض وهو الزهد في الحرام، أو نفل وهو الزهد في الحلال، أو سلامة وهو الزهد في الشبهات.

وأما درجات الزهد ظاهراً وباطناً فلا حصر لها؛ وأعلاها: زهد عيسى عليه السلام حيث ترك حجراً تحت رأسه، وزهد يحيى عليه السلام حيث لبس مسوحاً تنقب منها جلده، وجلس أويس رضي الله عنه في قوصرة للعرى.

وقال قوم: الزهد لا يكون الا في الحلال ولم يبق حلال في أموال فلا يتصور الزهد في الحال. فان قلت: كيف يتصور الزهد مع انك تأكل وتشرب وتلبس وتخالط الناس؟ قلت: الغرض من الزهد الانصراف الى الله بكل القلب، فالاستعانة بالأمور المذكورة للعبادة ليس اشتغالاً بغير الله؛ فان قلت: تتلذذ بها؟ قلت: التلذذ لا يضر ان كان قصدك الاستعانة للعبادة دون التلذذ بالأمور المذكورة.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤.
(٢) سورة الحديد، آية: ٢٠.
(٣) سورة الأنعام، آية: ٣٢.
(١) سورة النازعات، آية: ٤٠.

المطلب السابع

في تمييز قدر الحاجة عن الفضول ليزهد فيها

أعلم: ان قدر الحاجة ستة أمور:

الأول: المطعم. وله طول وعرض، فلا بد من قصرهما حتى يتم به الزهد.

أما طوله: فجملة العمر. وقصره: دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ولا يدخر أصلاً وهي الدرجة العليا؛ وان يدخر لشهر أو لأربعين يوماً وهذه أوسطها؛ أو يدخر لسنة فقط وهذه أضعفها. وليس وراء السنة شيء من مراتب الزهد.

وأما عرضه: فبالمقدار. وأقل درجاته: في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطها: رطل، وأعلاها: مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في اطعام المسكين، وما وراء ذلك اشباع البطن.

وأما بالجنس: فأقله: كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة، وأوسطها: خبز الشعير والذرة، وأعلاها: خبز البر غير منخول، والمنخول والحوارى من التنعم.

وأما الادم: فأقله: الملح والبقل والخل، وأوسطه: الزيت ويسير من الأدهان أي دهن كان، وأعلاها: اللحم أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فاذا صار دائماً وأكثر من مرتين دخل في التنعم.

وأما بالاضافة الى الوقت: في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائماً وأوسطه: أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، أو يأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه: أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه.

الثاني من الأمور الستة: الملبس. وأقل درجاته: ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة، وهو كساء يتغطى به؛ قميص وقلنسوة ونعلان؛ وأعلاه: يكون معه منديل وسراويل، وما زاد عليه فهو خارج عن الزهد. ويشترط أن لا يجد آخر غسل واحداً منها فلا يكون صاحب قميصين ومنديلين.

أما الجنس: فأقله: المنسوخ الخشنة، وأوسطه: الصوف الخشن، وأعلاه: القطن الغليظ.

وأما من حيث الوقت: فأقصاه: ما يستر سنة، وأقله: ما يبقى يوماً كرقع الثوب بورق الشجر، وأوسطه: ما يتماسك عليه شهراً أو ما يقاربه.

الثالث منها: المسكن. أعلاها: أن لا يطلب لنفسه موضعاً خاصاً و يقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة؛ وأوسطها: أن يطلب موضعاً خاصاً مثل كوخ مبنى من سعف أو خوص ونحو ذلك؛ وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية اما بشراء أو اجارة.

وأما التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد.

واختلاف جنسه بالجص أو الطين أو القصب، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالاضافة الى الأوقات: بأن يكون مملوكاً أو مستأجراً أو مستعاراً.

الرابع منها: أثاث البيت.

وأقل درجاته: الخزف ولا يبالي أن يكون مكسور الطرف اذا حصل به المقصود، وكان عيسى عليه السلام يصحبه مشط وكوز، فرأى انساناً يمشط لحيته بأصابعه فرمى المشط، ورأى آخر يشرب بكفيه فرمى الكوز؛

وأوسطها: أن يكون له أثاث بقدر الحاجة: بأن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد؛ مثل: أن يشرب من قصعة، و يأكل الثريد منها، ويحفظ المتاع فيها؛

وأعلاها: أن يكون له آلة بعدد كل حاجة من الجنس الخسيس النازل.

الخامس: المنكح. وذلك يختلف باختلاف الأحوال. والأصل: الاشتغال عن الله تعالى، فنهم من تشغله المرأة عن الله تعالى فيتركها، ومنهم من يشغله العزوبة فيتزوج، ومنهم من لا يشغله أكثر من واحدة فيجوز له كما فعله خير الزاهدين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وكان علي كرم الله وجهه أزهد

الأصحاب وكان له أربع نسوة بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها وبضع عشرة سرية.

السادس: ما يكون وسيلة الى هذه الخمسة وهو الكمال والجاه وقيل: لا بد من قدر جاه لينتفع به في عبادته؛ كالجاه عند خادمة وأقاربه وغير ذلك، وليتمكن به من دفع مضاره.

الا ان الحق: ان طلب الجاه هاوية لا قعر لها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، بل الاشتغال بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين. وأما التوهمات والتقديرات المحوجة الى زيادة في الجاه فهي أوهام كاذبة.

الأصل الخامس
في التوكل

وفيه مطالب:

المطلب الأول

ولا يخفى عليك فضيلة التوكل، سيما من تتبع الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿ وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[3]؛ وقوله عز وجل: ﴿ ان الله يحب المتوكلين ﴾[2]. وأعظم بمقام موسوم بمحبته تعالى صاحبه ومضمون بكفايته.

وجاء في الحديث: «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». وفي الأحاديث كثرة يعرفها أهلها، وكذا الآثار في حق التوكل.

وأما حقيقته فلا يذهب عليك ان التوكل حال ينبعث من علم ثم يثمر عملاً.

أما العلم: فهو التوحيد الذي هو أصل الايمان، الذي ترجمته قولك: لا اله الا الله وحده لا شريك له، والايمان بالقدر، أعني قولك: له الملك، وبالجود والحكمة، وهو قولك: وله الحمد.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٢٣.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٥٩.

ثم ان أصل التوحيد من علم المكاشفة، ولما كان بعضها يتعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة الا بها، وجب التعرض له قدر ما يتوقف عليه علم المعاملة، والا فهو البحر الخضم الذي لا ساحل له.

فنقول: مراتب التوحيد أربع: لب، ولب اللب، وقشر، وقشر القشر.

فالمرتبة الأولى: قول الانسان: لا اله الا الله بلسانه وقلبه عنه غافل أو جاحد. وحكمه أنه موحد بمجرد اللسان، ويعصمه في الدنيا عن السيف والسنان.

والثانية: أن يصدق بقلبه معنى اللفظ وهو الاعتقاد، وهذا حال عموم المسلمين، ليس فيه انشراح وانفساح. وحكمه انه يحفظه في الآخرة عن عقاب أن توفى عليه ولم يضعف بالمعاصي عقدتها. وتحليلها بالقصد يسمى بدعة وصاحبه مبتدعاً. وقصد أحكامها وشدتها يسمى كلاماً وصاحبه متكلماً.

والثالثة: موحد بمعنى لم يشاهد الا فاعلاً واحداً اذا انكشف الحق على ما هو عليه، اذ لا فاعل بالحقيقة الا واحد.

الرابعة: موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل الا من حيث أنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد.

فالأول كالقشرة العليا من الجوز، والثاني كالسفلى منه، والثالث كاللب منه، والرابع كلب اللب منه، وهو الدهن من الجوز.

فان قلت: كيف يمكن مشاهدة هذه الكثرة واحداً وهي كثيرة في نفسها، فاعلم: ان هذا غاية علوم المكاشفة، التي قال العارفون لعسرها وغموضها وبعدها عن مدارك الخلق: افشاء سر الربوبية كفر. فلا يجوز أن تسطر في كتاب الأقدر سورة استبعادك، بأن تلاحظ الانسان مع كثرتها: من حيث بونها **وروحها وقواها الظاهرة والباطنة**، له جهة واحدة هي الانسانية، فلا تنافي بين هاتين الجهتين. وهذا المثال لأجل التنبيه على مجرد عدم التنافي بين الجهتين لا أنه يطابق الممثل من كل وجه.

فعليك أن تصدق بهذه الحالة وان لم تكن تشاهدها. والمشاهدة أيضاً لا

تدوم لأهلها بل تظهر كالبرق الخاطف، والدوام نادر عزيز الوجود.

ولما كانت الرتبة الرابعة بعيدة عن الافهام، لا جرم بينا التوكل على الرتبة الثالثة. ولنذكر منها قدر ما يرتبط التوكل به: وهو أنه اذا انفتحت لك أبواب المشاهدة، يتضح عندك ان لا فاعل الا الله، وان كان فعل: من التخليق والترزيق والمنع والاعطاء والاحياء والاماتة، وغير ذلك، كلها من ابداع فاعل واحد واختراعه، وهو الله تعالى لا شريك له فيها، وما سواه مسخرون تحت قدرته، لا استقلال لهم أصلاً في ملكوت السموات والأرض ولو بتحريك ذرة، فعند معرفة هذا الأمر لم تنظر غيره، بل يصير اليه خوفك ورجاؤك وثقتك واتكالك.

وانما يصدك الشيطان عن هذا في مقامين:

أحدهما: الالتفات الى الجمادات؛ كاشتراط الغيم في المطر، أي: بأن يؤثر فيه، وهذا شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور، بل المؤثر واحد لا غير.

وثانيها: الالتفات الى اختيار الحيوانات، بأن هذا الشخص يقدر أن يعطى رزقك ويمنعه أيضاً، وعند هذا زل أقدام الاكثرين، الا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان. ومن لم ينشرح بنور الله صدره قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض، ومشاهدة كونه قهاراً وراء الكل، والذين يسمعون من كل ذرة في السموات والأرض تقديسها وتسبيحها لله، وشهادتها على أنفسها بالعجز بلسان ذلق يتكلم بلا حرف ولا صوت، ولا بالسمع الظاهر الذي يشاركك فيها الحمار، بل سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت، ولا هو عربي ولا عجمي يشهدون، ويشاهدون من كل شيء بالعجز، وان لا قدرة الا من مبدع الكل وخالقها وان لم يسمعه ولم يشاهده الذين هم عن السمع معزولون.

وكيفية المناجاة مع الجمادات في السر أمر لا يمكن كشفها؛ أما لأن افشاء السر غير جائز اذ صدور الاحرار قبور الأسرار، أو لعدم تناهى تلك الكلمات

عن حد الحصر والنهاية، و﴿ لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾[1].

ومثال ذلك؛ ان سائلاً سأل عن الكاغد: ما بال وجهك أسود وقد كان أبيض، قال: ما فعلته عن نفسي سل عن ذلك الحبر ذلك، فأنه سود وجهي قهراً وعدواناً، قال: صدقت. فسأل الحبر عن ذلك، فقال: كنت ساكناً في المحبرة ــ وهو وطني ــ عازماً الا أفارقها، فاعتدى علي القلم وفرق شملي وبددني على صفحات الأوراق، فالسؤال عليه لا علي، قال: صدقت. ثم سأل القلم عن ذلك، فقال: كنت نابتاً على شاطىء الانهار ذلك وطني منبتي ومسقط رأسي، فجاءتني اليد ونحتني عن وطني، ثم برتني وشقت رأسي، وغمستني في بحر الحبر، وأمشتني على قنة رأسي، فحصل منه هذا الأمر، فسل عمن قهرني، فقال: صدقت. ثم سأل اليدِ عن تعديها على القلم، فقالت: أنا مركب مسخر ركبني فارس القدرة واستخدمني كيف شاء، فسل القدرة عن شأني فان بيدها عناني، فقال: صدقت. ثم سأل القدرة عن استخدامها اليد، قالت دع عنك لومي، وقد كنت في نومي حتى جاءني موكل الارادة وازعجني وأرهقني الى ما تراه مني، فقال: صدقت: ثم سأل الارادة فقالت: لا تعجل عليَّ فلعل لي عذراً وأنت تلوم، فاني ما انبعثت ــ ولا كنت عليه بعازمة ــ الا بحكم قاهر وأمر جازم، فاني مسخرة تحت قهر العلم الوارد من حضرة القلب على لسان العقل، فانزعجت بقهر منه، فقال: صدقت.

وأقبل على العقل والعلم والقلب مطالباً لهم ومعاتباً اياهم، فقال العقل: أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكني أشعلت، وقال القلب: أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بسطت، وقال العلم: انما أنا نقش في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل، فسل قلما ينقشني.

فلما سمع السائل حديث اللوح والسراج والخط والقلم تحير، اذ كان لم يعرف هذه الأمور الا في الأجسام، فعند ذلك رحمه العلم وقال: قد تعبت

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٩.

نفسك في السؤال فلا تنقلب خاسراً، فألق سمعك الي وأنت شهيد.

واعلم: ان العوالم:

أما عالم الملك والشهادة: وقد قطعتها بسهولة، وأما عالم الملكوت وفيها البحار المغرقة ولا يسلم منها الا الأقلون، وهو ورائي.

وأما عالم الجبروت: وهو واسطة بين هذين العالمين، وذلك مثل سفينة هي بين المشي على الأرض والمشي على الماء.

فعالم الملك من الحبر الى القدرة، ومنها الى القلم الذي يكتب به العلم عالم الجبروت، ومنه مبدأ عالم الملكوت. ومن جاوز عالم الجبروت وقرع أول باب من أبواب الملكوت كوشف بالقلم، ولذلك صار أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة القلم.

ثم انك السائل جمعت ضوء عينيك وحدقته نحو عالم الملكوت يرجى لك أيضاً كشف ذلك، واعلم: ان الله تعالى كما لا يشبه ذاته سائر الذوات، كذلك لا تشبه يده سائر الأيدي، ولا قلمه سائر الأقلام، ولا كلامه سائر الكلام، ولا خطه سائر الخطوط، وانما هذه أمور الهية من عالم الملكوت.

فعند ذلك اشتعل زيت السائل بنور العلم، وفتح بصره فانكشف له القلم الالهي، فاذا هو لا من خشب ولا من قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وله في كل قلب رأس يكتب ولا رأس له وانه العجب. وقال السائل: نعم المعلم أنت أيها العلم جزاك الله عني خيراً.

فعند هذا ودع العلم وشكره.

ثم سافر الى حضرة القلم وسأله عن نقشه في القلوب، فقال: ان عالم الملكوت موازن لعالم الملك، وان في الثاني صوراً دون الأول، فكما ان قلم عالم الشهادة مسخر في يمين الكاتب، فكذا أنا مسخر ومقهور تحت يمين الملك، قال: وما هي، قال: أما سمعت قوله تعالى: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾[1]؛

(١) سورة الزمر، آية: ٦٧.

فقال: هي التي يردوني.

فسافر الى حضرة اليمين ورأى فيها العجب العجاب، بحيث لا تحوي عشر عشر عجائبه مجلدات، ورأى انها يمين لا كالأيمان، و يد لا كالأ يدي، وأصبع لا كالأصابع والقلم في قبضته. ثم سأل عن اليمين فأحاله على القدرة.

فسافر الى عالم القدرة فرأى فيها من العجائب استحقر فيها ما رأى قبلها، فسأل عنها ما أشكل عليه، فقالت: أنا صفة فاسأل القادر الموصوف.

وعند هذا كاد أن يزيغ و يطلق بالحيرة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت، ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة: «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون». فغشيته هيبة الحضرة فخر صعقا يضطرب في غشيته مدة.

فلما أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك، تبت اليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك، ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك و برضاك من سخطك، ومالي الا أن أسألك وأتضرع اليك وأبتهل بين يديك، فأقول: أشرح لي صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لأ ثني عليك. فنودي من وراء حجاب العزة: «اياك أن تطمع في الثناء وقد قال سيد الأنبياء: سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فارجع وما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه، وما قاله فقله.

ثم قال السالك: الهي ان لم يكن للساني جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك، فنودي: اياك أن تتخطى رقاب الصديقين، وقد قال الصديق الأكبر: العجز عن درك الادراك ادراك، فيكفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف انك محروم عن حضرتنا، عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا.

فعند ذلك رجع السالك واعتذر عن أسولته ومعاتباته للقلم والقدرة والعلم: بأني كنت غريباً ولكل غريب دهشة، وما كان انكاري الا عن قصور وجهل، والآن قد اتضح عندي عذركم، وان المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار، وهو الأ ول والآخر والظاهر والباطن، أي: أول في الوجود، وآخر في المشاهدة، و باطن للساكنين تحت حجب عالم الشهادة، وظاهر لمن

تنور بصيرته بأنوار عالم الملكوت.

اذا عرفت هذا فلعلك التوكل مخصوص فمن يفهم حقيقة التوحيد ولا يوجد في غيره المتوكل.

واعلم: ان من لا يفهم التوحيد:

أما جاحد: فلا يقبل العلاج، وهؤلاء في انكار عالم الملكوت بمنزلة الحشوية المنكرين لعالم الجبروت أيضاً، حيث حصروا العلم في الحواس الخمس وأنكروا العلم والقدرة والارادة كما أنكر السوفسطائية الحواس أيضاً.

وأما جاهل غير جاحد: فينظر ان كان عين بصيرته صحيحة يعالجون مرضها، والا فيتكلمون معهم بقدر عقولهم، لأنهم يعرفون ان المنزل يفسد بصاحبين، والبلد يفسد باميرين. فيقال لهم على حد عقلهم: اله العالم ومدبره واحد، لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا. فيكون ذلك على وفق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس في قلبه اعتقاد التوحيد بهذا الطريق اللائق بقدر قلبه.

ثم أن هذا الاعتقاد اذا قوى عمل عمل الكشف في اثارة التوكل وسائر الأحوال، الا أنه في الغالب يضعف و يسارع اليه الاضطراب والتزلزل. ولهذا احتيج الى علم الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقفها من أبوابه أو أستاذه أو أهل بلده.

فان قلت: كون الأسباب مسخرات ظاهر الا في حركات الانسان، فانه يتحرك أو يترك ان شاء، قلت: نعم، الحركة لازمة للقدرة، والقدرة للمشيئة، لكن المشيئة تحدث ضرورة في القلب: ﴿وما تشاءون الا أن يشاء الله﴾[1]. فالمشيئة ان كانت ضرورية فما بعدها من القدرة والحركة مترتبة عليها ضرورة، فهو مضطر في الجميع. و يسمى هذا جبراً، لا جبراً محضاً كالجمادات، بل جبراً في غير اختيار.

---

(١) سورة الانسان، آية: ٣.

وتفصيل ذلك: ان للانسان فعلاً طبيعياً؛ كخرق الماء اذا وقف عليه فأنه ينزل بثقله الى قعره فيخرقه، وفعلاً ارادياً؛ كنفسه، وفعلاً اختيارياً؛ ككتابته. ثم ان الاختياري ربما يكون اضطرارياً لبعض الأسباب؛ مثلاً طبق الأجفان ارادي، ولو قصد عين الانسان بابرة يكون اضطرارياً اذ لا يقدر على فتحه في تلك الحال، فيلتحق بالطبيعي في تلك الحال.

وانما موضع الالتباس: الفعل الاختياري كالكتابة والنطق، اذ يظن انه ان شاء فعل وان شاء ترك، وتارة يشاء وتارة لا يشاء. لكن هذا الظن من الجهل بمعنى الاختيار.

وبيانه: أن القدرة تبع للارادة، وهي تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك.

ثم أن الخيرية قد تعلم بتردد وتوقف؛ كمن أراد سفراً مثلاً، وقد تعلم بلا تردد؛ كما في حركة الأجفان عند القصد بالابرة، وحركة اليد بدفع السيف، اذ تظهر خيرية الحركتين دفعة، وهو عين الاختيار المشتق من الخير، الا أنه ظهر على البديهة لثبوت خيريته بتجارب كثيرة ومشاهدات دائمة. ولذلك قيل: العقل يحتاج الى التميز بين خير الخيرين وشر الشرين. والأول كان يتردد بين كتابة كتابين كلاهما خير له، والثاني كمن يرمي نفسه من السطح هرباً من السيف.

وأما بين الخير والشر فلا يتردد أصلاً؛ كمن غمض عينيه للابرة، فالحركة في الانسان مسخرة لقدرته، وقدرته لارادته، وارادته لداعيته، وهي الأمر الحاصل من العلم بكون شيء خيراً، فإذا معنى كونه مجبوراً أن جميع هذه الأمور حاصلة فيه من غيره لا منه، اذ الخالق للكل هو الله عز وجل.

ومعنى كونه مختاراً: انه محل لارادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً، وحدث الحكم جبراً فإذا هو مجبور على الاختيار. ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض، وفعل الله تعالى اختيار محض بشرط أن لا يفهم

منه ارادة بعد تحير وتردد، وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فأنه جبر على الاختيار.

فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة فسموه كسباً، وهو جامع بين الجبر والاختيار عند من فهمه.

ثم أن ترتب الأمور المذكورة بعضها على بعض ليس بأن المتأخر حدث عن المتقدم بالتوليد، لأن ذلك جهل محض، بل حوالة جميع ذلك على القدرة الأزلية التي لم يقف على حقيقة معناها الا الراسخون، وانما يقف من يقف على مجرد لفظها، مع قياسها على قدرتنا القاصرة وهو بعيد عن الحق.

ولا يمكن تفهيم ذلك على وجه الصواب. والقدر الممكن من ذلك هو: ترتب بعض المقدورات على البعض في الحدوث انما هو ترتب المشروط على الشرط، ودرجات ترتيب الشروط كثيرة لا تظهر للعوام، وبعضها لا تظهر الا للخواص المكاشفين بنور الحق.

وبالجملة: فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر عبثاً واتفاقاً بل ذلك بطريق الحق واللزوم، وكذل جميع أفعاله تعالى كما قال عز وجل: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق﴾[1]. فكل ما بين السماء والأرض حادث عن ترتيب واجب وحق لازم، لا يتصور ان يكون الا كما حدث وعلى الترتيب الذي وجد، فما تأخر متأخر الا لانتظار شرطه، والمشروط قبل الشرط محال، والمحال لا يوصف بكونه مقدوراً، فاذا لا بد من بيان كونه موقوفاً على الشرط مع كونه مقدوراً وأن القدرة موجودة.

ولا يمكن تفهيم ذلك لذوي الافهام الضعيفة الا بمثال؛ وهو: أن تقدر انساناً محدثاً منغمساً في الماء الى رقبته، فان الحدث لا يرتفع عنه الا عند غسل الوجه، فقبل غسله نقول: لم يرتفع الحدث عن يده ورجله مثلاً لتوقفه على غسل الوجه على ملاقاة الماء، الذي هو السبب الحقيقي في رفع الحدث، فاذا الماء

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٦.

بمنزلة القدرة الأزلية المتعلقة للاشياء، ولكن تأثيره في المقدور متوقف على شرط وهو غسل الوجه، فعند حصول الشرط يكون رفع الحدث عن اليد بالماء لا بغسل الوجه.

الا أن الجاهل لترتب رفع الحدث عن اليد على غسل الوجه ربما يتوهم أن المؤثر فيه غسل الوجه لا الماء، كذلك يتوهم القاصرون من ترتب الأفعال الالهية بالشروط تأثير الشروط فيها دون القدرة، وليس كذلك، كما لا يخفى على ذي خبرة تامة وأولى بصيرة نافذة ناقدة. فهكذا ينبغي أن يفهم صدور المقدورات عن القدرة الأزلية، مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة. وهذا قرع لباب عالم الملكوت. وهذا من علوم المكاشفات لا يمكن التعبير عنها، فلنتركها، اذ لا يفي باستيفاء قدر ما أمكن منها عمر نوح عليه السلام.

ولنقتصر على ما هو المقصود وهو التنبيه على طريق التوحيد في الفعل، وهو المقام الثالث من مقامات التوحيد، وان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو، عليه التوكل والاعتماد. وهذه المعاني كلها منطوية تحت قولك: لا اله الا الله، وهو خفيف على اللسان سهل اعتقاد مفهومه في الجنان.

وأما حقيقته: فأعز على العلماء الراسخين أولى الكشف والعيان.

فان قلت: اذا كانت الأفعال مخلوقة لله عز وجل، فأما أن يقال: انها ليس فعلاً للعبد أصلاً فيبطل الشرع، أو يقال: أنه فعل للعبد أيضاً، فيلزم مفعول بين فاعلين، وأنه محال. فأقول: المفعول بين فاعلين جائز اذا كان للفاعل معنيان؛ كما يقال: قتل فلاناً الأمير والجلاد، اذ الجلاد فاعل صورة والأمير معنى. وكذا الخالق تعالى فاعل لأفعال العباد بمعنى أنه مخترع وموجد، والعبد فاعل لها بمعنى أنه محل لخلق الله تعالى فيه القدرة بعد أن خلق فيه الارادة بعد أن خلق فيه العلم. فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتباط المعلول بالعلة، أو ارتباط المخترع بالمخترع. وكل ما له ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلاً له كيفما كان الارتباط.

ولأجل تطابق ذلك وتوافقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن الى الملائكة

مرة ومرة الى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى الى نفسه، كما قال تعالى في الموت: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾[1]؛ وقال ﴿الله يتوفى الأنفس﴾[2].

وأما واضع اللغة فقد وضع اسم الفاعل للمخترع، فمن أن المخترع هو العبد يجعله حقيقة في العبد، و يلزمه أن يكون مجازاً في من له الأقدار والتمكين؛ مثل نسبة القتل الى الأمير فأنه حقيقة في الجلاد عندهم.

وأما الذين انكشف الحق لهم عرفوا أن الأمر بالعكس، وان الصيغة حقيقة في حقه تعالى، لأنه المخترع حقيقة، فلا فاعل الا هو، فيكون مجازاً في العبد بمعنى أنه كاسب ومحل للفعل، كما أن من عرف أن حقيقة القتل من الأمير يجعل نسبته الى الجلاد مجازاً لكونه مظهراً له، كما تقرر تحقيق هذا المقام في علم المعاني. ولهذا عرفوا المجاز الحكمي بغير ما هو له عند المتكلم لا مطلقاً.

فان قلت: فإذا ظهر أن الكل فعل نفسه، فكيف يغضب عليه و يرضى له، فاعلم: ان سر ذلك قد مر في كتاب الشكر، فارجع اليه، فهذا الذي ذكرناه من بحر التوحيد هو الذي يورث حال التوكل، لكنه لا يتم الا بالايمان بالرحمة والحكمة، فان التوحيد يورث النظر الى مسبب الأسباب، والايمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب، ولا يتم حال التوكل كما سيأتي الا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب الى حسن نظر الكفيل **وهذا الايمان أيضاً باب عظيم من أبواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه طويل.**

وحاصله: ان الله تعالى لو خلق آحاداً مشتملين على جميع أنواع الكمال وأصناف القدرة التامة، ومع ذلك لو تظاهروا على زيادة ذرة واحدة أو نقصها في العالم لما قدروا على ذلك، ولما وجدوا في خلقه تعالى من قصور وان أمعنوا في ذلك أنظارهم، ورجعوا فيها أبصارهم. وأيضاً: كل ما قسم الله بين عباده من كمال وفتور، وعجز وسرور، ورزق وأجل، واقدام ووجل، وطاعة وعصيان، وكفر وايمان، كله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو

---

(١) سورة السجدة، آية: ١١.

(٢) سورة الزمر، آية: ٤٢.

على الترتيب الواجب والأسلوب الحق والقدر اللائق، وليس في الامكان أصلاً أحسن منه ولا أتم وأكمل. ولو كان ادخره مع القدرة لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يضاد الالوهية، بل كل ضرر وفقر هو نقصان في الدنيا وزيادة في الآخرة. وكل نقص في الآخرة بالاضافة الى الشخص فهو نعيم بالاضافة الى غيره، اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا النار لم يعرف أهل الجنة قدر النعمة. وأيضاً: فداء أرواح الأنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران فداء لأهل الايمان بأهل الكفران عين العدل، وما لم يخلق الناقص كالبهائم لم يعرف الكامل كالانسان. وكذلك الأمر في التفاوت في القسمة بين الخلق في الدنيا والآخرة، وكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه.

وهذا الآن بحر آخر عظيم غرق فيه الأكثرون، قريب في السعة من بحر التوحيد، ولا يعقلها الا العالمون. ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون، ومنع من افشاء سره المكاشفون.

والحاصل: أن الخير والشر مقضى به، وما قضى الله واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك. وانما أطنبنا في هذا المطلب لأن هذا الباب غاية كل العلوم واليه ينتهي أصل كل سعادة، فلا تغفل.

المطلب الثاني
في بيان حال التوكل

وما ذكرناه أصل التوكل وهو العلم، وهذا حاله وحقيقته، ثم نذكر ثمرته وهو العمل.

فنقول: التوكل مشتق من الوكالة، وهي تفويض الأمر الى الغير والاعتماد عليه فيه. ويسمى الموكل اليه وكيلاً، والمفوض متكلاً ومتوكلاً. فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده.

ثم ان التوكل لا يتم في الانسان الا بأن يعتقد في وكيله أربعة أمور: منتهى الهداية الى المصالح والمفاسد، ومنتهى القدرة بأن لا يخاف ولا يجبن ولا يستحي، ومنتهى الفصاحة بأن لا يكل من الكلام، ومنتهى الشفقة اذ الأمور المذكورة لا تفيد الا اذا قارنت الشفقة.

ثم الموكل ان كان شاكاً في هذه الأربعة أو في واحد منها، أو جوز أن يكون خصمه أكمل في هذه الأربعة منه لم تطمئن نفسه الى وكيله. وعلى هذا القياس لا بد لمن يتوكل على الله أن يعتقد اعتقاداً جازماً انه لا فاعل غيره، واعتقد معه تمام العلم والقدرة، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد. فان لم يعتقد بأحد هذه الأمور لم يتم توكله، وذلك اما لضعف يقينه، أو ضعف القلب واستيلاء الجبن عليه بسبب الأوهام الغالبة عليه، لأن للوهم تأثيراً قوياً؛ كما يخاف الانسان من أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش، مع أنه لا يشك أنه جماد ولا يحشر الآن على ما جرت عادة الله عليه. وانما يتم التوكل بقوة اليقين وقوة القلب معاً.

ثم أن المتوكل بحسب القوة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون حاله مع الله كحال الطفل في حق أمه، اذ لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سواها ولا يعتمد الا اياها، وان نابه أمر في غيبتها لا يسبق الى لسانه الا: يا أماه، وان غضبت عليه أمه لا يفزع الا اليها.

الثانية: أن يكون حاله كصبي مميز وثق بكفالة أمه وشفقتها، ولا يطلب منها شيئاً، ولا يخطر في قلبه الا أمه دون ضمانها وكفالتها عليه.

الثالثة؛ وهي اعلاها: أن يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل؛ مثاله صبي علم أن أمه يتكفلها ولم يطالب منها. وهذا المقام يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته، وينفي التدبير رأساً، بل يبقى صاحبه كالمبهوت. كما أن المقام الثاني يثمر ترك السؤال دون الدعاء، وينفي كل تدبير الا من حيث الفزع الى الله بالدعاء؛ والأول يثمر ترك السؤال من غيره فقط، ولا ينفي أصل التدبير بل بعض التدبيرات.

والمقام الأول يمكن وجوده، والثاني والثالث نادرا الوجود، وان وجدا فلا يدوما.

فظهر من ذلك: ان ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل، بل يظهر أن ملابسته كل تدبير وعمل ينافي التوكل من حيث أنه حول المتوكل وقوته. وأما مباشرة التدبير بحول الوكيل وقوته وأمره بالتدبير فلا يخل بالتوكل أصلاً.

المطلب الثالث

في بيان أعمال المتوكلين

وقد عرفت العلم المثمر لحال التوكل، ثم عرفت حال التوكل. والآن نذكر عملاً يثمره حال التوكل؛ وهو أن عمل العبد: أما جلب نافع مفقود، أو حفظ نافع موجود، أو دفع ضار نزل أو دفع ضار لم ينزل.

فلنذكر شرط التوكل ودرجاته في كل من هذه الأمور الأربعة:

الأول: جلب النافع. وأسبابه ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: المقطوع؛ كمد اليد الى الطعام الموضوع بين يديك، فأنه من الأسباب المقطوع بها بتقدير الله ومشيئته. فترك مثل هذه الأسباب منتظر حصول المطلوب جهل وحمق وليس من التوكل في شيء، لكن عند مباشرة الأسباب تعلم أن الحول والقوة من الله تعالى لا من يدك وأسنانك.

الدرجة الثانية: الأسباب المظنون بها؛ كمن سافر في البراري فان الغالب فيها عدم وجود الطعام، وان احتمل احتمالاً بعيداً فليس ترك حمل الزاد فيها من التوكل المقبول عند المتوسطين، وان كان جائزاً عند الخواص. وحمل الزاد ينبغي أن يعتمد على فضل الله تعالى لا على الزاد.

فان قلت: فكيف يجوزه الخواص وهو القاء النفس في التهلكة، قلت: ذلك ليس بالقاء النفس في التهلكة لأحد شخصين؛

أحدهما: أن يعتاد ترك الطعام مقدار أسبوع، من غير ضيق قلب وتشويش

خاطر، وجاهد نفسه عليه، وأن تطيب نفسه بالموت ان لم يأته رزقه، علماً بأن رزقه الموت والجوع، وهو وان كان نقصاناً في الدنيا فهو زيادة في الآخرة.

وثانيها: أن يقدر على التقوت بالحشائش والأشياء الخسيسة، اذ لا تخلو البوادي من أن يلقاه آدمي أو حشيش يتقوت به، أو ينتهي الى قرية في كل أسبوع، حتى أنهم قالوا: الحبل والركوة والأبرة والمقراض لا يمنع التوكل اذ يندر وجود هذه في البراري، ولا يقوم شيء مقامها مع أنها من الضروريات.

الدرجة الثالثة: الأسباب الموهومة؛ كالتدبيرات الدقيقة في الاكتساب وان كان بطريق مباح، اذ الطريق التي فيها شبهة فذلك داخل في حد الحرص. ولا يخفى أن مباشرة مثل هذه الأسباب يخل بالتوكل؛ كالرقية والطيرة والكي وأمثال ذلك.

ثم المتوكلون:

أما خواص: فهم يتركون أكثر الأسباب المقطوعة؛ كما يدورون في البوادي، مع ان عدم الزاد مقطوع فيها، الأمثل مد الأيدي الى طعام عنده ليس من التوكل كما عرفت؛

وأما المتوسطون: وهم القاعدون في الأمصار، المتقاعدون عن الكسب والأسباب الظاهرة ثقة بكفالة الله عز وجل؛

وأما عوام يكتسبون ولكن لا يعتمدون على الكسب بل على الله، فيكون مكتسباً ببدنه ومنقطعاً الى الله بقلبه، حتى قالوا: ان المعيل يترجح له هذا القسم من التوكل على القسم الذي فوقه؛ كما اكتسب الصديق رضي الله عنه بعد ما بويع الخلافة.

وأيضاً: المتجرد عن العيال ان استشرف نفسه على ما في ايدي الناس فالكسب أفضل.

ثم أن النفس له موضع غرور، اذ يظن انه من المتوكلين ولا اتكال له على بضاعته. وامتحان ذلك أنه اذا سرق متاعه أو ضاع هل يتأسف أم لا، فان

تأسف فليس له توكل أصلاً، اذ الرازق كثيراً ما يرزق عباده بغير بضاعة. وان ابتلى أحد باتكال على متاعه، فعلاجه: أن يعرف ان سوء الظن تلقين الشيطان، وحسن الظن تلقين الرحمن.

واعلم: ان توكل المعيل يخالف توكل المنفرد، اذ دخول البوادي وترك العيال والقعود عن الاهتمام بأمرهم توكلاً في حقهم فحرام، وقد يفضي الى هلاكهم فيؤاخذ بهم. الا أن التحقيق ان عياله ان ساعدوه على الصبر على الجوع وعلى الموت بالجوع فعليه التوكل، وكذا نفسه وعياله، فاذا نازعته نفسه ولم تساعده على الأمور المذكورة فهو حكم المعيل الذي لا يصبر عياله فيجب له الكسب، فلا فرق بين المنفرد والمعيل في وجوب التوكل.

المطلب الرابع
في مراتب الأدخار

فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو غير ذلك فله أحوال ثلاثة:

أما أن يأخذ قدر الحاجة من المأكل والمليس والمسكن، ويفرق الباقي في الحال، ولا يدخره الا المحتاج؛ وأما أن يدخر لسنة فما فوقها وهذا خارج عن حد التوكل، واما أن يدخر لأربعين يوماً فما دونها، قيل: أنه خارج عن التوكل، وقيل: لا.

والحق: أن أصل الأدخار مناف للتوكل، وأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له. والتقدير بأربعين لميعاد موسى عليه السلام لم يكن لطول الأمل أو قصره بل لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور.

فالتوكل ترك الادخار؛ وذلك لا يتم الا بقصر الأمل. وأقل درجاته يوم وليلة فما دونه، وأكثره ما يتصور أن يكون عمر الانسان، وبينهما درجات لا حصر لها. وكل أمر له مراتب له بداية ونهاية، وأصحاب النهايات تسمى السابقين، وأصحاب البدايات تسمى أصحاب اليمين. وأصحاب اليمين أيضاً

على درجات فلا يتصور التقدير فوق هذا في أمثال هذه المراتب، فالأفضل أن لا يدخر أصلاً.

ثم كل ما قل ادخاره كان فضله أكثر، ولكن هذا في حق من لا ينزع قلبه بترك الادخار، بل لا يلتفت قلبه الا الى الوكيل الحق والا فالادخار له أولى، لأن المقصود تجرد القلوب بذكر الله، ورب شخص شغله وجود الدنيا، ورب شخص شغله عدمها. ولذلك لم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم التجار عن تجارتهم بل دعا الكل الى الله فقط. **هذا حكم المنفرد.**

وأما المعيل: فله ادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم، وما فوق ذلك مبطل للتوكل، لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين، فادخار ما يزيد عليه سببه ضعف القلب، والمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب، مطمئن النفس الى فضل الله، واثق بتدبيره، دون وجود الأسباب الظاهرة. وقد أدخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ليبين ذلك لضعفاء أمته. وكيف لا وقد نهى بلالاً عن الأدخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها، فقال: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش اقلالاً». وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن الله تعالى يحب أن يؤتى رخصه كما يحب أن يؤتى عزائمه، تطيباً لقلوب الضعفاء لئلا يتركوا الميسور عليهم لعجزهم عن منتهى الدرجات.

ثم أن الناس يختلف حالهم: فمن واحد يليق بحاله الرخصة، ومن آخر يتضرر بالرخصة.

وبالجملة: الغرض فراغ القلب عما سوى الله تعالى سواء أمكن ذلك بالعزيمة أو بالرخصة.

واعلم: ان الأسباب الدافعة للضرر تجب المباشرة بها ان كانت مقطوعاً بها، والاحتراز عنها ان كانت موهوبة، والمظنونة ربما تكون في حكم المقطوع بها بالتجارب، وان لم تكن كذلك فالاحتراز عنها أيضاً أفضل؛ مثلاً: الصبر على أذى السباع والحيات ليس من التوكل اذ لا فائدة فيه.

فعليك الاحتراز عن أمثالها، ولا تغتر بمن وضع يده على الأسد ولم يضربه

لأن ذلك خرق العادة، ولكل مقام رجال، وان ظن ذلك المقام أحد فليجرب بأن الكلب الذي في بدنه، أعني: القوة الغضبية، هل تطاوعه أم لا، فان سخر ذلك ترتقي منه الى أن يسخر لك كلب دارك، ثم ترتقي الى تسخير كلب البوادي.

وأيضاً: لا تظن أن أخذ السلاح وغلق الباب ينافي التوكل، اذا أخذ السلاح وعرف الدفع من الله تعالى، وأغلق الباب وعرف الحفظ من الله عز وجل، اذ كم من صاحب سلاح يقتل، وكم من باب مغلق يفتح و ينهب ما في داخله. ثم بعد ذلك يكون راضياً بما يقضي الله في نفسه من القتل والجرح، وفي بيته من السرقة والغصب، فلا يكون تحصنه وتحفظه الا للجري على سنة الله تعالى في ترتيب الأسباب مع الثقة بمسبب الأسباب.

ولا تتوهم ان ليس للمتوكل مال، اذ هو لا يستغنى عن ضروريات الانسان من القصعة والكوز والعصا، وقد يجد مالاً ويحفظه ليدفع الى المحتاج.

ولا تتوهم ان الضروريات يجب أن يتألم بفقدها فكيف يمكن عدم التألم، لأن الأسباب لتيسير خدمة الحق تعالى وانما يمسكه طلباً لرضاه. واذا فقد ينبغي أن يقول: الخير لو لم يكن في فقده لما سلط الله عليه اللص، فلي عوض ثواب من ذلك. فينبغي أن يفرح بفقدها فضلاً عن التألم، اذ الخير ما اختاره الله، ولا يدري الانسان الخير لنفسه في أي شيء حاصل، اذ كم من غنى يبتلى بماله بلاء يكون سبباً لهلاكه حتى يقول: يا ليتني كنت فقيراً. وذلك يقع كثيراً.

المطلب الخامس
في آداب المتوكلين

أما في متاع بيته فأنه يغلق الباب ولا يستقصى؛ مثل: أن يوصي جاره بالحفظ، وان يجمع اغلاقاً كثيرة. وكان مالك بن دينار يشد بابه بشريط و يقول: لولا الكلاب ما شددته. وأن لا يترك في بيته متاعاً يحرص عليه السراق فيكون سبب معصيتهم، كذا قال مالك بن دينار. وقال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية، هو قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها.

وأيضاً: انما يضطر الى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق، ويقول: ما يأخذه سارق فهو في حل منه أو هو في سبيل الله؛ وان كان فقيراً فهو عليه صدقة. وان لم يشترط الفقر فهو أولى، اذ ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده، وقد زال عصيانه بجعله في حل، وأيضاً: يفدى بماله مال مسلم آخر. فنيته دفع المعصية عن مسلم أو فداء مال مسلم بمال نفسه نصح للمسلمين.

ثم أنه اذا وجد المال مسروقاً ينبغي أن لا يحزن، بل يفرح أن أمكنه، ويقول: لعل الخير في تلفه. ثم انه اذا وجد ماله الذي جعله في سبيل الله يترك طلبه، فأنه قدمه ذخيرة لنفسه الى الآخرة، وان قبله جاز في ظاهر العلم لكنه غير مستحب عند المتوكلين.

وأيضاً: ينبغي أن لا يدعو على السارق والا بطل توكله وزهده، وأيضاً: يبطل أجره بالدعاء عليه، وأيضاً: ينبغي أن يغتم لعصيان السارق لا لماله، وأن يشكر الله عز وجل اذ جعله مظلوماً لا ظالماً، وجعل النقصان في دنياه لا في دينه.

المطلب السادس
في الأسباب المزيلة

وهي أما مقطوع بها؛ كالماء في دفع العطش، والخبز في دفع الجوع، وترك هذه الأسباب حرام فضلاً عن كونه توكلاً؛ أو مظنون بها؛ كالفصد والحجامة وسائر أسباب الطب، وهذا لا يناقض التوكل؛ أو موهومة؛ كالكي والرقية والطيرة. فشرط التوكل تركه لأن ذلك من غاية التعمق في ملاحظة الأسباب. وقد وصف صلى الله عليه وسلم المتوكلين بها.

وأما التداوي بالأدوية الطبية: فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن سائر الأنبياء عليهم السلام، إلا أن بعضاً من الأدوية الطبية قد يلتحق بالمقطوع بها؛ كالسكنجبين في دفع الصفراء، فحكمها حكمها في التجربة الا أنه

لا يحرم تركها: اما لأن معرفته تختص ببعض الناس وليس مما تدركه الكافة؛ كالخبز في دفع الجوع، والماء في ازالة العطش؛ أو لأن لذلك أسباباً باطنة يمكن تخلفها ولا كذلك الخبز والماء.

فان قلت: الكي أيضاً من الأسباب الظاهرة النفع، قلت: ليس كذلك، والا لعرفه في كل بلدة، وذلك لا يعهد الا في الاتراك والأعراب، مع أن الكي جرح مخرب للبنية محذور السراية، مع الاستغناء عنه، اذ ما من وجع يعالج بالكي الا وله دواء يغني عنه بخلاف الفصد والحجامة. روى أن عمران بن الحصين كان يرى نوراً و يسمع صوتاً يسلم عليه الملائكة، ولما اكتوى زال عنه ما رآه وسمعه، ثم تاب منه واناب الى الله عز وجل، وقال بعد ذلك: فرد تعالى على ما كنت أجده من أمر الملائكة.

واعلم: ان التداوي نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن سائر الأنبياء أيضاً عليهم السلام، وأمروا أيضاً بالتداوي. وكذا نقل ترك التداوي عن الصحابة والسلف.

والتوفيق بين هذه الأمور: هو أن لترك التداوي أسباباً، ولعل من تركه انما تركه لأجلها، ولا يلزم من ذلك أفضلية الترك، بل الأفضل الفعل لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم. **وتلك الأسباب ستة:**

أحدها: أن المريض قد كوشف له دنو أجله وان الدواء لا ينفعه. ولعل ما قال أبو بكر رضي الله عنه ــ حين قيل له: لو دعونا لك طبيباً ــ: الطبيب قد نظر الى وقال: «اني فعال لما أريد...» من هذا القبيل. وكذا قول أبي الدرداء، اذ قيل في مرضه: ما تشتكي، قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي، قال: مغفرة ربي، قالوا: ألا ندعو لك طبيباً، قال: الطبيب أمرضني.

وثانيها: أن يشتغل المريض بحال عاقبته فلا يتفرغ قلبه للتداوي. وعليه يدل كلام أبي ذر، وقد رمدت عيناه وقيل له: لو داويتها، فقال: اني عنهما مشغول، فقيل: لو سألت الله أن يعافيك، فقال: أسأله فيما هو أهم علي منهما.

ثالثها: أن تكون العلة مزمنة، والدواء موهوم النفع جارياً مجرى الكي

والرقية، فيتركه المتوكل. واليه يشير قول الربيع بن خثيم اذ قال: ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوى؛ أي: أن الدواء غير موثوق به.

ورابعها: أن يترك لبيان ثواب المرض بحسن الصبر. وقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره.

وخامسها: أن تكون له ذنوب فيرجو تكفيرها بالمرض. وفي الحديث: «حمى يوم كفارة سنة»؛ قيل: لأنها تهدم قوة سنة.

وسادسها: أن يستشعر من نفسه مبادي البطر والطغيان بطول الصحة، فيترك التداوي لئلا يزول المرض قبل استئصال البطر والغفلة وطول الأمل من نفسه.

واذا ظهر لك أن ترك التداوي لهذه الأسباب، فلا يخفى عليه أنه لا يلزم منه عدم فضيلة التداوي عند انتفاء هذه الأسباب، كما في تداوي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً: لو كان ترك التداوي من شرط التوكل لما فعله صلى الله عليه وسلم وهو سيد المتوكلين.

وأيضاً: ان فضل ترك التداوي ان كان فيمن كثرت ذنوبه ليكفرها، أو خاف على نفسه الطغيان من العافية واحتاج الى نيل ثواب الصبر، وأمثال ذلك. وهذه الأمور وان كانت كمالاً بالإضافة الى بعض الخلق فهي نقصان بالاضافة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كان أعلى من هذه المقامات كلها، فلهذا لم تضره مباشرة أسباب التداوي، ولهذا أفعله.

وأيضاً: رجوع عمر رضي الله عنه من الطاعون وعدم دخوله الى الشام، واتفاق الصحابة عليه، وقوله: نفر من قدر الله إلى قدر الله، في جواب من قال: أتفر من قدر الله ــ دليل قوي على أن التداوي لا يخل بالتوكل، وكيف لا والصحابة لا يسامحون في أمر التوكل أصلاً، سيما عمر، وهو في باب التوكل آية، سيما وقد روى عبد الرحمن بن عوف في هذا الأمر حديثاً وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا سمعتم الوباء في أرض فلا تقدموا عليه

وإن وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ».

ثم أن نهى الدخول في بلد الطاعون فسببه ظاهر وهو القاء النفس في التهلكة، مع أسباب مظنون بها. وأما نهي الخروج للخلاص فلعله لكونه سبباً وهمياً، اذ ربما يستحكم ضرر استنشاق الهواء المتعفن في بدنه قبل ذلك، يكون الخروج الى الهواء الصحيح علاجاً وهمياً يسبق تأثير الهواء العفن في البدن، سيما وقد انضم الى ذلك أمور يكره معها الخروج وهي: خروج الأصحاء، وفقد المتعهدين للمرضى ممن يسقيهم الماء و يطعمهم الطعام.

و يظهر من ذلك انه لو دخل موضع الطاعون لتعهد المسلمين لا يأثم لأن الضرر في حق نفسه موهوم، ورجاء دفع الضرر عن بقية المسلمين أمر محقق. وتسمية الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف لما فيه كسر لقلوب بقية المسلمين وسعي في اهلاكهم.

وغلط الزهاد والعباد في ظواهر الأخبار والآثار كثير. وانما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك، حيث يحملها على محامل لطيفة دقيقة، و يستخرج في كل منها سبب النهي وعلة الأمر ومراتب كل منها في الحرمة والوجوب، فيرتفع التناقض المتوهم في ظواهر الأخبار والله أعلم بحقيقة الحال.

واعلم: ان كتمان المرض والفقر وانواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات، ومع ذلك فالاظهار لا بأس به اذا صحت فيه النية والمقصد، وذلك في ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يصف للطبيب حكاية لا شكاية.

وثانيها: أن يذكره لمن يتعلم منه حسن الصبر، بل الشكر بأن يراه نعمة.

وثالثها: أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره الى الله تعالى، وذلك ممن يرجو منه القوة والشجاعة و يستبعد منه العجز، فيذكره دفعاً لاحتمال التجلد واظهاراً لعجزه وافتقاره.

الأصل السادس

في المحبة والشوق والأنس والرضا

وفيه مطالب:

المطلب الأول

في المحبة لله عز وجل

وهي من أعلى المقامات. وكل مقام يتقدمها فهو مقدمة من مقدماتها؛ كالتوبة والصبر والزهد وغيرها. وكل مقام بعدها من ثمراتها؛ كالشوق والأنس والرضا. وأخواتها وسائر المقامات وان عز وجودها فلم تخل القلوب من الايمان بامكانها.

وأما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها، حتى أنكر بعضهم امكانها وقال: لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله.

وأما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثل، فلزمهم انكار لوازم الحب: من الأنس والشوق ولذة المناجاة. الا أن الأمة مجمعون على أن الحب لله ولرسوله فرض، فيكون وجودها مجمعاً عليه. وجعلها مجازاً عن الطاعة لا حاجة اليه، وكيف لا والطاعة ثمرة المحبة، والقول بالطاعة يستلزم وجود المحبة.

وأيضاً: محبة الله تعالى في الكتاب والسنة كثير الذكر، وكذا في الآثار وكلمات المشايخ بحيث لا يمكن الانكار عليها، وحمل كلها على المجاز يؤدي الى اللجاج والعناد.

واعلم: ان الحب فرع المعرفة والأدراك، ولهذا لا يتصف الجماد بالحب. ثم المدرك ان كان ملذاً فهو محبوب، وان كان مؤلماً فهو مبغوض، وما لا يكون مؤلماً ولا ملذاً فهو لا يكون محبوباً ولا مكروهاً. فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشيء الملذ، فان تأكد ذلك الميل وقوى يسمى عشقاً. والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فإذا قوى سمي مقتاً.

ثم لما كان الحب تابعاً للأدراك، وكان ذلك منقسماً الى الحواس، صارت لكل منها لذة مخصوصة؛ فلذة العين في الصور الجميلة، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة. وهكذا لا يخفي ان البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر. والقلب أشد ادراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فإذا لذة القلوب في ادراك الأمور الالهية أتم وأبلغ، ويكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح اليه أقوى، ولا معنى للحب الا الميل الى ما في ادراكه لذة كما عرفت، فإذا لا ينكر حب الله الا من لم يتجاوز ادراكه رتبة البهائم وقعد في رتبة الحواس.

المطلب الثاني
في أقسام المحبة وأسبابها

واعلم: أن كل حي يحب دوام وجوده ويكره الموت والقتل، ويحب أيضاً كمال وجوده ويكره نقصه. ولما توقف كمال الوجود ودوامه على سلامة الأعضاء يحبها أيضاً، ولما كان المال آلة في دوام وجوده يحبه أيضاً، وكذلك لما كان الولد يخلفه في الوجود يحبه أيضاً، وذلك لفرط حبه لبقاء نفسه، لما عجز أن يطمع في بقاء نفسه طمع في أن يبقى جزء منه، وكذلك الأقارب والعشائر لما كانوا وسائل الى كماله يحبهم.

فاذا المحبوب عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله، والمكروه عنده ضد ذلك كله. فهذا هو أول الأسباب.

والسبب الثاني: الاحسان. فان الانسان عبد الاحسان، وقد جبلت

القلوب على حب من آحسن اليها وبغض من أساء اليها. وهذا بالحقيقة يتدرج في حب دوام الوجود أو كماله بالمال، الا أنه سبب بعيد والمال قريب.

الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه، بل يكون ذاته عين حظه؛ كحب الجمال والحسن من حيث أنه كذلك، لا لأن ينتفع بصاحبه بقضاء الشهوات.

السبب الرابع: أن الحسن والجمال غير منحصر في المحسوسات بل هو في المحسوسات أعظم وأقوى؛ كما يقال: هذا خلق حسن وعلم حسن، وهذه سيرة حسنة وأخلاق جميلة. ألا ترى أن الأنبياء صلوات الله عليهم محبوبون بالطبع عند المؤمنين، وكذا الناس يحبون أبا حنيفة والشافعي ومالكاً مع أنهم لم يروهم، وانما حبهم لصفاتهم الباطنة من العلم والدين والتقوى.

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب. اذ رب شخص يتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ بل بمجرد تناسب الأرواح، كما قال صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجنده فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

ثم أن هذه الأسباب اذا اجتمعت في شخص كان حبه أشد وأقوى وأكمل. وأيضاً: يتفاوت بحسب قوة هذه الخصال وضعفها فيه.

ثم ان هذه الأسباب كلها مجتمعة في حق الله تعالى على وجه القوة والكمال، فلا محبة فوق محبته عز وجل.

وتفصيل ذلك: ان الحب لأجل دوام الوجود وكماله وبقائه موجود في حق الله وبالله والى الله، فهو المخترع والمبقي والمكمل، اذ العبد عدم صرف لولا ايجاده تعالى، وهالك محض لولا ابقاؤه تعالى، وناقص لولا تكميله تعالى. وكذا الحب للاحسان فليس الا الله تعالى، فأنه الذي أنعم بخلقك وخلق مالك وخلق قدرتك وارادتك وداعيتك، وكذا كل مال يصل اليك فانما هو من الله تعالى بالذات. واليد الظاهرة وسيلة مضطرة اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه، فهو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان.

وكذا حب الشخص لذاته واحسانه؛ مثل: ان تسمع في الشرق ملكاً عالماً عابداً عادلاً متلطفاً بالناس، فانك تميل اليه ــ وهو الحب ــ مع انك آيس من خيره؛ وكذا اذا سمعت ملكاً بضد ذلك فانك تنفر عنه ــ وهو البغض ــ مع أنك آمن شره.

ولا يخفى أن المستحق لمثل هذه المحبة ليس الا الله تعالى، اذ هو المحسن الى الكافة، المتفضل على أصناف الخلائق: أولاً بايجادهم، ثم بتكميلهم بالأعضاء والأسباب الضرورية، ثم بتنعيمهم بخلق الأسباب المحتاج اليها وان لم تكن ضرورية، ثم بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي مظنة زينتهم؛ كالثياب الجميلة والمراكب الحسنة.

أما محبة شخص لجماله المعنوي من العلم والقدرة فليس أحق بتلك المحبة من الله.

أما العلم: فأين علم الأولين والآخرين من الله الذي يحيط بالكل، حتى لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، بل نسبة علم الله تعالى الى أعلم أهل الأرض أكثر من نسبة أعلم أهل الأرض الى أجهل أهل الأرض لأن زيادته بقدر متناه وزيادة علم الله غير متناهية.

وأما القدرة: فلا قدرة ولا قادر الا وهو أثر من آثار قدرته، فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء. فان كان يتصور أن يحب قادراً لكمال قدرته فلا يستحق ذلك أحد سواه.

وأما التنزه عن العيوب: الذي هو أحد موجبات الحب، فلا يتصور على وجه الكمال الا للواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والاكرام، اذ كل مخلوق وان كان منزهاً عن النقائص والعيوب فلا يخلو عن نقص من وجه آخر بل عن نقائص، ولا أقل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخراً مضطراً ولا كمال الا لله وحده.

وأما المحبة لأجل المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشيء منجذب اليه، والشكل الى الشكل أميل. والمناسبة أما في معنى ظاهر، وذلك لا يخفى؛ وقد يكون لأمر

باطن. وذلك في حق الله تعالى: أما ممكن التغيير بأن يقرب من الله تعالى في الصفات التي أمرنا بأن نتخلق بها، حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله، وذلك مثل العلم والاحسان والبر والرحمة على الخلق وافاضة الخير وارشادهم الى الحق ونحو ذلك؛

وأما غير ممكن التعبير بل يشار اليه بالرمز فقط، مثل قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾[1]؛ وقوله: ﴿انا جعلناك خليفة في الأرض﴾[2]؛ اذ لم يستحق آدم خلافة الله الا بتلك المناسبة. واليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم: «ان الله خلق آدم على صورته».

ومن تلك المناسبة ما سموه قرب النوافل بعد كمال الفرائض، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ـــ حكاية عن ربه عز وجل: «لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به».

وهذا موضع يجب كف عنان القلم فيه اذ الناس تحزبوا حزبين، قاصرون مائلون الى التشبيه الظاهر، وغالون مسرفون متجاوزون حد المناسبة الى الاتحاد والحلول، حتى ضل النصارى وقالوا: عيسى عليه السلام هو الاله، وقال بعضهم: تدرع الناسوت باللاهوت، وقال آخرون: اتحد به، وقال بعض الناس: أنا الحق.

وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح مع ذلك حقيقة السر فهم الاقلون، وهذه المناسبة هي أقوى أسباب الحب وأعظمها وأبعدها وأعزها وأقلها وجوداً.

---

(١) سورة الاسراء، آية: ٨٥.

(٢) سورة ص، آية: ٢٦.

المطلب الثالث

واعلم: ان كل قوة في الانسان لم تخلق عبثاً بل لأجل ادراك ما يلائمها، وانما لذتها في الوصول الى مدركها.

ثم ان في الانسان قوة ربانية هي العقل، ولذتها ادراك العلوم. ولا يخفى أن اللذة العلمية أقوى من اللذة الحسية، اذ الانسان لا يصبر عن العلم والتمدح به ولو في الشيء الحقير؛ كالشطرنج مثلاً. ولو ذكر أحداً في مقابلته لذة الأكل لربما نسب أهله الى البهيمية وعابوه.

ثم لا يخفى أن لذة العلم بحسب شرف المعلوم، فمعرفة الله تعالى ألذ من جميع المعارف، اذ لا معلوم أشرف من ذلك.

وأيضاً: هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، اذ محلها الأمر الرباني الذي هو باق لا يفنى. ولعمري طلاب العلوم يجدون عند انكشاف المشكلات لذة عظيمة يعرفها أهلها، فكيف حالها اذا كان الانكشاف في جمال الله وجلاله، اذ يعرض له حينئذ من الفرح ما يكاد يطير به، حتى يتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره. وهذا مما لا يدركه الا من ذاقها، ولعل من لم يذقها ينكر ذلك كما ينكر الصبي لذة السلطنة.

وليت شعري من لا يفهم الا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه الله تعالى وليس له صورة ولا شكل، مع أن الرؤية أكمل الانكشافات، وذلك لأن المدركات المتخيلة ادراكها حال الرؤية أتم من ادراكها حال التخيل، والدنيا بالنسبة الى الآخرة بمنزلة الخيال. فإذا ارتفع حجاب البدن فان لم يبق في النفس كدورات الدنيا يشاهد ربه في الحال، وان بقي فيه كدورات لا ينفك عنها أصلاً فهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد، نعوذ بالله منهم. ومنهم من يبقى فيه أثر ضعيف فيعرض على النار لتزكيتها بقدر الحاجة الى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة.

فإذا تطهرت النفس عن الكدورات يتجلى له الحق تجلياً، يكون تجليه بالاضافة الى علمه كانكشاف المرئيات بالاضافة الى المتخيلات، وهذه

المتخيلات، وهذه المشاهدة والتجلي تسمى رؤية، لكن لا بصورة مخصوصة ولا بجهة ومكان فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب. ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا فرق الا من حيث زيادة الكشف والوضوح. فيظهر منه أن من لم يعرف الله في الدنيا كيف يراه في الآخرة.

ولما كانت المعرفة على درجات كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة، اذ تختلف بقلتها وكثرتها وقوتها وضعفها وجنسها، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ان الله تعالى يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة». وذلك لأنه لما فضل الناس في الدنيا بسر وقر في صدره فضل لا محالة بتجل انفرد به.

فإن قلت: كيف يقاس لذة النظر الى وجه الله تعالى بلذة المعرفة في الدنيا وهي ضعيفة فاعلم: ان استحقار لذة المعرفة للخلو عن المعرفة، والا فلذتها فوق سائر اللذائذ، بل للعارفين لذائذ لم يستبدلوا بها في الدنيا الجنة، مع ان هذه اللذة لا نسبة لها أصلاً الى لذة اللقاء والمشاهدة.

فإن قلت: فهل محل الرؤية في الآخرة القلب أو العين، فاعلم: ان أرباب البصائر مطمح نظرهم الرؤية بأي آلة وقعت، وأما أهل النظر فقد اختلفوا، والحق انها بالعين كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ليكون لفظ الرؤية والنظر وأمثال ذلك مما ورد في الشرع مجرى على ظاهره، اذ لا يجوز صرف الألفاظ عن الظواهر الا لضرورة.

المطلب الرابع

في أسباب محبة العبد لله تعالى

اعلم: أن أسعد الناس حالاً وأكملهم لذة في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى. وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن اذ لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب المنتهى رتبة العشق فذلك ينفك عنه الأكثرون. وانما طريق تحصيله: قطع علائق الدنيا واخراج حب غير الله من القلب، وكمال الحب في أن يحبه بكل قلبه فبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه. ومنه: حب المال والأهل والولد

والأقارب والعقار والدواب ونحو ذلك.

ومن جملة طرقه: قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب، وذلك بعد تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها، وهي الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. ولا يوصل هذه المعرفة الا الفكر الصافي والذكر الدائم. والواصلون الى هذه المعرفة: أما أقوياء يعرفون الله أولاً ثم يعرفون غيره به، وأما ضعفاء يعرفون الأفعال أولاً ثم يترقون منها الى الفاعل. وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثر والأوسع على السالك، وذلك يحصل بالتفكر في عجائب الآفاق والأنفس وملكوت السموات والأرض، اذ لا يبلغ فهمنا الى استقصائها، وما بلغ اليه فهمنا بالنسبة الى ما في علم الأنبياء والأولياء كقطرة من بحر، وكذا لا نسبة لعلومهم الى ما استأثر الله تعالى بعلمه. فإذا استغرقت في هذا الفكر ازداد محبتك جداً.

ثم إن تفاوت الناس في المحبة لتفاوتهم في المعرفة، وأكثر الناس ما يعرفون الله تعالى الا بالصفات والأسماء. ثم إن بعضاً منهم آمنوا بها ايمان تسليم وتركوا البحث وهم أقل السلامة. ومنهم من يتخيل لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب وهم الضالون. والعارفون بحقائقها هم المقربون وحبهم حب لذاته تعالى فلا يتغير في السراء والضراء. وأما من أحبه تعالى لأنعامه واحسانه فربما يتغير حبه عند البلاء أو ينقص، وأما من أحبه لعجائب صنعه واستدل به على عظمته وجلاله فذلك لا يتغير، بل يزداد متى ازداد مطالعته صنع الله تعالى وعجائب قدرته.

وأما قصور الناس في معرفة الله تعالى فأمران:

أحدهما: الانهماك في الشهوات والاشتغال بأحوال نفوسنا، اذ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه. فمهما اشتغل بذلك غفل عن معرفة الله تعالى.

وثانيهما: شدة ظهوره تعالى وتناهيه في وضوحه، فيصير ظهوره سبب خفائه.

وتفصيل ذلك هو: أن الأدراك وصول المدرك بالمدرك واحاطته به،، فلا بد في الوصول من غير المدرك عن غيره عنده، فمن كان وجوده أخفى يكون تمييزه

عسيراً فيتعسر ادراكه؛ كأحوال الزمان مثلاً، فان حقيقة الزمان لكون وجوده أخفى بسبب كونه عرضاً وغير قار يعسر ادراكه، وكذا من كان وجوده أظهر وأشد وأقوى لا يمكن تمييزه عن غيره ولا احاطة المدرك به، فيتعذر ادراكه؛ كالنور مثلاً، فانه لظهوره عند الحس يعسر ادراكه، حتى لو لم يعقب ضده أعني الظلمة لم يمكن تمييزه أصلاً.

فحينئذ حقيقة الواجب تعالى لما كان في العقل بمنزلة النور بالقياس الى البصر، ولم يمكن له ضد يتبين بسببه، لم يمكن للعقل تمييزه عن غيره. وأيضاً: لقوته واحاطته بالكل تعذر للعقل احاطته ومعرفته، فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره، وقيل:

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... الا على اكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت فما أظهرت محتجباً ... فكيف يعرف من بالعزة استترا

فهذا هو السبب في قصور الافهام عن معرفة ذي الجلال والأكرام.

الا أن من قويت بصيرته ولم تضعف منته في حال اعتدال أمره لا يرى الا الله ولا يعرف غير الله، ويعرف انه ليس في الوجود الا الله، وأفعاله أثر من آثار قدرته، فهي تابعة له ولا وجود لها بالحقيقة وانما الوجود للواحد الحق فقط. فعند ذلك لا تحتاج معرفته الى تمييزه عن غيره اذ لا غير له، فلا يكون ناظراً الا في الله ولا عارفاً الا بالله ولا محباً الا لله، ولا ينظر الى نفسه أيضاً بل من حيث أنه عبد الله، فهذا هو الذي فنى في التوحيد عن نفسه. واليه الأشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن.

واذا عرفت محبة الله تعالى، فاعلم: ان المحبة مستتبعة للشوق، فلعل من أنكرها ينكره أيضاً.

واعلم: أن المدرك من كل وجه لا يشتاق اليه، وكذا ما لم يدرك أصلاً، وانما الشوق لمن أدرك من وجه ولم يدرك من وجه آخر. **فالله تعالى وان كان مدركاً للعارفين لكنه غير مدرك لهم من وجهين:**

أحدهما: ان الخيال في هذا العالم لا يفتر عن التمثيل والمحاكاة لجميع

المعلومات، وهي مكدرات للمعارف فلا تتضح المعلومات لأجلها غاية الاتضاح.

ثانيها: ان ما انكشف لكل عبد بعض من الأمور والا فالأمور الالهية لا نهاية لها فعند ذلك تشتاق كل نفس الى معرفة الله تعالى من جهة الاتضاح ومن جهة الزيادة والشوق. الأول يندفع في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ومشاهدة ولقاء؛ وأما الشوق الثاني فيشبه أن لا ينتهي في الآخرة أيضاً، اذ الأمور الالهية لا تتناهى، الا أن هذا الشوق لما كان في عين الوصال لا يظهر فيه ألم. والآيات والأخبار في اثبات الشوق أكثر وأشهر.

المطلب الخامس
في محبة الله تعالى للعبد

وقد ورد ذلك في الشرع. الا أن المحبة في حق الله تعالى معنى مجازي لها، لأن المحبة ميل للنفس الى ما يوافقها فلا بد فيها من عدم ما يوافقها، وذلك محال في حق الله تعالى، اذ كل جمال وكمال له تعالى بالفعل، بل محبته الا الى ذاته تعالى وأفعاله وليس في الوجود شيء غير ذاته وأفعاله، فهو لا يحب الا ذاته، وما ورد من حبه لعباده فؤول أو يرجع معناه الى كشفه الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، والى تمكينه اياه من القرب منه، والى ارادته ذلك به في الأزل. فحبه لمن أحبه أزلي ان نسب الى قدرته الأزلية، وحادث بحدوث السبب المقتضي له اذا أضيف الى فعله، كما قال: «ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه» الا أنه قرب بالصفة لا بالمكان، الا أن هذا التغير على العبد لا على الرب، والعبد يتقرب بقدر قربه وكماله، واذ لا نهاية للكمال فلا نهاية في درجات القرب.

ثم أن لمحبة الله للعبد علامات، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اذا أحب الله عبداً ابتلاه، فان أحبه الحب البالغ اقتناه، قيل: وما اقتناؤه، قال: لم يترك مالاً ولا أهلاً». فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه

وبين غيره. وقال صلى الله عليه وسلم: «اذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه».

فأخص علاماته حبه لله، فان ذلك يدل على حب الله. وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو: أن يتولى الله أمره ظاهره وباطنه سره وجهره، فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره، والمزين لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه، والمسدد لظاهره وباطنه، والجاعل هومه هماً واحداً، والمبغض الدنيا في قلبه، والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته.

وأما علامات محبة العبد لله تعالى فهي كثيرة، الا أن وجودها أعز من الكبريت الأحمر وأن كثر مدعوها.

منها: حب لقائه في دار السلام، واذا علم أنه لا يمكن بدون الموت فيحب الموت لأجله.

ومنها: حب القتل في سبيل الله. وأما من لا يحب الموت ــ كما هو حال أكثر الناس: فأما لمحبة الأهل والأولاد والمال فذلك القلب خال لا محالة عن محبة الله؛ وأما لأنه يحب هؤلاء حباً مال بكل قلبه فمحبة الله فيه ضعيفة؛ وأما لأنه لا يحبه لعدم استعداده الآن للقاء الله فذلك من امارات المحبة.

ومنها: أن يؤثر ما أحبه الله على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيتجنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ومتقرباً اليه بالنوافل وطالباً عنده مزايا الدرجات. وأما العصيان: فانه لا يضر أصل المحبة؛ اذ قد يأكل المريض ما يضره وان علم ضرره، لكن تضعف معرفته فيعجز عن القيام بحق المحبة.

ومنها: حب ذكره لأن من أحب شيئاً أكثر ذكره، وحب كلامه وهو القرآن، وحب رسوله وكل ما ينسب اليه بل عباد الله الصالحين لأتم حبيبه، بل حب كل الخلق لأنهم خلقه، ومن أحب أحداً يحب كل ما في محلته.

وحب الأشياء المذكورة من حيث نسبتهم الى الله تعالى ليس محبة لغير الله تعالى بل محبة له تعالى.

ومنها: أن يتلذذ بالخلوة معه ومناجاته في الليالي، وبتلاوة كتابه، ويغتنم بالتهجد وهدوء الليل وصفاء الوقت.

ومنها: أن لا يأسف على ما يفوته مما سوى الله، ويعظم تأسفه على فوت ساعة عن ذكر الله وطاعته.

ومنها: أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ولا يسقط عند تعبها.

ومنها: أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله، شديداً على جميع أعداء الله، وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكره الله، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف.

ومنها: أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم، وادراك العظمة يوجب الهيبة كما أن الجمال يوجب المحبة.

وللمحبين مخاوف في مقام المحبة؛ فأولها: خوف الأعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه الأبعاد، الا أنه انما تعظم في قلب ألف القرب وذاقه وتنعم به. ثم أهل الخصوص ربما يحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب، والركون الى ما ظهر من مبادىء اللطف، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز عنه الا ذوو الأقدام الراسخة.

ومنها: كتمان الحب واجتناب الدعوى، والتوقي من اظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحبوب واجلالاً له وهيبة منه وغيرة على سره، فان الحب سر من أسرار الحبيب، ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في العقبى، ويتعجل عليه البلوى في الدنيا، الا أن يغلب عليه سكر اضطره الى اظهاره فيعذر. وانما يقبح التظاهر بالحب لا اظهاره لما في التظاهر من الدعاوى والاستكبار. وحق الحب أن تنم على حبه الخفي أعماله وأحواله دون أقواله وأفعاله، بل ينبغي أن يظهر حبه عن غير قصد الى الاظهار، وينبغي أن يكون قصده اطلاع الحبيب فقط. أما ارادة اطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه، الا اذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه.

المطلب السادس
في الأنس والرضا والشوق

واعلم: أن هذه الأمور كلها من ثمرات المحبة، الا أن المحب اذا تطلع الى منتهى الجمال من وراء حجاب الغيب، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال، انزعج قلبه للطلب وهاج اليه، فسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقاً، وهو بالاضافة الى أمر غائب.

واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وغير ملتفت الى ما لم يدركه بعد، استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره انساً. وان كان نظره الى صفات العجز والاستغناء وعدم المبالاة، وخطر امكان الزوال والبعد تألم قلبه بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفاً.

وأما علامة الأنس: فضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم، واستهتاره بعذوبة الذكر، حتى أنه ان خالط الخلق يكون كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة وغائب في حضور، مخالط بالبدن منفرد بالقلب.

وبعض المتكلمين أنكروا الأنس والحب والشوق وظنوا أن هذه تشبيه، وذلك لجهلهم ان جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات، وانكار ذلك من القصور. وأنكر بعضهم مقام الرضا وقال: ليس الا الصبر، وهذا أيضاً كلام قاصر يقتصر من المقامات على القشور، وهؤلاء معذورون الا أن عذرهم غير مقبول.

واعلم: ان الأنس اذا دام غلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف التغير والحجاب، فانه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال مع الله تعالى. وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس.

ومن لم يقم فيه وتشبه به في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر.

يحكى أن موسى عليه السلام خرج يستسق في سبعين الفاً من بني اسرائيل، فأوحى الله اليه: كيف أستجيب لهم وهم يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري، ارجع الى عبدي برخ وهو عبد أسود حتى أستجيب لهم، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف. وقد استقبله عبد اسود وبين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور النبوة، فسلم عليه وطلب منه الدعاء. فقال في كلامه: ما هذا من فعالك ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك: أنقصت عليك عيونك، أم عاندتك الرياح عن طاعتك، أم نفد ما عندك، أم أشتد غضبك على المذنبين، ألست كنت غفاراً قبل خلق الخطائين، وأمثال ذلك. فما برح حتى اخضلت بنو اسرائيل بالمطر، وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب. قال برخ: كيف رأيت يا موسى حين خاصمت ربي كيف أنصفني، فهم به موسى عليه السلام، فأوحى الله اليه أن برخاً يضحكني كل يوم ثلاث مرات، وأمثال ذلك من المحبين كثيرة.

المطلب السابع
في الرضا

وهي من أعلى المقامات. وقد أنكرها طائفة لغموضها، وقالوا: ان أمكن الرضا بكل شيء من أفعال الله عز وجل فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي. وانخدع قوم فرأوا التسليم بالفجور والفسق وترك الانكار من باب الرضا، وليس كذلك.

وبيان الحق فيه: ان فضيلة الرضا ثابتة بالآيات نحو قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾(١)؛ وقوله: ﴿هل جزاء الاحسان الا الاحسان﴾(٢). ومنتهى الاحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عنه. ونحو ذلك في الآيات والأخبار الكثيرة.

---

(١) سورة المائدة، آية: ١١٩.
(٢) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

وأما حقيقته: فان الرضا مما يثمر المحبة، وذلك لوجهين: اما أن لا يحس الألم ولا يدركه لاستغراقه بمشاهدة محبوبه، واما أن يحس به و يدرك الألم ولكن يرضى به بل يرغب فيه، مريداً بعقله وان كان كارهاً بطبعه؛ كمن يجد ألم الفصد و يرضى به بل يشكر الفصاد. وقد يكون ذلك لطلب الأجر والثواب، وقد يكون لكونه رضا حبيبه مطلوباً ومراداً عنده.

وأما الفسق والفجور والمعاصي، فلها وجهان: وجه الى الله تعالى من حيث أن فعله واختياره وارادته، فيرضى به من هذا الوجه تسليماً للملك الى ملكه ورضا بما يفعله؛ ووجه الى العبد من حيث انه كسبه ووصفه، وعلامة كونه ممقوتاً عند الله تعالى فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. فالسكوت عنه وتسميته حسن خلق جهل محض.

ولا يخفى أن الرضا والكراهة ضدان لا يجتمعان من جهة واحدة ولكن من جهتين فجائز، وبهذا يتقرر كيفية الجمع بين الرضا بالقضاء وبين البغض في الله والحب في الله والتشديد والتغليظ على الكفار والمبالغة في مقتهم.

وبالجملة: الخير والشر كلاهما من الله، ومن قال: الشر ليس منه فهو جاهل، وكذا ما قال: ان كلاهما منه بوجه واحد؛ بل الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي. ووراء هذا سر القدر الذي منع عن افشائه.

وأما الدعاء للبلاء مع وجوب الرضا بالقضاء، فلأن الدعاء يستخرج منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع، و يكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف، فيكون الدعاء من قبيل مباشرة الأسباب. ولا يخفى أن الرضا من باب التوكل، وقد عرفت أن لا منافاة بين مباشرة الأسباب والتوكل.

وأما الفرار من بلاد تكثر فيها المعاصي فلا يخالف الرضا، وليس ذلك فراراً من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه. وأما نهى الفرار عن بلد الطاعون، فذلك ليس لحرمة الخروج بل لئلا يهمل أمر المرضى فيهلكون هزلاً وضراً. وقد عرفت تفصيل ذلك.

الأصل السابع
في النية والأخلاص والصدق

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في النية

أما فضيلتها: فبقوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[1]، والمراد بالأرادة: النية. وقال صلى الله عليه وسلم: «انما الأعمال بالنيات»، ونحو ذلك.

وأما حقيقتها: فاعلم أن النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو صفة للقلب.

واعلم: أن الانسان يوافقه بعض الأمور ويخالفه بعضها فافتقر أولاً الى معرفة الملائم أي النافع، والضار أي المنافر. فخلق الله فيه الهداية والمعرفة لأجل ذلك، وجعل لها أسباباً: وهي الحواس الظاهرة والباطنة، ثم هذه المعرفة لا تكفي في حصول أمر ان لم يشته ذلك الأمر، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة، أعني: نزوعاً في نفسه اليه وتوجهاً في قلبه اليه. ثم ذلك لا يكفيه ان عجز عن تحصيله، فخلق الله له القدرة والاعضاء للحركة، فالعضو لا يتحرك

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

الا بالقدرة، وهي تنتظر الداعية الباعثة، وهي تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد. فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة، وهي ارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ما هو موافق للغرض أما في الحال أو في المآل.

ثم أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد، وقد يكون بباعثين: اما بالاجتماع في التأثير أو تأكيد التأثير فهاهنا أقسام أربعة:

الأول: أن ينفرد الباعث الواحد؛ كهجوم السبع في الهرب، فلا نية له غيره. وهذه تسمى خالصة، والعمل بموجبها اخلاصاً. ـــ

الثاني: أن يجتمع باعثان كل منهما كاف بالانتهاض لو انفرد؛ كأن يتصدق لقريبه الفقير لفقره وقرابته، و يسمى هذا مرافقة البواعث.

الثالث: أن يقوى مجموعهما على الانتهاض دون كل واحد منهما؛ كالتصدق عند الناس لغرض الثواب والثناء معاً، حتى لو كان الطالب فاسقاً لكان لا يعطيه، أو كان صالحاً وطلبه في الخلوة لا يعطيه أيضاً. و يسمى هذا الجنس مشاركة.

الرابع: أن يستقل أحدهما لو انفرد والآخر لا يستقل، ولكن لما انضاف اليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل؛ مثل: أن يتصدق عند الناس، ولكن علم أنه لو كان خالياً لم يفتر عن عمله، ولكن صار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم. و يسمى هذا الجنس المعاونة.

واعلم: أن قوله صلى الله عليه وسلم: «نية المرء خير من عمله» قيل: معناه أن النية سر ولعمل السر فضل. وهذا صحيح، الا أنه ليس بمراد، اذ يقتضي عموم الحديث أن يكون نية ذكر الله خيراً من ذكره بقلبه. قيل: أن النية تدوم الى آخر العمر دون العمل، وهو ضعيف: اذ معناه أن العمل الكثير خير من القليل، مع أن النية لم تكن الا في لحظات فلا يكون خيراً، وقد دل عموم الحديث على خيريته. وقد يقال: ان جهة النية فقط خير من جهة العمل فقط، وهو كذلك، لكنه بعيد أن يكون مراداً، اذ العمل بلا نية لا خير فيه أصلاً، مع أن المفهوم من الحديث اشتراكهما في أصل الخيرية. والحق: أن

المراد أن لكل من النية والعمل أثراً في الخيرية، لكن أثر النية أكثر من أثر العمل.

المطلب الثاني

في تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

والأعمال ثلاثة:

أحدها: المعاصي. وهي لا تتغير عن موضوعها بالنية بل النية بها شر آخر، فالقائل به اما معاند الشرع واما جاهل عاص بجهله، اذ طلب العلم فريضة على كل مسلم؛ مثال ذلك من بنى مسجداً أو مدرسة بمال حرام وقصده الخير، أو علم علماً لمن يجعله آلة شر وفساد وقصد بذلك نشر العلم، فان استعمله هو في الفساد فهو المعاتب لا أنا، الا أنه تلبيس ابليس.

وثانيها: الطاعات. وهي بالنيات في أصل صحتها وفضل طاعتها، فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة؛ مثل: أن يعقد في المسجد للاعتكاف، ولانتظار الصلاة، ولكف الحواس عن المعاصي، وللزوم السر للفكر ودفع الشواغل الدنيوية، وللتجرد لذكر الله أو استماعه، ولافادة علم، ولأن يستفيد أخاً لله، ولأن يترك الذنوب حياء من الله تعالى في أن يفعل المعاصي في بيته.

وثالثها: المباحات. وتصير بالنية من القربات فما أعظم خسران من يغفل عنها؛ مثلاً: أن يطيب يوم الجمعة للتلذذ فهو حلال، الا أنه يحاسب عليه و ينقص من نعيم الآخرة بقدره، واما اذ تطيب لدفع النتن عن عباد الله فتكون عبادة، وأن تطيب للتفاخر أو للتمكين في قلوبهم أو تودد الى النساء الأجنبيات يكون معصية.

فاياك واياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحترز من شرورها

وغرورها، وتعد الجواب يوم الحساب فان الله مطلع عليك وشهيد: ﴿ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد﴾[1].

ثم أن النية غير داخلة تحت الاختيار، فلا تظن أن قولك: نويت ادرس الله أو اتجر لله نية، بل ذلك حديث نفس أو لسان أو فكر، أو انتقال من خاطر الى خاطر. وانما النية: انبعاث النفس وتوجيهها وميلها الى ما ظهر لها أن فيه غرضها اما عاجلاً أو آجلاً. والميل اذا لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقولك: نويت أن أشتهي الطعام وأميل اليه، بل لا طريق الى اكتسابه الا باكتساب أسبابه، وذلك مما يقدر عليه وقد لا يقدر، وذلك يجري مجرى الفتوح من الله تعالى. نعم: من كان الغالب على قلبه أمر الذين يتيسر عليه احضار النية في أكثر الأحوال، وذلك أما للخوف أو للرجاء، أو لذاته تعالى وجلاله لا لأمر سواه.

المطلب الثالث

في الاخلاص

وفضيلته: كثيرة مذكورة في الآيات والأخبار. قال الله تعالى: ﴿مخلصين له الدين﴾[2]، وقال: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾[3]، وقال: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[4]. والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة.

وأما حقيقة الأخلاص: فكل من خلص عن شوب غيره سمي خالصاً، والفعل اخلاصاً. ويضاده الاشراك، فكما أن الشرك جلي وخفي كذا الاخلاص. ثم أن الاخلاص هو النية بشرط كون الباعث واحداً فقط، فمن تصدق وغرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص، وكذا من تصدق وغرضه محض الرئاء فهو مخلص أيضاً لغة، الا أن العرف يخصص الاخلاص بالأول؛ كما أن الالحاد هو الميل مطلقاً والعرف خصصه بالميل عن الحق.

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٩.
(٣) سورة الزمر، آية: ٣.
(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

ثم أن من انبعث لقصد القربة ولكن امتزج بخاطر آخر من حظوظ النفس؛ كمن صام للقربة وقصد معه الحمية، أو حج للقربة مع قصد صحة المزاج بحركة السفر، أو تعلم العلم لله مع قصد العز بين العشيرة، أو كتب مصحفاً للقربة وقصد أن يجود خطه بالمواظبة، ونحو ذلك من أمثال هذه الخطرات التي يخف معها العمل فقد خرج بهذه عن الأخلاص وتطرق اليه الشرك. ولما كان الانسان قلما ينفك عن أمثال هذه الحظوظ قيل: من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا.

ثم أن هذه البواعث: أما أن تكون مثل القربة أو أقوى منه أو أضعف. والاخلاص تجرد النية عن هذه البواعث كلها حتى يتجرد فيه قصد القربة عن باعث غيره، وهذا لا يتصور الا من محب لله تعالى، فلا يكون له هم الا الله. ومن لم يكن كذلك فباب الاخلاص كالمسدود عليه الا على الندور. فعلاج ذلك: كسر حظوظ النفس والتجرد للآخرة وغلب ذلك على القلب.

ثم ان الانسان ربما يتعب في الأعمال و يظنها خالصة وليس كذلك. فهاهنا موضع غرور قلما يسلم منه أحد وقلما يتنبه له سيما العلماء، اذ الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والاستبشار بالحمد والثناء، وهو يظن أنه غرضه نشر دين الله والنضال عن شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا الحال في الوعظ.

وربما يظن العالم أن نشره للعلم لوجه الله، حتى يظن من نفسه أنه لو قام أحد مقامه فيه لفرح به ولم يغتم. الا أنه غرور باطل اذ لا عبرة بوعد النفس قبل نزول الأمر. فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الأكثرون الا الشاذ النادر والفرد الفذ.

والكلام في تفسير الاخلاص كثير. الا أن البيان الشافي ما وقع عن سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم، اذ سئل عن الأخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت». أي: لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد الا ربك، وتستقيم في عبادتك كما أمرت. وهذه اشارة الى قطع كل ما سوى الله

عن النظر وهو الاخلاص حقاً.

ثم بيان درجات الشوائب المكدرة للاخلاص على مراتب: جلي، وخفي ضعيف مع الجلاء، وقوي مع الخفاء. واظهر مشوشاتها الرئاء، مثل أن يدخل داخل وهو يصلي فحسن صلاته لأجل أن يقول له أنه صالح، أو لا يتبع الشيطان في ذلك الا أنه يحسن ليقتدى به و يتأسى غيره به فيكون له مثل ثواب أعمالهم، أو لا يتبع الشيطان في ذلك أيضاً فيحسن في الخلوة والملأ معاً، وهذا أيضاً مكر لأن هذه التسوية من النظر الى الخلق، أو لا يتبع الشيطان في ذلك أيضاً الا أنه اذا حضر أحد وهو في صلاته يقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله وجلاله، وأستحى من أن ينظر الله الى قلبك وأنت غافل عنه، فيظنه المسكين اخلاصاً فيتبعه وهو عين المكر والخداع، فأنه لو كان اخلاصاً لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة. والفرق بين الخلوة والملأ من شوب الرئاء الخفي.

واعلم: أن العمل اذا كان محض رئاء يستحق صاحبه المقت والعقاب، واذا كان خالصاً لوجه الله يستحق الثواب. وانما الخلاف في العمل المشوب المفهوم من ظواهر الأخبار ان لا ثواب له أصلاً، وقد يعارض فيه بعض الأخبار بعضاً.

فالذي ينقدح لنا فيه، والعلم عند الله: أن ننظر الى قدر الباعث الديني والباعث النفسي، فان تساويا تساقطا فالعمل لا له ولا عليه، وان قوي الباعث النفسي فالعمل غير نافع بل مقتض للعقاب وان كان أخف من عقاب رئاء لم يمتزج فيه جهة قرب أصلاً، وان قوي الباعث الديني فله ثواب بقدر زيادته، لقوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ (١)؛ ولقوله تعالى: ﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ (٢).

فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل ان كان غالباً على الرئاء حبط منه القدر الذي يساويه و يبقى له الفضل ثواباً، وان كان مغدوباً محى من الوزر ما

---

(١) سورة الزلزلة، آية: ٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٤٠.

كان يساويه ويبقى له الباقي وزراً، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والدواء عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر عن تأثير في انارة القلب وتسويده وفي تقريبه من الله تعالى وتبعيده.

وأما ما ورد في الأخبار من أن الرئاء محبط للعمل مطلقاً فالمراد به الرئاء المحض أو الغالب على الخير فلا تناقض أصلاً.

المطلب الرابع
في الصدق

وفضيلته مذكورة في كل طبع ولا حاجة الى التنبيه عليها.

وأما حقيقته ومراتبه؛ فاعلم: أن الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وفي النية، وفي الأرادة، وفي العزم وفي الوفاء بالعزم، وفي العمل، وفي تحقيق مقامات الدين كلها. والمتصف بالصدق في جميع ذلك يسمى صديقاً لأنه مبالغة في الصدق.

الأول؛ أعني صدق اللسان: لا يكون الا في الأخبار أو فيما يتضمنها، فالخبر أما ماض أو مستقبل، ويدخل فيه الوفاء بالوعد والخلف فيه.

وهذا الصدق الواقع في اللسان واجب على كل أحد وله كمالان:

أحدهما: الاحتراز عن المعاريض لأنه في حكم الكذب من حيث أنه تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه، وان صلح لغيره أيضاً الا أنه قد يترجح على الصدق في بعض المواضع: في تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجرى هؤلاء، وفي الحذر من الظلمة، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الغزاة. والصدق هاهنا يتحول الى النية.

والكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه؛ كما في قولك: اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، فينبغي أن يكون قلبه متوجهاً اليه عند كلامه، وكذا اذا قلت: اياك نعبد، ينبغي أن لا

تشرك أحداً في عبادته.

الصدق الثاني: في النية والارادة. ويرجع ذلك الى الاخلاص، فكل صادق لا بد أن يكون مخلصاً.

الصدق الثالث: صدق العزم؛ مثل أن تقول: ان رزقني الله مالا تصدقت بجميعه أو شطره، أو: إن أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم أظلم أحداً. فصدقها بأنه لا يكون تردد عند هذا القول في عزمه، بل يكون عزمه جزماً صادقاً، وان كان مع ميل وتردد وضعف لا يكون عزمه صادقاً قطعاً.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم، اذ النفس قد تسخو في العزم والوعد اذ لا مؤونة فيه، لكن اذا آن أوان تحقيقه قد ينحل عزمه فيكذب، أو يحقق فيصدق.

الصدق الخامس: في الأعمال. وهو أن لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن الى تصديق الظاهر، مثلاً: يتخشع في الأعمال وقلبه في السوق وان لم يقصد الرئاء، فهذا هو الفرق بينه وبين الرئاء. وبالجملة: مساواة السر والعلانية من أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها: الصدق في مقامات الدين والخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والحب والتوكل ونحو ذلك، فان لهذه الأمور مبادىء هي ظهورها وغايات هي حقائقها. واذا غلب الشيء وتمت يسمى صاحبه صادقاً فيه؛ كما يقال: الخوف الصادق، والشهوة الصادقة؛ مثلاً: كل مؤمن يخاف من النار لكن صدق ذلك أن يصفر لونه ويتنغص عليه عيشه، ويستبدل بالأنس وحشة وبالراحة تعباً. فالصادق في جميع المقامات عزيز جداً.

ثم درجات الصدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض الأمور دون آخر. فان كان صادقاً في الجميع فصاحبه يسمى صديقاً، وذلك نادر عزيز الوجود جداً.

الأصل الثامن

في المحاسبة والمراقبة

واعلم، ان التاجر يستعين بشريكه فيشارطه أولاً، ثم يراقبه، ثم يحاسبه ثالثاً، ثم يعاتبه رابعاً. كذلك العقل هو التاجر في متاع الآخرة، وشريكه النفس، فعليه أن يحاسبها لأن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشتري بها كنوز لا تتناهى أبد الآباد. فيقول للنفس في صبيحة كل يوم: مالي بضاعة الا العمر، فهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة، وهذا اليوم الجديد قد مهلني الله تعالى فيه، وأنساني أجلي وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني الى الدنيا يوماً واحداً أعمل فيه صالحاً، واحسبي أني توفيت ثم رددت، فاياك أن يضيع هذا اليوم، فان كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها. فهذه وصيته لنفسه في أوقاته.

ثم يستأنف لها وصيته في أعضائه السبعة و يسلمها اليها، فانها رعاية خادمة لها هذه التجارة، وبها تتم أعمال هذه التجارة، وان لم يحفظ هذه الأعضاء صارت أبواباً سبعة لجهنم.

أما العين: فيحفظها عن المحرمات بل عن الفضول، فأنها مسؤولة عن الفضول كالكلام، ثم يأمر بصرفها الى ما خلقت هي له.

وكذلك اللسان يحفظ من الغيبة والنميمة والكذب والبهتان وعن فضول الكلام، و يأمر له العلم والأذكار وسائر الخيرات. وكذا الأذن والبطن واليد والرجل والفرج.

ثم أن العقل بعد ما شرط للنفس هذه الأمور، ينبغي أن يراقبها عند العمل. ولا يخفى أن المراقبة من مبادىء مرتبة الاحسان ففضلها ظاهر.

وأما حقيقتها: فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته اليه، ولا يتم هذا الا بمعرفة، وهي أن الله تعالى مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد: ﴿أن ربك لبالمرصاد﴾(١).

واذا استولت على القلب هذه المعرفة لا جرم امالت القلب الى جانب ملاحظة الرقيب، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون المنقسمون الى الصديقين والى صاحب اليمين.

وأما مراقبة الصديقين: فهو مراقبة التعظيم والاجلال، بأن يستغرق قلبه في ملاحظة ذي الجلال، و يصير منكسراً تحت الهيبة فلا يبقى معه متسع للغير أصلاً، وتبقى جوارحه متطلعة عن التلفت الى المناجاة فضلاً عن المحظورات، فلا يحتاج الى مدبر في حفظها على سنن السداد. وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً، فكفاه الله سائر الهموم. ومثل هذا يغفل من الخلق كلهم، حتى لا يبصر من عنده وعينه ناظرة اليه، ولا يسمع الكلام وليس به صمم، وقد يمر على ابنه فلا يكلمه. وقال بعضهم لمن عاتبه على عدم الالتفات: اذا مررت فحركني. ومثل هذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه اذ لا يتحرك الا بما هو فيه.

وأما مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب مطالعة جمال الله على قلوبهم و بواطنهم وظواهرهم، ولكن لم يدهشهم ذلك بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال، متسعة للتلفت الى الأحوال والأعمال، وهم يجمعون بين ممارسة الأعمال والمراقبة بغلبة الحياء من الله تعالى، فيتثبت فيه، و يفر من الفضاحة في القيامة، فينظر قبل العمل انه لله تعالى فيمضيه، أو لغير الله فيستحي من الله فكيف عنه، ثم يلوم نفسه على رغبتها فيه وهمها به وميلها اليه، وعرفها سوء

---

(١) سورة الفجر، آية: ١٤.

فعلها، وانها عدوة نفسها ان لم يتداركها الله بعصمة، وعند الشروع في العمل في كيفية العمل، ليقضي حق الله فيه، ويحسن النية في اتمامه، و يكمل صورته، و يتعاطاه على أكمل ما يمكنه. وهذا ملازم له في جميع أحواله من حركة وسكون.

فإذا راقب الله في جميع ذلك، قدر على عبادة الله فيها بالنية ومراعاة الأدب وحسن الفعل. فراقبته في الطاعة: بالاخلاص والاكمال ومراعاة الآداب وحراستها عن الآفات. وان كان في معصية: فراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير. وان في مباح: فراقبته بمراعاة الأدب ثم شهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.

ثم الناس في حق المطاعم والمشارب على أربع مراتب:

قسم ينظرون اليها بعين الاعتبار: فينظرون في عجائب صنعتها، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات بها، وكيفية تقدير الله لأسبابها، وخلق الشهوة الباعثة عليها، وخلق الآلات المسخرة للشهوة، وهذا مقام ذوي الألباب.

وقسم ينظرون بعين المقت والكراهة، و يودون لو اشتغلوا عنها الا أنهم مضطرون اليها، وهذا مقام الزاهدين.

وقسم يرون في الصنعة الصانع وصفاته، فتنفتح له أبواب الفكر، وهو أعلى المقامات، وهو من مقام العارفين والمحبين، وذلك عزيز جداً.

وقسم ينظرون اليها بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على ما فاتهم منها، و يفرحون بما حضرهم من جملتها، و يذمون ما لا يوافق طبعهم، و يعيبون الطبيخ والطباخ مع أن من ذم شيئاً من خلق الله بغير اذنه فقد ذم الله تعالى، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر».

واذا عرفت محاسبة النفس ومراقبتها عند العمل، فاعلم: ان مراقبتها محاسبتها بعد العمل، وهي النظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان، فان فضل حاصله شكره، والا طالبه بضمانه وكلفه

تداركه في المستقبل. ثم أن رأس مالك السالك في دينه الفرائض، وربحه النوافل، وخسرانه المعاصي، وموسم التجارة جملة النهار. فليطالب نفسه الامارة بالسوء، فليحاسبها على الفرائض: ان أداها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها، وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وان أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وان ارتكب معصية اشتغل بعقابها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط.

ثم انه يحاسبها عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته لم سكت، وعن سكونه لم سكن. ثم أنه بعد محاسبتها ينبغي أن لا يهمل تقصيرها والا عسر فطامها بعد ذلك، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها على ذلك، مثلاً: اذا أكل لقمة بشبهة يعاقبها بالجوع، واذا نظر الى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر، وهكذا. واذا كنت عاقبت أهلك وعبدك وأمتك وولدك على تقصيرهم في أمر يؤدي الى ضرر في الدنيا، فلأي شيء لا تعاقب جوارحك وهي أخص بك مما ذكر مع أن ضررها في الآخرة.

ثم اذا أتممت أمر المحاسبة فعليك بالمجاهدة، بأن تعاقبها بالعقوبات، مثلاً: ان رآها تتنادى في ورد من أورادها يعاقبها بتثقيل الأوراد عليها، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات، وتداركاً لما فرط. ولعمري ما أعظم حسرة من لا يمنع نفسه أياماً قلائل عن شهوات مكدرة، ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين ما يشتهيه أبد الآباد. نعوذ بالله من ذلك.

ثم اعلم: أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، وأمرت بمنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذاتها، فان أهملتها شردت وجمحت، وان عاتبتها كانت نفسك هي النفس اللوامة ورجوت أن تصير مطمئنة. فلا تغفل عن وعظها ساعة، وقل لها: أنت تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أحمق وأجهل، أما تعرفين الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما، فمالك تشتغلين باللهو. أما تعلم ان كل آت قريب؛ وأيضاً: انه يأتي بغتة، ولا أقل من أن المرض يأتي بغتة، فعند ذلك لا ينفعك الندم؛ وأيضاً: ما أجرأك على

المعاصي، ان قلت: ان الله لا يراك فما أعظم كفرك، وان قلت أنه يراك فما أشد وقاحتك، وان اغتررت بمكره وفضله فالك لا تغترين بهما في أمر الدنيا وان رب الدنيا والآخرة واحد، وان ليس للانسان الا ما سعى، ولا تظنين انك اذا مت انفلت وتخلصت، هيهات هيهات، كيف تكذبين أنبياء الله، فان صدقتهم فما بالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد، فبماذا أمنت استعجال الأجل، وما الباعث لك على التسويف فتنظرين يوماً لا يعسر فيه مخالفة الشهوات، فهذا من أقبح الجهالات اذ الجنة حفت بالمكاره، والنار بالشهوات، مع أن شجرة الشهوة تقوى وترسخ مهما طال الزمان، سيما والقوة مهما تأخرت تكون في النقصان، اذ رياضة الهرم من العناء، والقضيب اذا غلظ لا يقبل الانحناء، وان لم تصبري عن مقارفة الشهوات فتأملي أن ألم الصبر عنها أعظم أم ألم الصبر على النار.

فإذا عرفت هذا، أفلعلك لا تتوانين عن النظر لنفسك الا لضعف يقينك بيوم الحساب، وهو الكفر الخفي، واعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفاتك الى استدراجه ومكره واستغنائه عن عبادتك، وهذا هو الحمق الجلي، وانما كرم الله تعالى في تعريف أسباب الخلاص لا في أن يدفع عنك العقاب بدون التحصن بحصنه أعني التوحيد والطاعات.

ويحك! فأحسبي انك غافلة عن عذاب الله وثوابه، أما تعلمين انك تفارقين الدنيا بالموت فلا يبقى لك الا حسرة مفارقتها، تعمرها وأنت ترتحلين عنها، وتخربين آخرتك وأنت تصيرين اليها، ولعلك أسكرك حب الجاه وحاصله ميل قلوب الناس اليك، فأحسبي ان كل من على وجه الأرض سجدوا لك وأطاعوك، فما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود، فأفٍ لدنيا ربما يفضلك فيها المجوس واليهود، فيا حسرة عليك، ان الموتى يتمنون الرجعة الى الدنيا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم، وأنت في أمنيتهم غافل عنها ذاهل.

أفتظنين أنهم دعوا الى الآخرة وانت من الخالدين، هيهات هيهات، ساء ما تظنين، ما أنت الا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، أما تخافين اذا بلغت النفس منك على التراق، وتبشري بالعذاب، فهل ينفعك حينئذ الندم،

أو يقبل منك الحزن، أو يرحم منك البكاء.

فأنظري بأي قلب تقفين بين يدي الله وبأي لسان تجيبين، وأعدى للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، فلا مذهب ولا مطلب، ولا مستغاث ولا مهرب، ولا ملجأ ولا منجى الا اليه، لا معول الا عليه، قد ضاقت بك السبل وانقطعت منك الحيل، ولا يجيب دعوة المضطر الا هو، ولا يغيث الطالب الملتهف الا هو، فقولي: يا رحمن يا عظيم يا كريم، أنا البائس الفقير والضعيف الحقير، هنا مقام المتضرع المسكين والذليل المهين، فعجل أغاثتي وفرجي، وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك وشراب مغفرتك، وأرزقني قوة عصمتك ولذة النظر الى وجهك الكريم، يا أرحم الراحمين.

الأصل التاسع
في التفكير

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
في فضيلة التفكر

وذلك شائع في كتاب الله تعالى والأخبار بحيث لا حاجة الى تفصيل ذلك.

وأما حقيقته: فهي احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة، وهذا أما بالتقليد أو بالفكر من عند نفسه، أما بالعلم والممارسة وهو الأكثر، أو بنور الهي في الفطرة كما كان للأنبياء عليهم السلام وذلك عزيز جداً. وقد يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً، وقد يخص اسم الاعتبار للعبور عن المعرفتين الى معرفة ثالثة، واسم التذكر بالعثور على معرفتين فقط، وكل متفكر متذكر بدون عكس كلي.

ثم أن ثمرة الفكر العلم، ويحصل منه في القلب تغير يسمى حالاً، ويلزم هذا الحال تغير في الجوارح يسمى عملاً. فالفكر هو مفتاح الخيرات كلها، ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

فهاهنا خمس درجات:

أولها: التذكر. وهو احضار المعرفتين في القلب، مثل: أن تعرف أن

الأبقى بالايثار، وان الآخرة أبقى.

وثانيها: التفكر. وهو طلب المعرفة الثالثة منهما.

الثالث: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها، وهي قولك: الآخرة أولى بالايثار.

الرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول المعرفة؛ مثل: تغير القلب الى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا.

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب ما تجدد له من الحال؛ وذلك مثل: تغير أعمال الجوارح في اطراح الدنيا والاقبال على الآخرة.

المطلب الثاني
في مجاري الفكر

اعلم: أن الفكر اما في أمر الدين أو في غيره، وانما غرضنا هو الأول. والمراد منه المعاملة بين العبد والرب، فجميع أفكار العبد أما أن يتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، أو بالمعبود وصفاته وأفعاله سبحانه.

وما يتعلق بالعبد: أما أن يكون نظراً فيما هو محبوب عند الرب، أو فيما هو مكروه، ولا حاجة الى الفكر في غيرهما.

وما يتعلق بالمعبود: وأما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وأما أن يكون نظراً في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما.

وانما انحصر الفكر فيما ذكر، لأن المحب اذا استغرق في حبه لم يتسع فكره الا ملاحظة محبوبه، وملاحظة أحوال من نفسه يرضى محبوبه أو يسخطه عليه، ولا متسع لغيرهما، **فصار محل التفكر أربعة أقسام.**

القسم الأول: التفكر في صفات نفسه وأفعاله ليميز المحبوب منها عن المكروه. **وطريق الفكر في أمور ثلاثة:**

الأول: أنه هل هو مكروه عند الله أم لا اذ ربما يشتبه جهة الكراهة.

الثاني: جهة الاحتراز عن المكروه.

الثالث: أن المكروه أما في الحال فيتركه، أو في الاستقبال فيحترز عنه، أو فارقه فيما مضى من الأحوال فيتداركه. وقسم المحبوب أيضاً ينقسم الى هذه الأمور.

ثم هذه الأمور: أما طاعات أو معاص ظاهرة أما في الأعضاء السبعة، أو غيرها أو صفات منجيات ومهلكات باطنة.

النوع الأول: المعاصي. فيحاسبها صبيحة كل يوم أعضاءه السبعة بل جميع بدنه، فان كان ملابساً في الحال يتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم، أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد لها بالاحتراز والتباعد، فيفتش كل عضو عضو على الانفراد.

النوع الثاني: الطاعات. فينظر أولا في الفرائض كيف أكملها أو جبر نقصانها بالنوافل، ثم يفتش كل عضو فيتفكر في صرفه فيما يحبه الله.

النوع الثالث: في الصفات المهلكة التى محلها القلب؛ من الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب، فيتأمل في كل ما ذكرنا في المهلكات، فيمتحن قلبه و يستشهد بالعلامات ولا يلتفت الى ادعاء النفس التنزه عنها، ثم يباشر علاجه، وقد ذكرناه في موضعه.

النوع الرابع: في الصفات المنجيات؛ من التوبة والندم والصبر والشكر ونحو ذلك، وليتفكر كل يوم في قلبه وما الذي يعوذه من هذه الصفات المقربة الى الله، فإذا افتقر الى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها الا علوم، وان العلوم لا يثمرها الا الأفكار.

وأنفع الأمور في هذا قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، و يردد الآية التي هو محتاج الى التفكر فيها من بعد أخرى ولو مائة مرة، و يتوقف في التأمل ولو ليلة واحدة، فان تحت كل كلمة من القرآن أسراراً لا تحصى؛ وكذلك مطالعة الأحاديث، لأنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم، وكل كلمة من

كلماته بحر من بحار الحكمة، ولو تأمله العالم حق تأمله لم ينقطع فيه نظره طول عمره. فهذا هو طريق التفكر.

و ينبغي أن يكون المبتدىء مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يصل الى المقامات الشريفة. وهذا التفكر مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو غاية المطلب، بل هو محجوب عن مطلب الصديقين: وهو التفكر في جلال الله وجماله، واستغراقه فيه بحيث يفنى عن نفسه، والفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين. والذي ذكرناه هو عمارة الباطن وهو وسيلة الى الفناء. و يروى أن الحسين بن منصور لقي الخواص وهو يدور في البودي، فقال: فيما أنت فقال: أصحح حالي في التوكل، فقال: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد.

وبالجملة: تعمير الظاهر بالعبادات لا يثمر الا الجنة دون المجالسة، وتعمير الباطن بالصفات المنجيات يثمر الاستعداد للقاء. وأصل السعادة هو الفناء لأنه يثمر اللقاء.

واعلم: أن كل مريد ينبغي أن يكتب الصفات المهلكات والمنجيات في جريدة، فمها كفي واحدة من المهلكات خط عليها و يدع التفكر فيها، و يشكر الله تعالى على كفايته اياها وتنزيه قلبه منها، وهكذا حتى يفعل على الجميع. وكذا يفعل بالمنجيات والمهلكات والمنجيات وان كانت لا تقبل الاحصاء الا أنه يكفي من كل منها عشرة، وهي الأصول وهي التي ذكرناها في هذا الكتاب فتدبر فيها. وهكذا حال المعاصي والطاعات الظاهرة، الا أن كل صنف من الناس مبتلون بنوع من المعاصي فيكفي في حقهم التفكر في ذلك النوع.

القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه.

وفيه مقامان:

الأول: الفكر في ذاته وصفاته، فان أكثر العقول لا تحتمله، بل القدر الممكن من معرفته أنه تعالى مقدس عن الزمان والمكان، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه، قد حير عقول أقوام حتى

أنكروه، وذلك لأن العقول تتحير فيه، فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون، ثم أنهم لا يطيقون نور الشمس أصلاً. وعقول الصديقين كأبصار الانسان حتى يطيقون النظر ولا يطيقون دوامه، ولذلك قيل: تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته.

المقام الثاني: وهو النظر الى أفعاله وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه، انها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه، وعلى كمال علمه وحكمته، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فننظر الى صفاته من آثار صفاته، فالنظر اليها في مصنوعاته كالنظر الى الشمس في الطست، فالأفعال واسطة في مشاهدة الفاعل، فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله».

فالتفكر في خلق الله: أما فيما لا نعرف أصلها فلا يمكن أصلاً، قال تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ (١).

وأما فيما نعرف أصلها وجملتها ولا نعرف تفصيلها: فيمكننا أن نفكر في تفصيلها.

ثم هو أما غير مدرك بالبصر؛ كالملائكة والجن والشياطين، فمجال الفكر فيه مما يغمض، فلنعدل الى الأقرب الى الافهام؛ وهي المدركات بالبصر: كالسموات السبع والأرضين وما بينهما، وكذا الموجودات في السموات والموجودات على الأرض.

ولكل هذه الأجناس أنواع، ولكل نوع منها أقسام، وللأقسام أصناف، ولكل منها صفات وهيآت ومعان ظاهرة وباطنة. وجميع ذلك مجال للفكر، فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض الا وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية دال على جلاله وكبريائه.

---

(١) سورة يس، آية: ٣٦.

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال تعالى: ﴿ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾[1]. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كثير من المواضع في القرآن قوله: «ومن آياته» كل ذلك مشتمل على العبر الكثيرة للمتفكرين.

ولنضرب لك مثالاً أمكنك أن تحذو البواقي حذوه؛ وهو: أن أقرب الأشياء اليك نفسك، وهي مخلوقة من نطفة هي قطرة من الماء، أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب، ولأخراجها من صلب الرجل الى رحم المرأة ألقى الألفة والمحبة بينهما، وقادهما بسلسلة الشهوة الى الاجتماع.

ثم خلق من النطفة مولوداً بأن جعلها علقة وهي بيضاء مشرة، ثم جعلها مضغة، ثم مع تشابه أجزائها قسمها الى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم، ثم ركب من هذه الأعضاء الظاهرة والباطنة، فقدر الرأس ومشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع، وقسمها بالأنامل، ووضع فيها الأظفار. ثم ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة، والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص بعمل مخصوص.

ثم لو ذهبنا نفصل أحوال كل منها لفنيت القوى وتحيرت النهى؛ مثلاً: أبصار العين وطبقاتها، وكذلك كيفية السمع والذوق، لدهشت من عجائبها العقول. فانظر الى الحدقة وهي مقدار عدسة كيف تحيط بنصف السماء دفعة مع عظمها، وانظر الى السمع: كيف يدرك الأصوات، ويميز بين الحروف، ويفرق بين جهات الصوت مع أن المدخل واحد، الى غير ذلك من العجائب.

مثلاً: مجموع عظام البدن مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً سوى العظام الصغار، ولو تكلمنا في كل واحد منها لم نقض من حكمة واحد منها عشر أعشارها فضلاً عن سائر حكمها.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩.

الا أن الذي ذكرناه من النظر في الحكم لسنا نريد به نظر الطبيب في حكم خواص هذه الأجزاء لينكشف وجه العلاج فيها ان زال عن مزاجها الطبيعي، بل نريد به نظر أهل البصائر الذين يستدلون بحكمها على جلالة خلقها ومصورها، فشتان بين النظرين. فسبحانه سبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه.

فهذه نبذ من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، وأنت غافل عنها مشغول ببطنك وفرجك، لا تعرف من نفسك الا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل، ويشاركك في ذلك البهائم والسباع كلهم. وانما خاصية الانسان معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس، اذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين، ويحشر في زمرة النبيين والصديقين، مقرباً من حضرة رب العالمين، نسأل الله أن يجنبنا مزلة اقدام الجهال.

الأصل العاشر
في ذكر الموت والبعث والنشور
المطلب الأول
في ذكر الموت والترغيب فيه

اعلم: أن المنهمك في الدنيا والمحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، وأن ذكر به كرهه ونفر منه.

ثم الناس: أما منهمك فلا يذكر الموت وان ذكره فيذكره لتأسف على دنياه، وأما تائب فأنه يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف، فيفي بتمام التوبة، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل تمام توبته وقبل اصلاح الزاد. ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»: ان هذا لا يكره لقاء الله بل يكره فوت لقائه؛ وأما عارف يذكر الموت دائماً لأنه موعد لقائه لحبيبه، وهذا في الأكثر يستبطيء الموت ليتخلص من دار العاصين و ينتقل الى جوار رب العالمين.

وههنا درجة هي مقام التسليم والرضا وهي أعلى من الكل، وصاحبها يفوض أمره الى مولاه، فلا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل يكون الأحب اليه ما هو الأحب لمولاه.

وعلى كل حال في ذكر الموت ثواب، حتى آن المنهمك ربما يستفيد به التجافي عن الدنيا لأنه يكدر عليه اللذات والشهوات، فيكون من أسباب

النجاة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «أكثروا من ذكر هادم اللذات»؛ أي: نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلون على الله.

وما ورد في فضيلة الموت من الأخبار والآثار كثيرة جداً فلا نطول بذكرها الكلام.

الا أن ذكر الموت انما يؤثر في القلوب لذكرهم اياه بظاهر قلوبهم وعذبة ألسنتهم، والا فلو ذكروه بقلب فارغ عن الشهوات، واذعان لحال الأموات، والى ما صار حاله بعد طول فرحهم وسرورهم بالدنيا وغرورهم بالجاه والمال والأعوان والأنصار، حتى أيتموا أولادهم وأرملوا نساءهم، وتصرف بأموالهم أيدي الناس بل أيدي أعدائهم، وكيف خلت منهم مجالسهم وبيوتهم، وانقطعت آثارهم، ونسيت أسماؤهم، لأثر ذكر الموت في قلوبهم وجعلوه نصب أعينهم.

ثم إن قصر الأمل ديدن العلماء وأرباب القلوب، وفضيلته مذكورة في الأخبار والآثار، وأنه أصل كل سعادة، **الا أن القلوب مبتلون بطول الأمل، وعمت هذه البلية الكافة.**

وله سببان:

أحدهما: الجهل حيث يستبعد الموت مع الصحة والشباب، ولا يدري أن مشايخ البلد أقل من شبانه، وليس ذلك الا لكثرة الموت في الشبان، والصبيان أكثر، فالى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وخمسمائة شاب.

وأيضاً: لا يدري أن الموت وان لم يكن فجأة لكن المرض فجأة غير بعيد، ذلك لأن الوهم لا يعرف ما لم يألفه، فالانسان ألف موت غيره ولم ير موت نفسه أصلاً فلذلك يستبعده. الا أن من له عقل يعرف أن الأجل قدر، والانسان كل يوم وساعة في القرب اليه، وكل آت قريب.

وثانيها: حب الدنيا، فانه أنس بشهواتها فيشق عليه مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، ويتمنى ما يوافق هواه، فلا يزال يتوهم البقاء في

الدنيا وأسبابه الى أن يتقرر عنده ذلك ولا يخطر بباله الموت، واذا خطر بباله الموت يسوفه الى الكهولة، ثم الى الشيخوخة، ثم الى الرجوع من سفره، أو الى الفراغ من تدبير ولده، أو جهاز ابنته، أو قهر عدوه، الى غير ذلك من الأماني الباطلة.

وهكذا يفضي به شغل الى شغل آخر أو الى أشغال، الى أن تخطفه المنية في وقت لا يحبه، فعند ذلك تعظم حسرته وندمه حين لا ينفعه الندم، والمسكين يقدر أنه سيفرغ من أمور الدنيا، وهيهات ما فرغ منها الا من أطرحها، ولا يزيد التسويف الا قوة ورسوخاً، وأكثر حزن أهل النار وصياحهم من سوف، يقولون: واحزناه من سوف. ونعم ما قيل:

ولست بمدرك ما فات مني   بلهف ولا بليت ولا لو أني

اذا عرفت أن طول الأمل التسويف وسببه الجهل المحض أو حب الدنيا، فاعلم: ان علاجه ان كان من الجهل يندفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر، وسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة؛ وان كان من حب الدنيا فعلاجه شد يد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه، ولا علاج له الا الايمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب. ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا، فان حب الخطير يمحو عن القلب حب الحقير، فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت الى الدنيا كلها وان أعطى ملك الأرض من المشرق الى المغرب. فمن كان مستعداً الى الآخرة فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً.

هذا ثم أن الناس متفاوتون في طول الأمل:

منهم: من يأمل البقاء و يشتهي ذلك أبداً، قال الله تعالى: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٦.

ومنهم: من يأمل الى سنة، وانما يستعد في الشتاء للصيف وفي الصيف للشتاء، واذا جمع ما يكفي لسنة أشتغل بالعبادة.

ومنهم: من يأمل الصيف فقط أو الشتاء فقط فلا يستعد في أحدهما للآخر.

ومنهم: من يرجع أمله الى يوم وليلة فلا يستعد لغد. قال عيسى عليه السلام: لا تهموا برفق غد فان يكن غد من آجالكم فيأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم، وان لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم.

ومنهم: من لا يجاوز أمله ساعته، كما قال صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الله اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح».

ومنهم: من لا يقدر البقاء أيضاً ساعة. كان صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة و يقول لعلي لا أبلغه».

ومنهم: من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به وهو ينتظره، و يصلى صلاته صلاة مودع، كما روى أنه صلى الله عليه وسلم سأل معاذاً عن حقيقة ايمانه، قال: ما خطوت خطوة الا ظننت أني لا أتبعها أخرى.

وهذه مراتب الناس في الأمل، وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر و يوم، ودرجاتها عند الله تعالى أيضاً متفاوتة، فان الله لا يظلم مثقال ذرة: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾[1].

ثم ان علامة قصر الأمل المبادرة في العمل قبل حلول الأجل، ومن ادعى قصر الأمل وهو يعتني بالدنيا فهو كاذب في دعواه. فالتوفيق عامة أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة، فيستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فان عاش الى المساء شكر الله على طاعته، وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل

(١) سورة الزلزلة، آية: ٨.

استوفى منه حظه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله الى الصباح، وهكذا اذا أصبح.

ولا يتيسر هذا الا لمن قلبه فرغ عن الغد وما يكون فيه، فمثل هذا اذا مات سعد وغنم، وان عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة، فالموت له سعادة والحياة له مزيد.

المطلب الثاني

دواهي الموت

وهي أربع:

الأولى في شدة النزاع:

واعلم: أن الألم المصيب للبدن انما يدرك بواسطة الروح، واذا وصل الألم الى نفس الروح فلا تسل عن كربه وألمه، حتى قالوا: أنه أشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض، وانما لا يقدر على الصياح مع شدة ألمه لزيادة الكرب، حيث قهر كل قوة وضعف كل جارحة فلم يبق له قوة الاستغاثة، أما العقل فقد غشيه وشوشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد ضعفها، حتى ان بقيت فيه قوة سمعت له خواراً وغرغرة من صدره وحلقه، حتى يبلغ بها الى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، وتغلق دونه أبواب التوبة، وتحيط به الحسرة والندامة، قال صلى الله عليه وسلم: «تقبل توبة العبد ما لم يغرغر». فلا تسل عن عظم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم هون على محمد سكرات الموت». والناس انما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به حتى أن الأنبياء لمعرفتهم به يخافون من ذلك خوفاً شديداً.

الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع منه على القلب، فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته، الا أن المطيع يراه في أحسن صورة وأجملها.

الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت باحدى البشريين: اما أبشر يا عدو الله بالنار، أو أبشر يا ولي الله بالجنة.

الرابعة: خوف سوء الخاتمة وقد مر ذكره في الخوف والرجاء فلا نعيده.

ثم المستحب للمحتضر عند الموت هو صوت الهدوء والسكون، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادتين، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أرقبوا الميت عند ثلاث: اذا رشح جبينه وذرفت عيناه ويبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به، واذا غط غطيط المجنون واحمر لونه وأزبدت شفتاه فهي من عذاب الله قد نطق به، وأما انطلاق لسانه بالشهادة فهي من علامة الخير». الا أن الملقن لا يلح عليه اذ ربما يستثقله لشدة حاله ويخشى أن يفضي الى سوء الخاتمة.

وأما معنى هذه الكلمة: أن يموت الرجل وليس في قلبه غير الله، فان لم يبق غير الله تعالى فهو في النعيم الدائم، وان كان مشغوفاً بالدنيا ومتأسفاً على لذاتها كان أمره الى خطر المشيئة، فان مجرد حركة اللسان قليل الجدوى الا أن يتفضل الله بالقبول، وانما الواجب على العبد حسن الظن في ذلك الوقت.

المطلب الثالث
في حقيقة الموت وأحوال الميت

اعلم: ان للناس في أحوال الموت ظنوناً فاسدة؛ ظن بعضهم أنه هو العدم ولا حشر ولا نشر بل الموتى كالنبات وجفافها، هذا رأي الملاحدة وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر. وظن بعضهم أنه ينعدم بالموت ولا يتنعم ولا يتألم الى أن يعاد في وقت الحشر. وقال آخرون: الأرواح باقية وهي المثاب والمعاقب دون الأجساد وأنها لا تبعث ولا تحشر أصلاً. وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق.

والحق الذي نطقت به الآيات والأخبار أن الموت تغير حال لا عدم وان الروح باقية بعد مفارقة الجسد اما معذبة أو منعمة، ومعنى مفارقتها للجسد: انقطاع تصرفها في الجسد، ولا يبعد أن تعاد الى الجسد في القبر قدر ما يدرك اللذة والألم، ولا يبعد أن يؤخر الى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على عباده.

وأما نفسه وروحه فهي باقية، نعم تغير حالها من وجهين:

أحدهما: أنه بالموت سلب عن أمواله وأهله وسائر أحواله الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، أما سعيد الحال أو شقي البال.

وثانيها: أنه ينكشف له ما يضره أو ما ينفعه حسناته وسيئاته والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا؛ فاما يتنعم أو يتألم، وهذه أحوال تهجم عليه قبل الدفن.

وأما بعد الدفن فقد ترد روحه أما لنوع آخر من العذاب أو لنوع آخر من الثواب، ولو لم يكن له الا الخزي والافتضاح وهتك السر عند الموت لكفاه، ولكن وراءه أمور أخر لا يكاد يعبر عنه الألسنة.

وأما أن كان من أهل التنعيم ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالاضافة اليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم، فتح له باب الى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرف أقصاه، فيه أنواع الأشجار والأزهار والطيور والثمار فلا يشتهي العودة الى السجن المظلم.

وفي أحوال القبر ثلاثة مقامات:

أحدها؛ وهو الأسلم: أن يصدق بوجودها ولا يفتش عن كيفيتها.

وثانيها: أن يفتش عن أحواله، ويقيس ذلك الى نائم يرى في نومه ما يخافه أو يتنعم منه، ولا يقف عليه من يجاوره ولو في فراش واحد، ولا يخفى أن النوم أخو الموت.

وثالثها: أن الحية لا تعذب بل السم، وكذا السم لا يعذب بل المؤلم أثره،

وخلق الأمور بدون أسبابها العادية جائزة في قدرة الله تعالى، وكذا الحال في اللذة.

ثم أهل البصائر قد حكموا بامكان هذه الطرق الثلاث فصدق بهم تقليد، وأما من يعرف ذلك تحقيقاً فيعز على بسيطة الأرض. وعليك أن لا تشتغل بمعرفة تفاصيل العذاب، بل اللائق بك الاشتغال بالتدبير في دفع العذاب.

وان أردت معرفة كيفيات العذاب فعليك بمطالعة الأخبار والآثار، اذ معرفة ذلك في هذا العالم لا يمكن الا بمشاهدة بعين أخرى غير عين تشاهد بها عالم الملك والشهادة، ولكن الانسان جعل غشاوة على عينه التي يشاهد بها عالم الغيب من شهواته وأشغاله الدنيوية، فصار لا يبصر بها. ولما كانت أعين الأنبياء منقشعة عن الغشاوة شاهدوا تلك الأحوال وأخبروا بها، فتتبع ذلك من أخبارهم ومن هذه المشاهدة حال الرؤيا التي نراها في المنام اذ كثير منها توجد صحيحة.

والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علم المكاشفة وهي أمر عظيم، لكن الناس غافلون عنها.

واجمال القول فيها: ان النفس كالمرآة، ولوح الله تعالى مكتوب فيها جميع ما كان وما سيكون، لا على لوح من خشب أو حديد بل على شيء مجرد، لا بكتابة معهودة بل بنقش معنوي. ثم الحواس اذا تعطلت بالنوم ارتفع حجاب النفس، اذ لا حجاب لها غير الالتفات الى المحسوسات، فحينئذ يتقابل اللوح ومرآة النفس فتنتقش فيها صور اللوح. الا أن النوم لا يمنع الخيال عن عمله فيحاكي المعاني بمثال يقارب ذلك المعنى، فالمعبر انما يعبر عن الصورة الخيالية الى المعنى المأخوذ من اللوح فيحكم بجلية الحال.

ولنذكر مثالاً من التعبير: وهو أن رجلاً ذكر لابن سيرين: رأيت كان بيدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء، فقال: أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان، فقال: صدقت.

فانظر ان روح الختم المنع والنفس لما انتقش حاله من اللوح بأنه يمنع

الناس من الأكل والشرب والجماع، ولكن الخيال الف لمنع عند الختم بالخاتم مثله به في الصورة الخيالية، ثم لا يبقى في الحفظ الا هذه الصورة، فالمعبر اذا سمعها يعرف المناسبة بين هذه الصورة ومعناها فيعبر عن الصورة الى المعنى. فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا التي لا تنحصر عجائبه.

ثم أن الانسان عند موته ينكشف له الحجاب، فيرى نفسه اما محفوفة بالمخازي والانكال والفضائح، نعوذ بالله من ذلك، أو مكنوفاً بنعيم مقيم أو بملك كبير لا آخر له. فاعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر بباله قط ولا اختلج به ضميره، ولو لم يكن للعاقل هم ولا غم الا التفكر في خطر تلك الحالة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر.

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا، وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وأسبابنا ودابنا بل بأعضائنا واسماعنا وأبصارنا مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك، ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول له ما قال لسيد البشر صلى الله عليه وسلم: «أحبب ما أحببت فانك مفارقه، وعش ما شئت فانك ميت، واعمل ما شئت فانك مجزى به». فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له صلى الله عليه وسلم بعين اليقين، كان في الدنيا كعابر سبيل: لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً، ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً، نعم قال: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً؛ ولكن صاحبكم خليل الرحمن». فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه، وان حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعاً لخليل ولا حبيب. وقد قال صلى الله عليه وسلم لأمته: «ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله». وانما أمته من اتبعه، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة، فانه ما دعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله، وبقدر ما سلكت سبيله اتبعته، وبقدر ما اتبعته صرت من أمته؛ وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله فيهم: ﴿ فأما

من طغى وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى﴾[1].

ولو أنصفت من نفسك وانت من حين تصبح الى حين تمسى لا تسعى الا في الحظوظ العاجلة لم تطمع أن تكون غداً من أمته وأتباعه، فان ظننت هذا فأنت مصر على ما فعلت فما أبعد ظنك وما أبرد طمعك: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون﴾[2]. فنرجو الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه، و يتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده، انه جواد كريم رؤوف رحيم.

(١) سورة النازعات، آية: ٣٧.

(٢) سورة القلم، آية: ٣٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس موضوعات الجزء الثالث

و يتضمن

الطرف الثاني من الرسالة

في العلوم المتعلقة بالتصفية التي هي ثمرة العمل بالعلم

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفهارس العامة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

فهرس العلوم

الموضوع	الصفحة
علم الخواص	١:٣٤١-٣٤٢
علم خواص الاعداد المتحابة والمتباغضة	١:٣٧٤
علم خواص الأقاليم	١:٣٦٢-٣٦٣
علم خواص الحروف	٢:٥٤٧
علم الخواص الروحانية	٢:٥٤٨
علم دراية الحديث	٢:١١٣
علم دعوة الكواكب	١:٣٤٣-٣٤٤
علم دفع مطاعن الحديث	٢:٣٤٣
علم دفع مطاعن القرآن	٢:٥٥٠
علم الدواوين	١:٢١٧-٢٣١
علم ربع الدائرة	١:٣٦٧
علم رسم كتابة القرآن في المصاحف	٢:٣٣٦
علم الرقص	١:٣٧٦
علم الرقي	١:٣٤٢
علم الرمل	١:٣٣٦
علم رموز أقوال النبي وإشاراته	٢:٣٤٣
علم الرمي	١:٣٥٤
علم رواية الحديث	٢:٥٢
علم الريافة	١:٣٣١
علم الزهد والورع	٢:٥٥٢
علم الزيجات والتقاويم	١:٣٥٧-٣٥٨
علم السباحة	١:٣٥٥
علم السحر	١:٣١٤
علم السياسة	١:٣٨٦-٣٨٧
علم سير الصحابة والتابعين	١:٢٦١
علم السيمياء	١:٣١٦
علم الشامات والخيلان	١:٣٢٧

الموضوع	الصفحة
علم الشرح الحديث	٣٤١:٢
علم الشروط والسجلات	٢٤٩:١-٥٥٧:٢
علم الشعبذة والتخيلات	٣٤٥:١-٣٤٦
علم الصرف	١٢٧:١
علم صلاة الحاجات الواردة في الأحاديث	٥٥٣:٢
علم صور الكواكب	٣٦٠:١
علم الصيدلة	٣٢٤:١
علم الطب	٣٠٣:١
علم طب النبي صلى الله عليه وسلم	٣٤٤:٢
علم طبخ الأشربة والمعاجين	٣٢٤:١
علم طبقات الأطباء	٢٦٢:١
علم طبقات الحكماء	٢٦٢:١
علم طبقات الحنابلة	٢٦١:١
علم طبقات الحنفية	٢٦١:١
علم طبقات الشافعية	٢٦١:١
علم طبقات القراء	٢٦٠:١
علم طبقات المالكية	٢٦١:١
علم طبقات المحدثين	٢٦١:١
علم طبقات المفسرين	٢٦١:١
علم طبقات النحاة	٢٦٢:١
العلم الطبيعي	٣٠١:١
علم الطلسمات	٣١٦:١
علم الطيرة والزجر	٣٣٨:١
علم العدد	٣٤٩:١-٣٥٠
علم العرافة	٣٣٢:١
علم العروض	١٩٨:١
علم العزائم	٣٤٢:١-٣٤٣

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
علم الوضع	١٢٥:١
علم وضع الاسطرلاب	٣٦٦:١
علم وضع ربع الدائرة المجيب والمقنطرات	٣٦٦:١
علم وظائف الأمامة	٤٣:٣
علم وقائع الأمم ورسومهم	٢٤٧:١

فهرس أسماء الكتب

«أ»

«ب»

«ت»

«ث»

«ج»

«ح»

«خ»

«د»

«ذ»

«ر»

« ز »

« س »

«ش»

«ص»

«ض»

«ط»

«ظ»

«ع»

«غ»

«ق»

«ك»

«ل»

«م»

«هـ»

«و»

فهارس الأعلام والمؤلفين

«آ»

«أ»

«ب»

«ت»

(ث)

«ج»

«ح»

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

«ف»

«ق»

(ك)

«ل»

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهارس الأماكن والبقاع

(أ)

(ب)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)